

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٤١

جمال الدين يحيى بن عيسى

ابن مطروح

٥٩٢ - ٦٤٩ هـ

حياته وشعره

عميد كلية الدراسات العليا

نصير

إعداد

عمر وفيق عثمان صابر

إشراف

الاستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة

العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

رجب ١٤١٥ هـ

كاتون الأول ١٩٩٤ م

٩٨/٤

١٤١٥

قرار لجنة المناقشة

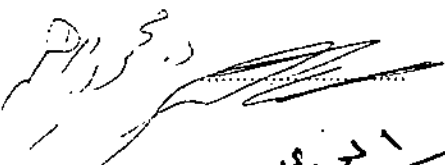
نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٢/٣١/١٩٩٤م وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة



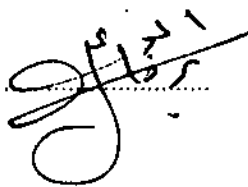
«رئيساً»

الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي



«عضواً»

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم



«عضواً»

الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

الإهداء

- ﴿ ربنا أننا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾
- إلى بيت المقدس الأسير الذي ينتظر الناصر القادر يا ذن الله.
 - إلى أرواح طاهرة أفتقدوها، والدي الحبيب، وشقيقي ياسر،
وولدي ياسر، رحمهم الله جميعاً.
 - إلى والدة متفانية، عينها على أبنائها، وعينها الثانية نرفو إلى
يافا تحمل أمل العودة.
 - إلى أشقاء وشقيقات أعزاء، يثلون نقاء الرحم وطهارة
الصدقات، ونبيل المصاهرة.
 - إلى زوجتي العزيزة، التي أعانت وصبرت وحملت معي العناء.
 - إلى أبنائي، زينة الحياة الدنيا، صديقتي، وغسان، وشهد.
 - إلى إخوة في الله سرت معهم وبهم إلى غاية سامية على أمل
القبول عند الله.

شكر وتقدير

بعد أن أعانني الله عزّ وجلّ على إنهاء هذا العمل، أجد من واجب ذكر الفضل لأهله، والوفاء لمن له حقّ ودينٌ في العنق، أن أزجي عميق شكري وتقديري، إلى أستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي على رعايته لي، وصبره العظيم، وما وهب لي من رأيٍ صائب، وعلمٍ غزير، ووقتٍ عزيز، فقد أحاطني بإشرافه المخلص، وتوجيهاته السديدة، إضافة إلى متابعته الدائمة من أجل الوصول إلى مخطوطات أصول الديوان، يزيته فوق ذلك كلّه حسن معشر، وجميل صحبة، وتفرد خلق.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر الموصول والدعاء إلى الله أن يحفظ أستاذي الجليلين: الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم، والأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، منارتي العلم، لتفضلهما بقبول مناقشة الرسالة وتصويب هياتها.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كل أساتذتي الأكارم، وإخواني الذين كان لجهدهم أكبر الأثر في إتمام البحث، وإلى كل من مدّ يد العون بالنصح أو الجهد أو تذليل العقبات، وأخصّ بالذكر: الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، والدكتور نوفان الحمود، والدكتور الصديق مصطفى جعفري، والدكتور عبد الله الخباص.

وأتوجه بالشكر إلى كل من السادة: حسان عبد المنان، وعمر البجاوي، ومحمد الدروبي، وعمر دعسان.

والشكر كل الشكر لأخي وصديقي محمد صبحي أسعد، على حسن صحبته وصدق نصحه.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى السيد أمير محمود زيدان السفاريني صاحب مؤسسة أمير للكمبيوتر، والأخ محمد مصطفى أبو عبيد على ما بذلاه من جهد وتعاون في طباعة هذه الرسالة وإخراجها.

والحمد لله رب العالمين.

فهرست الموضوعات

| الصفحة | الموضوع |
|---------|------------------------------------|
| ب | قرار لجنة المناقشة |
| ج | الإهداء |
| د | شكر وتقدير |
| هـ - ز | فهرست الموضوعات |
| ح - ط | الملخص باللغة العربية |
| ١ - ٥٢ | الفصل الأول |
| ١ | المقدمة |
| ٧ | حياة جمال الدين بن مطروح |
| ٨ | سيرته : اسمه ونسبه وكنيته |
| ٩ | مولده ونشأته |
| ١٢ | أسرته |
| ١٣ | اتصالاته |
| ٢١ | دوره السياسي وتقلاته ورحلاته |
| ٢٨ | ابن مطروح وتحرير القدس |
| ٣٢ | ابن مطروح في نيابة دمشق |
| ٣٣ | تغير الصالح نجم الدين عليه |
| ٤٢ | ثقافته |
| ٥٢ | وفاته |
| ٥٣ - ٨٦ | الفصل الثاني : مصادر شعر ابن مطروح |
| ٥٥ | (أ) الديوان المطبوع |

| | |
|----------|--------------------------------------|
| ٥٨ | ب) نسخ مخطوطات الديوان |
| ٥٨ | - كوبريلي = ك |
| ٦٠ | - المتحف البريطاني = ط |
| ٦٣ | - ما نشيستر = ش |
| ٦٤ | - برلين = ل |
| ٦٧ | - جداول شعر ابن مطروح |
| | أ، ب، ج |
| ٦٨ | - جدول أ |
| ٧٢ | - جدول ب |
| ٧٣ | - جدول ج |
| ٧٧ | ج) شعر ابن مطروح في المصادر الأخرى |
| ٧٩ | - ملحوظات هامة على |
| | جداول الشعر |
| ٨١ | د) اختلاط شعر ابن مطروح بشعر غيره |
| ٨٦ | - خلاصة |
| ٨٧ - ٢١٤ | الفصل الثالث : موضوعات شعر ابن مطروح |

| | |
|-----|---------------------|
| ٨٨ | أ) شعر الجهاد |
| ١٠٩ | - الشعر الديني |
| | - فنون شعرية أخرى : |
| ١٢٣ | المديح |
| ١٤٤ | الغزل |
| ١٨٢ | الفخر |
| ١٨٩ | الوصف |
| ١٩٧ | الهجاء |
| ٢٠٦ | الإخوانيات |

| | |
|-----|---|
| ٢١٥ | التجربة الشعرية |
| ٢١٩ | بناء القصيدة |
| ٢٣٠ | اللغة والأسلوب |
| ٢٤٠ | الفنون البيعية |
| ٢٤٦ | الصورة الشعرية |
| ٢٥٢ | الخاتمة |
| ٢٥٦ | ثبت المصادر والمراجع |
| | الملخص باللغة الإنجليزية |
| | ملاحق شعر ابن مطروح |
| | أ- شعر ابن مطروح الموجود في نسخة الجوائب المطبوعة، ومخطوطات كويريلي، وما نشيستر، والمتحف البريطاني. |
| | ب- شعر ابن مطروح في مخطوط مسالك الأبصار |
| | ج- شعر ابن مطروح في كتاب نيل مرآة الزمان. |

الملخص

جمال الدين ابن مطروح حياته وشعره

إعداد

عمر وفيق عثمان صابر

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق عددٍ من الأهداف يمكن إبرازها فيما يلي :
دراسة الفترة التي عاشها الشاعر منذ ولادته ((٥٩٢ هـ)) حتى وفاته ((٦٤٩ هـ)) ومدى تأثره بها وبأحداثها. وتبين أبرز الأغراض الشعرية التي نظم بها الشاعر من شعر جهاد، وشعر ديني، ومديح، وغزل، ووصف، وهجاء، وشعر إخواني، ودراستها دراسة تحليلية نقدية.

وقد قامت خطة هذه الدراسة على دراسة النصوص من الداخل مع محاولة تطبيق المنهج التكاملي بوصفه يمكنني من الإفادة من مختلف المناهج. كما قامت منهجية هذه الدراسة على استقراء شعر ابن مطروح، وتبين الموضوعات والأساليب الفنية التي قام عليها شعره، ومحاولة دراسة حياته من شعره ومن مصادر ترجمته المختلفة.

وتتكون الدراسة من أربعة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن حياة الشاعر فتناولت الحديث عن اسمه ونسبه، وكنيته، ومولده، وأسرته، وبيئته الأولى، واتصالاته، إضافة إلى ثقافته، ورحلاته، وختمت الفصل بالحديث عن أخريات أيامه ووفاته.

أما في الفصل الثاني فقد تناولت الحديث عن مصادر شعر ابن مطروح، وأشرت فيه إلى أن أول محاولة لجمع شعر الشاعر في ديوان، قام بها الشاعر نفسه في أخريات أيامه سنة ((٦٤٨ هـ)) في القاهرة. كما تحدثت في هذا الفصل عن ديوان الشاعر المطبوع في القسطنطينية سنة ((١٢٩٨ هـ)) بمطبعة الجوائب، وقام بنشره مصحح إدارة الجوائب ((يوسف النبهاني)) وهي النسخة الوحيدة المطبوعة لديوان الشاعر، اشتملت على ((٨٢٧)) بيت من الشعر، وأشرت إلى أن قسماً كبيراً من شعر الشاعر قد

توزع في أربع مخطوطات هي : مخطوطة برلين، ومخطوطة ما نشيستر، ومخطوطة المتحف البريطاني، ومخطوطة كوبريلي. فقامت بدراسة هذه المخطوطات وذكرت معلومات وافية عن كل مخطوطة، وقابلت بعضها مع بعض، وأثبتت التطابق والتباين بين نسخها، ثم ذكرت بعض المصادر التي ترجمت للشاعر وأوردت له شعراً لم يرد في نسخ المخطوطات. كما تناولت الحديث في هذا الفصل عن اختلاط شعر ابن مطروح بشعر غيره، ونسبت كل شعر إلى قائله، فأثبت ما كان لشاعرنا وتركت ما كان لغيره.

وتناولت في الفصل الثالث موضوعات شعر ابن مطروح، فتحدثت عن الفنون الشعرية التي نظم بها الشاعر من شعر الجهاد، والشعر الديني، وفنون شعرية أخرى كشعر المديح، والغزل، والفخر، والوصف، والهجاء، والشعر الإخواني.

وكان الفصل الرابع محاولة لدراسة شعر الشاعر دراسةً فنيةً، فتحدثت عن تجربته الشعرية وما لها من دور في إثراء شعره، وبناء القصيدة عند شاعرنا، ثم تحدثت عن لغته الشعرية وأسلوبه وطرائق استعمالاته للأساليب التعبيرية.

وفي النهاية ختمت الدراسة بإضافة غير مسبوقه لمجموعة من أشعار الشاعر، خلت منها طبعة الجوانب، تصل إلى أكثر من ((٦٠٠)) ستمائة بيت من الشعر، وهي إضافة جديرة بالتنويه والذكر، إذا ما ذكرنا أن مجموع أشعار الشاعر في الديوان المطبوع ((٨٢٧)) ثمانمائة وسبعة وعشرون بيتاً من الشعر.

الفصل الأول

مَقْدَمَةٌ

الحمد لله الذي بنعمته تدوم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رفيع الدرجات، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فقد عاش شاعرنا «جمال الدين ابن مطروح» في النصف الأول من القرن السابع الهجري، في فترة شهدت استمرار الصراع بين الأمة الإسلامية في مصر والشام وبين الصليبيين الذين بدأوا غزوهم لبلادنا منذ أواخر القرن الخامس الهجري بهدف السيطرة على المركز الديني والاستراتيجي وخيرات البلاد، ونتج عنه احتلال بيت المقدس وغيرها من بلاد الشام، وظلت أوار الحرب مستعرة زهاء قرنين من الزمان تخللها تحرير بيت المقدس على يد القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي سنة «(٥٨٣ هـ)»، الذي استطاع بجهوده المتواصلة أن يقيم دولة رفرق علمها في قوة وثبات على ربوع الجزيرة العراقية والشام، ومصر، والحجاز، واليمن إلى أن توفاه الله، ثم تولّى الحكم بعده أخوه العادل. وفي عهده وُلد ابن مطروح سنة «(٥٩٢ هـ)» في أسيوط من صعيد مصر، وتفتحت عيناه على رحى معارك تدور بين المسلمين والفرنج، زها فيها شاعرنا أديباً وشاعراً، وقضى الكثير من سنّيه جوالاً، إذ عاش في بلاط والي الصعيد «اللمطي» ردهاً من حياته الأولى لينتقل بعد ذلك إلى القاهرة في بلاط بني أيوب باقي أيام حياته.

ويرافق ابن مطروح جيش المسلمين بقيادة الكامل الذي تصدّى للفرنجية حين دخولهم أرض مصر ووصولهم إلى دمياط، وهزيمتهم على يد جيش المسلمين في سنة «(٦١٨ هـ)»، ويشهد ابن مطروح المنازعات التي وقعت بعد ذلك بين الكامل الأيوبي وبين أسرته وهي التي دفعته إلى أن يستعدي الإمبرطور الفرنجي عليهم، ويوافق الإمبرطور شريطة أن يتسلم بيت المقدس ثمناً لتأييد الكامل، وتقع المصيبة ويتسلم الفرنج القدس فعلياً سنة «(٦٢٦ هـ)»، ثم قدر الله لابن مطروح أن يشهد تحرير بيت المقدس ثانية على يد الناصر داود سنة «(٦٣٧ هـ)»، ويسجل ابن مطروح الحدث شعراً.

ولعلّ مزايا الشاعر وشعره هي التي دفعتني إلى أن أكتب عنه إذ أنه لم يحظَ من العناية والدراسة بمثل ما حظي به معاصروه من الشعراء، كما ساهمت قلة الكتابات عن ابن مطروح في تشجيعي على عمل هذا البحث، ومما له أثرٌ كبير في اختياري لهذا البحث أنني لم أجد فيما وصل إليهِ علمي دراسةً متخصصةً تناولت هذا الشاعر، لذلك فإنني رأيتُ سدّ تلك الثغرة والنهوض بتلك المهمة، فعقدت العزم على الكتابة بعد أن ألفتُ الأمر قد لاقى قبولاً واستحساناً وتشجيعاً من شيعي وأستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الذي رعى هذا البحث عندما كان فكرةً إلى أن غداً واقعاً.

ومن الأهداف التي وضعتها نصب عيني وأنا بصدد هذه الدراسة ما يلي :

- دراسة الفترة التي عاشها الشاعر منذ ولادته ((٥٩٢ هـ)) وحتى وفاته ((٦٤٩ هـ)) ومدى تأثير شعره بها وبأحداثها.

- تبين أبرز الأغراض الشعرية التي نظم بها الشاعر من شعر جهاد وشعر ديني ومديح وغزل، وفخر، ووصف، وهجاء، وشعر إخواني، ودراسة تحليلية نقدية.

وقد قامت خطة هذه الدراسة على دراسة النصوص من الداخل مع محاولة تطبيق المنهج التكاملي، بوصفه يمكّني من الاستفادة من مختلف المناهج، وبهذا قامت منهجية هذه الدراسة على استقراء شعر ابن مطروح وتبيين الموضوعات والأساليب الفنية التي قام عليها شعره، ومحاولة دراسة حياته من شعره ومن مصادر ترجمته المختلفة.

وجاء هذا البحث في أربعة فصول تحدّثت في الفصل الأول عن حياة الشاعر، فتناولت الحديث عن اسمه ونسبه وكنيته ومولده وأسرته وبيئته الأولى واتصالاته، إضافةً إلى ثقافته ورحلاته، وختمت الفصل بالحديث عن أخريات أيامه ووفاته.

وتناولت في الفصل الثاني مصادر شعر ابن مطروح، وأشارت فيه إلى أن أول محاولة لجمع شعر الشاعر في ديوان، قام بها الشاعر نفسه، في أخريات أيامه سنة ٦٤٨ هـ، في القاهرة. كما تحدّثت في هذا الفصل عن ديوان الشاعر المطبوع

في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ بمطبعة الجوائب، و قام بنشره مصحح إدارة الجوائب يوسف النبهاني، ويجدر أن أشير إلى أن هذه هي النسخة الوحيدة المطبوعة لديوان الشاعر، وحصلت على نسخة منها من مكتبة الجامعة الأردنية، وقد اشتملت على (٨٢٧) بيتاً من الشعر، ومما يحسن أن أشير إليه أن شعر الشاعر قد توزع في أربع مخطوطات في برلين وما نشيستر والمتحف البريطاني وكوبرلي، وقد استغرق الحصول على هذه المخطوطات جهداً ووقتاً كبيرين استنفذت أربع سنوات من المراسلات والمتابعات الإدارية إلى أن حصلت عليها جميعاً.

أما نسخة مخطوط كوبرلي ذات الرقم (١٢٦٦)، فقد حصلت عليها بمساعدة الأخ الدكتور مصطفى جعفري - بارك الله فيه - وبعد الدراسة والتدقيق فيما اشتملت عليه النسخة من أصول شعرية لابن مطروح تبين لي أنها أصلٌ لنسخة الجوائب المطبوعة التي سبق أن أشرت إليها.

ثم تليها نسخة المتحف البريطاني ذات الرقم (١٠٧٣ ثان) وقد حصلت عليها بالتعاون مع مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية بعد أن تفضل أستاذي المشرف الدكتور عبد الجليل عبد المهدي بتوجيه كتاب إلى المركز يطلب فيه المساعدة في الحصول على نسخ مخطوطات الديوان، وبعد الحصول على هذه النسخة المؤرخة بتاريخ ١٠٨٨ هـ ودراستها دراسة معمقة لم أجد فيها ذكراً لاسم الناسخ ومكان نسخها. واشتملت هذه النسخة على (٥٣٣) بيتاً من الشعر، وقد زادت هذه النسخة على نسخة الجوائب بـ (٣٢٥) بيتاً، لم ترد في طبعة الجوائب.

ونسخة ما نشيستر ذات الرقم (A ٤٦٤) وبعد الدراسة والتدقيق وقيمتُ على أنها منقولة عن نسخة المتحف البريطاني بسبب طريقة كتابتها وترتيب قصائدها وتطابق عدد أبياتها تقريباً وبلغ عددها (٥٢٦) بيتاً.

وتميّزت نسخة متحف برلين ذات الرقم (٧٧٥٥ - ٧٧٥٤) بأنها أكثر النسخ في عدد أبياتها إذ اشتملت على (١٥٧٣) بيتاً، تطابقت مع نسخة الجوائب بما يقرب من (٤٠٦) أبيات، وزادت على الديوان المطبوع المعروف بنسخة الجوائب بـ (١١٦٧) بيتاً. وقد استخدمت الرموز التالية للاختصار والتدليل على أسمائها :

| | | |
|---|---|------------------|
| ج | = | الجوائب |
| ك | = | كوبريلي |
| ط | = | المتحف البريطاني |
| ش | = | ما نشيستر |
| ل | = | برلين |

ومن الجدير قوله وأنا بصدد الحديث عن مصادر شعر الشاعر أنني عثرت على ترجمة وافية لابن مطروح في مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، أورد فيها المؤلف أشعاراً كثيرة لابن مطروح تصل إلى (٤٠٠) بيت من الشعر، منها (١٠٠) بيت انفرد فيها العمري عن سائر نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة، كما انفرد اليونيني صاحب ذيل مرآة الزمان بـ (١٠٠) بيت أخرى لم ترد في نسخ الديوان. وبذا يكون مجموع الشعر الذي قمتُ بجمعه لابن مطروح (٢٥٠٠) بيتاً من الشعر، يعادل ثلاثة أمثال شعره المطبوع.

وظهر لي من خلال البحث اختلاط بعض شعر ابن مطروح بشعر غيره، فتتبعْتُ تلك المواضع، ودققت النظر فيها، ونسبتُ كلَّ شعرٍ إلى قائله، معتمداً على ما ظهر لي من قرائن، علماً بأن عدد الأبيات المختلف في نسبتها لابن مطروح مع غيره لا تصل إلى (١٠٠) بيت.

وتناولت في الفصل الثالث موضوعات شعر ابن مطروح، فتحدثت عن الفنون الشعرية التي نظم بها الشاعر من شعر الجهاد والشعر الديني وفنون أخرى من المديح والغزل والفخر، والوصف، والهجاء، والشعر الإخواني.

وكان الفصل الرابع محاولةً لدراسة شعر الشاعر دراسةً فنيّة، فتحدثتُ عن تجربته الشعرية وما لها من دور في إثراء شعره. وبناء القصيدة عند شاعرنا، ثم تحدثتُ عن لغته الشعرية، وأسلوبه وطرائق استعماله للأساليب التعبيرية.

وقد اعترضتني في أثناء البحث مشكلات لعل أهمها انخفاض مستوى التعاون لدى بعض مراكز المخطوطات، إضافةً للتكلفة المالية الباهظة للحصول على النسخ المطلوبة.

أما المصادر والمراجع التي اعتمدها هذه الدراسة فقد تنوعت بين قديمة وحديثة ومخطوطة ومطبوعة، على أنني اعتمدت في المقام الأول على ما وصل إلينا من شعر ابن مطروح.

ومن المصادر القديمة المخطوطة التي انكأ عليها، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري.

وأما المصادر المطبوعة فهي وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، وتأتي أهمية هذا المصدر من أن مؤلفه كان معاصراً وصديقاً لابن مطروح، لازمه ونادمه في العديد من الأماكن. يضاف إلى هذا المصدر ثلاثة مصادر أساسية هي مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، وتأتي أهمية هذا المصدر أن مؤلفه كان معاصراً للشاعر وسار معه في الوساطة بين الصالح نجم الدين وأخيه العادل بن الكامل. والمصدر الثاني هو مفرج الكرب في أخبار بني أيوب لابن واصل، الذي ترجم لابن مطروح. وأما المصدر الثالث فهو ذيل مرآة الزمان لليونيني، وتكمن أهمية هذا المصدر باهتمامه على ترجمة وأفية وذكر مستفيض للشاعر، إضافة إلى تفرده بشعر للشاعر لم يرد في المصادر الأخرى.

يضاف إلى هذه المصادر عددٌ من المصادر التي تجمع بين التاريخ والأدب، وأهمها البداية والنهاية لابن كثير، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي الأتابكي.

ومن المراجع الحديثة التي أفدت منها :

كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام للدكتور أحمد بدوي، والحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى للدكتور سعيد عاشور، وكتاب الأدب في العصر الأيوبي للدكتور محمد زغلول سلام، وكتاب صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم، ومجموعة كتب الدكتور عبد الجليل عبد المهدي مثل الحياة الأدبية في بلاد الشام في القرن الخامس الهجري، وبيت المقدس في أدب الحروب

الصليبية، وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، وكتاب شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام للدكتور محمد علي الهرفي.

والله تعالى أسأل أن أكون قد وُفِّتُ في قصدي وممن حازوا إخلاص النية بطلب العلم ابتغاء وجهه الكريم، فإن أصبت فمن توفيق الله لي، وإن أخطأت فمن نفسٍ ضعيفة، ولي أجر المجتهد إن شاء الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عمر وفيق عثمان صابر

حياته

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته وأسرته
- اتصالاته
- ثقافته
- وفاته

بسم الله الرحمن الرحيم

«أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين المعروف بابن مطروح» (١) .
ورد اسمه في شعره كما يبدو في قوله :

بعيشك حدت العشاق عني وشافهم بما أبصرت مني
فإن سألوك فقل فارت يحيى يموت جوى ويحيى بالتمني (٢)

- (١) ابن مطروح - جمال الدين يحيى بن عيسى المصري (٥٩٢-٦٤٩هـ) / ديوانه / ط١ / مطبعة الجوانب / القسطنطينية / ١٢٩٨هـ. ص ١٧١ ، وديوانه ل ق١ / ١ / ٦٦ . انظر : ابن خلكان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر ٦٠٨ - ٦٨١هـ / وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / تحقيق إحسان عباس / دار صادر / بيروت / ١٩٧٣ . (٢٥٨:٦) . اليونيني - قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد البعلبكي الحنبلي ت ٧٢٦ / ذيل مرآة الزمان / ط١ / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند / ١٩٥٤ / (١٩٧:١) . الذهبي - محمد بن أحمد الحافظ - ت ٧٤٨هـ / العبر في خبر من عبر - تحقيق أبي هاجر . السعيد بن بسويون زغلول / دار الكتب العلمية / بيروت / ١٩٨٥ / ٣ : ٢٦٤ . الذهبي - محمد بن أحمد الحافظ - ت ٧٤٨هـ / سير أعلام النبلاء / ج ٢٣ / تحقيق : د. بشار عواد معروف و د. محيي الدين هلال السرحان / مؤسسة الرسالة / بيروت / ١٨٨٥ / ٢٣ : ٢٧٣ . الملك الأشرف النسائي (٧٦١-٨٠٣هـ) / الصجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك / تحقيق شاكِر محمود عبد المنعم / دار التراث الإسلامي - بيروت ودار البيان - بغداد / ١٩٧٥ / ص : ٥٨٥ . ابن تغري بردي - جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣-٨٧٤هـ) / النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / طبعة مصوره عن طبعة دار الكتب / وزارة الثقافة والإرشاد القومي مع المؤسسة المصرية / القاهرة / ؟ / ٢٤:٧ . السيوطي - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ / حسن المحاضرة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / ط١ / دار إحياء الكتب المصرية عيسى البياي الحلبى وشركاه / القاهرة / ١٩٦٧ / ١ : ٥٦٧ . حاجي خليفة - مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الشهير بالملا كاتب الجبلي (١٠١٧ - ١٠٦٧هـ) // كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون / دار الفكر / بيروت / ١٩٨٢ / ١ : ٧٦٨ . ابن العماد الحنبلي - أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ / شذرات الذهب في أخبار من ذهب / دار الآفاق / بيروت / ؟ / ٥ : ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- (٢) ديوان ابن مطروح ل ق١ ٢٠ - ٢١ ، و ط١ ق ١٦ وهي من القصيدة التي مطلعها (بديع الحسن كم هذا التجني).

وقد ورد اسمه في شعر معاصريه ومنهم البهاء زهير^(١) ، وشرب ابن مطروح دواءً فكتب له :

سلمت من كل ألمٍ ودمت موفورَ النعمِ
في صحبةٍ لا ينتهي شبابها إلى هرمِ
يحيا بك الجودُ كما يموتُ يا يحيى العدمُ^(٢)

وقوله:

من مبلغ عني المليك الأروعا عن عبده يحيى مقالاً مقنعا^(٣)

وورد اسمه في شعر مذهب الدين بن الخيمي^(٤) ، أيام كان على ديوان المواريث ، كما يبدو في ردّه على رسالة لابن مطروح :

كان ابن مطروح أقام ابن أحمد* وأحياه من بعد البلى وابن فارس*^(٥)

(١) البهاء زهير (٥٨١-٦٥٦هـ) صاحب الأوجد بهاء الدين زهير بن محمد بن علي الأردني المهلبني المكي ثم القوسي الكاتب، له ديوان شعر مشهور وشعره رائع، سمع من علي بن الكرم، وكتب الإتشاء للسلطان الملك الصالح ثم الآخر أبعدته ونبذته، وفي أواخر أيامه افتقر وياع كتبه، وكان ذا مكارم وأخلاق، توفي في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة. انظر الوفيات ٢ : ٣٣٢. وسير أعلام النبلاء ٢٣ : ٣٥٦.

(٢) البهاء زهير / ديوانه / ص ١٨٤ / إدارة الطباعة المنيرية / القاهرة / ؟ .

(٣) ديوان ابن مطروح ص ١٨٤ ، وانظر ك : ق : ٩-١٠ .

(٤) مذهب الدين بن الخيمي (٥٤٩ - ٦٤٢ هـ) أبو طالب محمد بن أبي الحسن علي بن علي بن المفضل ابن التمامغاز، توفي في القاهرة وكان إماماً في اللغة راوية للشعر والأدب . وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٢ .

(٥) ديوان ابن مطروح ١٩٦ - ١٩٧ ، وانظر ل . ق ٦٠ .

* وابن أحمد المقصود هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٠ هـ) إمام اللغة ، وواضع علم العروض وأستاذ سيبويه . (وفيات الأعيان ٢ : ٢٤٤) .

* ابن فارس المقصود : أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ) كان إماماً في علوم شتى ، خصوصاً اللغة، وله العديد من المؤلفات . (وفيات الأعيان ١ : ١١٨) .

وكان ابن مطروح يوصف بأنه : «الصاحب الأمير- الإمام الكبير جمال الدين يحيى بن مطروح» (١) .

مولده ونشأته :

« ولد ابن مطروح بأسيوط (٢) في يوم الاثنين ، الثامن من رجب سنة ٥٩٢ هـ » (٣) . ولا تسعفنا المصادر كثيراً بإلقاء الضوء على أسرته نسباً ، وأشخاصاً ، وأسماءً ، إلا القليل من الأخبار الواردة ، أو ما تتأثر في شعره ، أو مقدمات بعض قصائده ، فما لدينا يشير إلى أنه قد عاش نشأته الأولى في قوص (٤) قرب أسيوط في صعيد مصر ، وقد كان لنشأته هناك أثرٌ كبير في حياته ، فكانت قوص حاضرة الصعيد ، ومحط تجارة اليمن والجنوب ، وكانت « كثيرة المدارس » (٥) ، كبيرة ، وقد ذكرها العديد من المؤرخين والأدباء ، وبينوا « أنها كانت مدينة كبيرة بها أسواق جامعة وتجارات » (٦) ، « وأنها مدينة حافلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق ، وكثرة الصادر والوارد من

(١) ديوان ابن مطروح ص ١ ، وانظر ك ق ٢ ، وفیات الأعيان ٦ : ٢٥٨ ، مرآة الزمان ٨ : ٧٨٨ . سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزواغلي التركي ، ت ٦٥٤ هـ / ١ ط / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند / ١٩٥٢ م - ١٣٧١ هـ . ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د. حسين محمد ربيع ، مراجعة سعيد عاشور / ٢٤٨ / دار الكتب / القاهرة / ١٩٧٧ م . وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٧ ، العبر ٣ : ٢٦٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٧٣ .

(٢) أسيوط : المدينة المعروفة في صعيد مصر ، تقع في منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان ، انظر ياقوت الحموي- شهاب الدين أبي عبد الله - ت ٦٢٦ هـ / معجم البلدان / دار صادر / بيروت / ١٩٧٩ / مادة " أسيوط " .

٤٤٥٤٤٧

(٣) وفیات الأعيان ٦ : ٦٦٦ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠١ ، العبر ٣ : ٢٦٤ ، شذرات الذهب ٥ : ٢٧٤ . (٤) قُوص : بالضم ثم السكون وصاد مهملة ، قبطية ، مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قسبة صعيد مصر بينها وبين القسطنطين اثنا عشر يوماً ، وأهلها أرياب ثروة واسعة ، وهي محطة التجار القادمين من عدن .. وهي شديدة الحرارة لقربها من البلاد الجنوبية ، وبينها وبين قِطْط فرسخ ، وتقع شرقي النيل . (معجم البلدان ، ياقوت مادة " قوص " ، وانظر الألفوي - أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي ت ٧٤٨ هـ / الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد/تحقيق سعد محمد سعد ، مراجعة الدكتور طه الحاجري/الدار المصرية للتأليف والترجمة / ١٩٦٦ م / مادة " قوص " .

(٥) معجم البلدان - ياقوت ٤ : ٤١٣ .

(٦) الطالع السعيد : حاشية ص ١٣ - ١٤ .

الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندرانيين ومن يتصل بهم))، وكانت منبع العلم والعلماء، وإليها ينسب البهاء زهير^(١) وإزاء ذلك، فلا غرابة أن نرى فيها نهضة علمية وأدبية تصل مع الوافدين إليها.

وقد ذكر الأدفوي^(٢) تراجم لعشرات الرجال من قوص من سياسيين وعلماء...،^(٣) وأورد شعراً يذكر فيه قوص :

| | |
|-----------------------|--|
| انزل بقوصَ فإنما | هي منزلُ الفَطينِ الحكيمِ |
| واشربُ مياهاً قد أتتْ | من طيبِ جناتِ النعيمِ |
| رقتْ وراقتْ فاحسُها | يا صاحِ في الليلِ البهيمِ ^(٤) |

ويقول شاعر آخر :

لهفي على قوص ولو أنني
أكونُ من حراسِ أبوابها^(٥)
ومن مشاهير الأسماء التي ترد ذكرها آنذاك في الفترة التي عاشها ابن مطروح :
نجم الدين القمومي^(٦) ، وإسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري القوصي^(٧) ،
وعبد الرحمن بن عبد الوهاب بن الحسن بن علي أبو القاسم «التركي القوصي»^(٨)

(١) تقدمت ترجمته .

(٢) الطالع السعيد .

(٣) نفسه ١٣-١٩، ٦٣، ٨١، ١٥٠ .

(٤) نفسه ١٥ .

(٥) نفسه ١٤ ، وينسب الشعر لتاج الدين الدشناني أحمد بن عبد الرحمن (٦١٥ - ٦٧٧) .

(٦) نجم الدين القمومي (٦٤٥-٧٢٧ هـ) فقيه شافعي ، تعلم بقوص وولي نيابة الأحكام والتدريس بعدة مدن ، والحكم والحسبة بالقاهرة ، له مقدمة ابن الحاجب في النحو . (الطالع السعيد ٦٣) .

(٧) إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي القوصي (٥٧٤ - ٦٥٣ هـ) ولد بقوص وتوفي بدمشق وكان وكيل بيت المال فيها وإليه تنسب المدرسة القوصية بها، له تاج المعاجم (الطالع السعيد ٨١).

(٨) عبد الرحمن بن عبد الوهاب - التركي القوصي - كاتب من الشعراء من أهل قوص بمصر ، تعرف في القاهرة الملك المظفر صاحب حماة قبل أن يتولاها واستوزره المظفر سنة ٦٢٦ هـ ، وقد عاش سنة ٦٣١ هـ .

وعبد الرحمن بن علي بن الحسين بن إسحق الأموي الإنساني القوصي (١)، وزهير بن محمد المهلب الميعرف بالبهاء زهير (٢) .

يضاف إلى هذا العشرات من المشاهير الذين لا مكان لذكورهم هنا (٣).

ويروي الأديوي حكاية في عيد من الأعياد لها دلالتها على الحركة الأبية في قوص، وتذهب تلك الحكاية إلى أن خمسة وعشرين شاعراً امتدحوا القاضي بهذه المناسبة، وكان في قوص من الشعراء من لا يرضى بمدح القاضي، وكان التشيع بها كثيراً ثم قل أو فقد (٤). وكان في قوص ستة عشر مكاناً للتدريس، وبأسوان ثلاثة، وبأسنا مدرستان وبالأقصر مدرسة (٥).

في هذا الجو، عاش ابن مطروح حياته الأولى هناك، ولذا، ليس غريباً إن رأينا ابن مطروح قد برع في الأدب (٦)، وفي قوص كان ابن مطروح يلتقي مع معاصريه الأدياء والشعراء فيها.

وتبدأ قصة صداقته مع البهاء زهير، ويصبح كثير الصحبة له، ويشترك معه في الفضيلة ومكارم الأخلاق (٧).

ويقيم ابن مطروح في قوص مدة، ولم تذكر لنا المصادر الكثير عن تفاصيل نشأته الأولى والظروف الخاصة التي أحاطت به آنذاك، سوى الحديث عن اتصاله بالبهاء زهير والأمير ابن اللمطي (٨).

(١) عبد الرحمن الإنساني القوصي (٥٥٠-٦٢٥هـ) صاحب ديوان الإنشاء للملك المعظم عيسى. ولد ونشأ بقوص، وولي ديوان الإنشاء بقوص ثم في الإسكندرية ثم بالقدس، ثم وليه للملك المعظم عيسى ووزر له، توفي بدمشق، له كتب منها (معالم الكتابة ومقام الإصابة) وله شعر جيد. انظر الطالع السعيد ١٦٠ / بيروت / ١٩٧٣ / ١ : ٢٦٩ .

(٢) تقدمت ترجمته .

(٣) انظر : الطالع السعيد ١٦، ١٧، ١٨، ٦٥، ٨٠، ٨١ .

(٤) نفسه ٤١ .

(٥) نفسه ٤٤ .

(٦) العبر ٣ : ٢٦٤ .

(٧) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٧ .

(٨) الأمير مجد الدين إسماعيل اللمطي الذي تولى أعمال قوص والصعيد في ذي القعدة سنة ٦٠٦ - انظر

ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٨ .

أسرته :

يكاد الغموض يكتنف حياة ابن مطروح الخاصة، فإننا لا نجد إلا القليل من الإشارات التي يمكن أن تفيدها فيما نحن بصدد الحديث عنه، في شعره أو في غيره من المصادر المختلفة، ومن ذلك قوله مخاطباً زوجته عندما قلق وتخوف في أخريات أيامه ، فأنكرت ذلك عليه فقال :

وقائلة ماذا التخوف كله من الله وهو المنعم المتفضل
فقلت لها علمي بما قد جنيتُه وإني عليم حين أقدمُ أسألُ
فقلت إذا فكرت في يومٍ موقفٍ يهونُ عليك الأمرُ جداً ويسهلُ (١)

لا نعرف كثيراً عن زوجته هذه ، ولم تحدثنا عنها كتب التراجم ولم يذكرها ابن مطروح في شعره.

ويمكن أن يقال مثل هذا عن ابنه الحسين أو أبنائه ، إذ إننا لا نجد ذكراً لهم في شعره .
ويذكر ابن مطروح بعض أقاربه في شعره ، ففي مقدمة أبيات له « وكتب بها إلى ابن عمه صدر الدين بن مطروح محاجياً في طرايح » (٢) ، يقول :

يا بصيراً بالمعمى وخبيراً بالأحاجي

وكل الذي نفيده من الخبر السابق أن صدر الدين هو ابن عم الشاعر ، وأن بينهما مراسلات ، وهذه المراسلات فيها ملح وأحجيات ، وقد يُستدل منها أن ابن عمه كان صاحب أدب وعلم إذ نراه يخاطبه بقوله :

يا بصيراً بالمعمى وخبيراً بالأحاجي (٣)

وورد في خبر آخر في مقدمة أبيات له :
وقال أيضاً وأملاه على عز الدين علي بن غياث القرشي (٤) قريبه، فمما أملاه يوم الخميس تاسع رجب سنة ٦٤٨ هـ بالقاهرة (٥) .
يدعو هذا الخبر إلى عدد من التساؤلات :

(١) الديوان ٢١٥ ، وانظر ك . ق ١/٢٦ ، ل : ق ٢/٦٥ .

(٢) نفسه ج ٢٠٠ ، وانظر ك ٢/١٨ .

(٣) نفسه ج ٢١٥ ، وانظر ك ١/٢٦ ، ل ٢/٦٥ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) انظر : الديوان ج ٢١٣ ، وانظر ل ١/٦٥ ، ك ٢/٢٤ .

- ما قرابة عز الدين هذا من ابن مطروح؟ وهل هو قريب من جهة أبيه أو من جهة أمه؟

- هل كان ابن مطروح قرشياً؟ إذ يدل الخبر السابق على أن عز الدين كان قرشياً، ولو صح أنه كان كذلك لعرفنا سبب ارتباطه بقوة بالبهاء زهير إذ كان البهاء قرشياً.

- هل كان عز الدين شاعراً أم أنه كان ممن يحبون الشعر ويكتبونه؟

ولعل الخبر السابق يوضح بجلاء تاريخ تدوين الديوان - ٦٤٨ هـ ومكانه - القاهرة .

أما ما ورد من شعر معاصريه، فنجد البهاء زهير صديق الشاعر يرسل أبياتاً لابن مطروح يعزيه بوفاة أخيه «عبد القادر يوم الأحد العشرين من شهر شعبان ٦٤١ هـ» (١).

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| فإذا نالك الزمان بخطب | نال كل الأحباب منه نصيباً |
| ولعمري لقد رزئت أخاً برأ | ومولئ ندياً وفرعاً نجيباً |
| وغريب الصفات قد كان حياً | وقضى الله أن يموت غريباً |
| نال قصداً على حداثة سن | فرأينا الوليد منه حبيباً (٢) |

تشير الأبيات إلى أنه كان رضي الأخلاق، مات صغير السن غريباً، ولم تشر إلى أنه أخ شقيق لابن مطروح.

ووجيز القول أن ما ورد من إشارات متفرقة لا تسعف بتعرف أسرته.

اتصالاته :

- في قوص مع مجد الدين إسماعيل اللمطي :

إن أول خبر عن بدء اتصالات ابن مطروح بالأمرء والكبراء كان اتصاله هو وصديقه البهاء زهير بالأمير مجد الدين إسماعيل اللمطي الذي تولى أعمال قوص والصعيد سنة ٦٠٦ هـ (٣) ويشترك الاثنان في مدحه عند قدومه والياً على الصعيد، فالبهاء زهير يمدحه بقصيدة مطلعها :

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢١ .

(٢) نفسه ٢١-٢٢ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٨

تمليته يا لابس العز ملبسا

وهناك يا غارس الجود مغربا (١)

يقول فيها :

قدمت قدوم الغيث للروض إنها

به أشرفت حسناً وطابت تنفسا

به أصبحت قوص إذا هي فاخرت

أعز قبيلا في الأنام وأنفسا (٢)

وابن مطروح يمدح ابن اللطمي بالمناسبة نفسها بقصيدة مطلعها :

من لي بخصن باللحاظ منطلق

حلو المحيا واللمى والمنطق (٣)

يقول فيها :

إن لم أتل بالمغرب الأقصى المنى

حاولت ذاك ولو بأقصى المشرق

لا فزت بالمأمول من طلب العلا

وبقرب مجد الدين إن لم أصدق

وافى بأسعد ليلة ودلياة

أن الصعيد بيمن طلعتة سقي

لله أية آية لك لم تكن

لسواك ممن قد مضى أو من بقي

أي الملوك سواك يقدم جيشه

جيشان من رعد وغيث مغدق (٤)

ويستمر ابن مطروح في خدمة الأمير ابن اللطمي فترة من الزمن، ولكن، يبدو أن هذه العلاقة لم يقدّر لها أن تستمر استمراراً طبيعياً، ولعل السبب يتمثل في رغبة ابن مطروح بالانتقال إلى القاهرة، فيغضب ابن اللطمي عليه وعلى البهاء زهير، ولذا يقول ابن مطروح شعراً يعتذر فيه، ويبيد التخوف من أميره، فيخاطبه قائلاً :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى

ومتلك أولى متلي الصفح والعفوا

أقلني ما قد كان مني جهالة

أقالك رب يعلم السر والنجوى

وها أنا من ذنبي الذي كان تائب

ومن تاب تمحو الذنب توبته محوا

(١) ديوان البهاء زهير ١٣٨

(٢) نفسه ١٣٠ - ١٣٩

(٣) الديوان ج ١٩٩ - ٢٠٠.

(٤) نفسه ٢٠٠.

ثم يقول :

فهذا فؤادي ما يقرّ وجيبه
وهذي جفوني ما غفت ساعة غفوا(١)
ويستمر ابن مطروح في استعطافه الأمير ابن اللمطي طالباً العفو :
فإن تولني عفواً فإنك أهله
ولا بدع إن عاقبت متلي ولا غروا(٢)
وتنقطع بعد ذلك أخبار العلاقة بين ابن مطروح وابن اللمطي، ويبقى من آثارها
رباط المودة الذي استمر إلى الموت بين ابن مطروح والبهاء زهير .
وبعد ذلك، يتصل ابن مطروح بخدمة السلطان الكامل الأيوبي(٣) «محمد بن العادل»،
ويمدحه عند انتصاره على الإفرنج في دمياط بقصيدة مطلعها :

قُنُسْت من ملكٍ عظيمِ الشانِ متتابع الحسانِ والإحسان(٤)

ومنها :

يا ناصرَ الدينِ الحنيفِ بسيفه
أما وقد علقَت يدي بمحمدٍ
وتمسكتَ يمنيائي منه بناصرٍ
أنا فيك حسّانٌ وأنت محمدٌ
ومدلاً أهل الشرك والطغيانِ
وظفرتُ منه ببيعةِ الرضوانِ
فلتياس الأيام من خذلاني
بمحمدٍ عطفاً على حسّان(٥)

وللبهاء زهير قصيدة بالمناسبة نفسها يقول في مطلعها :

بك اهتزَّ عطف الدين في حلل النصر
ورُدَّت على أعقابها ملة الكفر(٦)

* * *

(١) الديوان ج ٢٠١ - ٢٠٢ ، والقصيدة أحد عشر بيتاً.

(٢) نفسه ٢٠٢ .

(٣) الملك الكامل محمد بن محمد (٥٧٦ - ٦٣٥ هـ) ، أبو المظفر محمد بن الملك العادل (محمد بن أيوب) صاحب مصر والشام وميفارقين وآمد والحجاز واليمن وغير ذلك، وهو أخو المعظم عيسى والأشرف موسى ، كان أجلّ الثلاثة وأرفعهم . ملك الديار المصرية أربعين سنة، أنشأ دار الحديث وجاهد الفرنج بدمياط وأنشأ المنصورة ، إلا أنه سَمّ القدس للصليبيين ثانية. توفي في دمشق بخوانيق . انظر الوفيات ٥ : ٧٩ ، سير أعلام النبلاء ٢٢ : ١٢٧ ، ذيل مرآة الزمان ١ : ١٢٨ .

(٤) الديوان ج ١٧٦ - ١٧٧ .

(٥) نفسه ١٧٦ - ١٧٧ .

(٦) ديوان البهاء زهير ٧٢ - ٧٤ .

وفي الفترة نفسها، نجد ابن مطروح يتصل بالملك المسعود (١) بن الكامل (٢) ويمدحه، بقصيدة يقول فيها :

فو الله إِمّا أن يكون كلامها من السحر أو فالسحر خامرَ مسمعي
وأقسم لو كان ابن أدهم (٣) حاضرأ ويسمعها أنسته ثوب التورع
أو الملك المسعود عزّ مقامه على ما به من عزة وترفع
لأقبل يسعي نحوها متواضعأ وإن زاد قدراً فوق كسرى وتبع (٤)

ورثى ابن مطروح الملك المسعود بعد وفاته ، يقول :

قالوا قضى الملك المسعود قلت لهم لا تطمعوا في بقاء الشمس والقمر
قل للملوك استقروا في ممالككم مات الذي كنتم منه على حذر (٥)

* * *

اتصال ابن مطروح بالخليفة العباسي المستنصر في بغداد :

لما كان ملوك البيت الأيوبي يلتزمون بيعةً للخلافة العباسية، كان من الطبيعي أن نرى ابن مطروح يلتزم الولاء للخلافة العباسية، شأنه بذلك شأن مخدميه، فنراه يقول شعراً طويلاً في مدح الخليفة المستنصر بالله (٦) :

(١) الملك المسعود (٥٩٧-٦٢٦ هـ) يوسف بن محمد (الكامل) بن (العادل) بن أيوب، تولى عن أبيه نيابة اليمن، وهو أكبر أولاد الكامل، وملك مكة سنة ٦١١ هـ، وتوفي ودفن فيها بعد أن أوصى أن يتولى دفنه أحد الصالحين . انظر وفيات الأعيان ٥ : ٨٣ .

(٢) الكامل الأيوبي تقدمت ترجمته .

(٣) ابن أدهم - إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلي. ت ١٦١ هـ الواعظ الزاهد ولد بمكة، وأخبار زهده مشهورة، وتوفي في إحدى جزائر الروم وقيل بساحل طرابلس قال عنه النسائي: مأمون ثقة، من الزهاد، انظر فوات الوفيات ١ : ١٣-١٤ وهي أولى تراجم فوات الوفيات.

(٤) ديوان ابن مطروح ١٧٩-١٨٠ وهي من القصيدة التي مطلعها (أيا قلب دع عشق الحبيب المبرقع ..)
(٥) نفسه ١٨٠ .

(٦) المستنصر بالله - منصور بن محمد بن أحمد (٥٨٨ - ٦٤٠ هـ) ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر، نشر العدل وقرب أهل العلم، بنى المدارس والمساجد والبيمارستانات، وقام بأمر الجهاد، انظر فوات الوفيات ٤ : ١٦٩ .

أم أيّ ذي لسنٍ يقولُ فيصيحُ
فمن العجائب أن لفظاً ينجحُ
فخراً لمُفتخِرٍ به يستجحُ (١)

بحبوحه الفردوسِ بابٌ يفتحُ (٢)

عذراءٌ تنفر من سواه وتجمحُ (٣)

ثم يتحدث ابن مطروح عن معاناته في الوصول إلى دار الخلافة ببغداد ، فيقول :
وتكفّلتُ ببلوغ ما حاولتُه
حتى وصلتُ بها سرادقَ أبلجِ
مستصراً بالله يُمسي دائباً
من مبلغٍ قوماً بمصرَ تركتهم
هممٌ يضيقُ بها الفضاءُ الأفيحُ
من وجهه سرُّ النبوةِ يشرحُ
فيما يعزُّ به لديه ويصبحُ
فرحاً وأعينهم لِعوذي تطمحُ (٤)

ولعل هذا الشعر يوضح أن ابن مطروح قد خرج مسافراً إلى بغداد للقاء الخليفة، على الرغم من أن سيرته لم تذكر وصوله إلى العراق ، لكن شعره في القصيدة السابقة يشير إلى رحلة إلى بغداد ، ووقوف بين يدي الخليفة ، ومدح له.

وهذا كله لا يعقل أن يكون موقفاً متخيلاً ، خاصة ونحن نجد له قصيدة أخرى يمدح بها المستنصر ، وهي القصيدة التي مطلعها :

عدلوا فيك فأكثرُوا
وتحيّلوا حتى رأوا
لو أنني أتأثّرُ
ك فمذ رأوك تحيروا (٥)

ويستمر ابن مطروح بوصف حاله بحضرة الخليفة إلى قوله :

الله لي من كل ما
أخشاه والمستنصرُ

(١) الديوان ج ١٧٢ - ١٧٤

(٢) نفسه ١٧٣

(٣) نفسه ١٧٣

(٤) نفسه ١٧٤

(٥) نفسه ط ٩ ، ش ١٦ - ١٧

والإمام الأطهر^(١)

الله لي فيما أحاذر^(٢)

- مع الملك الأشرف موسى :

واتصل ابن مطروح بعدد من أفراد البيت الأيوبي على اختلاف مراتبهم وأعمارهم
ومنهم الملك الأشرف موسى^(٢) إذ يمدحه بقصيدة طويلة مطلعها :

عذب اللما والمعتنق^(٣)

بأبي وبي طيف طرق

ثم يقول :

تفضيله كل الفرق

لا والذي اجتمعت على

في راحتيه وأغتب

موسى الذي أصطبغ الندى

عن علاه ولا فرق^(٤)

الأشرف المنصور حدث

وفي هذه القصيدة ، يصور ابن مطروح بأس الأشرف المنصور في قتاله للأعداء ،
وعزمته القوية في التصدي لهم ، وبسالته في وقائعه ، فيقول :

إذ تَحَضَّبُ بالعَلْقُ

فاعزم ولا تنن^(٥) الأعنة

لا إثم في دم من مرق

من كل مهجة مارق

رياً يبلِّغها الشرق

وارو السيوف من الظما

ك بعزمة مثل الفلق^(٦)

واصدع حشا الرومي مذ

ويمدح ابن مطروح الأشرف موسى في قتاله الخوارزمية الذين أعلنوا العصيان على
الدولة ، ويستهل قصيدته بقوله :

(١) الديوان ط ق ٩ ، وش ق ١٦ - ١٧ .

(٢) الأشرف موسى (٥٧٨ - ٦٣٥ هـ) شقيق الكامل ، ولد بالقاهرة ، كان ميمون الطالع ، لُقِّب بشاه
أرمن وملك حران والرها والبلاد الشرقية ، وكسر المواصلة والخوارزمية ، كان جواداً عاقلاً ، ما كسرت له
راية قط ، كان مع الكامل في انتصاره على الفرنجة بدمياط . انظر وفيات الأعيان ٥ : ٣٣٠ .

(٣) الديوان ج ١٧٨

(٤) نفسه ج ١٧٨ الأبيات ٢٣ - ٢٥

(٥) ورتت في الديوان " ولا تنني "

(٦) الديوان ج ١٧٩ الأبيات ٣١ - ٣٤

فأراكَ حظَّ المجتلي والمجتني
وأبيكَ عن لحظاتِ تلكَ الأعينِ (١)

وافى وأقبلَ في الغلالة ينثني
ورنا فما تُغني التمانمُ والرقي

ثم يقول :

إلا الشاء على علا شاه أرمن
موسى وتمم بالرحيم المحسن
في نظرة من وجهه لم تُغين
لم تلق غيرَ مشارِكِ ومؤمن
نظرَ إليك فما أراه بمؤمن

لا شيء يُطربُ سامعاً كحديثه
الأشرفِ الملكِ الكريمِ المجتبي
ملكٌ إذا أنفقتَ عمرَكَ كله
وإذا انتخبتَ له دعاءَ صالحاً
يا أيها الملكُ الذي من فاتته

ومنها :

وهلمَّ جراً قلبه لم يسكن
يارب من سطواتِ موسى نجني (٢)

ولى الخوارزميُّ منها هارباً
ودعاؤه في ليله ونهاره

والأبيات السابقة تذكر فضل الأشرف موسى في قمع الفتنة، التي أبقت الذكر الجميل له، وكيف أن تغانيه في الجهاد خلد ذكره في أطراف البلاد، وولى صاحب الفتنة «الخوارزمي» هارباً من هذا الملك الذي ملأ البلاد مهابة وأمناً .

* * *

- مع المظفر الأيوبي :

واتصل ابن مطروح بالملك المظفر الأيوبي (٣) ، فمدحه بقصيدة مطلعها :

مؤرد خدٌ فوق آس عذار
ولا رأي لي في عشق ذاتِ سوار (٤)

سلا خاطري عن زينب ونوار
وأصبحتُ بالطبي الممنطق مغرماً

ويتابع ابن مطروح قصيدته إلى أن يقول :

(١) الديوان ج ١٧٦

(٢) نفسه ج ١٧٦ - ١٧٧

(٣) الملك المظفر (٥٩٩ - ٦٤٤ هـ) محمود بن محمد المنصور بن عمر - صاحب حماة - مولده ووفاته فيها ، شجاعاً ، كريماً ، نكياً ، محباً للعلماء وولي حماة سنة ٦٢٦ هـ بعد انتزاعها من أخيه الناصر قليج أرسلان ، كان الملك الوحيد الذي مال إلى الصالح نجم الدين من بين ملوك الشام عند التنازع على خلافة الكامل سنة ٦٣٧ هـ ، انظر مفرج الكروب ٥ : ٢٤٨ . النجوم الزاهرة ٦ : ٣٢٧ .

(٤) الديوان ج ٢٠٩ .

وقد حَيَّرَ السبعَ الدراري بحسنه
ومن يبتغي عند الغواني مودةً
وإلا كمن يبغي حماةً ودونها
وأبيض ما بين المفاضة ضيغم
هو الملك المولى المظفرُ فالتمسُ
نداه وأما إن سطا فحذارِ (٣)
فما هي إلا في هواهُ جوارِ
كمن يبتغي أخذَ الأثيرِ بشارِ (١)
[حُماةٌ وهي تسطو ببيض شيفارِ]
وبحرُ ندى (٢) منه وطودُ فخارِ

وابن مطروح بقصيدته هذه ، يشير إلى العلاقة القوية بين الشام ومصر ، زمن الأيوبيين ، مشيراً لمنعة أسوار حماة وقوة رجالها ، وأن الملك المظفر قوي شديد ، وهو ذو منعة ، ثم وصفه بضيغم حرب وبحر ندى ، وجبل أشم للفخر والعزة .

* * *

مع الملك السعيد الأيوبي :

ويتصل ابن مطروح بالملك السعيد الأيوبي (٤) ويمدحه فيقول :

وأنا السعيدُ إذا صلحتُ
وإذا ارتضاني عبده
لخدمة الملك السعيد
فالناسُ كلهمُ عبيدي (٥)

وهو يطمح أن يكون من خاصة هذا الملك ، ومن العاملين في خدمته ، ويبدو أن هذا الاتصال بين الشاعر والملك السعيد تمّ حوالي سنة ٦٤٠ هـ بعد أن أخذ الصالح من السعيد آمد والصبيبة (١) ، وأعطاه إقطاعاً بمصر ، واستمر كذلك حتى وفاة الصالح ومقتل توران شاه ((الملك المعظم)) على يد مماليك أبيه ، فعاد إلى الصبيبة ، واستمر حتى احتلال حصونه من التتار ، ففي الفترة ٦٤٠-٦٤٥ هـ كانت إقامة السعيد بمصر ،

(١) الديوان نسختا ش ١١ ، ط ١/٧ ، ولم ترد هذه الأبيات في الديوان المطبوع - ج - .

(٢) وردت في الأصل " نداء " .

(٣) الديوان نسختا ش ١١ وط ١/٧ وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع - ج - .

(٤) الملك السعيد (٠٠٠ - ٦٥٨ هـ) محمد بن عثمان (العزيز) ابن محمد (العادل) الأيوبي ، تملك سنة ٦٣١ هـ ، وولي إقطاعاً للصالح في مصر ، ثم عاد إلى الشام ، واستمر إلى أن أخذ التتار إقطاعاته وحصونه ، ثم دخل في خدمة التتار بدمشق ، حتى انهزمهم في عين جالوت فظفر به الملك المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ وضرب عنقه . انظر العبر ٥ : ٢٤٥ - ٢٤٦ ، / الشذرات ٥ : ٢٤٠ ، النجوم الزاهرة ٦ :

٣٥٦ .

(٥) الديوان ج ١٨٣ .

(٦) الصبيبة : اسم لقلعة بباتياس وهي من الحصون المنيعة . انظر النجوم الزاهرة ٦ : ٣٥٦ - الحاشية .

وتوافقت مع غضبة الصالح على ابن مطروح ، فليس مستبعداً أن يحاول ابن مطروح البحث عن مخدوم آخر يراعاه ويحميه .

* * *

- مع الملك الصالح نجم الدين أيوب :

ابن مطروح : دوره السياسي :

كان الحدث الأكبر والأبرز في حياة ابن مطروح اتصاله بخدمة الملك الصالح - نجم الدين أيوب - (١) بن محمد - الكامل - (٢) بن العادل الأيوبي (٣) الذي ناب عن أبيه الكامل في البلاد الشرقية حصن آمد (٤) وحصن كيفا (٥) وسنجان (٦)، وغيرها . وتداخلت أحداث حياة الصالح نجم الدين مع حياة الملك الناصر ((داود)) (٧)، هذا الملك الطموح الذي كان ذا همة عالية، مع مجانية للسعد.

(١) الملك الصالح (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ) نجم الدين أبو الفتوح-أيوب بن السلطان الكامل ، أمه جارية سوداء اسمها (ورد المنى) ولد بالقاهرة وناب عن أبيه في البلاد الشرقية آمد ملك البلاد بعد أبيه الكامل بعد عناء ، أكثر اقتناء الترك وجعلهم بطانته وأسماهم البحرية - بسبب أن التجار أحضروهم من البحر - أبنياً عزيز النفس ، غيوراً ، ديناً ، لا يفر زلة ولا يعفو عن هفوة ، توفي مرابطاً بالمنصورة قبالة الفرنج ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ . وأخفوا موته حتى انتصار المسلمين وقامت بالأمر بعد موته زوجته شجرة الدر . انظر وفيات الأعيان ٥ : ٨٤ ، وسير أعلام النبلاء ٢٣ : ١٨٧ - ١٩٢ ، / العبر ٣ : ٢٥٧

(٢) تقدمت ترجمته .

(٣) تقدمت ترجمته .

(٤) أميد : بكسر الميم ، أعظم مدن ديار بكر وأشهرها ذكراً ، بلد قديم حصين على دجلة ، فيها عيون وآبار ، قريبة الماء ، فتحت سنة عشرين للهجرة على يد عياض بن غنم صلحاً ، وإليها ينسب الحسن بن بشر الأمدي صاحب المؤلف والمختلف ، والموازنة ، انظر معجم البلدان (مادة آمد).

(٥) حصن كيفا : ويقال كيفا ، يقول ياقوت - أظنها أرمنية ، بلدة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهي ذات جانبيين على دجلة . انظر معجم البلدان (مادة كيفا) وهي الآن في تركيا.

(٦) سنجان : بكسر أوله وسكون ثانيه ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عال ، وتنسب لها قصص عن سفينة نوح وهي مدينة طيبة في وسطها نهر جار . معجم البلدان (مادة سنجان).

(٧) الملك الناصر داود بن المعظم عيسى (٦٠٣ - ٦٥٦) من ملوك بني أيوب الأثداء ، إضافة لعلم وأب شعر ، انظر فوات الوفيات ١ : ٤١٩ - ٤٢٨ ، سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٣٧٦ .

والأوضاع السياسية هي التي قيدت علاقة ابن مطروح به، فقد كان ابن مطروح من رجال الملك الصالح - نجم الدين - وباختلاف الأوضاع كانت العلاقة تراوح بين القوة والفتور، إذ نرى الناصر «داود» يتولى السلطنة بدمشق بعد وفاة والده سنة أربع وعشرين وستمائة^(١)، وعمره إحدى وعشرون سنة، ويحبه أهل دمشق، ولكن «الكامل» عمه يتغير عليه، ويرسل «في سنة خمس وعشرين، عماد الدين بن الشيخ ومعه ابن جلدك بالخلع للناصر»^(٢)، ويخرج الكامل من مصر لأخذ دمشق، فيستجد الناصر «داود» بعمه الأشرف، ويحضر الأشرف، ثم يتغير عليه، ويميل إلى أخيه الكامل.

وفي هذه الأثناء «يصل الأنبرور - الإمبراطور - ملك الفرنجة إلى الساحل، بمقتضى مراسلة قيمة كانت من الكامل بينه وبينه»^(٣) وانتهت المفاوضات «بتسليم القدس دون أعمالها» للفرنجة سنة ست وعشرين وستمائة^(٤)، ثم يكمل الكامل ما بدأه في التوجه إلى دمشق لنزعها من الناصر داود، ويحاصره بها مدة أربعة أشهر، وينزل الناصر عن دمشق في شعبان سنة ست وعشرين وستمائة^(٥). «وفي المقابل، يعطى الكرك والصلت وعجلون ونابلس والخليل وأعمال القدس، دون القدس نفسها لأنها كانت قد سلمت للأنبرور»^(٦).

وازدادت الوحشة بين الكامل والناصر، مما دفع الناصر «داود» إلى الخروج سنة ثلاث وثلاثين إلى بغداد، تقصد الخليفة المستنصر والاستجارة به، ومدحه بقصيدة مطلعها:

ودان ألمت بالكثير ذوائبه
وتفقه في تلك الربوع رعوده
وجنح الدجى وحف تجول غياهبه
وتبكي على تلك الطلول سحائبه^(٧)

(١) فوات الوفيات ١ : ٤١٩ .

(٢) نفسه ١ : ٤١٩ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٢٨ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٢٨ .

(٤) نفسه ١ : ١٢٩ .

(٥) نفسه ١ : ١٢٩ ، وانظر فوات الوفيات ١ : ٤١٩ .

(٦) نفسه ١ : ١٢٦ .

(٧) نفسه ١ : ١٣٢ ، وانظر فوات الوفيات ١ : ٤٢٠ .

ابن مطروح في حصن كيفا وسنجان سنة ٦٢٩هـ :

في هذه الأوقات، يمنح « الكامل » ولده « الصالح » نجم الدين آمد وحصن كيفا وسنجان وغيرها، وكان في خدمته ابن مطروح ، وأقام معه (١) ، وكان ذلك سنة تسع وعشرين وستمائة للهجرة .

ويستمر الأمر على هذا النحو حتى وفاة « الكامل » سنة خمس وثلاثين وستمائة (٢) . ويبدأ الصراع على من سيخلفه، ويكون الأول على ملوك بني أيوب، والناصر آنذاك (في دمشق في دار أسامة، فتشوّف إلى السلطنة، ولم يكن يومئذ أميز منه، ولو بذل المال لحلفوا له) (٣).

أما في البلاد الشمالية من الشام، « فلما مات الكامل، خرجت الخوارزمية عن طاعة ولده الملك الصالح ، فتوجه إلى سنجان ، فطمع فيه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحصره فيها، ولم يبق إلا أن يتسلمها ، ويأخذ الصالح أسيراً، ويتملك البلاد الشرقية بأسرها ، وكان القاضي بدر الدين (٤) قاضي سنجان إذ ذاك ، فأرسله الملك الصالح وهو محصور بها إلى الخوارزمية ، ليصلح بينه وبينهم ، ويستميلهم إليه، ويستدعيهم لنصرته ، فخرج من سنجان سراً بحيث لا يشعر به المحاصرون للبلد، واتفق مع الخوارزمية، وطيب خاطرهم ، وقصدوا بلاد الملك الصالح ، واستولوا على حرّان، والتقى معهم المغيـث بن الملك الصالح وحلفوا على نصرته الصالح ، ثم ساروا جميعاً إلى سنجان، ومعهم مقدمهم حسام الدين - بركة خان - ، فلما سمع أهل الموصل ومن معهم فروا عن سنجان ، وأدركتهم الخوارزمية ، فأوقعوا بهم ، ونهبوا أموالهم وأنقأهم (٥) . وتقدم الصالح بعد ذلك جنوباً باتجاه دمشق تمهيداً لِيتملك الديار المصرية .

أما في دمشق، فيستقر رأي أهل الحل والعقد فيها على تولية الملك الجواد (يونس) ابن داود بن العادل ، الذي لا يقبل أخذ دمشق فقط من الناصر ، بل يتبعه إلى جنين

(١) الوفيات ٦ : ٢٥٩ ، وانظر العبر ٣ : ٢٦٤

(٢) نفسه ٥ : ٨٠

(٣) نفسه ١ : ٤٢٣

(٤) بدر الدين : يوسف بن الحسن بن علي أبو المحاسن - بدر الدين السنجاري، رئيس جواد، استمر في عمله حتى أيام الدولة الظاهرية ، فصُرف عن عمله ، وبقي منزله مقصداً ومحجاً للناس ، والجميع يعرفون مكانته ، توفي سنة ٦٦٣هـ رابع عشر رجب في القاهرة . ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٢ - ٣٣٦ .

(٥) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٢ .

قرب نابلس، ويهزمه ، ويستولي على خزائن ماله ، ويرحل عسكر مصر راجعين بقيادة عماد الدين ابن شيخ الشيوخ ، ويرجع الجواد إلى دمشق بناءً على طلب من الملك العادل بن الكامل(١). ثم يبادر الملك الصالح - نجم الدين - بالاستيلاء على دمشق، وخلع الجواد ، ويطمح بأخذ مصر من أخيه العادل ، ويرجع الناصر إلى قاعدة ملكه في الكرك ، التي أقره عليها الملك الكامل قبل موته.

وتبدأ فصول الخصومة بين الصالح - نجم الدين - وأخيه العادل(٢)، في التنازع على خلافة أبيهما الملك الكامل ، فما إن يتحرك الصالح من دمشق باتجاه فلسطين، ويصل نابلس، حتى يختلف إليه قادة دمشق، ويوهمونه أنهم على الولاء له، في حين يختلف أمرهم، وينحازون للعادل في مصر، ويبقى الصالح محصوراً في نابلس لا يستطيع التقدم باتجاه مصر، ولا العودة إلى دمشق، وتجري مراسلات بين نجم الدين وأخيه العادل، وبين أهالي دمشق، ورسول الخليفة، الذي وصل من أجل إصلاح ذات البين، وهذا الرسول هو ابن الجوزي(٣).

ويبرز دور ابن مطروح في هذه الوساطات ، إذ ينجح العادل في حصار الصالح نجم الدين في نابلس ، ثم يرسل الناصر داود من الكرك إلى هناك ، فيتحرز على الصالح، ويصطحبه إلى الكرك ، ويتدخل ابن الجوزي رسول الخليفة سنة ٦٣٧هـ، «وكان محيي الدين مقيماً عند الصالح ، وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر في سفارة، حتى تقارب الأمر، ثم قدم محيي الدين ومعه جمال الدين بن مطروح، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح ، فأديا الرسالة ، وأقاما عند الملك العادل »(٤).

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) العادل : الثاني : محمد بن محمد (الكامل) بن محمد العادل (٦١٧ - ٦٤٥هـ) يبيع بالسلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٦٣٥هـ فشق ذلك على شقيقه الصالح نجم الدين أيوب ، الذي كان يتولى البلاد الشرقية ، وحب ، فقدم واستولى على البلاد ، واعتقل العادل وسجنه في قلعة الجبل إلى أن مات . انظر السلوك ١ : ٢٦٧ ، سير أعلام النبلاء ٢٣ : ١٨٧ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٣٥

(٣) ابن الجوزي - محيي الدين أبو المظفر - جمال الدين يوسف قرظلي - (٥٨١ - ٦٥٤هـ) الواعظ المشهور حنفي المذهب له صيت وسمعة في مجالس وعظه وقبول عند الملوك وغيرهم ، صنف تاريخاً كبيراً في أربعين مجلداً سماه "مرآة الزمان" توفي بدمشق ودفن بجبل قاسيون ، انظر وفيات الأعيان ٣ : ١٤٢ ، مفرج الكروب ٥ : ٢٤٥ ، السلوك ق ١٢ : ٢٩١ .

(٤) السلوك ق ٢ : ١ : ٢٨٤ .

وابن مطروح كان يُعد من خاصة الخاصة للصالح في حينها، كما يبدو فيما يقوله ابن واصل الحموي . «وكان في العسكر أيضاً جمال الدين يحيى بن مطروح، ناظر الجيش ، وكان فاضلاً، جيد الشعر، وكان هذان الرجلان - أعني بهاء الدين زهير وجمال الدين مطروح - من أتم الناس مروءة، واعتناء بمن يلوذ بهما. ويصحبهما، فكانت دولة السلطان الملك الصالح [نجم الدين] بهما زاهية زاهرة» (١).

ويكاد ابن مطروح يفقد كل شيء في سبيل إصلاح أمر مخدمه -الملك الصالح- ويذكر ابن واصل نقلاً عن محيي الدين بن الجوزي أنه «سافر إلى الديار المصرية في تنميط الأمر ، واستصحب معه جمال الدين يحيى بن مطروح ، فأنزل جمال الدين في دار عند بركة النيل، وأحسن إليه ، فلما وردت الأخبار بما تم على الملك الصالح، خاف جمال الدين بن مطروح على نفسه، واستجار بمحيي الدين بن الجوزي فأجاره، وسافر محيي الدين من القاهرة لتوفيق الحال بين الملك العادل والملك الصالح اسماعيل، وبين الملك الناصر داود صاحب الكرك، فسار جمال الدين بن مطروح في صحبته» (٢).

« وبعد أن سجنَ العادلُ أخاه الصالحَ - نجم الدين - أرسل يطلب من الناصر داود أن يرسله إليه، فطلب الناصرُ دمشقَ مقابل ذلك، فلما ورد الجواب إلى الملك العادل أمر بتجهيز العساكر ليخرج إلى الشام، وخرج محيي الدين ابن الجوزي من القاهرة، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح، وكان قد استجار به بعد ما قبض العادلُ على الصالح وسجنه في الكرك» (٣).

وتستمر أحداث عام ٦٣٧هـ في محاولة إصلاح الأمر، « ولما تقارب الأمر في معنى الصلح، رحل محيي الدين بن الجوزي بنفسه إلى الديار المصرية، واستصحب معه جمال الدين بن مطروح، ناظر جيوش الملك الصالح ، رسولاً لتقرير قواعد الصلح بينهما، وأخذاً مع الملك العادل في تقرير قواعد الصلح والاتفاق» (٤).

وبعد رجوع ابن مطروح إلى نابلس من سفارته في مصر، وعدم استطاعته الإفراج عن مخدمه الصالح من الكرك، يحاول بكل جهده السعي في خلاص مخدمه،

(١) ابن واصل - مفرج الكروب ٥ : ٢٠٩ .

(٢) مفرج الكروب ٥ : ٢٤٥ .

(٣) السلوك ق ٢ : ١ : ٢٩١ .

(٤) مفرج الكروب ٥ : ٢١٩ / وانظر السلوك ق ٢ : ١ : ٢٨٤ .

فيسافر متوجهاً « إلى حماة ، ويجتمع بالملك المظفر صاحبها ، فأنزله بدار زين الدين بن قرناص^(١)، وهي على النهر العاصي ، فأقام بها أياماً ، ثم سافر جمال الدين بن مطروح بتقرير بينه وبين الملك المظفر - تقي الدين - إلى الشرق ، واجتمع بالأمير حسام الدين بركة خان، مقدم الخوارزمية، وتحدث إليهم في القيام بنصرة مخدومه الملك الصالح - نجم الدين ، وكانت معه رسالة من الملك الناصر داود ، مضمونها أن الملك الصالح ليس معتقلاً في الكرك لدى الناصر، بل صان مهجته هناك خوفاً عليه من أخيه الملك العادل، وأنه سيخرجه ويملكه البلاد، فالمصلحة أن تتحركوا « وتغيروا على بلاد حلب وبلاد حمص، ثم عاد ابن مطروح بعد أن قضى هذه المهمة إلى حماة ، فأقام فيها»^(٢).

« ووصل إلى حماة من أصحاب الملك الصالح - نجم الدين - جماعة من الأجناد، وجماعة من المعممين، منهم جمال الدين بن مطروح، والقاضي بدر الدين - قاضي سنجار ، والقاضي عز الدين بن القاضي نجم الدين بن أبي عسرون»^(٣).

ويصف الصالح - نجم الدين - ما جرى له منذ وصوله نابلس إلى اعتقاله في الكرك مدة سبعة أشهر في الحبس لدى الملك الناصر داود ، فيقول : « قال أبو المظفر : ولما اجتمعت به - يعني الصالح - في سنة تسع وثلاثين وستمئة في القاهرة، حكى لي صورة الحال قال : أركبوني بغلة بغير مهماز ولا مقرعة، وساروا إلى المؤتة في ثلاثة أيام، والله ما كلمت أحداً منهم كلمة، ولا أكلت لهم طعاماً، حتى جاعني خطيب المؤتة ومعه برودة عليها دجاجة، فأكلت منها، وأبقوني فيها ثلاثة أيام لا أعلم لماذا، فإذا يريدون أن يأخذوا طالعاً نحساً يقتضي ألا أخرج من حبس الكرك.^(٤) ووكلوا بي مملوكاً لهم، فظاً غليظاً يقال له زريق، وكان أضرب علي من كل ما جرى، فأقمت عندهم إلى شهر

(١) ابن قرناص (٦٢٠ - ٦٧٣هـ) عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن قرناص، ابو محمد ، كان رئيساً كبيراً ذا نعمة واسعة، مأوى القاصدين مع ديانة تامة وحسن طوية ، وطلاقة وجه ، توفي بحماة ودفن بالمدرسة التي أنشأها جده الرئيس مخلص الدين إبراهيم بن قرناص. انظر ذيل مرآة الزمان ٣ : ٩٤.

(٢) مفرج الكروب ٥ : ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) نفسه : ٥ : ٢٥١ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٠٨ .

رمضان سبعة أشهر» (١).

وابن مطروح في هذه الفترة يتحرك مع بقية رجال الصالح - نجم الدين - من أجل خلاصه، فيوماً إلى مصر، وآخر إلى حماة، ثم إلى الكرك فبالبلاد الشرقية، من أجل استمالة الخوازمية من جديد ، ويذكر ابن مطروح هذه الفترة في شعره إذ يقول :

أنا أولى بما ذكرت من الأمثالا
كل يوم في رحلة ومقام
ل إن كان في الحراف يفاخر
بين ما قيل قد أتى قيل سافر
عاكف فيه لا على صنم فر
بـ كاني أستغفر الله آزر (٢)

وتتغير الأمور تغيراً مفاجئاً لصالح نجم الدين، فالناصر داود بعد أن أصبح نجم الدين معتقلاً لديه يرسل العادل في مصر يطلب أشياء لنفسه ومنها أخذ دمشق وغيرها، فيرفض العادل، ويرسل له بدلاً من ذلك مئة ألف دينار، فيرفضها الناصر، ويشير عليه قادته بالاتفاق مع نجم الدين، فيخرجه من سجنه، ويتحالفان ويتفقان ويطلب الناصر من الصالح أن يحلف له على ما يريد ، وهي أشياء لا تطاق ومنها : « أخذ دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ، ونصف مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجوهر والخيل والثياب وغيرها، فحلف له الصالح على هذا كله، وهو تحت القهر والسيف» (٣)، ثم يسير الجميع إلى مصر لمواجهة العادل، «ويبرز العادل في جيشه من القاهرة إلى بلبس ، وكان قد أساء السيرة في أمرائه وحواشية ، فوقع الخلف بينهم، وتزايد الأمر حتى قبضوا عليه وأرسلوا إلى الصالح نجم الدين يعرفونه ، ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصرية ، فسار ومعه الملك الناصر داود، فوصلوا بلبس يوم الأحد رابع وعشرين ذي القعدة ، فنزل خيمة العادل، والعادل رهن الاعتقال» (٤)، وتستقر الأمور للصالح نجم الدين سنة ٦٣٧ هـ.

بعد هذه الأحداث، يبدأ الناصر داود بطلب ما تعاهد عليه مع الصالح من أموال ونفوذ ، وأول ما يطلبه من الصالح أن يطلق العادل، «وجاء فدخل على الصالح الخيمة،

(١) النجوم الزاهرة : ٦ : ٣٠٩ .

(٢) ديوان مطروح ٢٠٩ ، وانظر ك ٢٣ / ٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ٦ : ٣١٠ .

(٤) نفسه ٦ : ٣١١ .

فقلت - باسم الله اجلس، فقال : ما أجلس حتى تطلق العادل، فقلت : اقعد وهو يكرر الحديث، ثم سكتَ ونام فما صدقتُ بنومه، وقمتُ في باقي الليل فأخذتُ العادل في محفة ورحلتُ إلى القاهرة، ولما دخلنا بعثتُ إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليَّ مع غلماني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر)) (١)، ويغضب الناصر داود، ويرجع إلى الشام ، ويبدأ في معاداته للصالح نجم الدين .

* * *

وعلى الرغم من أن هذه الفترة كانت فترة عاصفة متقلبة بين أفراد البيت الأيوبي، فإننا نرى الشعراء يذكرون الأحداث المشرقة، ويبرزونها إبرازاً واضحاً، فهذا شاعرنا ابن مطروح، على الرغم من ولائه المطلق لنجم الدين أيوب يعرف للناصر داود قدره في محاربة الفرنجة، فالناصر داود أخذ من الملك الكامل إقطاعات كبيرة في الشام، ومنها أعمال مدينة بيت المقدس دون قصبته، فقد أعطاها الكامل للإمبراطور الفرنجي صلحاً حتى نهاية عام ٦٣٧هـ، ويغتتم الناصر داود فرصة انتهاء الصلح، ويسمع أن الفرنجة قد أرسلوا حملة لتعزيز جيوشهم في القدس حتى لا يسلموها مع انتهاء الصلح، فيتحرك مسرعاً ((إلى القدس ويحاصرها مدة واحد وعشرين يوماً، ويقصف قلعتها بالمنجيق إلى أن يفتحها ويطهرها من الفرنجة)) (٢) وهذا الفتح يلقي استحساناً لدى الناس، فنرى ابن مطروح يقول مادحاً الناصر داود على ذلك :

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| المسجد الأقصى له عادة | سارت فصارت مثلاً سائراً |
| إذا غدا بالكفر مستوطناً | أن يبعث الله له ناصراً |
| فناصر طهره أولاً | وناصر طهره آخراً (٣) |

ويذكر اليونيني في ذيل مرآة الزمان أن فتح القدس هذا تم في أثناء اعتقال الناصر داود للصالح نجم الدين في الكرك، ((ولما اعتقل الملك الناصر داود الملك الصالح نجم الدين بالكرك، توجه بعسكره ومن معه من أنصار الملك الصالح نجم الدين إلى القدس،

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٣١٢.

(٢) الديوان ج ١٨٢ - ١٨٣، ك ١ / ٨، ل ١ / ٥٨ - ١ / ٥٨ و ٢ / ٥٨ وانظر مفرج الكروب ٥ : ٢٤٧ - ٢٤٨، السلوك للمقرئزي ق : ٢ ١ : ٢٩٢، فوات الوفيات ١ : ٢٤٢، ذيل مرآة الزمان ١ : ١٤٢.

(٣) نفسه .

ونازل القلعة التي بناها الفرنج ونصب عليها المجانيق، حتى سلمت إليه بالأمان» (١)،
 «وأنه أرسل بالبشائر إلى ديوان الخليفة المستنصر» (٢).

ووقوع الحادثة في أثناء اعتقال الصالح في الكرك قد يكون هو الصواب (٣) لأنه
 يوضح بجلاء سبب مدح ابن مطروح للناصر، فلو لم يكن الصالح في قبضة الناصر لم
 يجرؤ ابن مطروح على مدح الناصر داود، ولابن مطروح عدة أبيات أخرى يثني بها
 عليه أيضاً وهي :

ثلاثة ليس لهم رابعُ
 الغيثُ والبحرُ وعَزَزَهُمَا
 عليهم مُعْتَمَدُ الجودِ
 بالملكِ الناصرِ داودِ (٤)

وبعد ذلك، ينتقل الناصر داود إلى المعسكر المضاد للصالح نجم الدين « وأما
 الناصر داود، فإنه اتفق مع عمه الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص فاتفقوا
 على الصالح» (٥).

ولكنه حاول أن يُبقي خيط مودة مع الصالح، ويبدو أن عدم وفاء الصالح بما عاهد
 عليه الناصر من أعطائه الإقطاعات قد ترك أثره المرير في نفسية الناصر، فنراه يرسل
 له قصيدة عتاب طويلة يذكر فيها :

قل للذي قاسمته مُلكَ اليدِ
 ونهضتُ فيه نهضة المُستأسدِ (٦)

(١) ذيل مرآة الزمان . ص ١ : ١٤٢

(٢) نفسه .

(٣) وورد في كتاب القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثه لمؤلفه عزمي
 عبد محمد أبو عليان ط١ - ١٩٩٣ ص ١٩٦، عند ذكر الحادثة ووقوعها ما نصه : سنة ٦٣٧هـ . ١٢٣٩م
 (فاتطلق الناصر داود على رأس قواته صوب القدس لتحريرها وقد تمكن من فتح القدس بسهولة...) ثم
 يقول: (إن محيي الدين بن الجوزي قد مدح الملك الناصر داود بشعر ذكر فيه مضاهاته في الفتح لعمه
 صلاح الدين - وذكر الشعر : المسجد الأقصى ...) ص ١٩٦.

وهذا الكلام خاطئ لأن الشعر قد ثبت في المصادر أنه لابن مطروح إضافة لوروده في ديوان الشاعر، وقد
 أحال الكاتب الخبر على ابن واصل في مفرج الكروب ج ٥ : ٢٤٦ وابن واصل ينسب الكلام لابن مطروح،
 ولعل صاحب الكتاب قد وهم أن الشعر لابن الجوزي مع أن الخبر الذي اعتمد عليه يدل بوضوح أن الشعر
 لابن مطروح ٥ : ٢٤٧.

(٤) ديوان ابن مطروح ج ١٨٣، ك ٢/٨، ل ١/٥٨ - ٢/٥٨، فوات الوفيات ١ : ٤٢٨.

(٥) النجوم الزاهرة.

(٦) نفسه ٦ : ٣٢٧ انظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٤٢٨ .

ابن مطروح في حماه :

ومع استقرار الأمور في مصر للصالح نجم الدين، يبقى ابن مطروح في بلاد الشام ليساهم في ضبط الأمور لمخدومه ((والسلطان الملك الصالح بالديار المصرية مالك لها، وقد تفررت قواعد ملكه بالقبض على من يتهم من العسكر، والملك المظفر صاحب حماة وحده منتقم إليه، وقصّاده ما تنقطع عنه، وعنده جمال الدين يحيى بن مطروح وهو على عزم المسير إلى الديار المصرية))^(١)، ويبقى ابن مطروح حوالي العامين في حماة، ثم يتحرك في عام ٦٣٩هـ إلى مصر : ((وقدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس - في البحر - إلى القاهرة ، وكثرت قصائد المظفر صاحب حماة إلى مصر))^(٢)، وفي نفس العام يبدأ الصالح بعمارة المدارس الصالحية بين القصرين^(٣).

ابن مطروح في القاهرة :

والملك الصالح يعرف لابن مطروح قدره، ووقفته معه في محنته وسعيه في خلاصه، فما إن يصل إلى مصر حتى يوليه نظر الخزانة ((ويسافر ابن مطروح إلى الديار المصرية فولاه الملك الصالح نظر الخزانة))^(٤).

وفي هذه الفترة، يرضى الصالح عن أبناء شيخ الشيوخ خصوصاً الأمير فخر الدين فيخرجه ((من الحبس بعد موت أخيه معين الدين ويسيره إلى الشام ، ويستولي على جميع بلاد الناصر داود))^(٥) . وقد أوردت هنا خبر رضى الصالح عن فخر الدين لأن لفخر الدين اتصالاً وثيقاً بابن مطروح سيظهر في البحث.

ابن مطروح والبهاء زهير :

وفي هذه المرحلة أيضاً، يسبق البهاء زهير ابن مطروح في القدوم إلى مصر، فيصلها سنة ٦٣٧هـ ثم عينه الصالح رئيساً لديوان الإنشاء^(٦)، والبهاء زهير من أخلص أصدقاء ابن مطروح منذ زمن نشأتهم الأولى في مدينة قوص، واتصلا معاً بخدمة

(١) مفرج الكروب ٥ : ٣٠٠.

(٢) السلوك ق ٢ : ١ : ٣٠٨.

(٣) نفسه.

(٤) مفرج الكروب ٥ : ٣٠٤.

(٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٢٦.

(٦) انظر شذرات الذهب ٥ : ٢٧٦.

الصالح نجم الدين منذ كان في البلاد الشرقية زمن الكامل، وشاركاه محنته في حصار أمد وسنجار، فابن مطروح يرسل أبياتاً للبهاء زهير يقول فيها :

ولقد ذكرتك والصورم لمع
من حولنا والسّمهرية شرع
وعلى مكافحة العذول في الحشا
ناراً إليك تفيض منها الأضلع
ومن الصيا وهلم جراً شيمتي
هذا الوفاء فكيف عنه أرجع^(١)

وتستمر العلاقة بينهما في ارتباط وثيق، فنرى مراسلات وهدايا، إذ يرسل ابن مطروح للبهاء زهير يطلب ورقاً وحبراً :

أفلست يا سيدي من الورق
فابعث بدرج كعرضك اليقق *
وإن أتى بالمِدادٍ مقترناً
فمرحباً بالخُدودِ والحدق^(٢)
فأجابه بهاء الدين زهير يقول :
مولاي سيرت ما رسمت به
وهو يسير المِدادِ والورق
وعزّ عندي تسييرُ ذلك وقد
شبهته بالخُدودِ والحدق^(٣)

وتشير المصادر إلى أن العلاقة تستمر إلى وفاة ابن مطروح الذي توفي قبل صاحبه، حتى إننا نرى الصالح يرسل البهاء إلى حلب في سفارة فيرجع بهديا من سفارته ، فيرسل لابن مطروح^(٤) نصيبه، فيرد ابن مطروح بأبيات يقول فيها :

أقول وقد تتابع منك بر
وأهلاً ما برحت لكل خير
ألا لا تذكروا هراً بخير
فما هراً بأكرم من زهير^(٥)

وعندما انفض العسكر عن الصالح نجم الدين في محنته ، وحصر أسيراً في الكرك يلتزم البهاء زهير وابن مطروح بالولاء له، ويقومان بالسعي لفكاكه، ويبقى البهاء زهير (في نابلس محافظاً لوده ولم يتصل بغيره) ^(٦).

(١) الديوان ج ١٩٥ / وانظر ك ١٥ / ٢ / ل ٦٠ / ١ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠٦ .

* اليقق : يقق : البياض ، أبيض يقق شديد البياض - أبيض انظر القاموس المحيط "مادة اليقق" الفيروزآبادي - مجد الدين محمد بن يعقوب - القاموس المحيط (يقق) / دار الجيل - بيروت/ بدون تاريخ .

(٢) الوفيات ٢ : ٣٣٦ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٠ ، وانظر الديوان ج ١٩٥ ، ك ١٥ / ١ ، ل ٦٣ / ١ .

(٣) نفسه ٢ : ٣٣٦ ، ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٠ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٩ ، الوفيات ٢ : ٣٣٦ .

(٥) الوفيات ١ : ٣٣٦ ، ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٠ ، وانظر ديوان ابن مطروح ج ١٩٤ ، ك ١٨٥ ، ل ٦٣ .

(٦) وفيات الاعيان ٥ : ٨٤ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٤ .

ولذا، ليس من المستغرب أن يُنزل الصالح نجم الدين مخدومه البهاء زهير أعلى المراتب « فلما خرج الملك الصالح من الاعتقال، وسار إلى الديار المصرية كان بهاء الدين المذكور في صحبته، وأقام عنده في أعلى المنازل، وأجل المراتب، وهو المشار إليه في كتاب الدرج والمتقدم عليهم وأكثرهم اختصاصاً بالملك الصالح واجتماعاً به» (١). وعند قدوم ابن مطروح إلى مصر وتوليه نظر الخزانة، كان من كتاب الدرج والإنشاء، ومن المعروف أن الكتابة في هذا الديوان يختص بها أشخاص بصفات محددة، ويذكر صاحب كتاب صبح الأعشى أن هذا المنصب «لا يتولاه إلا أجلّ كتاب البلاغة» (٢).

ابن مطروح في دمشق :

وبقي ابن مطروح في القاهرة ناظراً للخزانة حتى عام ٦٤٤هـ، ثم أرسل السلطان الصالح نجم الدين - يطلب الأمير حسام الدين بن أبي علي يأمره بالقدوم عليه (٣)، «وؤلاه نيابة الديار المصرية» (٤)، وأوصاه بحفظها.

وهكذا توجه الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح إلى دمشق نائباً فيها عن السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ووصل دمشق يوم سفر حسام الدين منها، وبقي في القلعة الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير مع رجاله، وأقام جمال الدين بن مطروح بدمشق يرتب أمورهما مع الطواشي (٥).

يذكر ابن خلكان: « ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد المصرية والشرقية وما انضم إليها، سیر ولده الصالح المذكور نائباً عنه، وذلك سنة تسع وعشرين وستمئة، فكان ابن مطروح في خدمته، ولما ملك الصالح مصر سنة سبع وثلاثين وست مئة، تبعه ابن مطروح سنة تسع وثلاثين، فرتبه السلطان ناظراً في الخزانة، ولم يزل بقرب منه،

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٤ .

(٢) القلقشندي ٣ : ٤٨٦ .

(٣) مفرج الكروب ٥ : ٣٧٢ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٢٧ وانظر سير أعلام النبلاء ٢٣ : ١٩٠ .

(٥) مرآة الزمان ٨ : القسم الثاني ص ٧٨٨ وانظر مفرج الكروب ٥ : ٣٧٢، سير أعلام النبلاء ٢٣ : ١٩٠،

العبر ١ : ٢٦٤ ، البداية والنهاية ١٣ : ١٨٢ .

ويحظى عنده إلى أن ملك الصالح دمشق مرة ثانية سنة ثلاث وأربعين وست مئة، فرتب لدمشق نواباً، فكان ابن مطروح في صورة وزير لها وحسنت حاله» (١).

وأصبح ابن مطروح يعرف بلقب «الصاحب الوزير» و «الصاحب» - كلمة تطلق على من تولى الوزارة إذا كان من أرباب الأقلام (٢).

لذا، فلا غرو أن يمدح ابن مطروح الملك الصالح، فقد كتب على باب دار له :

| | |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| دارٌ بنيناها بإحسانٍ مَنْ | لَمْ تَخُلْ دارَ قَطُّ مِنْ رِفْدِهِ |
| الملكُ الصالحُ ربُّ العلى | أيوبُ زادَ اللهُ في مجده |
| اليمنُ والتوفيقُ مِنْ حِزْبِهِ | والنصرُ والتأييدُ مِنْ جُنْدِهِ |
| أغْنَى وأقْنَى فالذي عندنا | من نعمةِ اللهِ ومن عنده |
| فقلْ لحُسادِي ألا هكذا | فليصنع المالك مع عبده (٣) |

ويذكر أنه في يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة ٦٤٤هـ، قدم الصالح نجم الدين أيوب دمشق فأحسن إلى أهلها، وتصدق على المدارس والربط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم، وبيعلبك بعشرين ألفاً، وبيصرى بعشرين ألفاً، وخلع على أعيان الدماشق الخلع السنوية (٤).

تغير الصالح على ابن مطروح :

يذكر ابن الجوزي أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد تغير على ابن مطروح، وانحرف عنه وكان تغيره قبل وفاته، ثم أبعد الملك الصالح إيعاداً كلياً (٥). ولعل إيعاد ابن مطروح عن مسرح الأحداث يعود إلى أسباب عدة :

السبب الأول : مشاركة ابن مطروح للبهاء زهير في غضب الصالح عليه، وذلك من أجل خطأ ورد في كتاب، صدر عن ديوان الإنشاء إلى الناصر داود، ويذكر البهاء زهير هذا الخطأ فيقول : «ان سبب تغيره عليه أنه كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين

(١) الوفيات ٦ : ٢٥٩ .

(٢) انظر الخطط - المقرئ - ٢ : ٢٢٣ .

(٣) الديوان ج ١٨١ ، ك ٨ / ١ ، ل ٥٧ / ٢ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٩ .

(٤) مرآة الزمان قسم ٢ : ٨ : ٧٦٣ .

(٥) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٧ .

الأسطر : أنت تعرف قلة عقل ابن عمي، وأنه يحب من يعظمه ويعطيه من يده، فاكتب له ما يعجبه من ذلك، وسير الكتاب إليه، وهو مشغول، فأعطاه لفخر الدين بن لقمان^(١)، وأمره بختمه فختمه وجهزه ولم يتأمله، وأعطاه للنجّاب، فسافر به لوقته، ولما استبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه، سأل عنه بهاء الدين زهير، وقال: أما وقفت على ما كتبتة بخطي بين الأسطر، وقال ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه، وأخبره أنه سيره مع النجّاب، فسيروا في طلبه فلم يدركوه، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرّك، فعظم عليه وتألم له، وكتب إلى الملك الصالح يعتبه العتب المؤلم، ويقول له : والله ما بي ما يصدر منك في حقي، وإنما بي اطلاع كتابك على مثل ذلك، فعزّ على الملك الصالح، وغضب على بهاء الدين زهير^(٢)، وبهاء الدين لكثرة مروّعه نسب ذلك إلى نفسه، ولم ينسبه إلى فخر الدين إبراهيم ابن لقمان رحمه الله^(٣).

وإذا صح أن هذا هو السبب، فإن الصالح قد تعدى حدود القصاص إلى غير المذنب، فما ذنب ابن مطروح في دمشق ليتحمل خطأ البهاء زهير في مصر، إلا رباط المودة والصحبة التي جمعتهما، وقديم إخلاصهما للصالح ليشركه في الغضب عليه.

السبب الثاني : ذكر ابن الجوزي أنه لما استتاب الملك الصالح وجمال الدين بن مطروح بدمشق مع الطواشي رشيد الكبير - شهاب الدين - وجعله وزيراً، ثم تغير عليه سنة ست وأربعين، ولما قدم الشام عزله واصطحبه معه إلى الديار المصرية في أوائل سنة سبع وأربعين فأقام بالمنصورة إلى أن توفي الملك

(١) فخر الدين إبراهيم بن لقمان ت ٦٩٣ هـ : فخر الدين الشيباني حدث عن ابن رواج وكتب عن البرزالي توفي وصلى عليه بدمشق سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، ولي وزارة الصحبة للملك السعيد ثم وزر مرتين للملك المنصور قلاوون، خدم في ديوان الإنشاء في الدولة الصالحية إلى الدولة الناصرية ... فوات الوفيات ٤٤ : ١

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٥ .

(٣) نفسه ١ : ١٨٦ .

الصالح، وهو متغير عليه معرض عنه بالكلية (١) ..

ويذكر الذهبي أن السلطان الصالح عزله سنة ست وأربعين لأمر بدت منه (٢). مما سبق يتبين أن العزل كان لخلل ما عند ابن مطروح نفسه وليس مشاركة له في الغضب على البهاء زهير، وهذا واضح في الخبر « لأمر بدت منه »، فما هي الأمور التي بدت منه وأدت إلى هذه القطيعة ؟

من خلال البحث، نجد الخبر التالي في أحداث وقعت في نهاية عام ٦٤٥ هـ : في ثالث عشرين ذي القعدة اعتقل عز الدين أيبك في دار فرخشاه بتواطؤ ابن مطروح [لقصة مال] جاء له من حلب من عند الصالح إسماعيل، وأعانه عليه قوم آخرون، فكتبوا إلى الصالح أيوب وأخبروه، فأمر أن يحمل إلى القاهرة تحت الحوطة، فأنزل في دار صواب فاعتقل فيها. وبلغني - أي ابن الجوزي صاحب المرآة - أنه قال لنجم الدين أيوب : إن أموال أبي بعث بها إلى الحلبيين، كانت ثمانين خرجاً فأودعها عند فلان - عني - قال: وبلغ عز الدين اجتماعه بأيوب، فمرض ووقع إلى الأرض، وقال هذا آخر عهدي، ولم يتكلم بعدها حتى مات بباب النصر، فياليته عاش حتى رأى في أعدائه العبر. وأما ابن مطروح فرأى من الذل والهوان، ولعب به القدر ولم يمت حتى كف بصره.

ولما سعى إبراهيم بعز الدين، سعى بحاشيته وقال : عندهم أمواله مثل البرهان كاتبه وابن الموصل صاحب ديوانه، والبدر الخادم ومسرور وغيرهم، فأمر نجم الدين أيوب بحملهم إلى مصر، ولم يظهر عليهم مما قيل درهم واحد (٣).

والخبر السابق يدل على أن ابن مطروح قد اشترك في التواطؤ على أناس في قضية مال، يبدو في قول ابن الجوزي « ولم يظهر عليهم مما قيل درهم واحد »، وقوله متعاطفاً مع عز الدين « فياليته عاش حتى رأى في أعدائه العبر ». فاعتبر أن ابن مطروح ومن معه أرادوا الإيقاع بالآخرين، ومنهم سبط ابن الجوزي الذي اتهموه بأموال أرسلت إلى أعداء الصالح نجم الدين. ولعل هذا الخبر أقرب إلى القبول، ذلك أنه وقع قبل مدة يسيرة من تحرك الصالح إلى الشام مرة أخرى، وعزله.

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٧.

(٢) انظر العبر ٣ : ٢٦٤ .

(٣) انظر مرآة الزمان قسم ٢ : ٨ : ٧٦٧ وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٦ - ١٧ .

فالقصة السابقة وقعت في نهاية سنة ٦٤٥ هـ - في ذي القعدة، « ثم تغير عليه في سنة ست وأربعين لما قدم الشام، وعزله، واستصحبه معه إلى الديار المصرية، في أوائل سنة سبع وأربعين، فأقام في المنصورة وهو متغير عليه معرض عنه بالكلية » (١). السبب الثالث لنكبة ابن مطروح ورود في هامش ديوان البهاء زهير الطبعة المنيرية حيث أورد من قاموا بالتعليق على الديوان العديد من الحواشي دون أن يشيروا إلى مصدرها، ودون أن تذكر إدارة المطبعة المنيرية من الذين قاموا بوضع هذه الحواشي ومن ذلك ما ورد في هامش إحدى الصفحات عند الترجمة لابن مطروح يُذكر أن ابن مطروح « توفي قبل البهاء زهير بسبع سنين شريداً خائفاً من مخدومه الملك الصالح، حيث فعل فعلته التي ذكرها في قصيدة له، فكانت سبب نكبته، وهو الجاني على نفسه، وهي مذكورة في ديوانه » (٢).

ورود في موضع آخر أيضاً في الترجمة لابن مطروح « هو جمال الدين يحيى ابن مطروح » وله ديوان شعر فيه تلك القصيدة التي يقول فيها : حيّ على خير العمل وقد كانت سبب نكبته، وهكذا :

من لم يقف عند انتهاء حده تقاصرت عنه فسيحات الخطا (٣)
والبيت المقصود ورد في القصيدة التي مطلعها :

| | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| فواعبياً لأسيرٍ قتل (٤) | خُذوا قَوْدِي مِنْ أَسِيرِ الكَلَلِ |
| | ويقول فيها : |
| وعما جرى بيننا لا تسَلْ | وجادَ الزمانُ به ليلةً |
| قِ وذبَلتْ مرشَقَهُ بِالْقَبْلِ | فأنحلتُ قامَتَهُ بالعِنا |
| وأشرفْتُ من نَجْدِ ذاكِ الكَفَلِ | وكم تُهتُّ في غورِ حَصْرِ لهُ |
| بحيِّ على خيرِ هذا العَمَلِ | وأُننْتُ حين تجلَى الصبَاحُ |
| وتزَعُمُ أن الرشا ما وصل | وإن كنتَ تُتَكْرُ وصلاً جرى |

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٨ .

(٢) ديوان البهاء زهير - الطبعة المنيرية - ص ٢٠ ، انظر حاشية الديوان .

(٣) نفسه ص ١٨٤ ، والديوان فيه صفحتان مرقومتان برقم ١٨٤ خطأ فالخبر في الثانية ، انظر حاشية الديوان .

(٤) الديوان ج ٢١٧ ، ل ٥٤ / ١ ، ش ٢٦ - ٢٧ ، ط ١٣ / ١ .

فها أثر المسك في راحتني وهذا فمي فيه طعم العسل (١)

إن قوله «حي على خير العمل» وهو من المعتقدات الشيعية ربما كان سبباً في حنق الملك الصالح عليه وإبعاده.

السبب الرابع : ولعل من الأسباب التي أدت إلى غضب الصالح عليه اتصال ابن مطروح بآل شيخ الشيوخ، ومنهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ* ، وقد كان فخر الدين وإخوانه أفاضل رجال الصالح نجم الدين. وقد مدحهم ابن مطروح في فترة صاحب مرض الصالح وانحباسه في قصره بسبب ذلك، وأبناء شيخ الشيوخ كانوا في مكانة عظيمة لدى الكامل والد الصالح، وكانت أمهم «أرضعت الملك الكامل، فكان أولادها الأربعة إخوته من الرضاعة، وكان يحبهم ويعظمهم، ويقدمهم كثيراً خصوصاً الأمير فخر الدين، فإنه لم يكن عنده أحد في مكانته لا يطوي عنه سراً، ويعتمد عليه في سائر أموره، ويثق به وثوقاً عظيماً» (٢).

ولعل هذا الأمر لم يكن يعجب الصالح فما إن مات الكامل وملك الصالح البلاد، حتى «أعرض عن الأمير فخر الدين وأطرحه واعتقله، ثم أفرج عنه وأمره بلزوم بيته، ثم ألجأته الضرورة إلى ندبه في المهمات لما لم يجد من يقوم مقامه» (٣)، ولعل الصالح نجم الدين كان يخاف محبة الناس لهم وأنهم يصلحون للرياسة من بعده أو يغلبونه على الحكم إن أقعده المرض.

وكان ابن مطروح يمدح أبناء شيخ الشيوخ ومن ذلك قوله :

(١) الديوان ج ٢١٧.

* فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ (٥٨٢ - ٦٤٧ هـ) ولد بدمشق حفظ الحديث وصار صدراً معظماً، غضب عليه الصالح نجم الدين سنة ٦٤٠ هـ وسجنه ٣ سنوات ثم عفا عنه، استشهد بالمنصورة مجاهداً سنة ٦٤٧ هـ. انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢١٢ - ٢١٦، سير أعلام النبلاء ٢٣ : ١٠٠، العبر ٣ : ٢٥٨، شذرات الذهب ٥ : ٢٣٨.

(٢) انظر ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢١٥، وأبناء شيخ الشيوخ هم فخر الدين، وعماد الدين، ومعين الدين، كمال الدين.

(٣) نفسه ٢ : ٢١٥.

بِكُمْ يَا بَنِي شَيْخِ الشُّيُوخِ تَأَيَّدَتْ
 قَوَاعِدُ هَذَا الْبَيْتِ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهُ (١)
 وَكُتِبَ إِلَى عِمَادِ الدِّينِ بْنِ الشَّيْخِ يَمْدَحُهُ :
 وَكُلُّ خَضَابٍ سَوْفَ يَنْصَلُّ صَيْغُهُ
 وَمَا لَخَضَابِ الْوَدِّ فِيكَ نُصُولُ
 وَوَاللَّهِ لَا أُنْسَى جَمِيلَكَ لَوْ غَدَّتْ
 تَدَافَعُنِي عَنْهُ قَنَأٌ وَنُصُولُ (٢)

وله شعر يمدح فيه معين الدين (٣) ولكن الاتصال المميز كان اتصال ابن مطروح
 بفخر الدين وقد استمر كذلك، إلى يوم استشهاد فخر الدين مرابطاً في المنصورة أمام
 الفرنسيين، فنجدته يمدحه قبل هذه الحادثة بقوله :-

نَسِيبٌ بِمَدْحِ ابْنِ الْوَزِيرِ وَصَلْتُهُ
 كَمَا وَصَلَ الْيَاقُوتُ بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ
 كَسَوْتُ بِفَخْرِ الدِّينِ شِعْرِي مُحَاسِنًا
 فَأُضْحِي لَهُ فَخْرٌ عَلَى السَّبْعَةِ الشُّهْبِ (٤)
 وَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ صَلَّى ابْنُ مَطْرُوحٍ بِبَنِي شَيْخِ الشُّيُوخِ وَمَدَحَهُ لَهُمْ بِشِعْرٍ كَثِيرٍ أَدَّى إِلَى
 غَضَبِ الصَّالِحِ عَلَيْهِ وَامْتِلَاءِ صَدْرِهِ ضَدَّهُ .

* * *

وبعد وفاة الصالح، واستشهاد فخر الدين في المنصورة، يستمر غضب الأمراء
 الذين أمسكوا زمام الدولة، على ابن مطروح، ولذا، نجدهم ينبذون ابن مطروح إلى أن
 يموت بعد حادثة المنصورة بسنتين، ولعل سبب غضبهم يرجع أيضاً إلى انتصار ابن
 مطروح للملك المعظم توران شاه بن الصالح، ومدحه له، وطلب القدوم إلى القاهرة
 ليستلم مكان أبيه، فبعد أن يقتله مماليك أبيه ينتقل البغض إلى ابن مطروح.
 وكان ابن مطروح الشاعر الوحيد الذي رثا فخر الدين (٥).

وبعد استشهاد فخر الدين، ينكشف ظهر ابن مطروح للطاعنين، وتزداد أموره
 سوءاً إذ بعد عدة أشهر يقتل توران شاه وريث عرش الدولة الصالحية، على يد مماليك
 أبيه، بدافع من الوفاء، ويرثي ابن مطروح توران شاه بأبيات يُعرض فيها بقاتليه فيقول:

(١) الديوان ج ١٨٩ ، ك ١٢

(٢) انظر نفسه ج ١٩١ ك ١٣ / ٢ / ٦٢

(٣) نفسه : ١٩٢ ، ك ١ / ١٤ ، ل ١ / ٦٣

(٤) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ٢١

(٥) انظر : ذيل مرآة الزمان ٢ / ٢١٨ .

يا بعيدَ الليلِ من سَحَرِهِ
 خَلَّ ذَا واندبَ معي مَلِكاً
 كانت الدنيا تطيبُ لنا
 سَلْبَتُهُ المَلِكِ أَسْرَتُهُ
 حسدوه حينَ فَاتَهُمُ
 دائماً يبكي على قَمَرِهِ
 ولت الدنيا على أَثَرِهِ
 بينَ باديهِ ومحتَضَرِهِ
 واستووا غدراً على سُرُرِهِ
 في الشبابِ الغضُّ من عُمُرِهِ (١)

فلعل اتصال ابن مطروح بفخر الدين ساهم في إثارة حفيظة الأمراء الصالحية عليه في أثناء حياة فخر الدين، وزاد الأمر بعد استشهاده. ولم يكتف ابن مطروح بهذا بل ذهب يرثي توران شاه، فكان الغضب عليه شديداً.

حاول ابن مطروح، في فترة غضب الصالح عليه جاهداً أن يبرئ نفسه وأن يعتذر إليه، فنجده يقول شعراً دون أن يحدد لمن ولكن الشعر يدل على الصالح.

من مبلغ عني المليك الأروعا
 يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم
 عن عبده يحيى مقالاً مُقْتِعَا
 هيمم بها سدوا الفضاء الأوسعا

وبعد هذا المدح، يعاتبه ويتساءل عن سبب إبعاده فيقول :

أيجوزُ أن أبقى بيبانك ظامناً
 ولو ادعيت بأن مالك ناصح
 ولطالما جربتني فوجدتني
 فعلام بعد الاصطفاء نبذتني
 وسمعت في حقي كلام معاشر
 أأودكم في عنفوان شبيبي
 ونذاك قد وسع الخلاق أجمعا
 مثلي شهدت بصدق هذا المدعى
 أجدى من الملاء الكثير وأنفعا
 نبذ النواة بقول واش قد سعى
 أقصى منا هم أن أبيت مضيعا
 وأحول إذ عهد الشبيبة ودعا (٢)

تدل الأبيات السابقة دلالة واضحة على أن الشاعر كان من الأصفياء فنبذته، وتشير هذه الأبيات إلى سبب من أسباب نكبة ابن مطروح، وهو سبب يتمثل في وشاية ضده، ويحاول الشاعر أن يذكر السلطان بسالف خدمته، وهو غض الشباب، ولكن الصالح لم يكن من الذين يعفون عن زلة، فقد قيل إنه كان كثير التخييل والمواخذة على الذنب

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٦٥ وأيضاً هذا الشعر ليس في الديوان .

(٢) الديوان ج ١٨٤ .

الصغير، والمعاتبة على الوهم، لا يُقبل عثرة، ولا يُقبل معذرة، ولا يراعي سالف خدمة، والسيئة عنده لا تغفر، والتوسل إليه لا يُقبل، والشفاعة لديه لا تؤثر، ولا يزداد بهذه الأمور التي تسألُ سخائم الصدور إلا حقدًا وانتقامًا، وكان ملكاً جباراً متكبراً شديداً السطوة، كثير التجبر والتعاضم، يتكبر على أصحابه، وندمائه وخواصه (١).

وما بين غضب الصالح على ابن مطروح سنة ٦٤٦ هـ ووفاة الصالح في نصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ، أي حوالي العام يبقى ابن مطروح رغم اعتذاره الشديد منبواً بالكلية (٢).

وما إن يتوفى الصالح حتى يبادر فخر الدين بسرعة تقريب ابن مطروح « فإنه كان يعرف مكانته، ويقربه غاية التقريب، وكان لا يصدر إلا عن رأيه، فعلم الناس بهذه القرينة بوفاة الصالح إذ لو لم يكن قد توفي لم يجرؤ فخر الدين على تقديم ابن مطروح » (٣).

لقد كانت وفاة الصالح في نصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ، كما تقدم، وكان استشهاد فخر الدين في ٥ من ذي القعدة من نفس السنة* وكانت المدة بين التاريخين المذكورين حوالي أربعة أشهر قرّبها فيها فخر الدين.

ويبدو ان ابن مطروح قد عانى كثيرا في السنة التي أقصاه فيها الملك الصالح، إذ نجده بعد أن يلتفت إليه الأمير فخر الدين تدب الحياة فيه من جديد، ونلمح ذلك في شعره، ويذكر ذلك في قصيدته يمدح بها فخر الدين، ومطلعها :

هي رامة فخذوا يمين الوادي ودعوا السيوف تقر في الأغمام (٤)

ويشيد بفخر الدين، ويعلم ولاءه له، كما يبدو في قوله :

أصبحت مالي في الصباية مشببة وكذلك فخر الدين في الأجواد
شرفاً بني شيخ الشيوخ ومن بهم مصرّ غدت تزهو على بغداد
ميزتكم فوجدتكم خير السورى والتبر لا يخفى على النقاد

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٧، مفرج الكروب ٥ : ٣٧٢، العبر ٣ : ٢٥٨، شذرات الذهب ٥ : ٢٣٨ .

(٣) نفسه ١ : ١٩٧ .

* انظر الوفيات ٥ : ٨٤ .

(٤) الديوان ج ١٨٥، كوبر ١/١٠، ش ٩، ط ١/٦، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦ .

فلأجعلن ولاءكم لي قبلــــةً وثشاءكم عوضاً عن الأوراد
ثم يذكر ما أصابه قبل هذه الفترة، وأنه قد تعافى من الظلم بمجيء فخر الدين :
يا دهر لا تمدد لظلمي بعدها كفاً فما لك طاقةً بعنادي
أنا في حماية واحد لكنه وأبيك أغناني عن الأعداد
بقدومه قدم البشير كأنما كانا ولا افترقا على ميعاد

بعد ذلك يطلب ثواب قصيدته، فماذا يطلب؟؟ إنه لا يطلب مالاً، ولكنه يطلب ما
افتقده بعد إقصاء الصالح له، فبعد إبعاد الصالح له امتنع الكثيرون عن وصله خشية
غضب الصالح، فيذكر جائزته على القصيدة صراحة :

إن كنت لي عنها مثيراً فاحببني بالعز وانظر لي بعين وداد
وارفع محلي واعطف الأيام لي فالجاه أليق لي من الإرفاد
فإليك قد هاجرت لا ألوي على أحد ولا أعطي سواك قيادي

والأبيات الأخيرة توضح مطلبه بشكل جلي وهو مطلب يتمثل في العز والجاه، فهما أليق
به. وفي ذلك دلالة بليغة على أن الأيام قبل مجيء فخر الدين كانت كالخيل تركض
ضده، فيريد من فخر الدين أن يعطف الأيام بالعز والجاه كما كانت حاله سابقاً .
ولكن يبدو أن الأيام بعد فخر الدين استمرت تركض ضد ابن مطروح ولم تجد من
يعطفها إلى أن مات.

إن الأيوبيين قد اهتموا بجميع علوم عصرهم، بسبب وقوعهم في قلب الصراع وذلك يبرز من خلال حاجاتهم لما يدعم معركة الجهاد التي خاضوها ضد الصليبيين المعتدين، فطبيعة المعركة أوجبت أن يكون التصدي لها عقائدياً واضحاً، فلا عجب إذا رأينا أهل ذلك العصر وخصوصاً الحكام من بني أيوب يهتمون بجميع جوانب الإسلام من عقيدة وحديث وفقه .. الخ، لترسيخ معاني الشرع الشريف في قلوب الناس مرتكزين على نشر علوم القرآن في جميع مجالات الحياة.

وهذا يتضح من خلال إنشاء العديد من المدارس في المساجد أو بجوارها، إضافة لوقف الأوقاف على طلبية العلم، ولعل من أوضح معالم هذه النهضة الشرعية ما نُقل لنا من اهتمام الكامل بالحديث الشريف، ويبرز ذلك من خلال الأخبار التي تروي لنا أنه كان يلزم العلماء والفضلاء ويشاركهم في مطارحاتهم ومناقشاتهم إضافة لبنائه دار الحديث (١) .

وإذا كان ابن مطروح قد نشأ في قوص، وهي بلدة مزدهرة بالعلم، فمن الطبيعي أن يتأثر بذلك، وأن ينهل من علماء هذه البلدة خاصة، وأن العلماء قد وصفوها بأنها قاعدة لإقليم عظيم يسمى الأعمال القوصية، وأنها دهليز مكة (٢).

ويذكر اليونيني ابن مطروح فيقول «كان من حسنات دهره متنوعاً في العلوم» (٣)، ويذكره الذهبي فيقول «برع في الأدب» (٤). وإذا كان ابن مطروح قد أصبح من الوزراء الكتاب، فهذا يعني ثقافة مميزة أهّلته ليكون في هذا الموقع المتقدم بين رجالات دولة الصالح، لأن الكاتب يجب أن يكون من «أجلّ كتاب البلاغة» (٥)، وابن مطروح تولى «نظر الخزانة» (٦) ومن يتولى نظر الخزانة يكون على علم واسع في جوانب شتى منها الحساب، والفروض (المواريث)، والزكاة، وديوان الجيش، والجزية،

(١) وفيات الأعيان ٨٠/٥

(٢) الأنفوي، الطالع السعيد ٢٠ وما بعدها .

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٨

(٤) العبر ٣ : ٢٦٤

(٥) صبح الأعشى ٣ : ٤٨٥ - ٤٨٧

(٦) الوفيات ٦ : ٢٥٩

والخراج، والصادر والداخل، إضافة لصفات الأمانة وحسن السياسة وكتمان السر، والحرص، ودقة الضبط، هذا في الجانب الإداري/

يضاف إلى أن ثقافة ابن مطروح تتضح من خلال سفارته بين مخدومه وبين العديد من الملوك خصوصاً في أحداث سنة ٦٣٧ هـ في الصراع على خلافة الكامل بين الصالح من جهة وسائر ملوك بني أيوب^(١) إذ لم يكن الصالح ليرسل ابن مطروح في هذه المهمات الصعبة لولا ثقته بعقله وحكمته، وصواب رأيه.

وينتهي الأمر بابن مطروح ليصبح وزيراً على دمشق، وهذا يدل على مزايا سياسية في شخصيته تركز على ثقافة رفيعة امتاز بها.

«إذ لا بد لهم من معرفة العلوم المختلفة من دينية ولغوية ودواوين الشعر القديم ومعرفة أخبارهم، ومعرفة أيام العرب وأمثالهم»^(٢).

والبيونيني يذكره فيقول «ولجمال الدين ترسل حسن»^(٣)، «وأنه صاحب التصانيف المفيدة في الأدب»^(٤) وابن مطروح يتحدث عن نفسه فيقول :

إن شئت نظماً فالذي أمليته أو شئت نثراً فاقترح واستحسن^(٥)

ولكن الأخبار لا تحمل لنا أي قطعة نثرية له حتى ولو كانت قصيرة، وكل الذي له من آثار أدبية هي ديوان شعره .

وتبدو ثقافة العصر واضحة في شعر ابن مطروح ، فالمؤثرات الدينية بارزة بشكل جلي فيه، فنراه يقتبس من القرآن الكريم، بأخذه لمعنى آية، أو حتى نص آية أو جزء من المعنى، أو جزء من الألفاظ، ومن ذلك :

| | |
|--------------------------|--|
| لما بدا للغانيات وقد بدا | من حسنه ما لا يحدُّ ويوصف |
| قطَّعن أيديهن حين رأينه | [لَمَّا] افتتنن وقلن هذا يوسف ^(٦) |

(١) مفرج الكروب ٥ : ٢١٩، وفيات الأعيان ٦ : ٢٥٩، السلوك ٢ : ٢٩١

(٢) المثل السائر ١ : ٧٣ - ٧٤

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٩٨

(٤) حسن المحاضرة ١ : ٥٦٧

(٥) ديوان ابن مطروح ج ١٧٧، وك ١ / ٦ .

(٦) ديوان ابن مطروح برل ٢١ / ١، ش ١٨، ط ١٠ / ١. وفي ل (بما) ، ووردت (لَمَّا افتتنن) في ش وط.

يشير إلى قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا وَّءَاتَتْ كِسْفًا وَّاحِدَةً مِنْهِنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجَ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله :

ذكر الصيا فصبا وكان قد ارعوى صباً على عرش الغرام قد استوى (٢)
 يشير إلى قول الله تعالى في فواتح سورة طه عليه السلام ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٣) . وقوله :

واضمم اليك جناح ملكٍ بالسماك قد التحق (٤)
 يشير إلى قول الله عز وجل ﴿ واضمم بذلك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ (٥) .

وقوله :

وفي القلب نار للخليل توقدت وما نقت منها لا سلاماً ولا برداً (٦)

يشير إلى قول الله عز وجل : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ (٧)
 وقوله :

نحن في منزل هو النار حراً ولکم منزل كجنة خلد
 فأفيضوا فيه علينا من الماء ء ومطلوب ما سواه تعدي (٨)

(١) يوسف ٣١

(٢) الديوان : برل ٢٢ / ١ ، برط ٥ / ١ ، و ماش ٦ / .

(٣) طه : ٥

(٤) ديوان ابن مطروح ١٧٩ ، وانظر ك ٧ / ١ .

(٥) طه : ٢٢ .

(٦) ديوان ابن مطروح (خ) ش : ٤ ، ط : ٤ ، والقصيدة لم ترد في المطبوع .

(٧) الانبياء : ٦٩ .

(٨) ديوان ابن مطروح ٢١١ ، وانظر ك ٢٤ / ١ .

يشير قول الله عز وجل : ﴿ وَنَادَى اصْحَابُ النَّارِ اَصْحَابَ الْجَنَّةِ اَنْ اَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ اَوْ نَمَّا رَزَقكُمْ اللهُ قَالُوا اِنْ اللهُ حَرَمَهُمَا عَلَي الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .
ومثال هذا الامر في شعر ابن مطروح كثير .

يضاف إلى هذا ، ان ابن مطروح كان على اطلاع بعلوم القرآن ، وهذا يظهر في ثنايا شعره أيضاً إذ يقول :

وقد نسخت لي آية السُّخْطِ بِالرِّضَى ولم أرَ مثلاً اليُسْرِ يَأْتِي عَلَى الْعُسْرِ (٢)
وفي ذلك تبيان لمدى معرفة ابن مطروح بعلوم القرآن فهو يشير إلى معرفته بالناسخ والمنسوخ في آيات الله .

وابن مطروح على دراية بعلم الحديث، فهو يذكر معاني الأحاديث في ثنايا شعره ، ومن ذلك :

ويكفيك قول المصطفى وهو الذي به صار في كل الدهور التوسلُ
وقد سألوه عنه قال بل اعملوا وفي خيرٍ قال اعقلوا وتوكلوا (٣)
وفي هذا القول تضمنين لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (اعقل وتوكل) ، وهنا أورد ابن مطروح نسبة القول صراحة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إضافة لمتن الحديث بشكل مباشر .
ومن ذلك أيضاً :

ومن يسع في تنفيس كربة مسلمٍ برحمة قلبٍ منه فالله حسبه (٤)
وهو هنا يشير إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من نفس عن مسلم كربةً نفساً الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة) . ومثله الكثير .

وابن مطروح على دراية بعلم مصطلح الحديث إذ يقول :

وروى الأراك محاسناً عن ثغره يا نعم ما نقل الأراك وما روى (٥)
يشير إلى علم الراوية .

(١) الاعراف : ٥٠ .

(٢) ديوان ابن مطروح : ١٩٨ ،

(٣) ديوان ابن مطروح ٢١٥ ، وانظر ٢٦ / ٢ ، ول ١ / ٦٦ .

(٤) ديوان ابن مطروح ٢١٥ ، وانظر ٢٦ / ١ ، ول ٢ / ٦٥ .

(٥) ديوان ابن مطروح (خ) ل ٢٢ / ١ ، وانظر ط ٥ / ١ ، وش ٦ ، وهي لم ترد في المطبوع .

ويقول :

من معشر تروي العدا خبر العُلا
عنهم وتسنده إلى الحساد^(١)
يشير بذلك إلى إسناد الرواية من خبر ورجال وسند .

ويقول :

ولا زال موقوفاً على الدمع ناظري
متى لم يبت وجداً عليك مسهداً^(٢)
وهو يشير إلى الحديث الموقوف .
والأشارات إلى السند والرجال والرواية كثيرة في شعر ابن مطروح .

ولابن مطروح علم بالفقه :

إذا ما وجدت البحر سهلاً وروده
فما لك وجة في التيمم بالتراب^(٣)
يشير إلى التيمم والاستعاضة عن الوضوء به والقاعدة المعروفة :
« إذا حضر الماء بطل التيمم » .
وقوله :

وخلوة فسقت فيها نواظرنا
وإنما طهرتها عفة الشيم^(٤)
يشير إلى الخلوة الشرعية، وإلى الفسق، وإلى النظرة المحرمة وكذلك إلى الطهارة.

ولابن مطروح دراية بالتقسيمات الفقهية بين الأئمة الكبار . فيقول :

وباتت أباريق المدام لديهم
وقد جعلوا قول العراقي حجة
وهو هنا يشير إلى رأي أبي حنيفة - العراقي - في النبيذ ، والذي يعتبر النبيذ من التمر
لا يدخل تحت باب التحريم ، في حين يرى الشافعي - المكي - أن النبيذ محرّم .
وقوله وقد زار قبر الامام الشافعي فوجد هناك عماد الدين بن الشيخ فقال :

(١) ديوان ابن مطروح ١٨٦ ، انظر ك ١٠ / ٢ .

(٢) انظر نفسه (خ) ط ٤ / ١ ، وانظر ش ٤ ، وهي لم ترد في المطبوع .

(٣) نفسه ٢٠٧ وانظر ٢١ .

(٤) نفسه (خ) ط ١٤ ، وش ٢٨ .

(٥) نفسه (خ) ط ١١ / ١ ، ش ٢١ ، ل ٣٥ / ٢ ، ولم ترد في المطبوع .

عند الامام الشافعي لقيته
فظفرت عند الشافعي بمالك ي(١)
يشير إلى مذهب الشافعي ومذهب مالك بن أنس .

وابن مطروح بصير بقواعد الاستنباط الشرعي من قرآن وسنة واجماع وقياس
ويستعملها في شعره إذ يقول :
من كل رام حاجباً بشبيهه
وعلى القياس فمقلتاه اسهم(٢)
وقوله :

نفضت يدي من كل من وطئ الثرى سواك وليس الملح كالبارد العذب(٣)
وهنا تبرز عقلية من يقيس الأشباه بالنظائر فليس الملح كالعذب .

ولعلم التوحيد أثر واضح كل الوضوح في ثقافة ابن مطروح ويبدو بشكل بارز
في ثنايا شعره :

وحللت حيث ترى الأنام شواخصاً لجلال منفردٍ عن الأنداد(٤)
فهنا يذكر التفرد - وهي صفات الله عز وجل ، وتنزيهه الله عز وجل عن الأنداد وهو
يشير إلى الوحدانية التي لا شريك معها .
وقوله :

والله لولاكم بين الورى ضلّوا فما وجدوا لهم من [هادي](٥)
وهو هنا يشير إلى الضلال والهدى .
ولابن مطروح معرفة واسعة بالقضاء وتكاد لغة القضاء تلازم شعره بشكل كبير ومن
ذلك :

خذوا قوادي من أسير الكلل فواعبياً لأسير قتل(٦)

(١) ديوان ابن مطروح ١٩٢ ، وك ٤١ / ١ ، ول ٦٣ / ١ .

(٢) انظر نفسه (خ) ط ١٤ / ٢ ، ش ٣٠ ولم ترد في المطبوع .

(٣) نفسه ٢٠٧ ، وك ٢١ .

(٤) نفسه ١٨٦ ، ك ١٠ / ٢ .

(٥) نفسه ١٨٦ ، ك ١١ / ١ . كلمة هادي كذا وردت في نسخ الديوان، والصواب هادي.

(٦) نفسه ج ٢١٧ ، ل ١ / ٥٤ ، ش ٢٩ ، ط ١٣ / ١

والقَوْد هي الاموال تؤخذ بدل الاصابة او القتل في حالة التصالح، أو هي أخذ المثل من إصابة أو قتل من المسبب في حالة رفض أولياء المصاب أو القتل أخذ المال واصرارهم على معاملة المسبب بنفس عمله .
وقوله :

باتت ويديّ موضع العقد بها
وهنا يشير إلى الجناية .
وقوله :

فإن عشتُ وقد صدّ
وهنا يذكر الدعوى دون الوصول إلى الحق .
وقوله :-

وإن عاقبتني فبوجه عدلٍ
وهنا يذكر العدل، وجه الحق، وهذه تعبيرات القضاة .
وقوله :-

قلتُ خذي المعصفر أوفى شهودي
وهنا يذكر «أوفى شهودي» أي الشهود المستكملين لشروط الشهادة، ثم يذكر التجريح الذي يتعرض له الشهود عند رد شهادتهم .
وقوله :-

وفي كل يوم على عينه
إشارة إلى الولاية والعزل .
وقوله :-

رحلتُم وطلقت المسرات بعدكم
يشير إلى الطلاق والرجعة .
ثلاثاً وراجعت الهموم على رغمي^(١)

(١) ديوان ابن مطروح (خ) ط ١٧ / ٢ ولم ترد في غير هذه النسخة .

(٢) انظر نفسه (خ) ل ١٠ ، وقد وردت في برلين فقط .

(٣) نفسه ٢١٤ ، ل ٦٠ .

(٤) نفسه ٢١١ ، ك ٢/٢٤ ، ل ٢/٢٠ .

(٥) نفسه ٢٠٦ .

(٦) نفسه ١٩٤ ، ك ١/١٥ ، ل ٢/٥٩ .

وابن مطروح على علم بالتصوف وأهله وشعرهم ويضمّن شعره بعض الإشارات الصوفية، ومن ذلك :-

أنا من جبلت على الغرام من الصبا وبه سألقى الله يوم معادي
فإذا أتى العشاق كنت أميرهم وجميع من قتل الهوى أجنادي (١)
يشير إلى أهل العشق الإلهي وأميرهم - على غرار ابن الفارض .
وقوله :-

لو كنت رأيتنا لقلت اتحدا كالخمرة إذ مزجتها بالماء (٢)
يشير إلى الاتحاد والحلول .

وابن مطروح يقرأ دواوين الشعر للسابقين ويتأثر بها ومن ذلك :
لم أنس وقد زارت على استحياء كالبدر سرت في الليلة الظلماء (٣)
يشير إلى قول أبي فراس « وفي الليلة الظلماء يفقد البدر » .
وقوله :

أخنساء ما قلب المتيّم من صخر فيقوى على حمل الصباية والهجر (٤)
يشير إلى قصة الخنساء المعروفة في الشعر وراثتها لشقيقها صخر .
وقوله :

ولقد ذكرتك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شرع (٥)
يشير إلى قول عنتر « لقد ذكرتك والرماح نواهل ... » .
وقوله مادحاً البهاء زهير :

ألا لا تذكروا هريماً بخيرٍ فما هرمٌ بأكرمٍ من زهير (٦)

(١) ديوان ابن مطروح ١٨٥، وانظر ك ٢/١٠، ش ٩، ط ٦

(٢) انظر نفسه ٢١٦، ك ٢٦، ش ٣٦، ل ٦٤

(٣) نفسه ط ١٧ . ولم ترد في المطبوع .

(٤) نفسه ١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٧، ش ١٢ .

(٥) نفسه ١٩٥، ك ٢/١٥، ل ١/٦ .

(٦) نفسه ١٩٤، ك ١/١٥، ل ٦٣

يشير إلى الحائثة المعروفة مع زهير بن أبي سلمى عندما كان يمدح هرما فيعطيه كلما
 رآه .
 وقوله :

وبالعيون التي في طرفها مرض وبالخدود إذا احمرّت من الخجل^(١)
 يشير إلى قول جرير « إن العيون التي في طرفها حور ... »
 ومن ذلك العديد من الإشارات .

وابن مطروح يستعمل مخزونة من أمثال العرب في شعره، ومن ذلك :

محجوبة وحديثها بين الورى . إن الاناء بما وعاه ينضح^(٢)
 يشير إلى المثل «كل اناء بما فيه ينضح» .

وابن مطروح على معرفة واسعة بعلوم اللغة إذ تبرز معرفته بالنحو عند قوله :-
 وتكسر لي أجفانها عند ضمها فتجبرني في ذلك الضم بالكسر^(٣)
 يشير إلى الحالات الاعرابية المعروفة من كسر وضم .
 وقوله :-

أعربت في هام العدى لغة الردى ورفعتها بعوامل المران^(٤)
 وهو هنا يشير إلى الإعراب واللغة والرفع والعامل وكلها من مصطلحات أهل اللغة.

ومن صنوف البلاغة يستخدم ابن مطروح عدة أشياء مثل :
 سقاني من الأحداق أقداح قهوة فلا زلت ذا سكرٍ به وخمار^(٥)
 استخدم المجانسة في قوله : أحداق وأقداح .

(١) ديوان ابن مطروح ٢١١ ، ك ٢٤٤ / ١ ، ل ٦١ .

(٢) انظر نفسه ١٧٣ ، ك ٢/٣

(٣) نفسه ١٩٨ ، ك ١٧٥ ، ل ١٦ ، ط ٧ ، ش ١٢

(٤) نفسه ١٧٦ ، ك ٢/٤

(٥) نفسه (خ) ط ١/١٧ ، ش ١١ ولم يرد في المطبوع .

وقوله :

تزيدين عزاً كلما زدتُ ذلّةً
ولولا الهوى ما ذلت الأسد للعفر (١)
استخدم المطابقة في قوله « عزاً ذلّةً ».

ولابن مطروح معرفة بعلم الفلك فما هو يقول :

كرة الأرض مع محيط السماء لك أهديت يا كريم الإخاء (٢)

فهنا يشير إلى مجسم الأرض وإلى ما كان يصنعه الفلكيون من رسم صورة لقبة السماء تبين مواضع النجوم والمجموعات النجمية المعروفة .

وهكذا نرى ابن مطروح على علم واسع ودراية جيدة بعلم عصره، من لغة وعلوم دينية، وإطلال على الأدب القديم، إضافة لمعرفة بالحساب والفلك وغيرها من العلوم اللازمة لرجل دولة عادي، ناهيك عن وزير، إضافة لما امتاز به من قدرة شخصية مكنته العيش بين الساسة فترة طويلة، وهذه الثقافة تعطينا فكرة واضحة عن هذه الشخصية المميزة التي وظف بها صاحبها كل العلوم التي تناولها ضمن إطار شعره.

(١) ديوان ابن مطروح ١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٧، ش ١٢

(٢) نفسه ١٩٤، ك ١٥، ل ٥٩ .

وفاته :

بعد المعاناة التي تعرض لها ابن مطروح في أخريات أيامه من إبعاد ونبذ، وقع فريسة المرض الذي أنهك قواه، وذهب بمعظم بصره، وبقي حبيس بيته يتضرع إلى الله أن يغفر له، ويرحمه، كما يظهر ذلك في ديوان شعره، عندما قال العديد من المقطعات الشعرية آنذاك بهذا الغرض، إضافة إلى أنه قد أملى ديوانه على قريبه غياث الدين في تلك الفترة أيضاً، والتواريخ المثبتة على العديد من قطعه الشعرية تظهر ذلك، إلى أن وافاه أمر الله ﷻ

ويذكر السيوطي أن ابن مطروح «قد توفي سنة أربع وخمسين وستمائة»^(١) ٦٥٤هـ، في حين ذكره ابن كثير فيمن توفي سنة خمسين وستمائة إذ يقول «ثم دخلت سنة خمسين وستمائة وفيها كانت وفاة جمال الدين بن مطروح...»^(٢) ٦٥٠ هـ.

ولكن الأظهر والأقوى ما أورده صديقه ومعاصره ابن خلكان أن وفاته كانت سنة ٦٤٩هـ إذ يقول: «وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة بمصر، وحضرت الصلاة عليه»^(٣) به.

والخبر السابق مهم، لأن ابن خلكان ارتبط معه عبر سنين طويلة بعلاقة صداقة ومودة، إضافة إلى دقته في نقل وإثبات المعلومة، وما صاحب أمر هذا الخبر إذ يقول: «وحضرت الصلاة عليه» فهو نقل يتم من مشاهد ومعاین، علم بالوفاة، وسار في الجنازة، وصلى على الميت، وحضر الدفن، فالأظهر أنه توفي سنة ٦٤٩ هـ ليلة الأربعاء مستهل شعبان.

وكانت وفاة ابن مطروح بالقاهرة ودفن «بسفح الجبل المقطم»^(٤)، «بسارية في القرافة»^(٥)، «وكانت له جنازة عظيمة»^(٦).

(١) حُسن المحاضرة ١: ٥٦٧.

(٢) البداية والنهاية ١٣: ١٨٢.

(٣) الوفيات ٦: ٢٦٦، وانظر: مرآة الزمان ص ٧٨٨، ذيل مرآة الزمان ١: ٢٠١، العبر ٣: ٢٦٤، سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٧٣، المسجد المسيوك ص ٥٨٥، شذرات الذهب ٥: ٤٧، كشف الظنون ١: ٧٦٨.

(٤) الوفيات ٦: ٢٦٦ وانظر ذيل مرآة الزمان ١: ٢١١.

(٥) مرآة الزمان ص ٧٨٨.

(٦) نفسه.

الفصل الثاني

مصادر شعر ابن مطرح

- الديوان المطبوع
- المخطوطات
- المصادر الأخرى
- إختلاط شعره بغيره

الفصل الثاني

مصادر شعر ابن مطروح :

عند الحديث عن شعر ابن مطروح لابد من العرض لعدد من الموضوعات التي

أهمها:

أ - الديوان المطبوع.

ب - المخطوطات.

ج - شعر الشاعر في المصادر الأخرى .

د - اختلاط شعره بشعر غيره .

أ- الديوان :

يقول ابن خلكان ، معاصر الشاعر ابن مطروح وصديقه :

« وله ديوان شعر انشدني أكثره »^(١) . ومن هذا نتبين أن الشاعر كان قد جمع معظم شعره في ديوان ، وأنه كان يقرأ منه على أصدقائه، وأنه انشد أكثره على مسمع ابن خلكان.

ويذكر اليونيني « ت ٧٢٦ هـ » أن لابن مطروح « ترسلأ حسناً ، وديواناً مشهوراً ، وأنه كان لطيف الشعر »^(٢) . ومن هذا القول نتبين أن ديوان الشاعر كان معروفاً لدى الأديباء والعلماء ، وأن اليونيني الذي عاش في بلاد الشام بعد وفاة ابن مطروح بحوالي سبعين عاماً، كان يعرف ديوان الشاعر، وأن الديوان كان مشهوراً في بيئته الأدبية.

يذكر صاحب مفرج الكروب أن ابن مطروح « كان فاضلاً كئيباً شاعراً »^(٣) . وهذا ما ذكره سبط ابن الجوزي في المرأة^(٤)، وقول الاشراف الغساني أنه « كان شاعر وقتة »^(٥)، ويذكر الذهبي أنه « كان صاحب الشعر الرائق »^(٦)، ويصف السيوطي ابن

(١) الوفيات ٦ : ٢٦٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠١ .

(٣) مفرج الكروب ٥ : ٢٤٨ .

(٤) مرآة الزمان قسم ٢ : ٨ : ٥٨٨ .

(٥) الصجد المسبوك ٥٨٥ .

(٦) العبر ٣ : ٢٦٤ ، وانظر شذرات الذهب ٥ : ٢٤٧ .

مطروح أنه «أحد الشعراء المجيدين» (١)، وقد أورد حاجي خليفة اسم ابن مطروح فيمن له تصنيف ضمن أسماء من لهم ديوان شعر (٢).
من خلال ما سبق يتضح أن شعر ابن مطروح قد عُرف لدى العديد من العلماء والأدباء والمصنفين إلى فترة متأخرة.

يذكر كارل بروكلمان أن ديوان ابن مطروح قد جمعه أحد اصدقائه ثم يذكر نُسخ مخطوطات الديوان، وهي نسخة برلين ٧٧٥٤ - ٧٧٥٥، ونسخة المتحف البريطاني ثان ١٠٧٣، ونسخة كوبربلي ١٢٦٦، (MSOS XIV 12)، ونسخة مانثسטר ٨٤٦٤. وهناك قصيدة في المتحف البريطاني ٦٣٠ رقم ٢. وأن الديوان طُبِع بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ. بعد ديوان العباس بن الأحنف (٣). ويشير بروكلمان إلى ديوان ابن مطروح المطبوع بالقسطنطينية باسم طبعة الجوائب، ويذكر أنه توجد للديوان أربع نسخ مخطوطة، إضافة لقصيدة مفردة. ولم يشر بروكلمان إلى مصادر أخرى قديمة.
وبروكلمان قد أحال ترجمة ابن مطروح على ثلاثة مصادر (٤) :

الوفيات : وهو يعتبر من المصادر الجيدة في الترجمة للشاعر لأن صاحبها - ابن خلكان - كان معاصراً وصديقاً لابن مطروح.
ابن حبيب : وأظنه الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي.
(٧١٠-٧٧٩هـ) فإنه لم يكن يبعد كثيراً عن حياة الشاعر (٥).

شذرات الذهب : لابن العماد الحلبي المتوفي ١٠٨٩هـ، وهذا الكتاب يبعد عن تاريخ الحدث و معاصريه بما يقرب من (٥٠٠) خمسمائة عام، ولو تمت الإحالة على مصادر قريبة من حياة الشاعر مثل مرآة الزمان أو الذيل عليها لكان ذلك أفضل وأدق.

(١) حسن المحاضرة ١ : ٥٦٧ .

(٢) كشف الظنون ١ : ٧٩٨ .

(٣) كارل بروكلمان - تاريخ الأئب العربي / ترجمة د. رمضان عبد التواب ، مراجعة د. سيد يعقوب بكر /

(٤) نفسه.

(٥) بدر الدين - ابن حبيب - تذكرة كتب التراجم ضمن المؤرخين ومن الكتاب المرسلين وكان أبوه

محتسباً. الأعلام ٢ : ٢٠٨.

أما بالنسبة إلى نسخ الديوان فهي :

(أ) نسخة الجوائب المطبوعة = (ج) :

وهي النسخة المطبوعة في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ، بمطبعة الجوائب، الطبعة الأولى. وكتب على غلافها :

« ديوان أبي الفضل العباس بن الأحنف، وفي آخره ديوان جمال الدين يحيى بن مطروح المصري ، حقوق الطبع عائدة إلى إدارة الجوائب ، الطبعة الأولى، طبع بمطبعة الجوائب ، قسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ » (١).

وقد حصلتُ على نسخة من هذا الديوان من مكتبة الجامعة الأردنية، والديوان يبدأ بعد ديوان العباس بن الأحنف من صفحة رقم ١٧١، حتى صفحة ٢١٨، وفي الصفحات ٢١٩ - ٢٢٤ يثبت ترجمة للشاعر منقولة عن الوفيات، ونجد في الصفحة (٢١٨) سنة تدوين الديوان، وورد فيها :

« الحمد لله وحده، قد تم بعون الله وتوفيقه طبع ما وقفنا عليه من ديوان صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، مبدولاً في تصحيحه الجهد حتى سلم من العطل والخلل والنقد، بمعرفة الفقير يوسف النبهاني (٢) مصحح مطبعة الجوائب في القسطنطينية المحمية في اليوم الخامس عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٢٩٨ من هجرة سيد الأنام، وخاتم الرسل الكرام، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام » (٣).

وإذا كانت ترجمة النبهاني تشير إلى تركه العمل بالأستانة في سنة ١٢٩٦هـ ، أي قبل تاريخ إخراج الديوان سنة ١٢٩٨هـ فهذا لا يعني أن هذا العمل لم يتم على يديه، إذ من الممكن أن يكون قد فرغ من العمل به قبل هذا التاريخ، ولكن تمت الطباعة بعد ذلك، أو من الممكن أنه كان يتردد إلى الأستانة وقام بإخراج الديوان في ٢٠ من رجب ١٢٩٨هـ.

(١) انظر غلاف نسخة الجوائب .

(٢) يوسف النبهاني : (١٢٦٥ - ١٣٥٠ هـ) - (١٨٤٩ - ١٨٣٢م). شاعر من عرب البادية بفلسطين الذين استوطنوا قرية (إجزم) قضاء حيفا في شمالي فلسطين، وبها نشأ، وتعلم بالأزهر في مصر سنة ١٢٨٣ - ١٢٨٩هـ عمل في جريدة - الجوائب، ورجع إلى بلاد الشام ١٢٩٦هـ ، فتنقل في أعمال القضاء إلى أن كان رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت (١٣٠٥ هـ) ، وأقام زيادة على عشرين سنة ، وسافر إلى المدينة مجاوراً ، ونشبت الحرب العامة الأولى ، فعاد إلى قريته وتوفي بها ، له كتب كثيرة ، كانت بينه وبين العديد من العلماء خصومات، الأعلام ٨ : ٢١٨ وله ترجمة طويلة .

(٣) الديوان ج ٢١٩ وما بعدها .

والديوان من القطع المتوسط ١٥×١٠ اسم ، في كل ورقة ما بين ١٥ - ٢٠ بيتاً من الشعر، ونسخة الطبعة واضحة من حيث حجم الحروف والكلمات، وطريقة الكتابة.

ملاحظات على نسخة الجوانب المطبوعة :

* إن هذه النسخة هي النسخة الوحيدة التي تم طبعها، وخرجت بشكل جيد، وقدم فيها لكل قصيدة بمقدمة تبين فيمن قيلت أو مناسبتها.

وقد ورد فيها ذكر للزمان الذي كُتبت فيه، وذكر للمكان الذي قيلت فيه. وأظن الأمر من عمل الناسخ وليس من عمل المصحح.

* وقع فيها تكرار جزئي بين قصيدتين الأولى ص ١٧٦ : « وقال يمدح اخاه - أي الملك الكامل - الملك الأشرف مظفر الدين أبا الفتح موسى رحمه الله » :

وافى وأقبل في الغلالة ينثني فأراك حظ المجتلي والمجتلي (١)

والثانية ص ٢٠٢ ، دون ذكر من قيلت فيه، بدأت بقوله :

سفرت وجاءت في الغلائل تنثني فأرتك حظ المجتلي والمجتلي (٢)

وعدد أبياتها خمسة عشر.

* ورد في الصفحة (١٩٦) في مقدمة أبيات : « وكتب إلى الشيخ مهذب الدين ابن الخيمي، أيام كان على ديوان المواريث »، ثم ذكر الأبيات، وهذا خطأ وقع في نسخة الجوانب.

ولم يقع هذا الخطأ في نسخة كوبريلي المخطوطة (٣) والصحيح : « وكتب إليه الشيخ مهذب الدين بن الخيمي »، لأن القصيدة للشيخ مهذب الدين يمدح ابن مطروح، وترد بعدها مباشرة أبيات يرُدّ فيها ابن مطروح على ابن الخيمي يشكره على مدحه له. وهذا الأمر مثبت في نسخة برلين إذ ورد فيها « وكتب إليه مهذب الدين » (٤).

(١) الديوان ج ١٧٦ .

(٢) نفسه ج ٢٢٢ .

(٣) نفسه ج ١٩٦ ، ك ١٦ / ١ .

(٤) نفسه ل ٦٠ / ١ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

جاءت هذه النسخة المطبوعة غير مضبوطة الألفاظ ، وخلت من التعريف بالأعلام المجهولين، أو تفسير غريب الألفاظ، كما خلت من ذكر بحور الشعر التي نظمت عليها القصائد.

وتم فصل القصائد والمقطعات بعضها عن بعض بشكل واضح يمنع اختلاطها. كذلك وضعت الأبيات بين حاصرتين .

وحت هذه النسخة المطبوعة (٨٢٧) ثمانمائة وسبعة وعشرين بيتاً من ضمنها (٦) ستة أبيات من نظم ابن الخيمي يمدح ابن مطروح، فيكون شعر ابن مطروح فيها (٨٢١) ثمانمائة وواحداً وعشرين بيتاً من الشعر. كما حوت هذه النسخة (١٠٨) مئة وثمانين قصائد، وقطعة شعرية . لم يذكر المصحح أية إشارة لناسخ الديوان : من هو، ومتى نسخه، أو حواشي وردت عليه، سوى ما ورد ص ١٨٢، إذ أورد ما نصه: «رأينا بهامش هذا الديوان ما نصه، قال الشيخ المغربي : مما رأيت به خط الشيخ يحيى الأصيلي بطرّة هذا الديوان ، قدر الله سبحانه وتعالى ...»(١).

وأظن المصحح قد رجع إلى نسخة كوبريلي(٢) لأن الخبر على هامش القصيدة وارد باستفاضة أكثر مما ورد في نسخة الجوانب.

يذكر مصصح النسخة ومدققها «يوسف النيهاني»: «تم بعون الله وتوفيقه طبع ما وقفنا عليه من ديوان صاحب جمال الدين ...»(٣).

وجملة « ما وقفنا عليه من ديوان ... » مهمة لأن النسخ الأخرى تفاوتت في عدد الأبيات.

والشيخ يوسف المغربي - يوسف بن زكريا المغربي ت ١٠١٩هـ = ١٦١٧م نزيل مصر، وهو أديب شاعر(٤)، ويحيى الأصيلي - يحيى بن محمد بن أحمد شرف الدين الاصيلي ١٠١٠هـ = ١٦٠١م ناظم مصري مكثّر، ولد ونشأ بأسبوط، وانتقل إلى القاهرة وانفرد في فنون الغناء والطرب - توفي بمكة حاجاً ... ونسبته إلى جد له لقبه أصيل الدين(٥).

(١) الديوان ج ١٨٢ .

(٢) نفسه ك ٨ / ٢ .

(٣) نفسه ج ٢١٨ .

(٤) الأعلام ٨ : ٣١ ، وقد نقله عن ريحانة الألبا للخفاجي .

(٥) نفسه ٨ : ١٦٩ نقله عن ريحانة الألبا.

- ومن مراجعة حياة الاثنتين يتبين أنهما قد عاشا في القاهرة، وأن يوسف المغربي نزل مصر، ومن الممكن أنه التقى يحيى الأصيلي وأخذ عنه أو كتب عنده، وكانت بينهما مطارحات شعرية . ولم أجد إشارة إلى كونهما من النساخ.

- ابتداء الديوان بقصيدة يمدح الخليفة المستنصر بالله.

« الله أكبر أي طرف يطمح ... »

وانتهى بقطعة شعرية مطلعها « من هو سلطان أرض مصر ».

ب- نسخ مخطوطات الديوان :

نسخة مخطوط كوبريلي = ك :

تقع تحت رقم ١٢٦٦ (MSOS XIV 12) (١) وقد حصلت على نسخة كاملة عن هذا المخطوط ، بوساطة أحد الاصدقاء - وهو د. مصطفى جعفري - المقيم في تركيا، والذي تفضل مشكوراً بتصوير المخطوط بوساطة (كاميرا عادية)، وبواقع صفتين في كل صورة (لقطه) .

وعلى الورقة الخارجية كُتِبَ في أعلاها :

(RODRULU 1266) وفي أسفلها (AHMET VAROL) (٢) وكتب في الورقة الثانية في أعلى الصفحة : « ديوان الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، تخمده الله تعالى برحمته - وفوقها - ١٢٦٦ » وهو رقم المخطوط. ومن خلال ما هو مدون على هذه الورقة (٣)، أظن المخطوط يقع في بداية مجلد كبير يضم العديد من المخطوطات، إذ كُتِبَ بأسفل عنوان الديوان : « ويليه أيضاً ديوان الشيخ إبراهيم المبسلط وسماه الطراز المعلم على حروف المعجم، وجعله متضمناً مطارحات بينه وبين جماعة ، ومواقف وأحوال ظريفة. وفيه أيضاً تخميس بمعظمه قصيدة مولانا قطب دوائر الوجود، الشيخ عبد الوهاب السعرائي رضي الله عنه». وقد ورد بعدها ما يقرب من سبعة وثلاثين عنواناً لمخطوطات تضمنها المجلد.

(١) تاريخ الألب العربي / بروكلمان ٥ : ٧٧ .

(٢) الديوان ك ١ .

(٣) نفسه ك ٢ .

وفي الصفحة الأخيرة « تم الديوان المبارك، ووافق الفراغ منه في أواخر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وألف هـ، على يد فقير رحمة ربه «عمران بن محمد المغربي» عفى [عفا] الله تعالى عنهما والمسلمين أجمعين» (١). وجوارها كتب أيضاً: رأيت على نسخة أصلية ما صورته بخط أخينا الشيخ يوسف المغربي: قد اشتهر أن القصيدة التي أولها: - خذوا قودِي من أسير الكلل - من كلام الشيخ ابن مطروح، ولم ألقها في هذا الديوان، فيمكن أن تكون في غيره. ورأيت بعده بخط الشيخ يحيى الأصيلي ما صورته: نعم هي موجودة في بعض نسخ الديوان. ولعل الباعث على حذفها من هذه النسخة شهرتها وتداولها، وكتب الشيخ يحيى الأصيلي - انتهى (٢).

والخبر السابق يدلنا على اسم الناسخ «عمران المغربي»، وتاريخ نسخ الديوان (١٠١٢هـ)، والخبر يشير إلى قوله «أخينا يوسف المغربي» ومن هذا نجد أن الناسخ على صلة بيوسف المغربي، وقد لا يكون أخاه، لأن الأسماء تختلف (فعمران هو ابن محمد المغربي)، (ويوسف ابن زكريا) وقد يكون لفظ "أخينا" يعني صديقنا... - يقع ديوان الشعر في خمسين صفحة، إضافة إلى صفحتي مقدمة، والصفحات غير مرقمة، وفي كل صفحة من (١٥-٢٠) بيتاً من الشعر، ولا نتبين حجم صفحات الديوان بسبب نسخه على فيلم.

وهذه النسخة واضحة جداً، والكلمات في المخطوط قد تم ضبط بعضها، وبعض القصائد أثبتت عليها السنة والمكان الذي قيلت فيه، وهذا من عمل الناسخ. - وقد وقع نفس التكرار في هذه النسخة، كما حصل في الجوائب للقصيدة «وإلى وأقبل في الغلائل ينتهي» (٣). ونفسها في موقع آخر «سفرت وجاءت في الغلائل تنتهي» (٤). ذكر الناسخ في آخر الصفحة «لا يوجد في هذه النسخة قصيدة خذوا قودِي من أسير الكلل» (٥).

تضمنت نسخة الديوان قصيدة مهذب الدين بن الخيمي، ونسبت إلى صاحبها، «وكتب

(١) الديوان ك ٢٧ .

(٢) نفسه ك ٢٧ .

(٣) نفسه ك ٥ / ٢ .

(٤) نفسه ك ١٩ / ١ .

(٥) نفسه ك ٢٧ .

- إليه مهذب الدين ...»^(١). بخلاف ما ورد في الجوائب .
- حوت النسخة العديد من المواطن التي أورد الناسخ تعليقات، وهوامش وشروح.
- لم يُذكر في الديوان بحور الشعر عند كل قصيدة .
- تم فصل القصائد عن بعضها بشكل جيد وكتبت مقدمة كل قصيدة بلون مختلف.
- حوت نسخة كوبريلي (٧٨٤) سبعمائة وأربعة وثمانين بيتاً، منها ستة أبيات لمهذب الدين بن الخيمي، فيكون شعر ابن مطروح فيها (٧٧٨) سبعمائة وثمانية وسبعين بيتاً.
- حوت نسخة كوبريلي (١٠٤) مئة وأربعاً ، بين قصيدة وقطعة شعرية.
- وفي آخر صفحة من الديوان عند ذكر سقوط قصيدة « خذوا قودي من أسير الكلل، قال الناسخ : ولم ألقها في هذا الديوان فيمكن أن تكون في غيره »^(٢).
- وهو هنا يثبت وجود أشعار لم يقف عليها، أو وقف عليها ولم يثبتها، لأنه يثبت أنها لابن مطروح وأنها من الشعر الذي اشتهر له.
- ابتدأت نسخة المخطوط بقصيدة ابن مطروح في مدح الخليفة المستنصر بالله :
- «اللّه أكبر أي طرف يطمح»^(٣)، وآخر قطعة شعرية « من هو سلطان مصر »^(٤) .
- يبدو من الموازنة بين نسختي الجوائب وكوبريلي أن نسخة الجوائب هي نفس نسخة كوبريلي، بنفس الشكل والترتيب، وتتابع القصائد باستثناء قصيدة « خذوا قودي من أسير الكلل »، التي أضافها المصحح (النبّهاني)، كما يبدو إلى نسخة الجوائب، في آخر صفحتين من الديوان بناءً على ملاحظة المغربي « أن هذه القصيدة من الشعر المشهور لابن مطروح ».

نسخة مخطوط المتحف البريطاني = ط :

- ذكر بروكلمان هذه النسخة في كتابه، فقال « المتحف البريطاني ثان ١٠٧٣ »^(٥).
- وقد حصلت على نسخة كاملة، عن هذا المخطوط بواسطة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية الذين تكرموا بإحضار النسخة مصورة على فيلم.

(١) الديوان ك ١٥ / ١ .

(٢) نفسه ك ٢٧ .

(٣) نفسه ك ٢ .

(٤) نفسه ك ٢٧ .

(٥) تاريخ الألب العربي - بروكلمان ٥ : ٧٧.

وقد كتب على الورقة الأولى THE BRITISH LIBRARY

OR 3853 SCH589

وبعدها OMPB، وتحتها

DIWAN IBN MATRUH

وبعدها

وعلى الصفحة الثانية وردت كلمات عشوائية، إضافة لكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" عدة مرات، وبعدها أنواع من الخطوط، إضافة لتوقيعات أشخاص، وأختام، متناثرة بشكل غير منتظم.

وعلى الصفحة الثالثة «الديوان المبارك ديوان الشاعر الأديب الشاعر المفلق يحيى بن عيسى بن مطروح، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته بحق محمد وآله»^(١).
وجملة أخرى «من كتب الفقير إلى الله المعني ... [غير واضح] ... المغربي، غفر الله له ولوالديه، بحق محمد وآله وصحبه وسلّم» وورد الرقم ١٣٧١، ولا أعرف إن كانت تعني ١٣٧١ أم ١٢٧١، وهل هي تاريخ سنة أم رقم لشيء، وإذا كانت سنة فهل تعني تاريخ اقتناء الديوان أم حفظه من قبل المغربي المذكور.

وجملة أخرى «أودعت هذا الكتاب شهادة أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمد [محمدًا] عبده ورسوله» وجملًا أخرى غير واضحة.

جاء المخطوط في (٣٤) أربع وثلاثين ورقة، وابتدأ سرد الشعر فيه من الصفحة الرابعة وحتى نهاية المخطوط، بحيث ظهرت صفحاتان في كل ورقة، وحملت الورقة الأخيرة رقم ١٦.

ورد في آخر صفحة من الديوان «تم الديوان بحمد الله تعالى ...، في شهر شوال ١٠٨٨ هـ ثمانين وألف»^(٢).

ورد بعدها :

«الله كافٍ من توكل عليه، حسبى الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم، رعا [رعى] الله قومًا بالجميل تعارفوا وما بدّأوا بعد الجميل عتابًا»^(٣).

(١) الديوان ط ٢ .

(٢) نفسه ط ١٦ .

(٣) نفسه ط ١٦ .

- لم يرد اسم لناسخ الديوان مع وجود بعض الأسماء غير الواضحة في الصفحة الأولى التي قد تكون للناسخ .

- هذه النسخة على نحو عام سيئة، نتيجة عدم وضوح التصوير. وقد وردت ملاحظة مع النسخة باللغة الإنجليزية تقول : « احتوى هذا المجلد على تجليد قوي ومضغوط، وكل المحاولات التي بذلت عند تصوير وإنتاج هذا المجلد كانت تؤدي إلى عدم وضوح المناطق الوسطى »، يضاف إلى ذلك أن كل قصيدة وضعت داخل إطار وهامش.

ملاحظات على نسخة المتحف البريطاني (ط) :

- تم ضبط أواخر بعض الكلمات وليس جميعها .
- لم تذكر أي سنة أو مكان في مقدمة القصائد، وكل الذي كتب: " وقال رحمه الله تعالى".
- لم يذكر اسم الناسخ على النسخة، وقد يكون ذكر، ولم يتضح في التصوير.
- ذكر في أعلى كل قصيدة بحرهما.
- تم فصل القصائد عن بعضها بشكل واضح، وخط القصائد جيد إذا كانت الصورة واضحة.
- وردت بعض التعليقات القصيرة في بعض الصفحات.
- حوت النسخة (٥٣٣) خمسمائة وثلاثة وثلاثين بيتاً، جميعها لابن مطروح، في كل صفحة حوالي ستة عشر بيتاً.
- حوت نسخة المتحف البريطاني (٣٨) ثمانين قصيدة وقطعة شعرية.
- سقط العديد من القصائد والأشعار التي وردت في الجوائب.
- ابتدأت النسخة في القصيدة « دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبداً ».
- وآخر قصيدة « لم أنس وقد زارت على استحياء».

نسخة ما نشستر = ش :

تقع تحت رقم « ما نشستر ٤٦٤ A »^(١).

وقد حصلت على نسخة كاملة عن المخطوط بوساطة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، الذين تكرموا بإحضار النسخة مصورة على فيلم.

جاء في الصفحة الأولى LIBRARY OF MNCSTER .

• ALNSLE MS 464 [476

• 9 وبعدها 9/8/40 .

وعلى الصفحة التالية «ديوان يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح» وورد بعدها « انتقل هذا الديوان إلى ملك أفقر العباد وأوجههم إلى الله. عبد الله بن حسن رحمه الله تعالى أمين»^(٢).

ولم ترد في النسخة أية إشارة لاسم الناسخ أو سنة النسخ، وقد خُتمت النسخة بعبارة « تم ما وجد من ديوان الأديب البليغ يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسن [ابن] مطروح سامحه الله »^(٣).

والمخطوط يقع في (٤١) إحدى وأربعين صفحة، حوت شعر الشاعر، وصفحات الديوان مرقمة، والنسخة واضحة.

وكل صفحة تحوي حوالي (١٦) ستة عشر بيتاً، وتحوي النسخة (٥٢٦) خمسمائة وستة وعشرين بيتاً، واشتملت هذه النسخة أربعين قصيدة وقطعة شعرية.

ملاحظات على نسخة ما نشستر :

- تم ضبط بعض الكلمات في بعض القصائد .
- لم ترد أية إشارة إلى سنة قول القصائد ومكان قولها ، وإنما كانت تبدأ هكذا «وقال أيضاً».
- لم يرد اسم لناسخ الديوان او تاريخ نسخه.
- لم تذكر بحور الشعر على القصائد.

(١) تاريخ الأديب العربي بروكلمان ٥ : ٧٧ .

(٢) الديوان ش ٤ .

(٣) نفسه ش ٣٧ .

- لم ترد أية شروح أو هوامش على الصفحات.
- تم فصل القصائد بشكل جيد ، والخط واضح ومقروء.
- ورد في أول المخطوط في أعلى القصيدة الأولى ((هذه للقاضي السعيد ابن سناء الملك)) (١). وورد مثل ذلك في موطن آخر ((وهذه للقاضي السعيد المذكور)) (٢).
- نسختا المتحف البريطاني ومانشستر متشابهتان في ترتيب القصائد باستثناء ما سقط منها مثل قصيدة ((تلفت والله روجي)) (٣) وغيرها، التي لم ترد في ما نشستر.
- بدأت نسخة ط المخطوطة بقول ابن مطروح : ((ننوت وقد أبدى الكرى)) وانتهت ((بعشقت ظيباً وجهه مشرق كذا)).

نسخة برلين = ل :

تقع تحت رقم ((برلين ٧٧٥٤-٧٧٥٥)) (٤).

وقد حصلت على نسخة كاملة عن المخطوط بواسطة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، الذين تكرموا باحضار النسخة مصورة على فيلم. وتسلمت النسخة مصورة على بطاقات (كرتات)، صور عادية.

وقد ورد على الصفحة الأولى STA ATSBI BLIOTHEK

PREUSS . KULTUR BE SITZ

وبعدها

SINATUR : SPRENGER 1127 I FOL

وبعدها

LA - 296

41A - 66

AUFTNUI SNU MMER : X48

وبعدها

وعلى الصفحة التالية : ت ٦٤٩ = d 649

1127 POEM SO OF " IBN MATRUH , D 649 . ALSO TH

(١) الديوان ش ٤ .

(٢) نفسه ش ٥ .

(٣) نفسه ط ١ / ٦ .

(٤) تاريخ الألب العربي - بروكلمان - ٥ : ٧٧ .

M ٥٠٠ PP - تسلية الكئيب بلقا الحبيب AND THE تذكرة أبي فراس

((ديوان الصاحب الوزير جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن حمزة بن مطروح رحمه الله تعالى)).

ويليه التذكرة لأبي فراس الحمدوني عفي عنه، ويليه كتاب تسلية الكئيب بقاء الحبيب(١).

- والديوان يقع في (٦٩) تسع وستين ورقة مصورة ، كل ورقة تحوي صفحتين، وعليه فالديوان يقع في (١٣٨) مئة وثمان وثلاثين صفحة. في كل صفحة ما يقرب من سبعة عشر بيتاً من الشعر.

- حوت النسخة (١٥٧٣) ألفاً وخمسمائة وثلاثة وسبعين بيتاً وبهذا الرقم من الأبيات تعتبر أكبر النسخ الخمس.

- كما حوت النسخة (١٩٥) مئة وخمسة وتسعين قصيدة وقطعة شعرية.

والديوان يختلف عن غيره أن لناسخه مقمنة جميلة تحدث فيها عن الشاعر - ابن مطروح - وخطه حسن، والمقدمة تقع في ثلاث صفحات ظهرت الأولى والثانية، ولكن الثالثة للأسف أتت سوداء، وفي المقدمة لم يترجم للشاعر، وإنما اكتفى بوصف جمال شعره، ولم يذكر الناسخ سنة نسخ الديوان وجمعه، ولكنه اكتفى بذكر اسمه في آخر الديوان إذ يقول ((تم ديوان الصاحب الوزير جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم ابن الحسن بن حمزة بن مطروح رحمه الله على يد أفقر العباد الدرويش محمد بن محمد الهريري الحلبي غفر الله له ولوالديه ولأموات المسلمين أجمعين آمين))(٢).

وعند العودة إلى كتب التراجم وُجد أن الناسخ :

((محمد بن محمد الهريري ت ١٠٣٧ هـ = ت ١٦٢٧ م)).

كاتب من الشعراء، حلبي المولد والمنشأ، سكن دمشق وتوفي بها. قال المحبى: كتب الكثير بخطه، وله شعر ينسب إليه، وعندى أن شعره لو قيل له ارجع إلى أهلك لم يبق منه شيء.

(١) الديوان ل ١ .

(٢) نفسه - ل ٤ .

وذكر له بروكلمان «مفاخرة بين أولاد الخلفاء الراشدين»^(١).
ومن الخبر السابق نعلم أنه ممن عاشوا في القرن السابع عشر الميلادي = الحادي
عشر للهجرة ، وأنه من أهل دمشق ، وإذا كانت وفاته في ١٠٣٧ هـ فإن الديوان قد تم
نسخة قبل هذا.

- وخط الناسخ جيد وترتيبه كذلك.

ملاحظات على نسخة برلين :

- لم يقم الناسخ بضبط أواخر الكلمات في الأبيات والقصائد.
- تم الفصل بين القصائد بقول الناسخ (وقال).
- لم ترد أية إشارة إلى سنة أو شخص أو مكان في مقدمات القصائد.
- خلت القصائد من أية حاشية أو إيضاح سوى بعض التعليقات للناسخ ليست على
قضايا تخص القصائد.
- بدأ الديوان بقصيدة « أرج الخزامى نم في الأرجاء » وانتهى « يا ملاد
المستجير به ».
- وقد ورد في نسخة برلين (٩) تسع صفحات سوداء.

- وبعد تفريغ القصائد في جداول لملاحظة أماكن الاتفاق والاختلاف كان لا بد من عمل الجداول التالية لملاحظة هذا الأمر وتتبعه بدقة فكانت الجداول على النحو التالي :
- (أ) : هذا الجدول يشمل أماكن الاتفاق والاختلاف في النسخ جميعاً .
- (ب) : هذا الجدول يشمل القصائد التي انفردت بها نسختا مانشيستر والمتحف البريطاني دون غيرهما مع بعض الاتفاق مع نسخة برلين .
- (ج) : ما انفردت به نسخة برلين عن باقي النسخ .

جدول (أ)

| رقم القصيدة في الجوانب | مطلع القصيدة | قافية البيت | عدد أبيات الجوانب | عدد أبيات كويريلي | عدد أبيات مانثيستر | عدد أبيات المتحف البريطاني | عدد أبيات برلين | الزيادة عن الجوانب | زيادة الجوانب عن غيرها |
|---------------------------|----------------------------|-------------|----------------------|----------------------|-----------------------|----------------------------------|--------------------|--------------------------|---------------------------|
| ١. | الله أكبر أي طرف | فيفصح | ٥٥ | ٥٥ | - | - | - | - | - |
| ٢. | لا وعينك ويكفي | كم | ٩ | ٩ | ١٠ | ١٠ | - | - | لوحة ١٢٤ |
| ٣. | قدست من ملك | الإحسان | ٢٢ | ٢٢ | - | - | - | - | لوحة ١٣٧ |
| ٤. | وإلى وأقبل في | والمجتبي | ٣٥ | ٣٥ | ١٨ | ١٥ | ١٥ | - | ١٧ لوحة ١٢٧ |
| ٥. | سفرت وجاءت | والمجتبي | ١٥ | - | - | ٩ | - | - | - |
| ٦. | بأبي ربي طيف طرق | المعتق | ٣٨ | ٣٨ | ٢٤ | ٢٤ | - | - | ١٤ لوحة ٩٤ |
| ٧. | أيا قلب دع ضيق | المقنع | ١٣ | ١٣ | ١٥ | ١٦ | - | ٣ | لوحة ٨٧ |
| ٨. | قالوا قضى الملك المسعود | القمر | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٧٤ |
| ٩. | لقد سرت البشائر | جان | ١٠ | ١٠ | - | - | - | - | لوحة ١٣٨ |
| ١٠. | دار عمرناها بإنعام | رقده | ٥ | ٥ | - | - | ٥ | - | لوحة ٢٤ |
| ١١. | البدار البدار يا ملك | البدار | ٣ | ٣ | - | - | ٣ | - | لوحة ٦٩ |
| ١٢. | قله للفرنسيس | فصيح | ١١ | ١١ | - | - | ١١ | - | لوحة ٢٢ |
| ١٣. | ثلاثة ليس لهم | الجود | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٠ |
| ١٤. | المسجد الأقصى له | ماترا | ٣ | ٣ | - | - | ٣ | - | لوحة ٧٠ |
| ١٥. | وأنا السعيد إذا | السعيد | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣١ |
| ١٦. | على حلب الغراء | الوردي | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ٢٥ |
| ١٧. | ولما تيممناك | جناب | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٠ |
| ١٨. | خرجت من النعيم | بن العديم | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٢١ |
| ١٩. | وإلى كتابك | بالمسرة | ٤ | ٥ | - | - | ٤ | ١ | لوحة ٧١ |
| ٢٠. | من مبلغ ضي | مقنعا | ١٦ | ١٦ | - | - | - | - | لوحة ٨٩ |
| ٢١. | هي رامة فحنوا | الأعماد | ٧١ | ٧١ | ٢٢ | ٢٢ | - | - | لوحة ٤٩ |
| ٢٢. | تثنى كما هن | غلائله | ٣٣ | ٣٣ | ٩ | ٩ | - | - | ٢٤ لوحة ١١٣ |
| ٢٣. | تملكت من ميدا صيد | والمحتد | ٣٢ | ٣٢ | - | - | - | - | لوحة ٤٦ |
| ٢٤. | وكل خضاب سوف | نصول | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٩ |
| ٢٥. | ولو أن قسا | بعده | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٢ |
| ٢٦. | حمام مولانا وسيننا | العمر | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ٧٢ |
| ٢٧. | يا من استوحش طرفي | أنس | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٨٤ |
| ٢٨. | إني منك سيف | وجمال | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ١٠٧ |
| ٢٩. | لله أي فضيلة | التملك | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٠٢ |
| ٣٠. | ما معدن الدر | كلمك | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١٠١ |

تابع جدول (أ)

| رقم القصيدة في الجوانب | مطلع القصيدة | قافية البيت | عدد أبيات الجوانب | عدد أبيات كوبريلي | عدد أبيات مانشستر | عدد أبيات المتحف البريطاني | عدد أبيات برلين | الزيادة عن الجوانب | زيادة الجوانب عن غيرها |
|---------------------------|------------------------|-------------|----------------------|----------------------|----------------------|----------------------------------|--------------------|--------------------------|---------------------------|
| ٠٣١ | يا ليت شعري لعلنا | كتبك | ٣ | ٣ | - | - | - | - | لوحة ١٠٣ |
| ٠٣٢ | لا غرر أن حجب | التمام | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ١١٩ |
| ٠٣٣ | أودعت لله مولى | يلدي | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ٢٦ |
| ٠٣٤ | لا أستزيدك ودا | عندي | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٢٣ |
| ٠٣٥ | ومثلك من رعى | بالجوار | ١ | ١ | - | - | - | - | لوحة ٨١ |
| ٠٣٦ | كرة الأرض مع | الإخاء | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ١ |
| ٠٣٧ | رحلتك وطلقت | رغمي | ٥ | ٥ | - | - | ٥ | - | لوحة ١٢٠ |
| ٠٣٨ | أقول وقد توالى | خبر | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٧٥ |
| ٠٣٩ | أفلس يا سيدي | اليق | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | ٢ | لوحة ٩٢ |
| ٠٤٠ | ولقد نكرتك | شرع | ٣ | ٣ | - | - | ٣ | - | لوحة ٦٠/٣٠١ أنيل |
| ٠٤١ | أيا من راح عن حالي | حنيا | ١٢ | ١٢ | - | - | ١٢ | - | لوحة ٨ |
| ٠٤٢ | يا فاضلاً بهرتنا | البشر | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ٧٣ |
| ٠٤٣ | أصدرتها والعرالي | الولد | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٧ |
| ٠٤٤ | ما انقطعت عني | عني | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١٣٩ |
| ٠٤٥ | أسائل عنك القادمين | بالقرب | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٧ |
| ٠٤٦ | لمهيار مصر لسجل | فارس | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ٨٢ |
| ٠٤٧ | أباعثها ملء المسامع | المرانس | ٧ | ٧ | - | - | ٧ | - | لوحة ٨٨٣ |
| ٠٤٨ | مصارع الأسد بين | والسبح | ٤ | ٤ | ٤ | ٣ | ٤ | - | لوحة ١٨ |
| ٠٤٩ | خنوا حذرکم من | المحاجر | ١١ | ١١ | ١٢ | ١٢ | ١١ | ٢ | لوحة ٦١ |
| ٠٥٠ | أخشاء ما قلب | والهجر | ١٧ | ١٧ | ٢٠ | ٢٠ | - | - | لوحة ٦٣ |
| ٠٥١ | من لي بغصن | والمنطق | ٢٧ | ٢٧ | ٢٠ | ٢٠ | - | - | لوحة ٧ |
| ٠٥٢ | إليك عني فليس | والكرم | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١٢٥ |
| ٠٥٣ | اعتذاره بكثرة | شغلي | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١١٦ |
| ٠٥٤ | يا بصيراً بالمعمى | الأحاجي | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٢٠ |
| ٠٥٥ | أيا من له الفهم | ورى | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٧٨ |
| ٠٥٦ | أصبحت تعطي | أوسعوا | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٦٠ |
| ٠٥٧ | أنتني منك | الملاح | ٣ | ٣ | - | - | - | - | لوحة ٢٣ |
| ٠٥٨ | لك الله إن | المفوا | ١١ | ١١ | - | - | ١١ | - | لوحة ١٤٣ |
| ٠٥٩ | لما طرقت خيامها | متكتما | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١١٨ |
| ٠٦٠ | سمعتها تشكي | والمهجا | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١٩ |
| ٠٦١ | بَعَثَتْ بِنَرْجِسَة | قصدها | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١٤٢ |
| ٠٦٢ | وقفت أحلي | المنعما | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٩١ |

تابع جدول (أ)

| رقم القصيدة في الجوانب | مطلع القصيدة | قافية البيت | عدد أبيات الجوانب | عدد أبيات كوبريلي | عدد أبيات ماثيسيمتر | عدد أبيات المتحف البريطاني | عدد أبيات برلين | الزيادة عن الجوانب | زيادة الجوانب عن غيرها |
|---------------------------|----------------|-------------|----------------------|----------------------|------------------------|----------------------------------|--------------------|--------------------------|---------------------------|
| ٠٦٣ | عافته فسكرت | اغندا | ١١ | ١١ | ١١ | ١١ | ١١ | - | لوحة ٥٦ نيل ٨ |
| ٠٦٤ | قالوا حبيبك | الشعر | ٢ | ٢ | ٢ | ٢ | - | - | لوحة ٧٩ |
| ٠٦٥ | إن قسمة بالبدر | مطلوما | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١٢٦ |
| ٠٦٦ | إذا قرنت | حدثا | ٤ | ٤ | - | - | - | ٤ | لوحة ١٧ |
| ٠٦٧ | وصاحب عاذني | والفاني | ٤ | ٥ | - | - | ٥ | ١ | لوحة ١٣٥ |
| ٠٦٨ | تخذتم السبب | اليهود | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٤ |
| ٠٦٩ | كل كليل الدهر | بنقد | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ٢٧ |
| ٠٧٠ | لا سقيت دارا | البذي | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٦٠ |
| ٠٧١ | قالوا الرشدي | للشد | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٨ |
| ٠٧٢ | رأيت المشدين | يستدخل | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ١١٧ |
| ٠٧٣ | صبا وهو غريب | الصيا | ١٤ | ١٤ | - | - | ١٣ | - | لوحة ٩ |
| ٠٧٤ | سقى صوب الحيا | الحسان | ١٥ | ١٥ | ١٧ | ١٦ | ١٥ | ٢ | لوحة ١٣٣ |
| ٠٧٥ | أسرب المها | قابي | ٢٠ | ٢٠ | - | - | - | - | لوحة ١٤ |
| ٠٧٦ | هزوا القنود | الأعينا | ١١ | ١١ | - | - | ١٢ | ١ | لوحة ٥٦ |
| ٠٧٧ | سلا خاطري | عذار | ١٥ | ١٥ | ٢١ | ٢١ | ١٤ | ٦ | لوحة ٦٦ |
| ٠٧٨ | أنا أولى | يفاخر | ٤ | ٤ | - | - | - | - | لوحة ٨٠ |
| ٠٧٩ | تعشقت بدماً | كذا | ١٧ | ١٧ | ١١ | - | ١٧ | - | لوحة ٥٨ نيل ٧ |
| ٠٨٠ | قد رأيتك | واملح | ٧ | ٧ | - | - | ٧ | - | لوحة ٢١ |
| ٠٨١ | نحن في منزل | خلد | ٢ | ٢ | - | - | - | - | لوحة ٣٩ |
| ٠٨٢ | إليه بقود | الثمل | ٤ | ٤ | ٦ | ٦ | ٤ | ٢ | لوحة ١٠٨ |
| ٠٨٣ | ليس في التقويم | اعتقاد | ٣ | ٣ | - | - | ٣ | - | لوحة ٢٨ |
| ٠٨٤ | يا من لديه | معبود | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ٣٥ |
| ٠٨٥ | يا من علا | فاحتجب | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١٢ |
| ٠٨٦ | قدمت عليك | القدم | ٣ | ٣ | - | - | ٣ | - | لوحة ١٢٢ |
| ٠٨٧ | تجزع للموت | الطمع | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٨٦ |
| ٠٨٨ | يا من إذا دعاه | قصده | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٣٦ |
| ٠٨٩ | قالوا الأطباء | تشير | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٧٧ |
| ٠٩٠ | هذه تربة من | الذنوب | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٦ |
| ٠٩١ | إن عفا مولا | رحيم | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٢٣ |
| ٠٩٢ | يا ليها الشامخ | حجيب | ٧ | ٧ | - | - | ٧ | - | لوحة ١١ |
| ٠٩٣ | عصيتك طول | العمات | ٤ | ٤ | - | - | ٤ | - | لوحة ١٦ |
| ٠٩٤ | يا ليها الناس | الأهوال | ٨ | ٩ | - | - | ٩ | ١ | لوحة ١١٠ |
| ٠٩٥ | ألا وافق في | كرية | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١٣ |
| ٠٩٦ | رققلة ماذا | المتعضل | ٦ | ٦ | - | - | ٦ | - | لوحة ١١ |

تابع جدول (أ)

| رقم القصيدة في الجرائب | مطلع القصيدة | قافية البيت | عدد أبيات الجرائب | عدد أبيات كوبريلي | عدد أبيات مانشيستر | عدد أبيات المتحف البريطاني | عدد أبيات برلين | الزيادة عن الجرائب | زيادة الجرائب عن غيرها |
|---------------------------|----------------|-------------|----------------------|----------------------|-----------------------|----------------------------------|--------------------|--------------------------|---------------------------|
| ٩٧. | أشهد أن الله | العدل | ٤ | ٤ | - | - | ٥ | - | لوحة ١١٢ |
| ٩٨. | اصبحت بقعر | الكفا | ٢ | ٢ | ٢ | - | ٢ | - | لوحة ١٣٦ |
| ٩٩. | لما لمع البرق | الأفق | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٩٣ |
| ١٠٠. | ما زلت اضمه | أعضائي | ٢ | ٢ | ٢ | - | ٢ | - | لوحة ٢ |
| ١٠١. | لا تسترن ما | الخبر | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٧٦ |
| ١٠٢. | عرج بطويلع | ولأي | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٤٤ |
| ١٠٣. | أهواك وما برحت | سواك | ٣ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٠٤ |
| ١٠٤. | خذوا قودي | قتل | ٢٠ | - | ١٧ | ١٦ | ١٧ | - | لوحة ١٠٥ |
| ١٠٥. | يا عجباً للمرء | عارية | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ١٤١ |
| ١٠٦. | للفتى يدرون | المسعدة | ٢ | ٢ | - | - | ٢ | - | لوحة ٢٩ |
| ١٠٧. | من هو سلطان | والجزيرة | ٥ | ٥ | - | - | ٥ | - | لوحة ١٤٠ |

جدول (ب)

| رقم القصيدة في الجولت | مطلع القصيدة | قافية البيت | عدد أبيات الجولت | عدد أبيات كويريلي | عدد أبيات متشيستر | عدد أبيات المتحف البريطاني | عدد أبيات برلين | الزيادة عن الجولت | زيادة الجولت عن غيرها |
|--------------------------|-----------------------|------------------|---------------------|----------------------|----------------------|----------------------------------|--------------------|-------------------------|-----------------------------|
| ٠١ | نوت وقد أبدى الكرى | أوحدي | - | - | ١٠ | ١٠ | - | ١٠ | لوحة ٤٠ |
| ٠٢ | متى بت إلا في | فلدا | - | - | ١٧ | ١٧ | - | ١٠ | لوحة ٤١ |
| ٠٣ | ذكر الصبا فصبا | قد لستوى | - | - | ١١ | ١٠ | ٨ | ١٣ | لوحة ٤ |
| ٠٤ | فسمأ بفك وما | في الهوى | - | - | ٦ | ٧ | - | ٧ | لوحة ١٦٧ |
| ٠٥ | يا لقومي أين يذهب | الأسمر الذهبي | - | - | ١٦ | ١٦ | - | ١٦ | لوحة ١٥ |
| ٠٦ | طاب شرب الراح | الخل الرئيس | - | - | ١٠ | ١٠ | - | ٢٧ | للوحة ١٥٤ |
| ٠٧ | بات في أحناء صدري | نيط بيبر | - | - | ١٠ | ١٠ | - | ١٠ | لوحة ١٥١ |
| ٠٨ | أهواء لسمر | الغباب الأخضر | - | - | ٧ | ٧ | - | ٧ | لوحة ١٥٢ |
| ٠٩ | عذلوا فيك فأكثروا | لو أنني أتاثر | - | - | ١٤ | ١٤ | - | ١٤ | لوحة ١٥٣ |
| ٠١٠ | بيبي غزال تابه | ولا يتعطف | - | - | ١٢ | ١٢ | ٨ | ١٢ | لوحة ١٤٥ |
| ٠١١ | حذا ر سيف الهند | بالفتك | - | - | ١٧ | ١٩ | ١٦ | ١٩ | لوحة ١٤٧ |
| ٠١٢ | هزوا قنودهم | مناصل | - | - | ١١ | ١١ | - | ١١ | لوحة ١٥٦ |
| ٠١٣ | أما ويدور الكل | نجوم الأمل | - | - | ١٧ | ١٦ | ٨ | ١٧ | لوحة ١٤٩ |
| ٠١٤ | سألت من أمرضني | تنفي الأم | - | - | ٨ | ٨ | - | ٨ | لوحة ١٥٧ |
| ٠١٥ | أنظرت أم فوقت | القلب لما | - | - | ١٩ | ١٨ | - | ١٩ | لوحة ١٥٨ |
| ٠١٦ | سقاك يادار | الذات والنعم | - | - | ١٨ | ١٧ | - | ١٨ | لوحة ١٦٠ |
| ٠١٧ | هي دارهم وأنا | بمعي يسجم | - | - | ٩ | ٩ | - | ٩ | لوحة ١٦٢ |
| ٠١٨ | حدثوا عن صبابتي | عن مجنون | - | - | ٨ | ٧ | - | ٨ | لوحة ٦٣ |
| ٠١٩ | بديع الحسن كم هذا | بلاعرض عني | - | - | ٩ | ٩ | ٩ | ٩ | لوحة ٥٠ |
| ٠٢٠ | ومهفهب القد | متأرد ريان | - | - | ١٢ | ١٢ | - | ١٢ | لوحة ١٦٤ |
| ٠٢١ | ما الجمال بوجنتيك | الورود معين | - | - | ٢٠ | ١٩ | - | ٢٠ | لوحة ١٦٥ |
| ٠٢٢ | تلقت والله روجي | هذا المليح | - | - | - | ٩ | - | - | |
| ٠٢٣ | هذا العذوب | قد بانوا | - | - | - | ٦ | - | ٦ | |
| ٠٢٤ | لم أنس وقد زارت | الليلة الظماء | - | - | - | ٢ | - | ٢ | |

جدول (ج)

| الرقم | مطلع القصيدة | قافية البيت | الجواثب | كويريلي | مفاتيح | المتحف البريطاني | برلين | الزيادة عن الجواثب |
|-------|-------------------|-------------|---------|---------|--------|------------------|-------|--------------------|
| ١. | أرج الخزامى | بشذاء | - | - | - | - | ٤١ | ٤١ |
| ٢. | زمرم الركاب | بالعشاق | - | - | - | - | ١٧ | ١٧ |
| ٣. | أيا برق أفاض | ضلعري | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ٤. | يا حادياً بالركب | المتيم | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٥. | عذوني كيف شنتم | يعذب | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٦. | ورقاء بخدر | تسكبي | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٧. | لأية العشق | تنزير | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٨. | جل المهين | وشاح | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٩. | إن ولدي دمشق | وشامه | - | - | - | - | ١٩ | ١٩ |
| ١٠. | سألو السيوف | عاني | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ١١. | كم في بيوت | النضير | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١٢. | با لجزع من شط | قادح | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١٣. | ما على الأيام | الأرب | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١٤. | وحقكم ما غير | غرامي | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١٥. | أظن البدر | غاراً | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ١٦. | وعد الزيارة | ويعطف | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١٧. | زار وهذا | أجفانه | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١٨. | سلوا هل سلى | ضلععه | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ١٩. | إليكم بكم | سـ | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٢٠. | تتكار أيام | ويعذب | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٢١. | لولا الهوى | سلم | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٢٢. | من أطلع البدر | النضير | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٢٣. | ما عند مكان | وبلايل | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٢٤. | إن كاض | يصدق | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٢٥. | ققوا في الحزن | الشكوى | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٢٦. | أعد حديث الحمى | سحري | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٢٧. | ما بال قلبك | الغيد | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٢٨. | أما ولو احظ العقل | الثمل | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٢٩. | وحن القنود الهيف | قتل | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٣٠. | شم برق | السؤلا | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٣١. | عسى يشتقي | متضوع | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٣٢. | سر بي لك الخير | شعب | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٣٣. | سلوا بريق الحمى | سقمي | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٣٤. | إن هدائي في ليل | زلاله | - | - | - | - | ٨ | ٨ |

تابع جدول (ج)

| الرقم | مطلع القصيدة | قافية البيت | الجواثب | كوبريلي | ماتشستر | المتحف البريطاني | برلين | الزيادة عن الجواثب |
|-------|-------------------|-------------|---------|---------|---------|------------------|-------|--------------------|
| ٠٣٥ | بين القلوب | والمقل | - | - | - | - | ١٢ | ١٢ |
| ٠٣٦ | إن أقر السفح | رسوم | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٣٧ | بلغت ریح النعامي | السلاما | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٣٨ | هذا الورد | وورد | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ٠٣٩ | لولاك ياظبي | منهدا | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٠٤٠ | من منصفني | المقيم | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٤١ | ما غير البعد | نظر | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٠٤٢ | لك الله من برق | الحمي | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٤٣ | ليل الوصال كليله | الفجر | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٤٤ | أتيت إليك | وانجد | - | - | - | - | ١٨ | ١٨ |
| ٠٤٥ | أقبل يختال في | شمائله | - | - | - | - | ٤ | ٤ |
| ٠٤٦ | علقته من ال | عريته | - | - | - | - | ٤ | ٤ |
| ٠٤٧ | سقياً لأيامي | ولت | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٤٨ | حلفت لئلا أن لا | فملمت | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٠٤٩ | أعشق اليمين | أعلق | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٥٠ | أصبحت عندك | عتقا | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٥١ | زارني والليل | أكل | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٠٥٢ | كن كما شئت | عدال | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٥٣ | سرى والنجى | أغنى | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٥٤ | آيات سحر من | تتبدل | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٥٥ | صف لأحبابي | وجدي | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ٠٥٦ | ولما يملأ من سكره | العس | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ٠٥٧ | لولا انكار | ولا القنا | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٥٨ | سلوا أجفانه | نبلا | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٥٩ | سرت وفي | منحسر | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٦٠ | حدث فقد | بمهم | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٠٦١ | هل في الصبا | ميس | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٦٢ | إذا ما لاح | معنى | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٦٣ | حدثت عن رند | سكاته | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٦٤ | أما وجمال الشعر | الصدغ | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٦٥ | مليت عظامي | تتكسر | - | - | - | - | ٤ | ٤ |
| ٠٦٦ | ليت شعري | وعنا | - | - | - | - | ٦ | ٦ |
| ٠٦٧ | إلينا أيها الساقى | طينا | - | - | - | - | ١٧ | ١٧ |
| ٠٦٨ | ياقبر طيبة | ويسرغ | - | - | - | - | ٢٦ | ٢٦ |

تابع جدول (ج)

| الرقم | مطلع القصيدة | قافية البيت | الجواثب | كويريلي | مانشستر | المتحف البريطاني | برلين | الزيادة عن الجواثب |
|-------|--------------------|-------------|---------|---------|---------|------------------|-------|--------------------|
| ٠٦٩ | إذا عهدوا قليس | هباء | - | - | - | - | ٣٩ | ٣٩ |
| ٠٧٠ | بكي الغريب لفق | الجار | - | - | - | - | ١٦ | ١٦ |
| ٠٧١ | جز فاني بالجرور | المراض | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٠٧٢ | يا من بالحافظه | قنمي | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٧٣ | لا بدع إن هرت | الأعمي | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٠٧٤ | شجي مقلتي طير | صانع | - | - | - | - | ١ | ١ |
| ٠٧٥ | أخلاي قلبي | الصبا | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٠٧٦ | شفاء قلبي | هواكم | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٧٧ | فأنتم أحيياني | رضاكم | - | - | - | - | ٤ | ٤ |
| ٠٧٨ | دعني الهري | بحبكم | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ٠٧٩ | دع عنك عتبي | طويل | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٨٠ | مدامع مقلتي | كسري | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ٠٨١ | باحث بسري قلبي | غزلي | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ٠٨٢ | ألا يا أهيل | متيم | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٠٨٣ | زاد العوائل | صواب | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ٠٨٤ | يا ليلة بت مسرورا | العمر | - | - | - | - | ١٤ | ١٤ |
| ٠٨٥ | قد زاد فيك | يا متلفي | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٨٦ | يا من بهم مر | ترحلا | - | - | - | - | ١٥ | ١٥ |
| ٠٨٧ | إذا كان خصمي | أترجع | - | - | - | - | ١٣ | ٣ |
| ٠٨٨ | يا ساكتاً في مهجتي | يسمخ | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٨٩ | سمحت بارمال | هاجري | - | - | - | - | ١٥ | ١٥ |
| ٠٩٠ | ترى الكسير | رافتحز | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٠٩١ | زاد في الهجر | صلني | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٩٢ | في بحر دمي | حريق | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٠٩٣ | أقبلت زينب | سناها | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ٠٩٤ | يا من إلى ابوابهم | يتوقد | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٩٥ | ترى قبل موتي | جفاك | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٩٦ | لئن غاب سخطك | خاطري | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ٠٩٧ | أسروا فؤادي | يترفقوا | - | - | - | - | ١١ | ١١ |
| ٠٩٨ | قسماً بمن حاز | بثغره | - | - | - | - | ١٢ | ١٢ |
| ٠٩٩ | أصبحت من لا عج | غرق | - | - | - | - | ١٤ | ١٤ |
| ١٠٠ | منى علي بزورة | معذب | - | - | - | - | ٢٠ | ٢٠ |
| ١٠١ | عقيق اللمع | منيل | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ١٠٢ | غادروني بالاثيل | الحرقا | - | - | - | - | ١٠ | ١١ |

تابع جدول (ج)

| الرقم | مطلع القصيدة | قافية البيت | الجرائب | كوبريلي | مانثيستر | المتحف البريطاني | برلين | الزيادة عن الجوائب |
|-------|------------------|-------------|---------|---------|----------|------------------|-------|--------------------|
| ١٠٣ | لي في هواكم | مطلب | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١٠٤ | أنت الحبيب | محيّاه | - | - | - | - | ٢ | ٢ |
| ١٠٥ | أحن إلى ربح | والعصفا | - | - | - | - | ٩ | ٩ |
| ١٠٦ | وصنّ القوام | يچار | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ١٠٧ | بالله يا ربح | حالي | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١٠٨ | سقى المنازل | النديم | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١٠٩ | لا يرى أحسن | الورى | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١١٠ | قسما بقذك وهو | قائل | - | - | - | - | ١٠ | ١٠ |
| ١١١ | يا هل لعصر | ظلوغ | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١١٢ | تحية وسلام | واستلام | - | - | - | - | ١٣ | ١٣ |
| ١١٣ | جاءت إليك | الحاجري | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١١٤ | لا تقولوا سلا | هولنا | - | - | - | - | ٨ | ٨ |
| ١١٥ | أسمعت ما قال | الكرى | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١١٦ | بعثوا اللحاظ | المشاق | - | - | - | - | ٧ | ٧ |
| ١١٧ | فالعطف منه | معنوق | - | - | - | - | ٥ | ٥ |
| ١١٨ | بضرب في رمله | العقيق | - | - | - | - | ٢ | ٢ |
| ١١٩ | على وجه من | ونهار | - | - | - | - | ٢ | ٢ |
| ١٢٠ | ما خاله غير أن | إنسانا | - | - | - | - | ٢ | ٢ |
| ١٢١ | ونحن في الله | الأسن | - | - | - | - | ٢ | ٢ |
| ١٢٢ | يا ملاذ المستجير | سلفا | - | - | - | - | ٢ | ٢ |

| | | |
|-----|--------|--|
| ٢٦٧ | ورقة ١ | |
| ٢٢٨ | ورقة ٢ | |
| ٣٠٤ | ورقة ٣ | |
| ٢٩٥ | ورقة ٤ | |
| ١٥ | ورقة ٥ | |

| | | |
|---------------------|-------------|--------------------------|
| زيادة عن بقية النسخ | ١١٠٩ | ما انفردت به نسخة برلين |
| | ١٥٧٣ | مجموع نسخة برلين |
| | - | |
| | <u>١١٠٩</u> | |
| | ٤٦٤ | ما تطابق مع النسخ الأخرى |

ج. شعر ابن مطروح في المصادر الأخرى :

إن الشعر المجموع في نسخ الديوان يمثل الغالبية العظمى لشعر الشاعر، ولكن توجد أشعار لابن مطروح في المصادر المختلفة التي عرضت لتلك الحقبة الزمنية، سواء أكان هذا الشعر متضمناً في الديوان، أو لم يسبق ذكره. وسأعرض لبعض المصادر التي عرضت لذلك :

١. مرآة الزمان - ابن الجوزي، (ت ٦٥٤ هـ)، وقد أورد ترجمة مستفيضة لابن مطروح وذكر شعراً ورد في الديوان . المسجد الأقصى، لا عاش الغزال ولا بقي ، والشعر ليس بالكثير.
٢. وفيات الأعيان لابن خلكان، (ت ٦٨١ هـ) وقد ذكر للشاعر ترجمة جيدة في العديد من الصفحات، وقد أورد من ضمن الترجمة حوالي خمسة وعشرين بيتاً من الشعر له، واكتفى بذكره للديوان، وأنه قد سمع من ابن مطروح أكثر هذا الديوان^(١).
٣. مفرج الكروب - ابن واصل الحموي، (ت ٦٩٧ هـ)؛ وقد أورد ترجمة للشاعر ذكر في ثناياها شعراً لابن مطروح موجوداً في الديوان^(٢)، وهي المسجد الأقصى، ثلاثة ليس لهم. والشعر المذكور ليس بالكثير.
٤. ذيل مرآة الزمان - اليونيني، (ت ٧٢٦ هـ)، وقد أورد ترجمة مستفيضة للشاعر في العديد من المواضع وأورد شعراً لابن مطروح من الديوان، ومن خارج الديوان والشعر الذي أورده اليونيني يزيد على (٣٠٠) ثلاثمائة بيت^(٣).
٥. مسالك الأبصار - ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ)، وقد أورد بعد ترجمة ابن مطروح مجموعات كثيرة من شعره بشكل متتابع، وعدد الأبيات التي ذكرها العمري زادت على (٤٠٠) أربعمائة بيت، منها قسم ليس بالقليل من الشعر الذي لم يرد في الديوان،^(٤) يصل إلى قرابة مئة وعشرين بيتاً.

(١) وفيات الأعيان ٦ : ٢٥٨ .

(٢) مفرج الكروب ٥ : ٣٠٤ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ٣٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٤٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ - ٢٢٠ / ٢ : ٢١٢ - ٢١٨ .

(٤) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٠ - ١٧٢ .

٦. فوات الوفيات - ابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) أورد بعض الأشعار لابن مطروح ضمن عدة ترجمات لأعلام، إذ أورد عشرة أبيات عند ترجمة الفرنسيس (١) ملك فرنسا وهزيمته في المنصورة ثم أورد خمسة أبيات في رثاء الملك المعظم توران شاه (٢) ابن نجم الدين أيوب يرثيه بعيد مقتله ثم ثلاثة في مدح الناصر داود عند فتح القدس ثانية (٣)، وبيتان من الشعر أيضا في مدح الناصر داود.
٧. الإمام بالأعلام - النويري - (ت ٧٧٥ هـ) ذكر ترجمة لابن مطروح ثم أورد شعراً لابن مطروح أبرزه قصيدة هزيمة الفرنسيس (٤).
٨. السلوك - المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ)، ذكر ترجمة لابن مطروح وأورد شعره في مدح الناصر داود عند فتحه القدس الشريف (٥).
٩. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - العيني (٦) (ت ٨٥٥ هـ) أورد ترجمة له تشبه ترجمة ابن خلكان في الوفيات ثم أورد نثراً من شعره.
١٠. شذرات الذهب - ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) وقد أورد ترجمة مطولة لابن مطروح (٧) تكاد تشبه ترجمة الوفيات لابن خلكان، وأورد شعراً لابن مطروح منها عشرة أبيات من قصيدة «هي رامة»، أربعة أبيات من قصيدة علقته من آل يعرب، بيتان في التوسل إلى الله - يارب قد عجز الطبيب ...، وبيتان آخران ... أصبحت بقعر حفرتي مرتها.

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٢٢

(٢) نفسه ١ : ٢٦٥

(٣) نفسه ١ : ٢٤ ، ٤ ، ٢٢٨

(٤) النويري - محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني (ت ٧٧٥ هـ) / كتاب الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقفة الإسكندرية/ تحقيق اتين كومب وعزيز سوريال/ دائرة المعارف بحيدر أباد - الهند / ١٩٦٨ م . ١ : ١٧٥ .

(٥) السلوك ١ : ٢٩٢

(٦) بدر الدين محمود / عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان / عصر سلاطين المماليك - تحقيق د. محمد محمد أمين - الهيئة المصرية للكتاب / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . ١ : ٥٩ .

(٧) شذرات الذهب ٥ : ٢٤٦

ملحوظات هامة على جداول الشعر في نسخ ديوان ابن مطروح :

لقد مر سابقاً عند عرض نسخ الديوان أن أعداد الأبيات في النسخ كما يلي :-

١. الجوائب المطبوع ٨٢٧ بيتاً
 ٢. مخطوط كوبريلي ٧٨٤ بيتاً .
 ٣. مخطوط مانسستر ٥٢٦ بيتاً
 ٤. مخطوط المتحف البريطاني ٥٣٢ بيتاً
 ٥. مخطوط برلين ١٥٧٣ بيتاً .
- ووجد الباحث بعد التدقيق ما يلي:

- * تشابهت نسختا الجوائب - المطبوعة - وكوبريلي المخطوطة إلى حد كبير.
- * اتفقت نسختا مانسستر والمتحف البريطاني المخطوطتان مع نسخة الجوائب المطبوعة وكوبريلي بأبيات عددها (٢٣٥) مئتان وخمسة وثلاثون بيتاً فقط.
- * اتفقت نسخة برلين مع نسخة الجوائب ونسخة كوبريلي بأبيات عددها (٤٠٦) أربعمئة وستة أبيات.

| عدد الأبيات الزيادة عن الجوائب | |
|--------------------------------------|---|
| ٢٨٧ | اتفقت نسخة برلين مع نسختي مانسستر والمتحف البريطاني بأبيات عددها (٤٩) تسعة وأربعون بيتاً . |
| ١٧ | زادت كل من نسختي مانسستر والمتحف البريطاني عن الجوائب (زيادة) بأبيات عددها (٢٨٧) مئتان وسبعة وثمانون بيتاً . |
| ١٧ | انفردت نسخة المتحف البريطاني عن غيرها (١٧) بسبعة عشر بيتاً. |
| ٢١ | في القصائد المشتركة في نسختي مانسستر والمتحف البريطاني زيادة أبيات عن التي في الجوائب عددها (٢١) واحد وعشرون بيتاً. |
| ١١٦٧ | الأبيات التي انفردت بها نسخة برلين عن غيرها تصل إلى (١١٦٧) ألف ومئة وسبعة وستين بيتاً . |
| ١٤٩٢ | مجموع الأبيات الجديدة التي لم ترد في نسخة الجوائب ووردت في النسخ الأخرى تصل إلى (١٤٩٢) ألف وأربعمئة واثنين وتسعين بيتاً تقريباً . |

| |
|--------------------|
| $\frac{٨٢٧}{٢٣١٩}$ |
| $\frac{٢٠٠}{٢٥١٩}$ |

وإذا أضفنا الأبيات السابقة إلى ما ورد في الجوانب وكوبريلسي يصبح مجموع الأبيات (٢٣١٩) ألفين وثلاثمائة وتسعة عشر بيتاً.

والمجموع السابق هو زيادات في النسخ المختلفة للديوان إضافةً إلى نسخة الجوانب.

يضاف إلى هذا عدد غير قليل من الأبيات الشعرية للشاعر وردت في المصادر المختلفة، خصوصاً في نيل مرآة الزمان ومسالك الأبصار، والشعر الوارد في كل منهما لا يقل عن مئة بيت من غير الواردة في الديوان أي ما يصل إلى مئتي بيت.

فيصبح مجموع شعر الشاعر الذي وقفت عليه يقدر بحوالي ألفين وخمس مئة بيت تقريباً وهي زيادة تقدر بثلاثة أمثال الأصل المطبوع (الجوانب).

د. اختلاط شعر ابن مطروح بشعر غيره :

قبل الحديث عن هذا الأمر لا بد من العرض لقضية مهمة، هي ديوان الشاعر، من جمعه، ومتى؟ لأن هذه القضية تلقي الضوء على جانب كبير من الموضوع المراد بحثه، وسأبدأ بما ورد في الديوان لأن الاعتماد عليه أقوى من غيره من المصادر، وأول خبر ورد بهذا الخصوص هو التالي :

« وقال أيضا واملاه على عز الدين بن غياث القرشي وأذن له في روايته على التواريخ الآتي ذكرها، فمما أملاه يوم الخميس تاسع رجب سنة ٦٤٨ هـ بالقاهرة المحروسة » (١).

والخبر السابق يدل دلالة واضحة على عدة قضايا مهمة :

- أنه يحدد تاريخ تدوين الديوان بدقة وهو واضح باليوم والشهر والسنة «الخميس تاسع رجب سنة ٦٤٨ هـ».

- أنه يحدد مكان التدوين «بالقاهرة المحروسة».

- أنه يذكر صراحة اسم ناسخ الديوان عز الدين بن غياث القرشي ورغم أنني لم أعثر للمذكور على ترجمة إلا أن الخبر يذكر أنه من أقارب ابن مطروح.

- لعل من القضايا الهامة الواردة في الخبر «واملاه» أي أن ابن مطروح قد قام بنفسه بإملاء ديوانه قبل وفاته على قريبه.

- وأيضا ما ورد في الخبر «وأذن له في روايته»، فإن إملاء الديوان يدعم نسبة الشعر له، والإذن بالرواية يشير إلى أن ابن مطروح قد ضبط شعره كتابةً وتدقيقاً على عز الدين بن غياث فوثق أن شعره قد حفظ في المرحلة الأولى ألا وهي التدوين بشكل جيد، فكان من الضروري أن يحفظه عبر مرحلة ثانية مهمة ألا وهي الرواية، فأذن له برواية شعره.

ويبدو أن ابن مطروح بعد أن قام بتدوين شعره، عرض هذا الديوان بما فيه على أصدقائه، فهذا هو ابن خلكان صديقه يذكر « وله ديوان شعر أنشدني أكثره » (٢) وبالتالي فإن الشعر المذكور في الديوان آنذاك لابن مطروح إذ لو قبل ابن مطروح لنفسه ادعاء الشعر، ما قبل له غيره من المعاصرين الأبناء ذلك. واشتهر ديوان ابن مطروح بعد

(١) الديوان ج ١٢ ، ك ٢/٢٤ .

(٢) الوفيات ٦ : ٢٦٠ .

ذلك بما فيه وهذا ما ذكره العديد من المؤرخين كما مر سابقاً، ومن ذلك ما ذكره اليونيني (ت ٦٢٦ هـ) أن لابن مطروح (ترسلاً حسناً وديواناً مشهوراً) (١).

- وبالرغم من جمع الديوان في حياة ابن مطروح إلا أن هناك إشارات تدل على وجود اختلاط لشعره بشعر غيره، وأول إشارة لهذا وردت عند ابن خلكان، جاء فيها:

« وأخبرني - ابن مطروح - أنه جرى بينه وبين أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة الشاعر (٢) منازعة في بيت شعر هو من جملة قصيدته التي أولها:

من لي بغصنٍ باللحاظٍ ممنطقٍ حلو الشمائل و اللمي والمنطسق
مثري الروادف مملقٌ في خصره أسمعت في الدنيا بمثرٍ مملق (٣)

والبيت الذي وقع النزاع فيه :

وأقولُ يا أخت الغزال ملاحهً فتقول لا عاش الغزال ولا بقي (٤)

فزعم ابن شمس الخلافة أن هذا البيت له من جملة قصيدة هي في ديوانه، وعمل كل واحد منهما محضراً أشهد فيه جماعة أن البيت له، وكان - ابن مطروح - محترزاً في أقواله، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له، والله مطلع على السرائر (٥).

وهذا الخبر يدلنا أن الشعراء كانوا يُغيرون على معاني بعضهم، حتى أن الشعر قد يُختلف عليه في حياة صاحبه، ولكن ابن خلكان، وهو قاضٍ مؤرخ، نراه يميل إلى ابن مطروح، إذ من تعليقه على الخبر في وصف ابن مطروح بقوله «وكان محترزاً في أقواله، ولم تُعرف منه الدعوى بما ليس له» (٦) كأنه يريد الإيحاء أن ابن مطروح هو الأصدق، ومن هنا فربما نجد في ديواني الشاعرين أبياتاً تقوم دعوى كل منهما أنها له.

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠١.

(٢) مجد الدين أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة (٥٤٣ - ٦٢٢ هـ) كان ذكياً أديباً بارعاً، وله ديوان وتصانيف. انظر الوفيات ١ : ٣٦٢، سير أعلام النبلاء ٢٢ : ٣٠٠.

(٣) الديوان ج ١٩٩، ك ٢/١٧، ط ٢/١٠، ش ٢٠.

(٤) نفسه.

(٥) وفيات الأعيان ٦ : ٢٦١.

(٦) نفسه ٦ : ٢٦١.

- ومن أمثلة اختلاط شعره بشعر غيره ما أورده اليونيني (يقول جمال الدين بن مطروح وقيل بهاء الدين زهير :

لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فـأزلا واحداً ثم واحداً (١)

والأبيات موجودة في ديوان البهاء زهير (٢) وتتسب إلى ابن مطروح إلا أن نسبتها للبهاء زهير أغلب، خاصة ونحن نجد في نيل مرآة الزمان علاقة نسب تربط بين بهاء الدين زهير مع الفائزي - صاعد - (٣).

وأما اقتباس الشاعر من شعر غيره سواء أكان أجزاء أبيات، أو أخذ معان، فهذا كثير وسيرد في موضع آخر.

ومن أمثلة اختلاط شعره، ما أورده اليونيني أيضاً في ترجمة محمد بن يونس بن صاعد (٤) « انشدني - تاج الدين - أبو حامد ابن يوسف لنفسه (٥) :

بأبي وبـي طيف طرق عذب اللمى والمعتنق
ما إن مددت يدي إليه معانقاً حتى أبق (٦)

وقد أورد تنمة لها خمسة عشر بيتاً، كلها منسوبة لمحمد بن يونس بن صاعد وهذه الأبيات لابن مطروح، وردت في أربع نسخ من ديوانه (٧). وهي قصيدة يصل تعداد أبياتها إلى حوالي أربعين بيتاً في مدح الأشرف موسى شقيق الكامل، ولكن اليونيني نسب جزءاً منها لابن صاعد المذكور، وهو معاصر لابن مطروح، فالإثنان ولدا في سنة واحدة ٥٩٢ هـ، وتوفيا حوالي ٦٥٠ هـ، وهذه القصيدة تبدو من شعر ابن مطروح، لعدة أسباب :

- (١) ذيل مرآة الزمان ١ : ٨٠ * وصاعد المنكور : هبة الله بن صاعد .
- (٢) ديوان البهاء زهير : المنيرية ٦٣، دار صادر ١٠٩.
- (٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ٨١ .
- (٤) محمد بن يوسف بن بدران بن فيروز - بن صاعد - تاج الدين - (٤٩٢-٦٩٤) .
- (٥) ذيل مرآة الزمان ١: ٣٥ .
- (٦) نفسه ١: ٣٦ .
- (٧) الديوان ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١٠ ش ١٩.

الأول : أنها من الديوان لابن مطروح وذكرت لها مقدمة تقول «وقال يمدحه أيضاً» (١)
فهي من التي دونت ونسبت سيرته إلى مناسبتها.

الثاني: أنها وردت قصيدة طويلة لابن مطروح تصل إلى ما يقرب من أربعين بيتاً
وعندما نسبت إلى صاعد لم تصل إلى نصف هذا العدد.

الثالث: أن النفس الشعري والصور في القصيدة تشير إلى ابن مطروح فهو في هذه
القصيدة يذكر في البيت السادس :

وأوحشت جفني يا كرى وحرمت أنسك يا أرق (٢)

وهو في قصيدة أخرى يذكر :

يا قلب ما أنست بعدك راحة فمتى أراك ويا كرى أوحشتني (٣)

وهذه الصورة تتكرر في شعر ابن مطروح .

لكل ما سبق فنسبة الأبيات إلى ابن مطروح أقرب منها لابن صاعد.

- ومن أمثلة اختلاط شعر ابن مطروح بشعر غيره ما أورده ابن شاعر الكتبي إذ يقول
في ترجمة فخر الدين بن الشيخ «شيخ الشيوخ» (٤).

وتعابتنا فقل ما شئت من نظم ونثر

وتعانقنا فما ظنك في ماء وجمر

ثم لما أدير الليل وجاء الصبح يجري

قال إياك رقيبك يدري قلت يدري (٥)

وهذا الشعر ورد في ديوان ابن مطروح في أكثر من نسخة من نسخ الديوان (٦) ضمن

قطعة شعرية فيها عشرة أبيات مطلعها :

بات في أحناء صدري غصن نيط بيدر

(١) الديوان ج ١٧٨ ، ك ١/٦ ط ١٠ ش ١٩ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ج ١٧٨ ، ك ٢/٥ ، ش ٣١ ، ط ١/١٥ .

(٤) فخر الدين بن الشيخ من الأمراء الفقهاء أصحاب السياسة والحزم ٥٨٢-٣٦٤٧ استشهد في وقعة المنصورة سنة ٦٤٧ هـ مجاهداً ضد الفرنسيين ، انظر فوات الوفيات ٤ : ٣٦٦ .

(٥) فوات الوفيات ٤ : ٣٦٨ .

(٦) الديوان ط ٨ / ٢ ، ش ١٥ .

بدويّ نازلٌ من شعره في بيت شعر^(١)
ومن أهم أمثلة اختلاط الشعر، ما ورد على هامش نسخة مخطوط مانشستر، إذ ورد
أول المخطوط في أعلى القصيدة الأولى:
« هذه للقاضي السعيد ابن سناء الملك »^(٢)
كما ورد في موضع آخر « وهذه للقاضي السعيد المذكور »^(٣).
وقد نبهتُ على هذا الأمر لدى مناقشتي لنسخ الديوان.
وبالرجوع إلى القصيدة التي بدأتُ بها نسخة مانشستر، وهي القصيدة التي مطلعها :
دنوتُ وقد أبدى الكرى منه ما أبدى فقبلته في الخد تسعين أوحداً^(٤)
وقد وجدتُها في ديوان ابن سناء الملك^(٥) فقد ورد:
« وقال يمدح القاضي الرئيس جمال الدين أسعد بن الجليس ».

ثم أورد القصيدة هناك وهي قصيدة طويلة في ستة وأربعين بيتاً، في حين كانت
أبيات القصيدة في ديوان ابن مطروح لا تتعدى عشرة أبيات، جميعها متضمنة في أوائل
الأبيات، ويبدو من طول القصيدة عند ابن سناء الملك واتساقها مع الغرض المقررة من
أجله، ألا وهو المديح، إضافة إلى إشارة مهمة في ديوان ابن سناء الملك هي:
ذكره لمدوحه في ثنايا الأبيات إذ يذكر:
وربع الذي أهواه يروى شرابه الـ عطاش ويشفي ترابه الأعين الرمدا
ثوت في مغانيه السعود كأنما مغانيه تستهدى من الأسعد السعدا
هو الأسعد القاضي الأمير أما ترى جنود المعالي كيف صرن له جندا^(٦)
لكل ما سبق فنسبة الأبيات إلى ابن سناء الملك أقوى من نسبتها لابن مطروح.

(١) الديوان ط ٨ / ٢ ، ش ١٥ .

(٢) نفسه ش ٤ .

(٣) نفسه ش ٥ .

(٤) نفسه ش ٤ ، ط ١/٤ .

(٥) ديوان ابن سناء الملك - القاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد ت ٦٠٨ هـ - ١٢١٢ م. اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه وتقديمه د. المرحوم محمد عبد الحق . (اكسون) - طبع ونشر بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية / ط ١ / مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر اباد الدكن - الهند، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م . ص ٢٠٦ .

(٦) انظر نفسه ص ٢٠٩ الأبيات ٢٠ - ٢٢ وابن سناء الملك ت ٦٠٨ هـ انظر الوفيات ٦ : ٦١ .

وهناك موضع آخر في ديوان ابن مطروح وردت أبياته في ديوان ابن سناء الملك وهذه القصيدة مطلعها:

حذار سيوف الهند من أعين الترك فما شهرت إلا لتؤذن بالفتك (١)

وقد وردت كذلك عند ابن سناء الملك (٢) بأبيات قريبة العدد، كما وردت عند ابن مطروح. هذه المواطن قد ورد فيها اختلاط نسبة الشعر إلى صاحبه، ولكن يبدو أن مثل هذا الأمر بالنسبة لشعر ابن مطروح لا يتعدى نسبة بسيطة. ومن أمثلة اختلاط شعره أيضاً ما ورد في ديوانه :

يا فاضلاً بهرتنا من فصاحته بلاغة لم تكن في قدرة البشر
أرسلتها دُرراً حلت مسامعنا يا بحرُ حسبك ما أهديت من دُررٍ
لَفْظاً وخطأً وكلّ منهما حسنٌ من محسنٍ فهي ملءُ السمعِ والبصرِ
فلم أزل أجتلي ليلي محاسنها وأجتديها فقل في الزهرِ والزهرِ (٣)

وقد وردت مقدمة الأبيات كما يلي «وقال وكتب بها إلى ابن عسرون رحمه الله». وهذه الأبيات وردت بنفس الألفاظ والترتيب منسوبة للقاضي الفاضل في ديوانه (٤). وقد ذكر محقق ديوان القاضي الفاضل د. أحمد بدوي أن هذه الأبيات تم نقلها من (المختار من إنشاء القاضي الفاضل)، في حين وردت الأبيات في نسخ ثلاث لابن مطروح، ولها مقدمة تشير إلى اسم المرسل إليه، وهو ابن أبي عسرون. من خلال المواضع التي تم التنبيه عليها سابقاً يتضح لنا أن شعر ابن مطروح الذي تم جمعه في حياته قد تمت نسبته إليه بشهادة الأبناء في عصره كابن خلكان وغيره، ولم يرد موضع تنازع في أي مكان سوى بيت الشعر - لا عاش الغزال ولا بقي - مع ابن شمس الخلافة، أما باقي المواضع فعددها محدود، واحتمال اختلاطها مع شعر ابن مطروح يقوم على أخطاء النساخ والرواة، لكل ما سبق فإن الأغلب الأعم من الشعر الوارد لابن مطروح نستطيع الترجيح أنه له، مع احتمال حذفنا لكل ما تم الاختلاف حوله.

(١) الديوان ش ٢١، ط ١١، ل ٥٣.

(٢) ديوان ابن سناء الملك ٥٤٢ - ٤٥٥.

(٣) الديوان ج ١٩٦، ك ١/١٦، ل ١/٦٠، وقد وردت في ذلك الموضع.

(٤) القاضي الفاضل (عبد الرحيم البيساني) ت ٥٩٦ هـ - ديوانه / تحقيق د. أحمد بدوي / مراجعة ابراهيم الأتباري / من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي / دار المعرفة / القاهرة / ج ١ / ص ٥٠٨.

الفصل الثالث

موضوعات شعره

- شعر الجهاد
- الشعر الديني
- فنون شعرية أُخرى:
 - * المديح
 - * الغزل
 - * الفخر
 - * الوصف
 - * الهجاء
 - * الإخوانيات

الفصل الثالث

موضوعات شعره

لقد كانت للنشأة الأولى لابن مطروح في مدينة قوص الأثر الكبير في حياته الخاصة، وهي التي شهدت نشاطاً فكرياً كبيراً، إضافة إلى حركة شعرية نشطة، فنجد ابن مطروح يوظف ما يصل إليه من علم وأدب من أجل بناء مخزون ثقافي يظهر مبكراً من خلال انطلاق لسانه بشعره^(١).

فاين مطروح يقول الشعر، ويجيد فيه، ويثبت جدارته في هذا المضمار الذي يتسابق فيه الشعراء للوصول إلى الذروة. ودخول مجال التنافس، إذ يقول بمناسبة وصول مجد الدين إسماعيل اللمطي^(٢) والياً على الصعيد سنة ٦٠٦ هـ^(٣):

من لي بغصنٍ باللحاظ ممنطق حلو المحيا واللمى والمنطق

ثم يكمل فيقول:

لا فزت بالمأمول من طلب العُلا ويقرب مجد الدين إن لم أصدق

واقفي بأسعد ليلة ودليله أن الصعيد بيمن طلعتَه سقي^(٤)

وهذه الإشارة التي قالها ابن مطروح سنة ٦٠٦ هـ توضح لنا أن ابن مطروح المولود سنة ٥٩٢ هـ قد قال هذا الشعر وعمره لا يتجاوز الخمسة عشر عاماً.

وابن مطروح يقول عن نفسه في قصيدة يمدح بها الأشرف موسى:

إن شئت نظماً فالذي أُمليته أو شئت نثراً فاقترح واستحسن^(٥)

لذا فليس من المستغرب أن نجد الأدباء والمؤرخين يقولون عنه «أنه شاعر

وقته»^(٦) «وأنه أحد الشعراء المجيدين»^(٧) «وأنه صاحب الشعر الرائق»^(٨)، ومثل هذا كثير.

(١) يرجع إلى الفصل الأول عن حياة الشاعر - نشأته وثقافته .

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٨٨ .

(٤) الديوان ١٩٩ - ٢٠٠ وقد وردت في معظم نسخ الديوان .

(٥) نفسه ص ١٧٧ .

(٦) المسجد المسبوك ٥٨٥ .

(٧) حسن المحاضرة ، ١ : ٥٦٧ .

(٨) العبر ٣ : ٢٦٤ ، شذرات الذهب ٥ : ٢٤٧ .

تتوّعت الأغراض الشعرية في ديوان ابن مطروح، وسأبدأ بعرض أغراض شعر الشاعر بذكر أعلى الأغراض سهماً وأشرفها مرتبةً، وهو شعر الجهاد ومقارعة الأعداء، على الرغم من أن هذا الغرض ليس الأكثر كمّاً في شعر ابن مطروح :

* شعر الجهاد :

(لقد كانت المرحلة التي عاشها ابن مطروح مرحلة صراع مستمر ومتصاعد مع أعداء الأمة الصليبيين الفرنجة، وابن مطروح بحكم موقعه السياسي كان من المقربين إلى البيت الأيوبي الذي أخذ على عاتقه مواصلة التصدي لأعداء الأمة، بعد انتصار صلاح الدين في حطين، ولم تزل بقيةً من أراض وحصون بيد الأعداء، فتذوّق المسلمون بداية طعم الظفر، وأبناء الإسلام في شوق لاستكمال مراحل إنهاء الصراع كاملاً مع أعدائهم، لذا فليس من المستغرب أن يسير ابن مطروح في مجال الذاكر لهذه القضية في شعره، خاصة، والناس قد اشتدت حاجتهم إلى مجاهد يمثل أمل الأمة بعد أن ابتلوا من سوء بعض الحكام وأنانيتهم، ما أذلهم وأفقدتهم أرضهم وأوطانهم، ولا يريدون انقطاع نفس الجهاد الجاد ضد الأعداء.

فقد واكب الشعراء الأحداث بشكل شبه يومي قبل أن يتفرغ مؤرخو هذه الحقبة لتاريخ أحداثها، فذكر الشعراء عظماء المسلمين وقانتهم الذين أبلوا البلاء الحسن، وفي الوقت نفسه ذكروا المتقاعسين والجبناء والمتخاذلين، وذكروا المعارك ونتائجها سواء أكانت انتصارات أم هزائم، إضافة إلى نكر أدوات الجهاد من خيل وسلاح وما يرافق ذلك من شحذ معنويات ، واستنهاض همم(١) .

موضوعات شعر الجهاد عند ابن مطروح :

→ الدعوة إلى الجهاد واستنهاض الأمة (:

لقد تيقن المسلمون بعد حطين أن عزهم - بعد الله - في الجهاد، لذا كان من الصعب على المسلمين أن يروا أسباب الفرقة تعود من جديد بين الملوك الذين ورثوا

(١) انظر صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، تأليف د. محمود إبراهيم ، المكتب الإسلامي/

دمشق ومكتبة الأقصى/عمان، ط ١، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ص ١٥٥ .

دولة بني أيوب، سواء الكامل محمد، أو الأشرف موسى، أو المعظم عيسى، وبداية اختلافهم، ثم بداية ظهور هذا الأمر بين أبنائهم، فكان العلماء والشعراء على الدوام يُذكرون بأسباب القوة والوحدة، خاصة وقد استشعروا أن الخلاف بين ملوك بني أيوب سيؤدي إلى ضياع البلاد من جديد.

ولعل من أبلغ المواقف التي ضدمت الناس وروعتهم مجدداً يوم رأوا اقتحام الفرنجة ثانية لحصون إسلامية ركيئة، تمثلت في توغلمهم في عمق مصر سنة ٦١٥هـ، ووصولهم إلى دمياط، إضافة إلى عودتهم لتهديد القدس ثانية^(١).

وفي هذه المرحلة نجد ابن مطروح يخاطب الكامل^(٢) الأيوبي محمد بعد انتصاره على الصليبيين بقوله :

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه . ومذل أهل الشرك والطغيان^(٣)

ثم يطلب منه العمل على تعبئة الجيوش ودفعها إلى ساح الوغى، لأن في هذا العمل عز الانسان المسلم الذي يرتفع به على صغائر الدنيا ويرتقي إلى رتبة أعلى، فالمجاهد في نظر ابن مطروح، هو من يخلق في العوالم الروحانية العليا :

أفد المواكب كالكوكب والتحق بشريف ذاك العالم الروحاني^(٤)

ثم يُذكره بأن المسلم يجب أن يكون غيوراً على حرمة الله كما يبدو في قوله:

صان المعالي حيث كان أباً لها وكذا تكون حمية الغيران^(٥)

وسجل بشعره يوم انتصار المسلمين على الفرنجة سنة ٦١٨هـ، كما يحذر المرجفين الذين يبتئون الأقاويل ليتبطوا الناس عن الجهاد أن القصاص سينالهم :

سيقنضي منكم ديوناً تقذى بها أعين قريرة^(٦)

ويشدد النكير على هذا النفر من الناس، ويبارك جهود المجاهدين المخلصين، ونجده يمدح الأشرف موسى عندما قام بإنهاء فتنة دعمها الفرنج ، لأن هذا الفعل يجب أن يثاب فاعله ويشكر بصرف النظر عن كون :

(١) الوفيات ٥ : ٧٩.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) الديوان ج ١٧٦ ، ك ١/٥.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه ، ج ٢١٨ ، ك ١/٢٧ ، ل ١/٢٦.

فاعزم ولا تثن الأعداء إذ تخضب بالعلق

من كل مهجة مارق لا إثم في دم من مرق

وارو السيوف من الظما رياً يبلغها الشـرق (١)

فهو يرى أن لا إثم في سفك دماء أهل الفتنة ومن ناصرهم ويبالغ في متابعة أمرهم حتى ترتوي السيوف فتشـرق بالدماء وبذلك يرد الكيد إلى نحر مدبره، فالذي ((تصدع)) هو حشا الرومي وليس أدواته فقط.

وابن مطروح يُذكر الناس بأمجادهم الإسلامية، خاصة وهو يرى بعينيه تسليم القدس لأعداء الأمة الفرنجة، بموجب اتفاق تم بين الكامل وبين الامبراطور الفرنجي، وقد وقّع هذا الاتفاق سنة ٦٢٥هـ، ودخل الفرنج القدس فعلياً سنة ٦٢٦هـ، ((وانتهت المفاوضات بتسليم القدس دون أعمالها سنة ست وعشرين وستمئة)) (٢).

وابن مطروح كان من الشعراء القلائل الذين ذكروا هذه الحادثة :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً

إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً

فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً (٣)

يبين الشاعر أن الله قد خص القدس وما حولها عن سائر البلاد بالغبلة والنصر، وإن طال احتلالها أو قصرت حمايتها، فكان الناصر صلاح الدين قد حررها أولاً والناصر داود حررها آخراً .

✱ الدعوة إلى وحدة الأمة ، والأخذ بأسباب القوة :

إن بناء الجبهة الداخلية القوية خير ضمان لقوة الجيش الذي يقابل أعداء الأمة الفرنجية إذ إن أي خلل فيها سيؤدي إلى نفاذ أولئك الأعداء لها، خصوصاً والمسلمون قد جربوا الفرقة، فحصدوا مآسيها من ضياع للقدس ولأرض المسلمين، فلا غرابة أن ترى العقلاء يُحذرون دائماً من أي صدع في هذه الجبهة. ولذا رأينا ابن مطروح يذكر الكامل

(١) الديوان ج ١٧٨ ، ك ٢/٦ ، ش ١٩ ، ط ١/١٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ١ : ١٢٩ .

(٣) الديوان ، ج ١٨٢ ، ك ١/٨ ، ل ١/٥٨ ، وانظر تفصيل الحادثة في مفرج الكروب ١ : ٢٤٧ ، فوات

الوفيات ١ : ٢٤٢ .

محمدًا في شعره مادحًا له لحفظه بلاد المسلمين دون تمزق وفرقة، وأنه نشر الأمن في الأرض والبلاد يقول :

لله رأيتك التي قد أصبحت معقودة بالأمن والايامن

أنى قصدت بها رجعت وتحتها ملك مطيع أو أسير عان^(١)

فهو يرى النعمة الكبرى تتمثل بالأمن الذي غدا من معالم دولة الكامل يسير معها وتحت رايتها التي عقد بها الظفر كيفما اتجهت، وهذه القضية ليست موضع مساومة بالنسبة إليه، فإمّا أن يأتي الأمراء إلى ظل وحدة الأمة طائعين، «ملك مطيع»، أو ليؤخذ بأسباب القوة كل من يتخلف ويعلن العصيان حتى يخضع، «أو اسير عان».

ويرى إن من أهم واجبات الحاكم أن يفرض هيئته على الجميع بالقول والفعل، لذا فإن شيم هذا الملك، يجب أن تكون متميزة، فيمدح الأشرف موسى بقوله :

أبقت لك الذكر الجميل مخلداً شيم لها الاملاك لم تتفطن

وشجاعة رجف العراق لذكرها وتهامة وبلاد عبد المؤمن^(٢)

فيجب على الجميع أن يستشعروا هذه الهيبة سواء القريب والبعيد، من العراق شرقاً إلى بلاد عبد المؤمن، المغرب، غرباً، إلى عمق الصحراء جنوباً، تهامة. وعلى صاحب الفتنة أن يدرك أنه لا يستطيع الفرار من قبضة هذا الحاكم المخلص لقضية الجهاد إذا أراد النيل منه :

ودعاؤه في ليله ونهاره يا رب من سطوات موسى نجني^(٣)

فليس له من حيلة سوى الدعاء، بعد قيام هذا البطل بتقليم أظافر فنتته.

وابن مطروح يرى في بطله قدر الله القادم بالخير، تفرح أفئدة المؤمنين لرؤيته وقدمه، وتظهر علامات السخط على المنافقين الذين لا يريدون جهاداً، ورضوا من الغنيمة بالإياب، إذ عندما يمدح مجد الدين بقدمه الصعيد لتأمين سبيل الحج البحري من قطاع الطرق الذين آذوا الحجاج وآذوا الدولة، نراه يجعل هذا القوم مقترناً ومتناغماً مع الظواهر الكونية، فيتزامن وصوله مع ليلة ماطرة إلى الصعيد، يرى فيها ابن مطروح بشارة من الله إلى الناس أن هذا القادم هو من رحمات الله عليهم :

لله أية آية لك لم تكن لسواك ممن قد مضى أو من بقي

(١) الديوان ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

(٢) نفسه ج ١٧٧ ، ك ١/٦ .

(٣) نفسه

أي الملوك سواك يقدم جيشه جيشان من رعدٍ وغيثٍ مغدقٍ (١)
فالرعد والبرق والغيث من جند الله مع هذا القادم بأمر الله لقمع الفتنة وتوحيد الأمة،
وهذا الأمر يفرح الأخيار ويغيظ الأشرار.

فليهنني والأولياء قدمه في غيظ كل منافق متملق
كم قلت للأعداء روموا سلمه وحذار من ذا الأفعوان المطرق (٢)
والقائد مع مراعاته لوحدة الأمة يجب أن يقمع الفتن، ويرمم جدار بناء الدولة :
ذو الرأي يبني ما وهي والعزم يرتق ما انفتق (٣)

يسد الثغرات ويضرب المرجفين، وهذه لدى ابن مطروح قضية مركزية، تبدأ معه من
الصعيد في أول أيامه، وتمر عبر أيام الكامل والأشرف موسى، إلى سفارته في إصلاح
الأحوال مع نجم الدين أيوب، وحتى آخر أيامه مع بني الشيخ الشيوخ، فلا هم له سوى أن
يرى شمل الأمة قد اجتمع على الدين ونصرته وعزته، فيقول :

بكم يا بني شيخ الشيوخ تأيدت دعائم هذا الدين واشتد كاهله (٤)

فكل الذي يبغيه ابن مطروح أن تؤيد وتتوطد دعائم هذا الدين وأن يقوى عوده
ويشدد على يد هذا البطل، فليس بمستغرب أن يعلي ذكره وهو يراه يقوم بهذه المهمة
الجليلة التي نذر نفسه لها وهي وحدة الأمة وتضامنها وقمع المعتدين :

فالله يحرس بيتكم بعماده فلقد غدا للدين خير عماد (٥)

وممدوحه من يأخذ بأسباب القوة العسكرية، فهو فارس يتقن استعمال السلاح فسيفه
قاطع بائر قد ارتوى من دماء الأعداء.

والبيض حمراً من نجيع دم الطلى فكأنها غضبي على الأجساد (٦)

ولا بد لحماية دولة الإسلام من أن يقوم كل واحد بدوره في المعركة، وما هو ابن
مطروح نفسه يباشر الحرب، فهو ناظر ديوان الجيش للملك الصالح نجم الدين، خير

(١) الديوان ج ٢٠٠، ك ١/١٨، ط ٢/١١، ش ٢١.

(٢) نفسه

(٣) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩.

(٤) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١.

(٥) نفسه ج ١٨٦، ك ١/١١، ش ١٠، ط ٢/٦.

(٦) نفسه ج ١٨٥، ك ١/١٠، ش ٩، ط ١/٦.

أدوات الحرب التي تعزُّ بها الدولة، فيقول في رسالة بعثها إلى صديقه البهاء زهير من حصن آمد:

ولقد ذكرك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شرع^(١)

فالصوارم والسمهرية تلمع حول الحصن، وكذلك الخيل الأصيلة العراب التي لا تتعب ولا تتردد في الاقتحام إلا إذا أوقفها صاحبها، فهي تسابق الريح، ولا بد من إعداد العدد اللازمة للنصر:

من كل ضامرة إذا سرت الصبا في إثرها عادت بسعي مخفق^(٢)

فوحدة الأمة، والحرص على أخذها بأسباب القوة من القضايا التي عمل ابن مطروح لأجلها، وظهرت في شعره.

- الدعوة إلى تحرير الأرض واستعادة المقدسات:

الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا غزي أي شبر من أرض الإسلام، والدعوة إلى هذا الأمر مهمة الخطباء والوعظاء والشعراء، عندما يقع الحدث، فكيف يكون الأمر والبلاد المستهدفة هي لب بلاد المسلمين، وخاصة خاصتها، وهي الأرض المباركة التي ذكرها الله في كتابه العزيز، وبارك من حولها إكراماً لقدسيته وهي أرض القدس والأقصى، فما أن يقع الأقصى أسير الأعداء، حتى تلهج السنة الداعين إلى الله بفكاكه، وألسنة الشعراء لتخليصه، فالقدس ليست أرضاً ولا وطناً ولا تراباً، بل هي عقيدة ورمز، جهاد واستشهاد، وفتح وصحابة، إسراء ومعراج، نبي كريم وخليفة عادل.

من هذا الفهم انطلق الأوائل في سعيهم لخلاصها فنجحوا، ووضعوا معالم التحرير لكل جيل، فمن ينظر إلى القدس نظرة إسلامية عقائدية، لا بد له أن يصل إلى أسباب النصر بناءً على ذلك، ومن ينظر إلى القدس نظرة تراب وأرض، سهل عليه أن يستبدلها بأرض أكثر خصباً وتراب أكثر أمناً.

ومن فهم ابن مطروح لقضية القدس بأنها أرض للإسلام قام بربط الأرض بالعقيدة وبأسباب نصر الله لهذه البلاد كما هي سنة الأوائل فذكر الأبيات التي سبق ذكرها:

(١) الديوان ج ١٩٥، ك ٢/١٥، ل ١/٦٠.

(٢) نفسه ج ١٩٩، ك ٢/١٧، ش ٥، ط ١/٢.

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً (١)
والدعوة عنده لم تكن لتطهير القدس فقط بل لكل أرض إسلامية، فهو يخاطب
الفرنسيين، لويس التاسع، بقوله :
قد جئت مصرأً تبتغي أخذها تحسب أن الزمر يا طبل ريح (٢)
فالارض منيعة والديار صعبة القيادة، ولن تستطيع إخضاعها.

- الاعلام الهادف :

في ظل الظروف التي كانت تحكم الحياة أيام ابن مطروح، كانت الوسائل الإعلامية محصورة ومحدودة، منها الخطابة بأنواعها المسجدية أو الديوانية، ثم المنشور الذي يُقرأ في الأسواق بأمر من الوالي، ولكن الوسيلة الأكثر شيوعاً هي الشعر.
فالشعر كما قيل « ديوان العرب و خزانة حكمتها ومستنبت آدابها، ومستودع علومها فيه علم أنساب العرب، وتواريخها وأيامها ووقائعها» (٣).
لذا كان من الأمور العادية أن يدخل الشعر حلبة الصراع يساند المجاهدين، ويرفع الروح المعنوية للأمة، ويذكي في النفوس الأمل بالنصر القادم. وقام الشعر بدوره خير قيام، فكان كالرقيب يسجل حدث المعركة ويصور العاطفة المرافقة بحيث تنظر إليها وكأننا نراها عبر غيب الأيام الخالية.

ولعل أبرز الأمور التي عالجها شعر الجهاد ما يلي :

- رفع الروح المعنوية لدى أفراد المجتمع المسلم وذلك عبر التغني بالأمجاد والانتصارات، فمن وصف ابن مطروح لأحد أبطال المسلمين في جهاده :
يلقى الكماة فمن نجا من سيفه غلطاً فما ينجو من الأصفاد (٤)
فهو بلقائه مع العدو ليس لديه أي حل معتدل معهم، فإما قتل وإيادة وإما أسر بالأصفاد.
ويصور الشاعر مقدره أبطال الإسلام فهم يخطفون النصر من الأعداء يقول :
عشق المعالي فاقتدى بثلاثة تغنيه في الإصدار والإيراد

(١) الديوان ج ١٨٢ ، ك ١/٨ ، ل ١/٥٨

(٢) نفسه ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨

(٣) كتاب الصناعتين / الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م . ص ١٣٨.

(٤) الديوان ج ١٨٥ ، ك ٢/١٠ .

بحسامه السفاح أو بلوائه المنصور أو بالرأي منه الهادي^(١) فهو صاحب حسام لا يرتوي من دماء الأعادي، ورفيق لواء جيش ما نكست له راية، وصاحب رأي ودراية في الحرب لا يخذع وهو أسد ضار ضد الفرنجة الغاصبين. من يرد الغيث إن قيل همى من يصد الليث إن قيل هجم^(٢) فهو كالطوفان القادم لا يستطيع أحد الوقوف في وجهه، وهو ليث في حالة اندفاعه نحو فريسته لا يقوى أحد على الثبات أمامه.

- تعزيز مفهوم إسلامية الصراع بين المسلمين والفرنجة :

إن المتأمل لشعر ابن مطروح يلحظ أنه قد ضمن العديد من العبارات التي توضح أسس شعره ومنطلقاته ضد الفرنجة، خاصة أن الحرب مع الصليبيين حرب عقديّة أرادت أن تخفي وجهها، فأراد ابن مطروح أن يُجلى هذا الوجه ليعرف الجميع كيفية التعامل مع هذا الوجه على حقيقته. بحيث لا يستطيع الناظر في هذا الأمر إلا أن يتجه نحو دينه يمسك به بقوة خشية الضياع. ومن المعاني الدينية المتضمنة في شعره: الصليب، والبابا، ويسوع، والكفر، والطهر، والدنس... الخ. ومن ذلك :

قل للفرنسيس إذا جنّته مقال صدق من قؤول فصيح
أجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح^(٣)

ثم يقول :

فردك الله إلى مثلها لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً قريباً غبن قد أتى من نصيح^(٤)

فهنا نجده يركز على الفرنسيين، ملك فرنسا، الذي يعبد يسوع المسيح، عيسى، ويسير بنصح البابا، ونجد ابن مطروح يذكر عن تحرير القدس سنة ٦٣٧ هـ :

(١) الديوان ج ١٨٥ ، ك ٢/١٠

(٢) نفسه ج ١٧٤ ، ك ٢/٤ ، ش ٢٩ ، ط ٢/١٤ .

(٣) نفسه ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨ .

(٤) نفسه

فناصرٌ طهره أولاً وناصرٌ طهره آخراً^(١)

فابن مطروح يرى الأقصى في أسره كأنما هو في نجاسة وهو بالتالي بحاجة إلى تطهير
(إذا غدا بالكفر مستوطناً) يرسل الله له من يغسل عنه النجاسات.

ثم نراه في موضع آخر يوضح أن الجهاد بين المسلمين والفرنجة لا هوادة فيه،
ويجب أن يستمر حتى تتحرر كل الديار.

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه ومذل أهل الشرك والطغيان^(٢)

فابن مطروح يحدد صفات القائد المسلم أنه «ناصر الدين الحنيف» وأنه المذل لأهل
الشرك والطغيان، فكل عدو لأهل الحنيفة هو من أهل الطغيان ورأس من رؤوس الكفر
المتطاولة، والذي لا بد له من الإذلال بالسيف، فنصرة الإسلام والسير تحت لوائه هو
من علامات الفلاح والنصر.

- التغني بالنصر وتضخيمه :

إن من أهم دعائم الإعلام الناجح أنه يشير إلى النصر ويبرزه بشكل يليق به، بحيث
يصبح منارة يهتدى بها، وذلك عبر ذكر قوة جيش العدو، ودهاء قادتهم، وكثرة عددهم
وعدتهم إضافة إلى مواقعهم الحصينة التي يصعب على المهاجمين اقتحامها، ثم يذكر
الشاعر أن جيش المسلمين وقادته قد استطاعوا تحطيم هذا الجيش وتدميره شذراً مذبذباً.

ولعل أبرز القصائد التي في شعر ابن مطروح، قصيدته التي ذكر فيها هزيمة
الفرنسيين، ري دي فرانس، ملك فرنسا لويس التاسع، عندما توغل للمرة الثانية في
مصر سنة ٦٤٦هـ سالكاً نفس طريق الحملة الأولى سنة ٦١٥هـ عبر النيل، قادماً من
البحر المتوسط واستولى على دمياط، وتصدى المسلمون له، بقيادة الصالح الأيوبي - نجم
الدين، الذي عاد مسرعاً إلى مصر بعد أن تفقد ملكه في الشام، وذهب إلى المنصورة،
مرابطاً على الرغم من أنه كان في مرضه الذي توفي فيه، ويتوفى الصالح مُرابطاً،
ويقوم فخر الدين بن شيخ الشيوخ بإدارة المعركة بعدما أخفى القادة ومعهم زوجة
الصالح - شجرة الدر - موت الصالح خشية التأثير على معنويات الجيش، ويحاول
الفرنجة التقدم بغتة إلى المنصورة وينجحون بذلك، وتكاد الأمور تُسفر عن كارثة لولا
عناية الله، ثم صمود فرسان المسلمين في المنصورة، ويُستشهد فخر الدين ويبقى جيش

(١) الديوان ج ١٨٢، ك ١/٨، ل ١/٥٨.

(٢) نفسه ج ١٧٦، ك ٢/٤.

المسلمين يشدد ضغطه على جيش الفرنج المعتدي وعلى معقل قائده لويس التاسع - الذي يقع أسيراً، ويُحفظ في دار القاضي كاتب الانشاء- ابن لقمان- مقيداً برجليه ويوكل به خادم يسمى - صبيح المعظمي الذي يتولى سجنه إلى ان قام بفداء نفسه، وأعطى الوعود ألا يعود إلى مصر ثانية، فما أن يغادر مصر حتى يرسل التهديدات أنه عائد، فيتولى ابن مطروح الرد عليه بأبيات توضح بجلاء ما حصل يوم المنصورة ودمياط :

قل للفرنسيس إذا جنته مقال صدق من قؤول فصيح(١)

ومن أول كلمة في الأبيات يتضح استهانة المسلمين بتهديدات لويس التاسع، إذ يخاطبه مخاطبة المستصغر له، ويرسل الكلام نكرة - قل-، ويضع نفسه في رتبة من يخاطب ملك الفرنج الكبير، فابن مطروح الذي يتولى الرد، وليس أحد ملوك المسلمين:

أجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح(٢)

وتبدو هنا لهجة الاستهزاء، إذ لا أجر للفرنسيس المعتدي الكافر، وإن كان له من فضيلة في نظر ابن مطروح، فهو أجر احضار جيش الفرنج للقتل، هؤلاء الذين لا يعيدون الله بل يعبدون يسوع المسيح.

قد جئت مصراً تبتغي اخذاً تحسب ان الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح(٣)

وهنا يريد ابن مطروح أن يقلل من عقل ودراية الفرنسيس إذ يحسب أن الزمر ريح - فليس كل حامل مزمار بزمار، وليس كل نافخ له متقناً لنفخه، فلم يكن الزمار زماراً، ولم يكن المزمار مزماراً، ولم يكن الزمار إلا طبلأ أجوف فارغاً وريحاً لم يمسه منها شيء.

وكانت النتيجة- الموت- لهذا الجيش الذي أودع بطن الضريح :

رحت وأصحابك أودعتهم بقبح أفعالك بطن الضريح(٤)

وحتى يظهر ابن مطروح عظم النصر، يذكر جانباً واحداً فقط من نتيجة المعركة إلا وهي عدد القتلى :

(١) هذه القصيدة من الشعر المشهور لابن مطروح، انظر الديوان ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨ ، وانظر فوات الوفيات ١ : ٢٣١ ، الإمام بالأعلام ١ : ١٧٥ ، نفح الطيب ٣ : ٨٩ ، السلوك ق ٢٦٣/١٢ .

(٢) الديوان ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

خمسون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح^(١)

فالقَتلى بعددهم الكثير هذا يُظهرون حجم الجيش الفعلي فالعدد أكبر من هذا بكثير، والجيش الذي استطاع قتل هؤلاء كان يفوقهم، إن لم يكن بالعدد فبالمعنويات والتضحية، وكذلك استطاع هذا الجيش أسر الملك، وتسليم البلاد التي احتلها وردّه على أعقابهِ، وابن مطروح يردّ على لويس التاسع الذي أعلن رغبته بالعودة إلى مصر :

فردك الله إلى مثلها لعل عيسى منكم يستريح^(٢)

ويرى ابن مطروح ان هذه الهزيمة هي ضربة مباشرة لمن يقود الصراع حقيقة من الفرنج، وهو البابا الذي يرسل نائباً له مع كل حملة، يقول:

إن كان باباكم بذاً راضياً فرباً غبن قد أتى من نصيح^(٣)

فالبابا يرسلكم لتعتدوا على البلاد وتحتلوا لها، لا لتموتوا، أما وقد أصبحتم تأتون إلى البلاد لتسكنوا بطن الضريح فعلى البابا أن يوضح رأيه، فإن كان راضياً فهو أشقى ناصح لكم وأكثر الناس غبناً لمن يرسلهم.

وابن مطروح يراها ضربة للبابا وليس فقط للويس، ثم يختم قوله موضعاً استعداد المسلمين الدائم للقاء الأعداء وهزيمتهم، فالنصر ليس حالة طارئة في هذه الأمة بل هو الأصل :

وقل لهم إن أضمرنا عودة لأخذ ثار أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على عهدنا والقيد باقٍ والطواشي صبيح^(٤)

فالدار هي السجن لملوككم، والقيد والسجان بانتظاركم، فليس لكم من خيار سوى الهزيمة المؤلمة التي تودي بكم جميعاً ما بين قتيل وجريح وأسير.

ومما تقدم، يتبين لنا أن الشعراء، ومنهم ابن مطروح، قد قاموا بدورهم في الدعوة إلى الجهاد واستنهاض الأمة وتسجيل أحداث الصراع بكل أمانة وصدق.

(١) هذه القصيدة من الشعر المشهور لابن مطروح، انظر الديوان ج ١٨١، ك ٢/٨، ل ١/٥٨، وانظر

فوات الوفيات ١ : ٢٣١، الإمام بالأعلام ١ : ١٧٥، نفح الطيب ٣ : ٨٩، السلوك ق ١٢/٢٦٣.

(٢) الديوان ج ١٨١، ك ٢/٨، ل ١/٥٨.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

- صورة البطل :

لقد كان للبطل في الشعر العربي مكانته المحفوظة ، وموقعه المتقدم، يفتخر به المفنخرون، ويرفع من شأنه المادحون، فهو الذي يحمي الديار، ويرد هجمة الأعداء، ويحقق الظفر المرجو، ويطرد الغزاة عن الأوطان.

وابن مطروح نشأ في عصر صدام مستمر مع أعداء الأمة الغاصبين، وعاصر أكثر من قائد يدافع عن حمى هذا الدين، فمن العادل الأيوبي إلى الكامل والأشرف موسى، وانتهاءً بالصالح أيوب ووزيره فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

والشاعر العربي كان على الأغلب يُلقى صفات الكمال والرفعة على ممدوحه، إذا فلا غرابة إن رأيناه يصف البطل، في نظره، بصورته المثلى، التي تتجسد فيها صفات شخصية متميزة، بالإضافة إلى قدرات عالية في صفات الحكم وإدارة شؤون البلاد.

يصور ابن مطروح بطله بأنه صاحب العزيمة القوية، والبأس الذي لا يلين، فهو

يمدح فخر الدين بن شيخ الشيوخ بقوله :

متوقد العزمات فياض [النداء] فاعجب لفردٍ جامع الأضداد(١)

فهو مجاهد قوي، عزمته متوقدة متوهجة، وكرمه عظيم فياض، ذو شخصية عظيمة تجمع بين الأضداد من توهج العزيمة وتوقدها - النار - ، إلى فيض العطاء والندى - الماء - .

ويؤكد هذا المعنى في موطن آخر يمدح فيه فخر الدين أيضاً :

تخاف عداه من توقد عزمه وتأمين إذ يطفو ويطفح نائلة(٢)

فالعدو يحسب حساباً لهذا البطل، الذي أخدم الفتن، ووطد الأمن ، وهم - أي الأعداء - معه بين اليأس والطمع ، اليأس من بأسه، والطمع في عفوه.

ويصور ابن مطروح عزيمة بطله - الأشرف موسى - بطريقة مختلفة، إذ يرى

عزمته تفصل بين الحق والباطل، فهو صاحب عزيمة كفلق الصبح :

واصدع حشا الرومي منك بعزيمة مثل الفلق(٣)

(١) الديوان ج ١٨٦ ، ك ٢/١٠

(٢) نفسه ج ١٨٦ ، ك ٢/١١ .

(٣) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦

فإن ضربتك وعزيمتك في حشا الرومي كي تَقمع فساده، كمن يضرب كبد الليل
ليشوق عن صبح الحق، فهذا البطل بضربته يميت ليل الباطل ومن بين ثايبا وأشلاء
الباطل يستخرج حياة نهار الحق الباقي.

ويرى ابن مطروح ممدوحه بصورة المطهر للأرجاس والنجاسات، ومن ذلك
إشادته بالناصر داود عندما قام بفتح القدس وانتزاعها من الصليبيين سنة ٦٣٧هـ (١)، هذا
الفتح الذي رآه ابن مطروح سنة حسنة يجب أن تستمر عبر التاريخ للتطهير المقدسات
دائماً إن أصابها شيء :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً
فناصرٌ طهره أولاً وناصرٌ طهره آخراً (٢)

فممدوحه ناصرٌ للقدس، مبعوث من رحمة الله لهذا المسجد المبارك ولهذه المدينة
المقدسة، أصيبا يرجس الاحتلال ونجاسته، ولا بدّ لهما من تطهير ومطهر، وهذا المطهر
هو الناصر الذي أزال كل النجاسات، سبقه بذلك الناصر صلاح الدين، وتبعه الناصر
داود، وكذا كل ناصر يلبي نداء الأقصى في كل عصر.

وهو أيضاً عبر إشادته بناصر الدين-الكامل- محمد بن العادل يوم انتصاره على
الفرنجية في معركة دمياط يراه صاحب ملك عظيم إذ يقول :

قدّست من ملك عظيم الشأن متتابع الحسنات والإحسان (٣)

ويصفه بأنه صاحب الهمة العالية، والحمية والغيرة على أعراض المسلمين، الذي
انتزع النصر بجيش عظيم غطى وجه الأرض وملاً الفضاء على الأعداء.

صان المعالي حيث كان أباً لها وكذا تكون حمية الغيران
ضاقت بعسكرك الفياقي والذري فاضرب خيامك في ذرى كيوان (٤)

فهو أبٌ للمعالي، قائدٌ لجيش المجاهدين، قهر الأعداء، واستحق قائده أن يكون في
ذرى كيوان.

ويصور ابن مطروح بطله بصاحب الجرأة العظيمة، لا يخشى اقتحام الحصون
وخوض المعارك، ومن الصعب وقف اندفاعه:

(١) مفرج الكرب ٢٤٧ - ٢٤٨

(٢) الديوان ج ١٨٢ ، ك ١/٨ .

(٣) نفسه ج ١٧٦ ، ك ١/٨ .

(٤) نفسه .

فرأوا شهاباً ثاقباً ورأوا غباراً لا يُشَقُّ (١)

فهو شهاب منقض على أعدائه، يرمهم وكأنهم الشياطين، سريع الحركة إليهم متصل الهجوم لا يُشَقُّ له غبار، أتعب خيله في مواصلة القتال، وأفنى سلاحه فيه :

أفنيت خيلك والصوارم والقنا وعداك والأموال ماذا تقتني (٢)

ومع فناء السلاح يكون الفناء للأعداء، لا يهمه بذل مال، ولا المحافظة عليه في سبيل الوصول إلى الغاية المطلوبة، وهي رفع راية الجهاد.

ويعصور ابن مطروح بطله كما يصوره الشاعر العربي منذ القدم، فهو ليث فاتك وغيث منهمر، يجرف من يقف في طريقه:

من يردُّ الغيث إن قيل همي من يصدُّ الليث إن قيل هجم (٣)

وهذه الصورة تجمع بين الموت والحياة، فالغيث المنهمر يجرف في طريقه كل غثاء ويلقي به بعيداً، وفي الوقت نفسه هو الحياة الجديدة للأرض، والليث لا يستطيع أحد منع هجومه إلا إذا توقف من تلقاء نفسه عند انتهاء ما يريد، أو دفع حياته ثمناً لذلك، وكذلك المجاهد في سبيل الله، يستخرج ويستقذ الحياة من الموت، كالغيث الذي يُنبِت بذور الخير بعد جرفه الغثاء، والليث المجاهد لا يحدد عن الجهاد ولا يولى بصره إلا إذا ظفر بالنصر أو الشهادة.

ويرى ابن مطروح بطله يقوم بحماية الدين الحنيف، ورعاية الشرع الشريف، إرضاءً لله عز وجل فيقول :

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه ومذلّ أهل الشرك والطغيان
أما وقد علقت يدي بمحمدٍ وظفرتُ منه ببيعة الرضوان
وتمسكت يمناي منه بناصرٍ فلتياس الأيام من خذلاني
أنا فيك حسان وأنت محمدٌ بمحمدٍ عطفاً على حسان (٤)

إنه بسيفه ينصر الحق، وبسيفه يقمع الشرك وأهله، وهو البطل المظفر الذي يستحق البيعة والاتباع، وهذا النصر للدين جعل الشاعر يتذكر أيام الإسلام الأولى، فنقل نفسه

(١) الديوان ج ١٧٨ ، ك ١/٦ ، ط ١/١٠ ، ش ١٩ .

(٢) نفسه ج ١٧٧ ، ك ٢/٦ .

(٣) نفسه ج ١٧٤ ، ك ٢/٤ .

(٤) نفسه ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

وممدوحه إلى بؤرة انطلاق الدين في المدينة فكانه حسان، وكان أفعال الكامل محمد بن العادل لا يضارها إلا أهل السابقة الأولى من أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم. والبطل عنده من استطاع فرض الأمن والأمان في البلاد، فالجميع آمنون به على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، فيقول مادحاً محمد العادل :

أمنت حتى العفر في راماتها وأخفت حتى الأسد في خفان(١)

فممدوحه لم يوفر الأمن وينشره للبشر فحسب، بل حتى للحيوانات التي أمنت في الصحارى والبراري، ولعل الإنسان في تلك الحقبة التي كثر فيها القتل والتدمير كان يستشعر أهمية الأمن والأمان الذي هو نعمة من الله على عباده ((آمنهم من خوف)) (٢)، فهو يحذر العابثين بالأمن من أن ممدوحه سيجعل منهم سيرة الدهر إن استمروا في عينهم بأمن البلاد :

تلوتها سورة عليكم وعن قريب تصير سيرة(٣)

فياكم وهذا العبث في بلد يرى قائده أن الأمن ضرورة لا تساهل فيها بعد أن نعمت مضر بالأمن والأمان حتى غدت روضاً مخضراً :

واستبشرت مصر ومن فيها به بشرى الثرى بحيا السحاب الغادي

واخضر واديها وفاض فدونكم يا معشر الرواد والوراد(٤)

فمصر لبست ثوباً جديداً بتوطيد قواعد هذه الدولة التي اخافت الاعداء في الخارج، وأرهبت المفسدين في الداخل.

والبطل عند ابن مطروح كافل اليتيم وراعي الأرملة والمسكين.

كفى والداً من حمل هم لولده فكل الورى أيتامه وأرامله(٥)

فلا يترك أحداً دون تفقد ونظر وإنصاف، فهو الراعي الشفوق الذي يقوم بدور رب الأسرة، يقتدي بالوائل الأطهار.

وهو عنده من يقيم قواعد العدل والإنصاف، إذ إن أهم قواعد الحكم وأسس العدل، وهذا لا تفريط فيه، بل كل المحافظة وكل الحزم، حتى لا تتفسخ الدولة، ويشعر المدافعون

(١) الديوان ج ١٧٦، ك ٢/٤. والغفر : من الظباء الذي تعلق بياضه حمرة. انظر لسان العرب، (مادة عفر).

(٢) سورة قريش ، الآية الأخيرة.

(٣) الديوان ج ٢١٨ ، ك ١/٢٧ ، ل ١/٦٢ .

(٤) نفسه ج ١٨٦ ، ك ١/١١ .

(٥) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

عنها بالظلم في دولة يكون أهلها درجات وصنوفاً، فيهم من يُنظر إليه نظرة الشريف أو الغني الذي لا يحاسب وإن كان مننّباً، وفيهم الضعيف الذي يقع عليه الظلم ولو كان بريئاً.

ونشرت عدلك في البرية كلها حتى استوى القاصي بها والداني (١)
فالعدل للجميع، للغني والفقير والضعيف والقوي، كلهم سواء، القريبون من الحكم
والبعيدون عنه.

وبعد هذا وذاك لا غرابة إن رأينا البطل عند ابن مطروح صاحب دولة ذات رفعة
وعلو نتيجته استقرارها، فهو فوق قيصر وكسرى، إذ يمدح الكامل بن العادل بقوله:

كم يلهجون بقبصرٍ من قيصرٍ في ذا المقام وصاحب الايوان

تتزاحمُ التيجانُ في ايوانه عند السلام ولا بسو التيجان

إن الملوك بأسرهم خول له حاشا أبيه كلاهما سيان (٢)

فهو فوق الملوك المتزاحمين عند بابه، وفوق التيجان الراغبة في وده، كلهم عنده
خدم يقدمون الطاعة ويرجون الرضى.

والبطل صاحب موقف لا يتغير، ثابت في أصعب الأوقات، حتى في المعركة لا
يختل له نظام، ولا يضطرب له رأي :

وتراه أثبت ما يرى في معرك والخيال تعثر في القنا المياد

حيث النفوس عن الجسم بمعزل فكأنها غضبي على الأجساد

والبيض حمراً من نجيع دم الطلي فكأنما علت من الفرصاد

فهناك يقدم ضاحكاً مستبشراً وهناك يحجم كل ليث عاد (٣)

في هذا الموقف العسير، تبقى صورة البطل كما هي لا يعترتها ما يشينها، فهو في
موقف الرعب يضحك، وفي موقف الإعتار يُقدم، وفي موقف التردد والفرار يثبت.

وللقيادة صفات مميزة يراها ابن مطروح قد توفرت في بطله، وساهمت في علو
شأنه، وحصافة رأيه :

ذو الرأي يبني ما [وهى] والعزم يرتق ما انفق (٤)

(١) الديوان ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

(٢) نفسه . والخول : العبيد وغيرهم من الحاشية، مفرد ما خائل، انظر لسان العرب (مادة خول).

(٣) نفسه ج ١٨٥ ، ك ٢/١٠ . والطلّي : صفحة العنق، انظر لسان العرب (مادة طلي).

(٤) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦ . وهى : كذا وردت في الديوان.

فرايه يسبق فعله، فلا يصدر إلا عن وعي كامل بما يريد؛ ويتمم الأمر بعد ذلك بعزمه القوي، وصفاته الأخرى.

والبطل عند ابن مطروح هو الساعي لتثبيت قواعد هذا الدين:

بكم يا بني شيخ الشيوخ تأيدت قواعد هذا الدين واشتد كاهله (١)
لا يبالي في سبيل هذا الهدف ما يصيبه، وإن قوماً هذا دأبهم وهمم لا بد أن تكون
صروح دولتهم مصانة ومحروسة :

وأخلق بملك أنت حارس سرجه وحامي حماه أن تصان معاقله (٢)
ولذا فالبطل عنده من أقام دولة قوية فيها كل أسباب المنعة والقوة فملك ممدوحه قد
جاوز العلياء، فنراه يمدح الأشرف موسى بقوله :

واضمم إليك جناح ملك بالسمك قد التحق (٣)

وممدوحه فخر الدين بن الشيخ ممن شاركوا في حكم مصر وزيراً للصالح أيوب،
فيصف فترة وزارته كهطول الغيث، فيها الخير والبركة على مصر وأهل مصر:
ولم أر غيثاً مثل غيث سماحه تيمم مصرأ من ذرى الشرق وابله (٤)
فهو بسماحته قد كان نعمة من الله على الجميع :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| يممته فوجدت بحراً زاخراً | فغنيت عن وشل وورد ثماد |
| وشهدت فيه في الحقيقة يوسفأ | حسناً وحسنى في علاً وسداد |
| متوقد العزمات فياض الندى | فاعجب لفرد جامع الأضداد |
| صعب على الاعداء إلا أنه | سهل اهتزاز العطف للقصاد |
| متواضع والنجم دون محله | وكذا تكون خصائل الامجاد |
| يسطو ويعفو قدرة وتورعأ | باس الملوك وعفة الزهاد |
| أطواد أحلام ، غيوث مكارم | أقمار أندية ليوث جلاذ (٥) |

(١) الديوان ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٢) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٣) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦ .

(٤) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٥) نفسه ج ١٨٦ ، ك ٢/١٠ ، والوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة، قطرة قطرة، والجمع أوशल، انظر لسان العرب (مادة وشل).

فبطله متوقد العزمات، صعب على الأعداء، متواضع لرعيته، يبطش في مكان البطش، ويعفو في مكان العفو، صاحب أخلاق تؤهله للقيادة من سياسة حكيمة، إلى زهد وتقى ودين، إضافة إلى رقة وصفاء، طود للحلم، غيث للكرم، مؤنس من يفزع إليه، ليث الحرب والجلاد.

عشقَ المعالي فاقتدى بثلاثه تغنيه في الاصدار والايراد
بحسامه السفاح أو بلوائه ال منصور أو بالرأي منه الهادي (١)
فرايته لم تكسر ، وحسامه لم يُقل، إضافة لرأيه الصائب.

فبطله واضح الصورة، فيها سبق العسكري، وفيها الصدارة بين الناس، فهو سيد الموقفين:

ملك تملك بالشجاعة والندى قلب الخميس معاً وصدر النادي
أطواد أحلام غيوث مكارم أقمار أنديّة ليوثُ جِلادٍ (٢)
ثم يضيف على صورة ممدوحه :
يسطو ويعفو قدرةً وتورعاً بأس الملوك وعفة الزهاد (٣)

فهو ورع عفيف تقى، وصاحب قدرة تمكنه من العفو عن وقع في الزلل، فمن كان في الملك لا يكون بصفات قيادة حقيقية إن لم يكن مسلحاً بمخافة الله .
وخلصه الأمر أن البطل لدى ابن مطروح من اجتمعت فيه فضائل الأمة جمعاء، ويكون كالواحد الذي يعدل الألف، يرعى رعيته ومنهم ابن مطروح، ويسبقهم إلى الخير بكل الصفات السابقة ويظلل بالخير عليهم:

أنا في حماية واحد لكنه وبيك أغناني عن الأعداد (٤)

ويلاحظ على صورة البطل عند ابن مطروح أمران:

الأول: غياب صورة البطل تماماً في قصيدته التي ذكر فيها أحداث هزيمة لويس التاسع «الفرنسي» في المنصورة، مع أنها من المحطات الهامة في حياته إن لم تكن الأهم.

إذ لا يستطيع أي واحد ادعاء هذا النصر وحده، وذلك للملابسات الكثيرة التي رافقت المعركة، فالصالح أيوب هو أول من بدأ المعركة ضد الفرنجة، وتوفي مرابطاً

(١) الديوان ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ .

(٢) نفسه ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ .

(٣) نفسه ج ١٨٦ ، ك ٢/١٠ .

(٤) نفسه ج ١٨٦ ، ك ٢/١٠ .

وأخفوا موته، فتولت الأمر زوجته أم خليل - شجرة الدر- إلى حين وصول ولد الصالح- الملك المعظم توران شاه -، وفي هذه الفترة تولى الأمر فخر الدين بن الشيخ الذي أحبه ابن مطروح حباً عظيماً، ويكتب الله عز وجل الشهادة في المعركة لهذا البطل قبل أن تحسم المعركة، ثم يتولى المماليك الصالحية الأمر، ويصل توران شاه، ويتم الفتح على يديه، ولكنه يُقتل على يد ممالك أبيه، فلا غرابة أننا لم نجد صورةً للبطل في القصيدة فأبي بطل يُذكر، في حين وجدنا صورة العدو المهزوم، وذكر قتل الفرنجة، ولم يذكر قاتلهم.

واعتقد أنه لو قدر الله لفخر الدين بن الشيخ الحياة وجرى النصر على يديه لأضيفت إلى الشعر العربي قصيدة رائعة في النصر وبطله.

الثاني: وجود بعض المبالغات التي وصف فيها ابن مطروح ممدوحيه ومن ذلك :

إذا سار فوق الراسيات تززعزت وصدعت السبع الشداد صواهله(١)

وأي انسان يعلم أن الراسيات لا يتزعزعن لأحد وأن السموات لا يُصدعن لأحد أيضاً، ومن ذلك :

أبقت لك الذكر الجميل مخدأً شيم لها الأملاك لم تتفطن(٢)

فأي مكارم هذه التي لم تصل إليها الملائكة إلا بعد تفتنّها في هذا الرجل أو ذاك، ومن ذلك :

والسبعة الأفلاك ما حركاتها إلا مخافة أن تقول لها اسكني(٣)

ومثل ذلك ورد في أكثر من موضع .

وبعد فلا بد من الإشارة أيضاً إلى أن صورة البطل عند ابن مطروح قد كانت تأتي نتيجة حب حقيقي، نابع من شعور عميق بالالتزام تجاه ملوك بني أيوب ورجال دولتهم، فقد رأى فيهم خلاص الأمة مما نزل بها، فشعره فيهم بعيد عن الخيال المغرق، والمبالغة الممجموعة، والمدح المسف، إلا في القليل من الأبيات، لم يقصد من مدحهم مالا يفنى ولا جاهاً يبلى، وهو هنا يُعبر بجلاء عن مشاعر المسلمين نحو هؤلاء القادة الذين حرروا القدس، وردوا هجمة الفرنج في أكثر من موضوع ومعركة.

وصورة البطل عن ابن مطروح مديح لهؤلاء الأبطال، وهي من صنوف المديح.

(١) الديوان ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٢٦ ، ط ٢/١٢ .

(٢) نفسه ج ١٧٦ ، ك ٢/٥ ، ط ١/١٥ ، ش ٣٦ .

(٣) نفسه .

- صورة العدو:

كان الجهاد باللسان شأن الشعراء الذين حملوا راية التعبئة إلى جوار العلماء ليقوم جمع الإيمان بمقاومة جمع الصليبيين القادم، وليقوم المسلمون برص صفوفهم وتوحيد جهودهم المبعثرة، فنراهم يُعلون البطولة ويمجدونها لدى المسلمين، تمتلئ قصائدهم بالحماسة والحث على المكرمات والفضائل، حتى برز نفر استطاع أن يقف في وجه الغزاة، ثم ردهم على أعقابهم.

وفي الوقت نفسه كان لا بد من إيضاح صورة العدو، ورسم معالمها، فأكثر الشعراء من ذكر العدو في شعرهم، إذ أوضح ابن مطروح أنه غاز مستعمر حاقد، يرفع عقيرته بحرب الإسلام وأهله دون موارد، ويرفع راية الشرك والكفر ويتخذ الصليب شعاراً.

أجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح(١)

فهؤلاء لا يعبدون الله بل يعبدون يسوع المسيح ويدعون نصرته، رفعوا راية الكفر وجاءوا يقاتلون تحتها.

ويصفهم بأنهم كثيرو العدد والعدة :

خمسون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح(٢)

فالعدد ضخمة والقتلى والجرحى بهذا الحجم الكبير.

هذا العدد الضخم قد آل إلى زوال بنصر الله المؤمنين فما هو حال جيش الأعداء؟

يخاطب ابن مطروح الفرنسيس بقوله :

رحت وأصحابك أودعتهم بقبح أفعالك بطن الضريح(٣)

فقد رحلت وسافرت بعد ذل الأسر، ورضيت بالفعل الخسيس، وهو النجاة لنفسك، وإسلام أصحابك للموت ولبطن الضريح، فالأجساد صرعى، والرؤوس ملقاة، وهم في شر حالة بين ميت قد ذاق وبال أمره وأسير يقبع بالذلة في كل لحظة.

وابن مطروح يصور حال الأعداء في المعركة في موضع آخر، وقد أصبحوا طعماً

للسيوف التي أكلت أجسادهم، وشربت دماءهم حتى رويت :

(١) الديوان ج ١٨١ ، ك ١/٨ ، ل ٢/٥٨ .

(٢) نفسه ج ١٨١ ، ك ١/٨ ، ل ٢/٥٨ .

(٣) نفسه ج ١٨١ ، ك ١/٨ ، ل ٢/٥٨ .

وارو السيوف من الظما - ربا يبلغها الشرق (١)

والعدو يولي هارباً من أمام سطوة القائد المسلم وشجاعته :

ولى الخوارزمي منها هارباً وهلم جرا قلبه لم يسكن (٢)

والفرار أفضل وسيلة للنجاة من قائد لا حيلة لأحد ببقياه، وقائد المسلمين المنتصر يقاتل قائداً يعتبر من خيرة قادة الفرنجة، وهو ري دي فرانس «لويس التاسع» واسع الحيلة، صاحب رأي وحكمة فماذا تكون نتيجة المعركة؟ يؤسر لويس التاسع، ويوضع في دار القاضي ابن لقمان مغلولاً بقيد فيخاطبه ابن مطروح :

وقل لهم أن اضمروا عودة لأخذ ثار أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على عهدنا والقيد باقٍ والطواشي صبيح (٣)

فها أنت يا من ظننت الأمر نزهة وحسبت «أن الزمر ربح» أصبحت في أسوأ حال، مقهوراً من قتل أصحابك أمام عينيك، ذليلاً في الأسر مقيداً. فإن شئت العودة بعد فكاك أسرك، فالقيد باقٍ ودار ابن لقمان على حالها، والطواشي صبيح المعظمي الذي خصص لحز استك لا يزال بانتظارك.

وابن مطروح يعرف المحرك الأكبر لهذا الجيش الغاصب الغازي، الذي يدفعه إلى بلاد المسلمين، وينفخ فيه ريح الحقد والضغينة على هذه الديار وأهلها، إنه ممثل النصرانية في العالم الغربي، من يدعي أنه ظل الله على الأرض، إنه البابا، فبعد هذه الهزيمة لا يقف ابن مطروح عند مخاطبته لملك فرنسا- لويس التاسع- بل يخاطب سيده ومحركه، فما لويس التاسع وغيره إلا أدوات في كنيسة روما الحاكمة، وباباها الذي تولى كبره، فهل بعد هذه النتيجة الموقعة سيكتفي البابا ويرضى ؟

إن كان باباكم بذا راضياً قرب غبنٍ قد أتى من نصيح

فاتخذوه ناصحاً إنه أنصح من شق لكم أو سطيح (٤)

وهو يسخر منهم هنا، ومن تهديدهم بالعودة ويهزأ من دعاية الفرنجة المضللة بأنهم يريدون انقاذ قبر المسيح، والمسيح من هذه الدعوى براء، وهو لا يرى في البابا سوى كاهن من كهان الموت والخراب، ويجعله مشابهاً لكهنة الجاهلية من أمثال «شق و سطيح».

(١) الديوان ج ١٧٨ ، ك ٢/٦ ، ط ١/١٠ ، ش ١٩ .

(٢) نفسه ج ١٧٧ ، ك ١/٦ .

(٣) نفسه ج ١٨١ ، ك ١/٨ ، ل ٢/٥٨ .

(٤) نفسه ج ١٨١ ، ك ١/٨ ، ل ٢/٥٨ .

* الشعر الديني:

(لقد طرق ابن مطروح هذا الغرض في العديد من قصائده ومقطوعاته الشعرية، وبلغ عدد الأبيات التي نظمها في هذا المجال ما يقرب من مئة وخمسين بيتاً من الشعر، توزعت على العديد من أهدافه التي أراد الوصول إليها في هذه الأشعار، وقد صادف هذا الغرض قبولاً في نفسه التي أحببت دينها، وتحمست له ، فذكر شعراً في الحكم والنصائح الدينية، وآخر في المناجاة ، وثالث في التوبة، كما ذكر شعراً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والرحلة إلى الأرض المقدسة. إضافة إلى شعره في مناسبات محددة مثل زيارة بعض أضرحة الأنبياء، وشعر في أواخر أيامه عند شعوره بدنو الأجل وذكر بعض مواقف الجهاد، كانتصار المسلمين في دمياط، وإعادة فتح القدس التي مر ذكرها(١).)

⑤ حكم ونصائح ومواعظ : طرق ابن مطروح هذا الغرض على شكل نصح مباشر، مستمد من بعض معاني الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، إضافة إلى أقوال الوعاظ، مع ذكر نتائج الخير والشر بين يدي الله، وفتنة القبر ، يقول :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| يا أيها الناس اعملوا لمعادكم | قبل الوقوف على المقام الأهل |
| وخذوا لأنفسكم بحوطة حازم | عن كل ما في الأرض بات بمعزل |
| وحذارٍ من تقريطكم نفساً كما | فرط الفعال من العبيد الضلل |
| واخشوا مقام الله جل جلاله | فهي السبيل إلى الطريق الأمتل |
| وحذارٍ من عرض الحساب وطوله | في عرضه يوم الحساب الأطول |

إلى أن يقول :

وإذا بدأتُم واختتمتم عودة صلوا الصلاة على النبي المرسل(٢)

وفي هذه الأبيات طغت البساطة في الألفاظ، إضافة إلى استعمال أفعال الأمر بكثرة: «إعملوا، وخذوا، حذار، واخشوا»...، فهو يقرر بعض القضايا التي لا مجال للنقاش فيها مثل المعاد، والمقام الأهل، عزلة القبر، عرض الحساب، لذا فقد جاءت صيغة الحديث على شكل أوامر، ثم كرر العديد من الألفاظ مثل حذار.

(١) انظر موضوع شعر الجهاد في هذا الفصل.

(٢) الديوان ج ٢١٤ ، ك ٢/٢٥ ، ل ١/٦٤ .

وفي الأبيات السابقة ذكر ابن مطروح الناس بضرورة الاستعداد للحساب، بأخذ الزاد اللازم من عمل صالح، وحذرهم من التفريط في جنب الله، وخشية مقامه سبحانه وتعالى، والتنبية على قضية مهمة، وهي الحساب، ويختم القول بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وينظم ابن مطروح أبياتاً في بعض قضايا العقيدة تسهياً لترديدها، وذكراً لبعض صفات الأنبياء وأعمالهم الشريفة، على عادة الناظمين في ذلك العصر، فيقول :

| | |
|---------------------------|--|
| أشهد أن الله سبحانه | لهو الإله الواحد العدل |
| وكل ما جاءت به رسله | حق لكل شهيد الكل |
| وهم دعاة الله في أرضه | وفعلهم مهما أتوا عدل |
| وجاهدوا فاجتهدوا وما ونوا | يوماً ولا كلوا ولا ملوا ^(١) |

يعرض ابن مطروح لقضية وحدانية الله عز وجل، وعدله ثم يركز على صدق رسالة الأنبياء وما جاءوا به، فهو حق، ووظيفة الأنبياء ((هم دعاة الله))، ثم يذكر عصمتهم، وجهادهم المستمر بلا كلل ولا ملل، وهي أبيات سهلة، يستطيع أي شخص حفظها، وفهمها في كل عصر.

وابن مطروح يذكر السامع بالأخلاق الكريمة العليا، وعدم متابعة عيوب الآخرين، فيذكر :

| | |
|------------------------|--|
| يا عجباً للمرء مع علمه | أن ليالي عمره عارية |
| ينظر في عين أخيه القذا | ولا يرى في عينه السارية ^(٢) |

معتمداً على قضيتين، الأولى ذكر فناء الإنسان عبر تتابع الليالي، والثانية عبر اقتباس كلام منسوب لعيسى عليه السلام معناه ترى القذاة في عين أخيك، ولا ترى الجذع في عينيك. ولعل ابن مطروح بحكم اختلاطه بالقبط في مصر، ووجود الصليبيين في البلاد، وجد دافعاً لمعرفة بعض الأمور الواردة في كتب النصاري^(٣).

وابن مطروح ينتصر لآل البيت، ويتوعد من يشمت بهم بعذاب الله الشديد، عندما يشاهد بعض الشامتين المسرورين في عاشوراء، إذ يقول :

(١) الديوان ج ١٥ ، ك ٢/٢٦ ، ل ١/٦٦ .

(٢) نفسه ج ٢١٨ ، ك ٢/٢٧ ، ل ١/٦٥ .

(٣) نفسه ج ٢١٨ ، ك ٢/٢٧ ، ل ١/٦٥ .

يا يوم عاشوراء قد هجت لي حزناً وكم أفرحت من ملحد^(١)
ثم يقول :

كل قليل الدين إن [قُدته] بمحكم الارسان لم ينفد^(٢)
إلى أن يقول :

بأبي رسول الله من سره يومك فالويل له في [غد]^(٣)

وتبرز هنا بعض التوجهات المتشعبة في شعره، إضافة إلى سخطه على الشامتين بآل البيت.

* **تذكير النفس** : النفس بعد مرور فترة الشباب، تحن إليه من جهة، ومن جهة أخرى تتهاى للرحلة البعيدة نحو لقاء الله عز وجل، وتبدأ بتباشير اللقاء في علامات الشيب التي تخط خطوطها في الشعر، يراها ابن مطروح، فيذكر سالف أيامه، وما هو مقبل عليه، فيجد ضرورة تغيير المسلك، وتقويم الاعوجاج في الدرب فيقول :

صبا وهو غريب الذوائب ما صبا ووفى التصابي حقه زمن الصبا
فأما وقد لاح المشيب بفوده فأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا
ولم يبق إلا أن تتيب وترعوي وتعرض عن ليلي وتهجر زينبا^(٤)

فإذا كانت الصبوة مقبولة والشعر أسود كالغرابيب، ونال منها ابن مطروح ما شاء، فهذا أمر لا يقبل عند المشيب، فالشخص نفس الشخص، والنفس ذات النفس، والبلاد هي هي لم تتبدل، لكنها حركة الزمن التي قدرها الله على كل واحد منا، بداية ونهاية، فكما للبداية علامات تظهر عند حمل الأنثى بجنينها، لتدل على القادم الجديد، فهناك علامات للنهاية، منها الشيب، وكل حياة جديدة لها دلائلها.

وينتهر ابن مطروح نفسه التي تدفعه إلى الصبوة، ويزجر قلبه الغارق في الهوى كأنه في نوم عميق، فامتداد الزمن يدفع إلى الإنابة والتوبة، ولا يقبل الاستمرار في الطيش الذي وصفه ابن مطروح بالجنون :

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ ، ولم ترد في الديوان.

(٢) الديوان ج ٢٠٥ ، ك ١/٢١ ، ل ٢/٦١ ، وورد شطر البيت في الديوان (كل قليل الذهن إن قدرته) والتصحيح كما ورد جاء في مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ وأظنه الأصوب .

(٣) نفسه وكلمة (غد) وردت في الديوان (غداً) وأظنه خطأ إعرابياً ووزناً ، وورد في مسالك الأبصار (يا ابن رسول الله من سره ...) .

(٤) نفسه ج ٢٠٦ ، ك ٢١ ، ل ٢/١٨ .

يا قلبُ ويحكُ ما تفيق من الجوى - أمع الزمان تولةً وجنوناً (١)
ثم يتابع ابن مطروح تذكير نفسه بالأمور الواضحة، وهي تقدم السن، وقرب الرحيل عن الدنيا، والانشغال بما يصلح للأخرة، وأن الأمر قد أصبح قريب الوقوع فنجده يقول:

قاربتَ معترك المنايا فاتتد ودع التصابي عنك يا مسكين
ودنا رحيلك فاتخذ زاداً ولا تُقلل فإن الشوط منك بطين
وبباب مولاك الكريم فقف ولا تسأم فإنك بالنجاح قمين (٢)

وفي هذه الأبيات يبرز الحوار النفسي الداخلي بشكل كبير، بين شخصيتين، فهو يتكلم وكأنه مع شخص آخر، يذكّره بقرب وصوله سن السنتين، قائلاً له تمهل في اندفاعك خلف شهواتك وتصابيك، وهنا تبرز النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على خطاه ﴿ لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (٣) فقد ننا الرحيل ولا زاد، والدرب طويل، والنتيجة لا أحد يعلمها، ثم يُذكر بعد ذلك بكرم الله، عز وجل، ورحمته التي يجب ألا ييأس منها أي شخص.

والأبيات السابقة توضح بجلاء أنها قيلت في أواخر أيام ابن مطروح الذي عاش سبعة وخمسين عاماً.

- توبة واستغفار : ويبدأ ابن مطروح سيّره نحو باب الله، وتبدأ الأشعار تضيء جنبات الدرب في أخريات أيامه، تُقدّم لنا مشاهد تكاد تكون محسوسة ومرئية، نراها عبر غيباب الأيام، فنرى ابن مطروح يرفع يديه إلى السماء تائباً داعياً :

يا من إذا دعاه عبدهُ وجدّه ولا يخيبُ لديه قصدُ من قصدهُ
امدّدْ يديك باحسانٍ ومغفرةٍ لمنذبٍ مدّاً مضطراً إليك يدهُ (٤)

فحين ينفرد الإنسان عن الأقران، ويستوحش من أفعاله السيئة، ويشعر عظم الموقف القادم، لا يجد ملجأ إلا الله الذي لا يخيب طلب طالب، ولا سؤل سائل، يمد يده عز وجل بالإحسان والمغفرة، وماذا عساه يطلب المسيء إلا هذا، عند الضرورة والكرب. ويعيد

(١) الديوان ط ٢/١٦ ، ش ٣٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ، وقد أورد الناسخ جملة على هامش الديوان ما يلي : (يريد بمعترك المنايا سنة السنين لأنه قال صلى الله عليه وسلم " معترك المنايا ما بين السنين إلى السبعين " ، انظر نسخة المتحف البريطاني (ط) ص ١/١٧ .

(٣) سورة القيامة ٢ .

(٤) الديوان ج ٢١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ١/٦٦ .

ابن مطروح هذا الطلب، ويطرق باب الرحمة بالسؤال، يطلب أن يمن الله عليه، وينعش فؤاده بالقبول، والله أهل الخير والجميل والمغفرة، يقول :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| يا من لديه الجميلُ موجودُ | وكل خيرٍ لديه معهودُ |
| وهو على كل شدةٍ ورخي | بالسن الخلق وهو محمودُ |
| أمننُ على عبدك الفقير بما | يُنعشه اليومَ فهو مجهودُ |
| وقد مددنا إليك أيدينا | لا خبيتَ والكريم مقصودُ(١) |

ويدعو ابن مطروح دعاء المضطر : يا رب يا من تحمدك الخلائق كل يوم بقولهم «الحمد لله رب العالمين» وأنت الكريم يا الله، امنن بكرمك على الفقير الذي مد يده بالسؤال لا يطلب سوى المعهود منك يا رب البرايا، الكرم، فأنت كريم، والمغفرة، فأنت غفور.

ويتابع ابن مطروح خطواته نحو باب الكريم في درب التوبة المفضي إلى النهاية.

- مناجاة : وبمزيد من التضرع والتذلل، يدعو ابن مطروح ويلجأ في الدعاء، فيقول :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| يا من علا في ملكه فاقترَبْ | ومن بدا في نوره فاحتجب |
| ومن هو القصد لأهل النهي | والمطلبُ الأسنى وكل الأرب |
| عودتني الأنس فلا تنسني | وهبني الرحمة فيمن تهب |
| ونفحةً من نفحات الرضى | تطفئ عني لفحات الغضب(٢) |

ويستشعر ابن مطروح قرب الوصول فيقول :

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| وقد قدمتُ اليوم يا سيدي | عليك ضيفاً أخذاً بالحسب(٣) |
|-------------------------|----------------------------|

فالمسافات طويت، والعمر تقاصر، والقدم حان، وقرى الضيف الأكرام، وأنت يا رب أكرم مضيف، وخير مستقبل. ويبحث ابن مطروح، وهو يشعر بحاله ومآله، عن الصالحين، فهل من صالح يدعو الله له، وهل من تقي مستجاب الدعاء يقدم معروفاً لمكروب صدقةً عن وصوله درب القبول، وحسنةً بين يدي بركة إجابة دعائه :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| الا واقفٌ في باب مولاه واصل | يناجيه في عبد تضاعف كرْبُسه |
| فيسأله التخفيفَ عني تكرمياً | وإن ضاق بي شرقُ الوجودِ وغربة |
| وإن قال عبد مذنب يطلب الرضى | وغير عظيم عند عفونك ذنبه |

(١) الديوان ج ٢١٢، ك ٢/٢٤، ل ٢/٦٥ .

(٢) نفسه ج ٢١٢، ك ٢/٢٤، ل ١/٦٥ .

(٣) نفسه ج ٢١٢، ك ٢/٢٤، ل ١/٦٥ .

فوالله ما تبطي الإجابة دونـه ويبيعدُ أن يلقاه بالـردِّ ربُّـه
فما ضاق بابُ الله عن قصدِ سائلٍ ولا سُدَّ من دون الإجابةِ حجْبـه
ومن يسعَ في تنفيسِ كُربةِ مسلمٍ برحمةِ قلبٍ منه فالله حسبُه (١)
فالذنبِ عظيم، والغفرانِ أعظم، والمعصيةِ كبيرة، ولكن باب التوبة أكبر، والزلة ضخمة
تُغلق، والإجابة تفتح الباب، والكرْب نازل، ومعها التنفيس حاصل.
ومع تسارع الأحداث ونزول المرض بابين مطروح، وشعوره أن الأبواب ستفتح
على بعضها، باب الدنيا الأخير، وباب الآخرة الأول، مع ثقل حمل الذنوب، يناجي الله
مستغفراً مما فرط به من عمل، فهو شديد الخوف، عظيم الرجاء، كثير الخجل، ذليل
الحال، ولا بارق له في أفق القدم، سوى إلقاء الطمأنينة في القلب ليجد لذة الهدوء
بوصلك له يا رب:

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| يا أيها الشامخ في قربه | يا أيها الظاهر في حجبـه |
| بالباب [عبد] وجلّ خائفٌ | من طول ما أسلف من ذنبه |
| جاءك يستغفر مما جنى | ملقى مع الذل على جنبه |
| وهو مع الخوف شديد الرجا | فأنت يا مولاي أولى به |
| منكس من خجل رأسه | باسطُ خديه على تربه |
| فهل له غيرك [من] راحمٍ | هل يرحم [العبد] سوى ربه |
| وهل له منك طمأنينة | تدخل بالأمن على قلبه (٢) |

وهذه الأبيات على بساطة لغتها، وسهولة ألفاظها، تحمل عاطفة عظيمة يتلمسها كل من
شاهد مريضاً في مرض موته، فابن مطروح [ملقى] على جنبه من مرضه، ينتظر
لحظة الخلاص، والإذن بالدخول، ولكن إلى أين ... ؟ ابن مطروح شأنه شأن كل مقبل
على الله يرجو المغفرة :

| | |
|------------------|------------------------|
| إن عفا مولاه عنه | إن مولاه رحيم |
| يغفر الذنب ويعفو | كيف لا يعفو الكريم (٣) |

(١) الديوان ج ٢١٥ ، ك ١/٢٦ ، ل ٢/٦٥ .

(٢) نفسه ج ٢١٤ ، ك ٢/٢ ، ل ٢/٦٣ ، وقد وردت كلمة (عبد) في نسختي ج و ك (كلب) فكانت كما يلي :

(بالباب كلب ...) ووردت (هل يرحم الكلب ...) .

(٣) نفسه ج ٢١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ١/٦٦ .

ويلاحظ ابن مطروح نظرات اليأس في عيون جميع الأطباء الذين عاينوه، ويعلم أن الأمر تقاصر، فيتجه إلى الشافي، وإلى اللطيف، الخبير بمرضه، فيقول :

قالوا : الأطباء على كثرةٍ قد عجزوا عنك فماذا تشير

فمن يداويك لتشفى به قلتُ يداويني اللطيف الخبير (١)

وابن مطروح من خلال البيتين السابقين يصف أكثر اللحظات حرجاً في تاريخ أي إنسان، اللحظة التي يتم فيها تليخيص واختزال حياته، وهي لحظة معرفة اليأس من الشفاء، واليأس من الحياة، فيمد يده إلى العمر الطويل الذي تركه خلفه، فلا يجد غير سراب وذكرى، بعد هذا بماذا يشير الإنسان عندها، هل له غير طريق واحد يفلح إن وضع قدمه عليها، طريق الرحمة من الله ومواجهة الأمر بصدق التوبة والإقرار بالخطايا :

عصيتك طول أيام الحياة وجنتك تائباً عند الممات

فإن سامحتني كرماً وفضلاً فقد يعفو الكريم عن الجناة (٢)

ومن عصى الله قليلاً يخاف عاقبتها عند القبض للروح، فقد عصى العظيم الجبار، وكما قال أحد الأتقياء « لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظم من عصيت »، فكيف بمن يذكر بإقراره عن حاله « عصيتك طول أيام الحياة » ايضاحاً لطول فترة غفلته، ألا يشعر بالخوف من عمله وجنابته، انه لا شك يخاف، ولا شك يرتعد، ولا يظل الأمر بمثابة الشعور الداخلي لديه، بل يلحظه من حول ابن مطروح، فزوجته تدرك مدى خشية ابن مطروح من الأمر، وتهوّن الامر، فيجيبها. ويتحاور الاثنان عبر هذه الأبيات، فيقول :

وقائلة : ماذا التخوف كلـه من الله وهو المنعم المتفضل

فقلت لها : علمي بما قد جنيتـه واني عليم حين أقدم أسأل

فقلت : إذا فكرت في يومٍ موقفٍ يهونُ عليك الأمرُ جداً ويسهلُ

فقلت لها : أرشدت للخير كله ولو كنتُ ذا حزمٍ لما كنتُ أخجلُ (٣)

ومع شعوره بالخوف، وطمأننة من حوله له بقدمه على رحيم، وقرب انتهاء آخر مشاهد حياة ابن مطروح، يصور ذلك بدقة بالغة، ويذكر بيتين يحسم بهما موقفه من الخوف، وأن جانب الرحمة طغى على الرهبة، فيقول :

(١) الديوان ج ٢١٣، ك ١/٢٥، ل ١/٦٦.

(٢) نفسه ج ٢١٤، ك ٢/٢٥، ل ١/٦١.

(٣) نفسه ج ٢١٥، ك ٢/٢٦، ل ٢/٦٥.

أتجزع للموت هذا الجزع - ورحمة ربك فيها الطمع

ولو بننوب الوري جنته فرحمته كل شيء تسع (١)

ويستقبل ابن مطروح الباب، وتتحرك الأقدام عابرة الخط الفاصل بين الحياة والموت، بين الأولى والآخرة، دعاه الله ومن ذا يستطيع ألا يلبي، وينادي ابن مطروح :

قدمتُ عليك يا رب البرايا فأمّن روعتي يوم القدوم (٢)

ومع لحظة العبور، يتقدم ابن مطروح في تخيله لما يجد في قبره، فهو حبيس قبره مرهون بعمله، لا يملك إلا كفناً من كل دنياه الصاخبة، فيطلقها صيحةً عبر المكان والزمان لمن ملأوا الدنيا خيلاً ورجلاً، ومالاً وجاهاً، هل هناك في نهاية دربكم غير هذا الأمر، وهل ثمة نهاية سوى تلك النهاية ذاتها :

أصبحتُ بقعر حفرتي مُرْتَهناً لا أملكُ من دنياي إلا الكفناً
يا من وسعتُ عبادة رحمته من بعض عبادك المسيئين أنا (٣)

ويبدأ زيت قنديل الحياة لدى ابن مطروح بالنضوب، وبدت شعلته تترجرج ايذاناً بالإنطفاء، والروح على وشك الانفلات من قفص الجسد، ويسير المشيعون يحملون الجسد الى القبر، حفرة بين الحفائر، شق بين الشقوق، لا يظل من هذا العلم سوى معلم يدل على صاحبه، يكتبُ عليه الاسم وبعض كلمات لا يترك أمرها ابن مطروح لغيره، بل يطلب أن يكتب على قبره :

هذه تربة من قـد عَظُمَتْ منه الذنوب
والكريمُ المحض من يُعصى فيعفو ويتيب (٤)
إضافة إلى بيتين آخرين مرّ ذكرهما :

أتجزع للموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع
ولو بننوب الوري جنته فرحمته كل شيء تسع (٥)

(١) الديوان ج ٢١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ٢/٦٦ .

(٢) نفسه ج ٢١٢ ، ك ١/٢٥ ، ل ٢/٦٣ .

(٣) نفسه ج ٢١٦ ، ك ٢/٢٦ ، ل ٢/٦٤ ، ط ٣٦ .

(٤) نفسه ج ٢١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ١/٦٦ .

(٥) نفسه ج ٢١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ١/٦٦ .

- المديح النبوي : برز هذا اللون من الشعر منذ فجر الإسلام، متمشياً مع بدء الدعوة الإسلامية، فالصحاباء يرون الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يعانیه في كل يوم من تحمّل صعاب حمل الدعوة، وصبر على تعليم هذا الدين لهم بكل رأفةٍ ورحمة، مع حزم وعزمٍ لا يلينان، فتنمو المحبة يوماً إثر يوم للنبي صلى الله عليه وسلم، وتنتقل ألسنتهم بمدحه وإبراز محبتهم له، خاصة وحب النبي صلى الله عليه وسلم جزء من عقيدة المسلمين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» (١) .

لذا فلا غرابة عندما نرى شاعراً مثل حسان بن ثابت رضي الله عنه، يلزم صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، ويمدحه ويقول في مناقبه صلى الله عليه وسلم القصائد تلو القصائد^(٢)، وابن مطروح ممن ذكروا الشعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن المديح النبوي لم يرد سوى في نسخة مخطوط واحد فقط هي نسخة برلين، مما انفردت به هذه النسخة عن غيرها.

وابن مطروح يبدأ قصيدة المديح النبوي بذكر النسيب، وديار الأحبة على غرار ما كان يفعله حسان بن ثابت عندما يبدأ ، يقول :

إذا عهدوا فليس لهم وفاء وإن وعدوا فموعدهم هباء^(٣)

ويقول في موضع آخر :

سقيم اللحظ أورتني سقاماً وفي شفتيه للسقم الشفاء^(٤)

وأبرز ما تناوله هذا الموضوع هو الشوق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، والرغبة في الوصول إلى المدينة المنورة، والظفر بالقرب من هذا الجنب الشريف :

(١) مختصر صحيح البخاري / المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح / تأليف زين الدين أحمد عبد اللطيف الزبيدي / مراجعة أحمد عرموش / تحقيق إبراهيم بركة / دار النفائس / ط٢ / ١٩٨٦م / ج١: ٢٧٧ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي / الإمام مسلم بن الحجاج القشيري / المطبعة المصرية / ج٢: ١٥٠ / ١٥

وانظر الإيمان / د. محمد نعيم ياسين / طباعة جمعية عمال المطابع / عمان الأردن / ١٩٩٢ / ص ٥٨.

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري / وضع وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / ١٩٨١م ص ٥٤ .

(٣) الديوان ل ٢٧ / ٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ١ / ٢٧ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

فمتى أزور مقامه فهو الذي - ما زال في سرّي وفي نجوائِي (١)
ويقول ابن مطروح واصفاً حاله وقد رأى الناس مودعين إلى المدينة، وهو قاعد لا
يستطيع الذهاب :

هام الفؤاد إلى أحبة مهجتي والقلب [بعد ذاك نحيلٌ موجعٌ]
وحنينه عند التخلف عنهم كحنين مرضعة جفاها المرضعُ
يا راحلين إلى مدينة يثرب هل ترحلون وأذن قلبي تسمعُ (٢)
تبدأ رحلة الشوق إلى المدينة المنورة، مع كل معلم وموقف يمر به ركب الراحلين إلى
هناك فيقول :

زمزمَ الركب في مقام العراق ونوى للحجاز بالعشـاقِ
وبقلب الشجي [سعى] الوجد لما طاف فيه الغرام بالأشواقِ
والجوى مذ [دعا] الجوانح لبّت بالصفا سرعة لطيب التلاقي
يا نزولاً بالمنحنى من ضلوعي والغضا من حشاشة المشتاقِ (٣)

ويؤكد على شوقه وحنينه للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

يا راكبين على النجائب بلّغوا مني السلام محمداً لا تقطعوا
لو كان قلبي حينما شمرتمُ أن لا يُشمر بعد ذاك ويتبعُ
فتهزه الأشواق نحو محمدٍ والشوق للقلب الجريح يزعزعُ (٤)
ويصل الركب إلى المدينة المنورة، ويصف ابن مطروح ما يمكن أن يشاهده الإنسان
عند أول بروز المدينة للركب، فيقول متخيلاً الموقف :

نظروا المدينة والنخيل يحفها نظروا البقيع ونور أحمد يسطعُ
ولقد حرمتُ إقامة في طيبةٍ يا ليت روعي في المدينة تُترعُ (٥)

ثم يتابع واصفاً مشاعر من وصلوا هناك، ونالوا المنى :

بالله سل لي من يزور المصطفى ويطوف في تلك الرياض ويركع

(١) الديوان ل ٢/٤ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ل ١/٢٧ ، ولم ترد في الديوان المطبوع. والبيت الأول فيه طمس وعدم وضوح ، والوزن غير مستقيم.

(٣) نفسه ل ٢/٥ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ل ١/٢٧ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ل ١٢٧ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

فهناك تلقاك البشارة بالرضى ولقائه يوم القيامة ينفع (١)
 وبعد الوصول إلى الحرم الشريف، فإن الوصول تم، والحرم أمامك يا من قطعت رحلة
 الشوق إلى هذا الحمى، ولم يبق إلا التقدم للتسليم على المصطفى، عليه السلام :
 بلغ سلامي لساكنيه وقل أسير الغرام مُغرم (٢)
 ويقول في موضع آخر طالباً ممن حملهم السلام أن يوصلوا الأمانة، بالتسليم بلا عدد،
 وفي كل وقت :

أن ابلغوا عني ضريح محمد [مني] السلام ونوره يتشعشع
 في كل يوم ألف ألف تحية عند المساء وعند شمس تطلع (٣)
 ولعل الشاعر يشير بذلك إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم، عن أبي الدرداء أن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى عليّ حين يُصبح عشراً، وحين يُمسي
 عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة » (٤) .

بعد ذلك ينتقل ابن مطروح إلى ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، فيعدد
 منها الكثير في أكثر من جانب، فيقول طالباً الشفاعة والغفران للذنب :

متخلصاً من ذنبه متشفعاً بالهاشمي وسيد الشفعاء
 [المصطفى] المختار من بين الملا وهو الذي قد حُص بالأنبياء
 لولاه ما ذكر النقا [والمنحنى] والرند والجرعا مع الزرقاء
 لولاه ما كانت شمسٍ أشرقَت كلا ولا بدر أضأ بسماء
 لولاه ما كان الوجود جميعه وهو الذي قد حُص بالإسراء (٥)

وهنا يبرز التكرار في الألفاظ للتدليل على أهمية القضية لدى الشاعر، والقضية هنا هي
 أفضلية النبي صلى الله عليه وسلم على سائر البشر، ولذا رأيناه يؤكد على ذلك بقوله:
 لولاه في العديد من المواضع، مع ذكر بعض المزايا التي ليست لغيره عليه السلام،
 كالإسراء، والشفاعة العظمى يوم القيامة.

(١) الديوان ل ١/٢٧. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ل ٢/٦. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ل ٢/٢٧. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) الوسيلة إلى شفاعته صاحب الوسيلة / محمد إبراهيم أبو شقره / المكتبة الإسلامية / عمان / الأردن / ط١ /

١٩٨٣. ص ٣٢ .

(٥) الديوان ل ٢/٢. ولم ترد في الديوان المطبوع.

ويذكر هذه المزايا وغيرها في موضع آخر بقوله :

لولاه ما خلقت جبالاً ولا سما
أيضاً ولا حجّ ولا من يشفعُ
صلى عليه الله في أملاكه
والمرسلون عليه صلوا أجمعُ
صلوا على من أنزلت في قلبه
مائة وعشر بعد ذلك وأربع (١)

وهنا يذكر ابن مطروح فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، التي منها صلاة الله عز وجل والملائكة عليه، إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم « إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » (٢). إضافة إلى ذكره فضيلة تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول مئة وأربع عشرة سورة عليه وهو القرآن الكريم.

وبعد ذلك يذكر ابن مطروح علو نسب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول :

ألا يا بن العواتك من قريشٍ ومن سمّاه رب العالمينا (٣)

ويضيف :

وإن عثرت بك الأيام فانزل
بأكرم من [تظللته] السماء
نبيّ هاشمي ابطحيّ
شمائله السماحة والوفاء
طويلُ الباع ذو كرمٍ وصدقٍ
نمته الأكرمون الاصدقاء (٤)

فهو ابن العواتك من قريش، وهو الهاشمي، من بطاح مكة. فقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين كل خصال المجد والرفعة، سيد البشر، من له المزايا التي لم تجمع لغيره وهو ذو حسب ونسب لا يطاولهما أحد.

ثم ينتقل ابن مطروح في مديحه للنبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكر معجزاته التي أجراها الله عز وجل على يديه ومنها :

أنزل الوحي بالأمين عليه
وعلا رفعةً لسبع طباق
ودعا الجذع يابساً فأتاه
[وسعى] بالثمار والأوراق (٥)

(١) الديوان ل ٢/٢٧ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) سورة الأحزاب ٥٦ .

(٣) الديوان ل ٢/٢٦. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ل ١/٢٨. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ل ٥ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

وقد ورد من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم الحسية أخبار كثيرة، بعضها متواتر، وكثير منها مشهور، وهي في مجموعها تفيد العلم اليقيني، بوقوع تلك المعجزات أولاً، وبصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه^(١)، وبعد كل ذلك، يجد ابن مطروح نفسه في موضع المتخيل لانتهااء الرحلة والوصول وإلقاء السلام على صاحب الحجر الشريفة صلى الله عليه وسلم، ثم الفروغ من ذكر فضائله ومعجزاته ليدخل إلى ما يريد، فينادي صاحب القبر صلى الله عليه وسلم بطلب النجاة من العذاب والتشفع له عند الله فيقول :

وأصيحُ عند ضريحه يا سيدي يا عمدتي في شدتي ورخائي
يا بُغَيْتِي يا منيتي يا مقصدي في يوم آخرتي وفي دنياي
ثم يقول :

مولاي عبدك قد أتاك بمدحه فانعم بحسن قبولها [مولائي]^(٢)
ويقول ابن مطروح في موضع آخر :
يا قبرَ طيبة هل نبيك يسمعُ ويغيثُ مما نحنُ فيه ويسرعُ
ضاق الخناق وقلَّ فيه تصبري وأنا الغريقُ ببلدةٍ أتضرعُ^(٣)

فابن مطروح ينادي القبر الشريف، مستغيثاً بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة، فلا يجوز الاستعانة والاستغاثة إلا بالله عز وجل، كما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم - صاحب القبر الذي يناديه ابن مطروح - في الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « كنتُ خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ... »^(٤)

فعاطفة ابن مطروح طغت على القضايا العقائدية مما أوقعه في مخالفات شرعية. ويختتم ابن مطروح قصائد المديح بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إذ يردد قائلاً:

(١) انظر الوفا بأحوال المصطفى/ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ مطبعة السعادة / ط١ / ١٩٦٦م.

ج١ : ٣٣٩ ، وانظر كتاب الايمان ص ٥٨ .

(٢) الديوان ل ٢/٢ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ٢/٢٦ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) متن الأربعين النوويّة / شيخ الإسلام شرف الدين زكريا بن يحيى شرف الدين النووي ٦٣١ - ٦٧٦ هـ /

ضبط وشرح محيي الدين مستو/ مؤسسة الرسالة / بيروت ط١/ ١٩٧٧ ص ٤٧.

صلّوا على من قام قبل بلوغه
ومثل ذلك قوله :

عليك الله صلّى كل حين
وما ذكّر الآلة الذاكروننا(٢)

وقوله :

فعليه الصلاة ما حمل الريح
إليه من المشوق سلامه(٣)

وهذا الأمر يطلبه كل مسلم طلباً للأجر من الله، عز وجل، خاصة وأنه سبحانه وتعالى وعد من يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه بها عشراً(٤). فابن مطروح طرّق هذا الأمر، وخاض في بحره كالعديد من معاصريه، الذين تناولوا المدائح النبوية بألفاظ سهلة تصف مناقب النبي صلى الله عليه وسلم، إضافة لعرض معجزاته وما رافق ذلك من عرض الرحلة والشوق.

- شعره في بعض المناسبات الدينية : وهذا الأمر عرض له ابن مطروح من خلال زيارته لبعض الأماكن، فقد زار ابن مطروح مدينة الخليل، وتشرف بزيارة قبر أبي الأنبياء ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فنراه يطلب الشفاعة والمغفرة بنفس الطريقة في مدح المصطفى عليه السلام، ولعل هذه الأشعار تضمنت القليل من الإشارات في شعر ابن مطروح التي تدل على زيارة ابن مطروح للخليل إضافة إلى كونها لم ترد في أية نسخة من نسخ الديوان فيقول :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| خليل الله قد جئناك نرجو | شفاعتك التي ليست تُردُّ |
| أتلنا دعوة واشفع تشفع | إلى من لا يخيب لديه قصدُ |
| وقل يا رب أضيافاً ووفد | لهم بمحمد صلّة وعهدُ |
| أتوا يستغفرونك من ذنوب | عظام لا تُعد ولا تُحُدُّ |
| إذا وزنت ببذبل أو ثمام | رجحن ودونها رضوى واحدُ(٥) |

(١) الديوان ل ٢/٢٧ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ل ٢/٢٦ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ل ١/٧ . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) انظر كتاب فضل الصلاة على النبي / الإمام اسماعيل بن إسحاق القاضي ١٩٩٠ - ٢٨٢ هـ / تحقيق محمد ناصر الدين الألباني/ المكتب الإسلامي، ط ٢ / بيروت/ لبنان / ١٩٦٩ ص ٢٤ - ٣٠ .

(٥) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب / أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ت ١٠٤١ هـ / تحقيق يوسف الشيخ محمد البغالي / دار الفكر / ط ١ / ١٩٨٦ / ج ١ : ٦٦ ، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠٢ .

* المديح :

إن المدح من الأغراض البارزة في شعر ابن مطروح، وإن لم يكن الغرض الأول في شعره، فهو غرض رئيسي ولا شك، امتد على مساحة واسعة من شعره، إذ بلغ عدد الأبيات في هذه الغرض حوالي خمسمائة بيت، إضافة إلى مئة بيت في المصادر الأخرى.

ومدح ابن مطروح العديد من القادة مثل الخليفة المستنصر العباسي، والعديد من ملوك بني أيوب من الكامل إلى الأشرف موسى، والمظفر، إضافة إلى الصالح نجم الدين والناصر داود، وغيرهم.

كما مدح الوزراء ومن عملوا معه، أو شاركوه خدمة بعض الملوك من أمثال كمال الدين بن العنيم، وابن أبي عصرون، ومهذب الدين بن الخيمي، والبهاء زهير وابن خلكان.

كما مدح ابن مطروح العديد من المدن التي عاش فيها، أو زارها، أو أحبها من أجل من سكنها من أصدقائه، أو ذكراً لمكان سكنى ملك خدمة ابن مطروح. ٤
وقد تقدم في الفصل الأول من هذا البحث الحديث عن اتصالات ابن مطروح بالكبراء لهذا الأمر سريعاً، دون التوقف عند دوافع المدح لدى شاعرنا، أو الطريقة التي قدمها، في مدحته، أو صفات ممدوحيه، وصورة كل منهم.

وقد تقدم الحديث عن جزء من صورة الممدوح عند الحديث عن صورة البطل في شعر الجهاد، وعندما مدح ابن مطروح أبطال المسلمين الذين تصدوا للفرنجة وجابوهم وصفهم بكل صفات الخير والكمال، والقدرة على إدارة شؤون البلاد، فبطله مُطَهَّرٌ للأرجاس وهو أب المعالي، قائد المجاهدين، صاحب الجرأة العظيمة، ليث فاتك حامي حمى الدين الشريف، وناصر الحق، الذي فرض الأمن والأمان في البلاد، مقيم العدل ومحق الظلم، صاحب التواضع والعفو. فتم عرض جزء من صورة الممدوح هناك فيما يخص صفات البطولة والقيادة اللازمة للجهاد، وما يخدم هذه الصورة من رعاية ضعفاء المسلمين، وإدارة شؤون الدولة، وحماية حدود الدين. (١)

ولا بد في هذا المقام من عرض جوانب المدح الأخرى، وما يقتضيه الأمر في هذا المقام.

(١) يرجع إلى صورة البطل، من موضوع شعر الجهاد في هذا البحث .

ويبدو أن أولى قصائد المدح عنده كانت من نصيب مجد الدين اللمطي والي أسيوط في مقتبل عمر ابن مطروح، فمدحه عند قدومه والياً على الصعيد بقصيدته التي مطلعها:

من لي بغصنٍ باللحاظ ممنطقٍ حلو المحيا واللمى والمنطق^(١)

وهي قصيدة متوسطة الطول تقع في ثلاثين بيتاً، بدأها بالغزل ووصف المحبوبة، ثم إلقاء التشبيهات المختلفة عليها.

ويفتخر بنفسه وشعره، ثم يذكر رحلته، ورغبته بجوار مجد الدين ويختتمها بخمسة أبيات مدح مباشرة لمجد الدين بن اللمطي، ويعرض لصفات المجد فيه، وهي في هذا المقام، صفات القيادة والحزم.

وأما شعره في فخر الدين بن الشيخ، فيعد الأكثر تطوراً وعدداً، إذا ما أضيف إلى ما قاله في عماد الدين، ومعين الدين إخوان فخر الدين، وشعر ابن مطروح في مدح فخر الدين من أواخر شعره في المدح، وإن كان ابن مطروح قد مدح فخر الدين على امتداد فترات متباعدة.

وبشكل عام اقتصر مدح ابن مطروح على ملوك بني أيوب من إخوان وأبناء الكامل وأبنائهم، إضافة لمن عملوا في خدمة هؤلاء في الفترة الواقعة بين بداية ومنتصف القرن السابع ٦٠٠-٦٥٠ هـ.

ومن المديح ما جاء دون مقدمة بحيث يتضح الغرض منذ مطلع القصيدة، مثال ذلك مدحه الخليفة المستنصر، فقد جاء المديح بعد بيت واحد يخدم أغراضه المطلوبة يقول:

الله اكبر أي طرفٍ يطمح أم أيّ ذي لسن يقول فيفصح

حرم الخلافة والإمام إمامنا فمن العجائب أن لفظاً يجنح^(٢)

وابن مطروح يخالف طريقته في المدحة، حتى لكأنه في البيت الثالث يعتذر عن دخوله في الأمر فوراً بقوله:

عظم المقام عن المقال فحسبنا أنا نقّس عنده ونسبح^(٣)

ويستمر في شعره مركزاً على البؤرة ذاتها طوال القصيدة التي قاربت الستين بيتاً، وبنفس القوة والوضوح، ملتفتاً في ثنايا قصيدته بلمحات بسيطة لما يخدم غرضه الرئيسي، مرتكزاً على موروث ديني وشعري كبير يدل على ثقافة غالية.

(١) الديوان ج ١٩٩، ك ٢/١٧، ط ٢/١٠، ش ٢٠.

(٢) نفسه ج ١٧٢، ك ١/٣، مسالك الابصار ١١ : ١٥٢.

(٣) نفسه ج ١٧٢، ك ١/٣، مسالك الابصار ١١ : ١٥٢.

أما القصيدة التي تتبع بها ابن مطروح الطريقة التقليدية بشكل ملفت للنظر، وأحسن تقسيمها، وتنويع أغراضها بشكل يفضي إلى ما يريد، فهي قصيدته التي مدح بها فخر الدين، والتي مطلعها كما أسلفت « هي رامة فخذوا... »^(١) فابن مطروح قدّم بمقدمة معقولة لا تصل إلى ثلث قصيدته، ثم يصل إلى المدح بعد عشرين بيتاً.

ويستمر في المدح معدداً لصفات ممدوحه وخصاله، وأسرته، إلى نهاية القصيدة التي زادت على سبعين بيتاً من الشعر.

وتنوعت بواعث المدح لدى ابن مطروح، فالمدح عنده في أصله أداة ارتزاق، استخدمها في أول حياته ليصل إلى مكانة جيدة في أسبوط في بلاط الأمير مجد الدين ابن اللطفي.

وبعد أن تحقق له ما أراد، شعر أن بلاط أمير في صعيد مصر لا يكفي، ولا يتسع لطموحه، فيمم شطر القاهرة، قلب الأحداث، وبدأ حياته من جديد هناك في بلاط الكامل الأيوبي، وفي أثناء إقامته هناك، حصل على المنافع المادية، لكنه وجد العديد من الأمور التي لا يمكن أن تفيتها النقود حقها، ولا كل مواقع الدنيا، وهي لحظات الجهاد والثبات في موقف تكون الأمة كلها فيه رهن فترة صبر، وصدق مع الله، فماذا يكون موقف ابن مطروح، وهو يرى الإفرنج يقتحمون مصر، ويصلون دمياط.

وهل كلمات المدح في الكامل عندما تصدى لهم، وصابر ورابط أمامهم، هي كلمات استجداء، وتكسب، وطلب لمنفعة، بالتأكيد لا، إنها كلمات الإعجاب بهذا البطل الذي نصر الأمة ونصر الدين.

وهذا الأمر اختلف مع ابن مطروح باختلاف الشخص الممدوح، فهناك بعض الأشخاص مدحهم ابن مطروح استجداءً وتكسباً وطلباً لمال أو لمنصب، وهناك أناس مدحهم محبةً وصداقةً وحسن صحبة، وتقلب في مدح بعضهم بين الحب والطمع، وعندما كان يمدح ابن مطروح طلباً لمكسب، قدم لما يريد بطريقة لبقة هادئة، فأحسن الإشارة والتلميح، واقفاً في منتصف الطريق بين التهاقت الرخيص، وعزة النفس وتمنعها.

(١) الديوان ج ١٨٥، ك ٢/١٠، ش ٩، ط ٦.

صورة الممدوح :

اختلفت صورة الممدوح لدى ابن مطروح بحسب المقام والمقال، إذ يختلف عرض الأمر عند مدح الخليفة عن غيره من الأمراء أو عامة الناس، ويختلف الغرض من المدح، فإن كان للحصول على مالٍ تم عرض الأمر بطريقة مختلفة عن الرغبة في الحصول على منصب، وكذلك تختلف عند الاعتذار وطلب الصفح.

- وصفات الممدوح لدى ابن مطروح متعددة ، فهو صاحب مكانة لا يصلها أحد، وهي مكانة عصية على الآخرين، فحين يمدح الخليفة يضيف عليه صفات الهيبة الشرعية اللازمة لهذا الموضوع:

لكم المقام ويثرب بين الورى إرثاً ومكة والصفاء والأبطح^(١)

ثم ينطلق ليربط الأرض بالسماوات وأنّ مكانهم في موقع لا يدانيه أحد :

فوق السماء خيامهم مضروبة فلخيلهم مسرى هناك ومسرح^(٢)

ولا يتوقف ابن مطروح في مدحه عند وصول السماء حيث الخليفة هناك، حتى يدخل معه إلى الفردوس :

أخليفة الله الرضى هل لي إلى بحبوحة الفردوس باب يفتح^(٣)

ومع ارتفاع حدة التوتر في المديح لدى ابن مطروح ينجرّف خلفه بشكل كبير لدرجة عدم التفريق بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم :

هذا الذي نزل الكتاب بمدحه فبأي شئ بعد ذلك يمدح^(٤)

فهل نزل الكتاب حقاً يمدح المستنصر، أم أن كل آل البيت قد أصبحوا في نظر ابن مطروح كالنبي صلى الله عليه وسلم مكانة ورفعة.

وتختلف مكانة فخر الدين عن الخليفة، فهو بموقع لا يحمل فيه قدسية دينية، فنراه

يقول :

وصلت إلى درجات العلا وصلّت على الزمن المعتدي

(١) الديوان ج ١٧٢ ، ك ١/٣ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

(٢) نفسه ج ١٧٢ ، ك ١/٣ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

(٣) نفسه ج ١٧٢ ، ك ١/٣ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

(٤) نفسه ج ١٧٣ ، ك ١/٣ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

وطلت السماك به قاعدا وحرزت به قمة الفرقد (١)

فهنا يوصل ابن مطروح ممدوحه إلى درجات العلا وكذلك إلى قمة الفرقد. ولكن ابن مطروح عندما يمدح الصالح نجم الدين يحدد مكانته في الفضاء الأوسع :

يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم
وإذا النجوم سعت لتدرك مجدهم
همم بها سدوا الفضاء الأوسعا
رجعت ولم تبلغ مداهم ضلعا (٢)

وتهبط مكانة غير الملوك قليلاً فقط ، فهو عندما يمدح شمس الدين لولو بحلب :

هو النير العلوي غير مدافع
وعند ملوك الأرض واسطة العقد (٣)

وأيضاً عندما كان يمدح عماد الدين بن الشيخ في مرتبة تقل عن الخليفة والملوك:

على مهل يا من يحاول مجده
فبين الثريا والسماك منازل (٤)

فمكانة الممدوح لدى ابن مطروح اختلفت رفعةً حسب الممدوح، فالخليفة فوق السماء في الجنة، وملوك بني أيوب مع منزلة السماء وفوق النجوم، والأمراء مع النجوم باختلاف مراتبها ورفعتها.

إن هيبة ممدوحي ابن مطروح أيضاً تفاوتت باختلاف منزلة كل منهم، فهيبة الخليفة ترعب المناير، فكيف بخطباء المناير، وترعب الجماد، فكيف بالأنس، حتى أن هيئته وأنواره تغشى عيون الناظرين:

تعروا المناير حين يُذكر هيبة
تغشى النواظر إن بدت أنواره
حتى الجماد لذكره يترنح
فالطرف يطرف والجوانح تجنح (٥)

فلا العيون تصمد أمام الهيبة فتفتح، ولا الجوانح تستقر، فهي ترجف من هيئته. أما من هو دون الخليفة فله هيبة لكنها بدرجة أقل فهو يصور هيبة الملك الكامل بطريقة يستجيب معها الخائف الوجل إلى هذه الهيبة، أكثر من المغضي لقناعته بهيبة من أمامه، فهو خوف أكثر منه إحترام، ورعب يفوق التقدير :

(١) الديوان ج ١٨٩ ، ك ٢/١٢ .

(٢) نفسه ج ١٨٤ ، ك ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٣ ، ك ١/٩ .

(٤) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٥) نفسه ج ١٧٤ ، ك ١/٤ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

حتى إذا بصرت به أبصارهم خرّوا لهيئته إلى الأذقان^(١)
 فالخليفة حين يذكر ذكراً يمتلىء المكان هيبية، وتحسر الناظر عند أول إطلالة
 لنوره، أما الكامل ففعل الهيبة لا يتحرك إلا عند المشاهدة الحسية بإبصار العيون له،
 وحدث ردة فعل لذلك، أن يخرّوا إلى الأذقان. أما الأمراء ومن هم في مرتبتهم، فإنهم
 يبتعدون عن هذه المراتب كثيراً، فهيبتهم لا تقوم على الأحساس المسبق، والشعور المفعم
 في النفس بضرورة إستشعار هذه الهيبة عند هؤلاء الممدوحين، ولا تحصل إلا على
 مرتبة إعجاب ليس أكثر دون الحصول على انفعال داخلي يغمر جوانح الناظر بجلال
 من أمامه، فهو في نظر ابن مطروح صاحب جمال رائق، اكسبه مهابة تدخل السرور
 وترعب:

يروق جمالاً إذ يروع مهابة فنحن لديه في سرور وفي رعب^(٢)

فأي مهابة تتبقى بعد أن يقوم الناظر بفحص محاسن الممدوح، إن المهابة شعور سريع
 يتغلغل في النفس بشكل مفاجيء، وهنا الصورة فيها شيء من التراخي « يروق جمالاً»،
 إذ هناك فتره زمنية أخذها الناظر حتى استطاع أن يدرك جمال من أمامه، ثم انتقل بدء
 إستشعار المهابة عن طريق الروع، وهذا لم يحدث عند الكامل، فالكامل ما أن أبصرته
 العيون حتى خرّ الجميع على أذقانهم من الرعب.

يرى ابن مطروح إن وجه ممدوحه يجب أن يكون باشاً منبسطاً للرائين له، بحيث
 يستكمل الممدوح صفات الكمال الخلقية و الخلقية، إذ يقول :

ملك إذا أنفتت عمرك كله في نظرة من وجهه لم تغبن^(٣)

فهنا يختلط المديح بالغزل لكن النظر إليه ليس كالنظر للأنثى بل هو نظر لوجه
 سمح، طلق المحباً يسر الناظرين، فكان فعالة الحسنه أكسبته جمالاً بوجهه. بل إن ابن
 مطروح يرى أن هذا الجمال ضروري لصاحب الصفات العليا، وإلا لماذا كان الأنبياء
 من جميلي الوجه، رائقي الصورة :

(١) الديوان ج ١٧٦ ، ك ١/٤ .

(٢) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ٢١ .

(٣) نفسه ج ٢٠٢ ، ك ٨/١٩ ، ل ١/١٧٧ .

حتى وصلتُ بها سرادق أبلج من وجهه سرُّ النبوة يشرح^(١)
فالممدوح صاحب صورةٍ مُتمِّمٍ بعضها لبعض ، خَلْقاً وَخُلُقاً.

ويرى ابن مطروح أن عقل ممدوحه قاطع حاد، كالسكين اللطيفة في حدها،
الصافية في متنها، إذ يقول :

ثم سكينَةٌ تتاسب من..... لك الذهن في لطفها وحسن الصفاء^(٢)
فمن يتصدر الناس لا بد أن يكون حاد الذهن صافيه.

ثم يصفه بصاحب الذهن المتوقد كالجمر، عقله متقدّ دائماً، وكذلك قلبه زكي ذكي:

زكي ذكي القلب يحسب ذهنه وريّاه من جمر ومن منزل رطب^(٣)
وهو بذلك يكون ذا عقل راجح، يستحق أن يكون بعقله من حملة لواء المجد:

وَخَصِيصٌ مِنْهُمْ مَنْعَمًا رَاجِحُ النَّهْيِ مَبَاحُ الْحَمِي خَفَاقُ أَلْوِيَةِ الْمَجْدِ^(٤)

ومن له عقل بهذه القوة، لا عجب أن يسود قومه، ويبني مجدهم:

ذو الرأي يبني ما وهي والعزم يرتق ما انفتق^(٥)

وبكل المقاييس فصاحب العقل الكبير يتوقع الناس له دائماً أن يكون صاحب رأي
صائب، وأمر نافذ :

وتفاءلتُ أن تدوم سعيداً نافذ الأمر، صائب الآراء^(٦)

- البذل والكرم :

إن صفة الكرم من الصفات الهامة لدى الشاعر، لا يفتأ يردد تميزها في ممدوحه،
فهي التي عليها الأمل، وإليها النظر، من أجل تحقيق ما يريد الشاعر من نوال الجائزة
والفوز بالأعطية، التي قد تختلف من شخص إلى آخر، وابن مطروح يمدح الصالح
الأيوبي بقوله :

دار عمرناها بإنعام من لم تخلُ دارٌ قط من رفيه

(١) الديوان ج ١٧٤ ، ك ١/٤ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢

(٢) نفسه ج ١٩٤ ، ك ١/١٥ ، ل ٢/٥٩ .

(٣) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ٢١ .

(٤) نفسه ج ١٨٣ ، ك ١/٩ ، ن ٢/٥٨ .

(٥) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦ ، ط ١/١٠ ، ش ١٩ .

(٦) نفسه ج ١٩٤ ، ك ١/١٥ ، ل ٢/٥٩ .

الملك الصالح رب العلى أيوب زاد الله في مجده (١)

وهو من خلال الأبيات يوضح سببها، فهي شكر على هدية مال، مكنت ابن مطروح من بناء بيته، ولذا فهو يرى الصالح قد عم كل الدور بالأعطيات، ويصدر حكماً عاماً قاطعاً (لم تخل دار قط من رفته)، فكأنه يمثل كل الناس في الأخذ.

ثم يصف ابن مطروح الملك الناصر داوود بأنه وحيد زمانه في الكرم والجود، لا يشابهه إلا انهمار المطر، وتتابع موج البحر، فيقول :

ثلاثة ليس لهم رابعٌ عليهم معتمد الجود

الغيثُ والبحرُ وعزهما بالملك الناصر داود (٢)

وعندما يريد ابن مطروح أمراً، أو يصل إلى أعطية، ويجد صدأً، يترقق في طلب ما يريد، ويقف كمن يستجدي شربة ماء، بحيث لا يملك السامع لشعره غير تلبية طلبه، كما يبدو من قوله :

أيجوز أن أبقى ببابك ظامناً ونداك قد وسع الخلائق أجمعاً (٣)

فممدوح ابن مطروح كريم عظيم الكرم، أوسع العالمين عطاءً، وهو في نظره قد فات كل كريم، إذ مهما بذل الآخرون، ومدوا أياديهم بالعطاء، فاقهم جميعاً بخطوة، ما أن يتحرك متقدماً حتى يسبق الجميع:

كلما مد كريم راحة أخرجتها للعلا منكم قدم (٤)

وابن مطروح يدرك أنه بقربه من ممدوحه، وحبه قد نال الكثير، إذ تقدم على أقرانه وسبقهم إلى عطاء لم يصله أحد منهم، فيقول مادحاً الخليفة المستنصر:

فتُ الأولى رامو مجاراتي إلى هذا المدى وكبت ورائي قُرح

فبلغت ما لم يبلغوا وشهدت ما لم يشهدوا، ومُنحت ما لم يمنحوا (٥)

فكأنه في سباق، تقدم الجميع، وكبت وراءه قُرح الخيل، العارفة بالدروب.

وحاجة ابن مطروح لم تكن المال دائماً، ففي العديد من المرات كان بحاجة إلى غير ذلك، كان بحاجة إلى الجاه، وإلى المنصب، فهما المنزل المحترم، والمال المستمر، ولذا

(١) الديوان ج ١٨١، ك ١/٨، ل ٢/٥٧

(٢) نفسه ج ١٨٣، ك ٢/٨، ل ١/٦٢.

(٣) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩

(٤) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٥، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) الديوان ج ١٧٣، ك ٢/٣.

نجد ابن مطروح يستمنح ممدوحه العطاء، مطالباً بسرعة منحه كتاب الفرج الذي ينتظره ليسعد به، ويلين ما أصابه من شدة كالحديد صلابة:

| | |
|---------------------------|------------------------|
| ك كتاب فساعد به واسعد | وغاية ملتسمي في علا |
| يد ويعطف لي قوة الجلمد | لطيف يلين بأس الحد |
| وياوي إلى ذروة الفرقد (١) | ويستنزل العصم من نيقها |

ثم نجده في أواخر أيامه، وبعد نكبته من الملك الصالح، يطلب العطاء من فخر الدين بعد وفاة الصالح، ويوضح ما يريد منه بشكل مباشر، فإنه يطلب على شعره في ممدوحه المكانة والرفعة، وليس المال:

| | |
|-------------------------------|-------------------------|
| فوجدتُ هذا النظم خير عتاد (٢) | ولقد هممت بتحفة تهدي له |
| | وبعد عدة أبيات يقول : |

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| إن كان لي في الناس من حماد | فلأسمعنك بعدها أمثالها |
| بالعزّ وإنظر لي بعين وداد | إن كنت لي عنها مثيلاً فاحبني |
| فالجاء اليق لي من الأرفاد | وارفع محلي واعطف الأيام لي |
| أحد ولا أعطي سواك قيادي (٣) | فإليك قد هاجرت لا ألوي على |

لقد أهدى فخر الدين شعره، وينتظر منه الهدية المرجوة، وهي هدية العز، وعين الوداد، ورفع المحل بعد أن هبطت به المراتب فترة النبذ والإبعاد، الجاه الذي هو أفضل من المال ((الإرفاد)).

وهذا هو الكرم المراد عند ابن مطروح، وهذه صورة الكرم وطبيعة أعطيته وما يقدم لمادحيه، من مال وبيوت وهدايا ومناصب وعز وجاه، وإلا فكيف يكون الكرم كريماً، وكيف يصبح غيثاً، وبحراً للعطاء؟.

(١) الديوان ج ١٨٦ ، ك ٢/١٢ .

(٢) نفسه ج ١٨٧ ، ك ٢/١١ .

(٣) نفسه ج ١٨٧ ، ك ٢/١١ .

من الصفات التي يركز الشعراء عليها في ممدوحهم، شرف النسب ورفعته، وأصوله الطيبة، ليعطي فكرة للسامع أن ممدوحه ورث الخير، والمجد كإبراً عن كابر، فالخلق الطيب والعطاء ليسا من الصفات الحادثة فيه، بل هي بناء نفسي تخلقت معه منذ نشأته في عالم الذر، فهو ابن الأماجد، وابن أهل الفضل الذين لا يقبلون إلا أن يكونوا سادة الناس، فيقول مادحاً فخر الدين، بأنه سليل بيت أصيل :

تملكت من سيدٍ أصيد كريم الأرومة والمحتد^(١)

ثم يصف ممدوحه بأنه سليل بيت ملك، فهو ملك ابن ملوك أكرمين:

يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم هممٌ بها سدوا الفضاء الأوسعا^(٢)

ويكرر ابن مطروح التركيز على أن ممدوحه من بيوت رفيعة النسب حازوا العلاء قديماً وحديثاً، فهم كرماء من بيت عزّ وكرم :

كريم له بيتٌ كريم تقاسمت أواخره إرث انعلا وأوائله^(٣)

وأرفع درجات النسب، التي يمدح الشاعر ممدوحه بها، وهو مطمئن إلى أن كلامه غير معرض لنقدٍ أو تعقيب، هي النسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذا فابن مرطوح عندما يمدح أحداً ناسباً إياه للنبي عليه السلام، فهو أعظم مدح في نظره ونظر الجميع، إذ يقول :

شرفاً بني العباس ما أبقيتمُ فخرأ لمفتخرٍ به يستجح

أوليس جدكم الذي استسقى به عمر فجاد له الغمام الدلح^(٤)

وبعد ذلك يكمل ليقرب الصورة أكثر إلى سامعيه :

الله حسبك يا ابن عم محمدٍ فسلمط مدحك ذي اللائي تصلح^(٥)

فمن يصل إلى هذه الرتبة؟، وإلى هذا النسب؟ فالشاعر يعتبر أن أعظم مدح لأي شخص هو اقتران اسمه باسم النبي عليه السلام، وهذا الممدوح هو ((ابن عم)) النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) الديوان ج ١٨٩ ، ك ٢/١٢ .

(٢) نفسه ج ١٨٤ ، ك ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٤) نفسه ج ١٧٢ ، ك ١/٣ .

(٥) نفسه ج ١٧٤ ، ك ٢/٣ .

- الفصاحة والعلم :

من خلال مسيرة حياة ابن مطروح، فقد تعامل مع العديدين من أهل الأدب والوزارة بحكم ارتباط الوزارة بالديوان ومن يتردد على الديوان، ولم يكن ابن مطروح ممن يتوقف عند ذكر بعض المحاسن في ممدوحيه، من أجل الإبقاء على مكتسباته، بل نجده يمدح ذاكراً ما فيهم دون مبالغة، ومادحاً لهم بما اشتهروا فيه، فنجدته يمدح الأديب ابن أبي عصرون بقوله :

يا فاضلاً بهرتنا من فصاحته بلاغةً لم تكن في قدرة البشر (١)

ويمدح آخر عندما أرسل لابن مطروح كتاباً، فيرد ابن مطروح:

ما معدن الدر والياقوت غير فمك فانثر علينا عقود الدر من كلمك

وانظم من النثر ما تسبي العقول به فالنظم والنثر منقولان من قلمك

وابشر فإنك قد أصبحت منفرداً وكل حسن غدا يُعزى إلى شيمك (٢)

فنظمه ونثره انفردا عنده عن غيره، بحيث أصبح كل حسن في الأدب يرجع إلى شيم وأدب هذا الممدوح، وهذا ليس بمستغرب فالمعدن الأصيل لإخراج هذه الصنعة البديعة هو قم ممدوحه، فلينثر من درّه وياقوته على السامعين.

ويبالغ ابن مطروح في وصف بلاغة ممدوحه، حتى يرى بلاغته تصدر عن الوحي، فيقول مادحاً عماد الدين بن الشيخ :

بليغ إذا ما أورد اللفظ خلته عن الوحي يملينا الذي هو قائله (٣)

فهو بليغ يورد المعاني ويصدرها بشكل محكم، ولسانه يجري بالبلاغة حتى أنه يتكلم ((مملياً)) على سامعيه دون تلغثم أو اضطراب.

ويصف ابن مطروح الملك الناصر يوسف بن العزيز أنه صاحب علم ومكانة عالية فيه، بل وناشر له، وهذه من الصفات التي تخد صاحبها كغيرها من صفات القوة والبدل، فيقول :

ملك العلم تراه أبداً ناشراً من علمه أعلى علم (٤)

فهو عالم ، ناشر للعلم.

(١) الديوان ج ١٩٦ ، ك ١/١٦ .

(٢) نفسه ج ١٩٢ ، ك ١/١٤ ، ل ١/٥٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ .

(٤) مسالك الأبيصار ١١ : ١٥٥ ، ولم ترد في الديوان .

- العفو :

التجاوز عن أخطاء الآخرين من صفات الكبار، والعفو عن الإساءة خلق طالما تغنى به الشعراء، مادحين به الذين يمارسونه، وحائثين من لم يفعله على فعله، وذلك لاستكمال ملامح صورة الممدوح الأقرب للكمال، أو تجنباً لبطش الكبراء بهم لكثرة أخطاء الشعراء بحق غيرهم. والعفو المطلوب من الشعراء في الكبراء، يتم عبر التذكير بصفات الإسلام، وأوامر الله عز وجلّ بهذا الخصوص، فهو جزء من دين الممدوح :

يعفو ويصفح قادراً عن جنى عملاً بقول الله فاعفوا واصفحوا(١)

وصفة العفو لا تكون صحيحة إلا إذا اقترنت بالقدرة، ليحصل صاحبها على أجر العفو والصفح، وهذا متوفر في ممدوحه.

وأشد ما يكون الصدق في طلب العفو عندما يتعلق الأمر بالشاعر نفسه، عندما يقع في ذنب، ويرى العقوبة لا بدّ نازلة به، فيبدأ بإلقاء صفات القدرة والتقى في ممدوحه، وإلقاء صفات الخطأ والزلل على نفسه لينقذها مما أوقعت نفسها فيه :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ومثلك أولى مثلي الصّبح والعفوا
أقلني ما قد كان مني جهالة أقالك رب يعلم السرّ والنجوى
وها أنا من ذنبي الذي كان تائباً ومن تاب تمحو الذنب توبته محوا(٢)
إلى أن يقول :

فإن تولني عفواً فإنك أهله ولا بدع إن عاقبت مثلي ولا غروا(٣)

- الحلم :

سعة الصدر والحلم من صفات المجد التي يتتبعها الشعراء في ممدوحهم، وابن مطروح يرى ممدوحه حليماً، واسع الصدر، وهو من أسرة عدّ الحلم فيهم خلقاً أصيلاً، فهم جبال حلم عند الغضب، كما يبدو في قوله :

هم جبال الحلم إن أغضبتهم فإذا استجديتهم كانوا ديم(٤)

(١) الديوان ج ١٧٤ ، ك ١/٤ .

(٢) نفسه ج ٢٠١ ، ك ٢/١٨ ، ل ١/٦١ .

(٣) نفسه

(٤) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٥ ، ولم ترد في الديوان

- النُّسك :

الشعراء يلتقطون أية صفة تكسب ممدوحهم فخراً وإجلالاً، من أجل استمرار المحبة والود مع من يمدحونهم، وما إن يلمح ابن مطروح أحد ممدوحيه في موقف يعجبه حتى يبادر إلى تسجيله، وابن مطروح يزور الصاحب الوزير معين الدين بن الشيخ، وكان رئيساً دينياً، جمع السياسة والتقى، فيخبرونه أن معين الدين ذهب لزيارة الإمام الشافعي، رحمه الله، فيذهب ابن مطروح إلى قبر الإمام الشافعي، وهناك يشاهد الوزير معين الدين مستغرقاً في عبادته، فيمدحه على تقاه ونسكه، ومعرفته قدر العلماء، وحقوق زيارتهم، فيقول:

لله أي فضيلة أدركتها في خدمة المولى الوزير الناسك
عند الإمام الشافعي لقبته فظفرتُ عند الشافعي بمالك ي (١)

فهنا يعتبر ابن مطروح أن الوزير من الناسك، ويلمح إلى أعطيات معين له، وصلات الود التي تجمعهما، والتي أصبح ابن مطروح بها كأنه مملوك لمعين الدين، فيوري بالكلمة الأخيرة - بمالك ي - فكانه يريد الإمام مالك، وهو يريد مالك ابن مطروح بإحسانه له.

-وبعد كل الصفات السالفة الذكر، ترى كيف يرى ابن مطروح مكانته لدى ممدوحيه، أو كيف يصور ابن مطروح هذه المكانة؟ إن ابن مطروح يطرق هذا الأمر ويوضّحه بشكل جلي، إذ يقول عند ذكر فضائل الصالح عليه :

فقل لحسادي ألا هكذا فليصنع المالك مع عبده (٢)

فابن مطروح يرى مكانته السامية، أن يكون «عبداً» لممدوحه، وهذا الأمر يسعده ويفرحه، بل ويغيب الأعداء والحساد، فالمالك يقهر عبده ويحقّره، والصالح يبرّ عبده ويجزل له العطاء.

ثم يعيد الصورة مرة أخرى عند وداعه الأمير حسام الدين بن علي عند توجهه للحج، فيقول :

أودع إلى الله مولى له عليّ أيادي
دعاه مولاه للحج بعد طول الجهاد (٣)

(١) الديوان ج ١٩٢، ك ١/١٤، ل ١/٦٣.

(٢) نفسه ج ١٨١، ك ١/٨، ل ٢/٥٧.

(٣) نفسه ج ١٩٣، ك ٢/١٤، ل ٢/٥٩.

فهو مولاه وسيده الذي له على ابن مطروح أيادٍ ونعم استلزمت أن يشكر العبد سيده ويقر بفضلته.

ثم يوضح ابن مطروح أن سعادته تكمن في رضا السيد عنه، وقبوله خذمة ابن مطروح، كما يبدو في قوله :

وأنا السعيد إذا صلحت . لخدمة الملك السعيد

وإذا ارتضاني عبده فالناس كلهم عبيدي (١)

فهو في عبوديته للسعيد يفوق السادة ويصبح سيّداً عليهم، فمكانة السيد العالية هي التي ترفع مجد المتعلقين بهذا السيد، حتى ولو كانوا من عبيده، ويؤكد ذلك ثانية، كما يبدو في قوله :

فإن أقامات مجد العبيد تدل على سؤدد السيد

وكم لك من نعمة ضخمة عليّ وعندي وكم من يدي (٢)

وهنا عكس ابن مطروح الأمر وأصلاً به نفس المعنى، فالناس لا يرون السيد لأنه في مقام عالٍ جداً لا يطاولونه، والذي يستطيع الناس رؤيته في هذا المجد هو العبد والمقام العالي له، فاستدل الجميع على ارتفاع منزلة السيد وسؤدده عبر مجد إقامة العبيد. وهذه الصورة استعملها ابن مطروح حتى في مخاطبة أصدقائه عند تقديم هدية إليه، فيخاطب صديقه بقوله :

مولاي عبدك واثق بكريم ودك والإخاء (٣)

ولعل أصدق موقف شعر فيه ابن مطروح أنه عبد، يجب عليه إرضاء سيده، عندما غضب عليه الصالح نجم الدين فمدحه واستعطفه، وذكر أنه عبد بمنتهى الشعور بهذه الصفة :

من مبلغ عني المليك الأروعا عن عبده يحيى مقالاً مقنعاً (٤)

وبهذه النفسية تعامل ابن مطروح مع ممدوحيه، سواء ارتفعوا عنه مرتبة، أو كانوا معه على نفس الرتبة والمكانة، فكل من أسدى له جميلاً طوق عنقه بحبل العرفان، ورق الفضل الذي عرفه ابن مطروح لهم.

(١) الديوان ج ١٨٣ ، ك ١/٩ ، ل ١/٦ .

(٢) نفسه ج ١٨٩ ، ك ٢/١٢ .

(٣) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٨ ، ولم ترد في الديوان .

(٤) الديوان ج ١٨٤ ، ك ٢/٩ .

وفي المقابل ماذا يملك العبد لسبيده إلا تمنى الخير والشكر والدعاء ، فيقول :

فقلت يا رب بلغه ما له من مراد
وحيث سار في الأر ض فاروه بالغواذي
واردده رداً جميلاً جرياً على الاعتياد
وذلك غاية سؤلي وقدرتي واجتهادي^(١)

وما يمكن أن يتجاوز به ابن مطروح الدعاء لممدوحه، هو أن يعيذه بالمعوذات، يقول :

وأعيذ جسمك بعدها من وعكة تعتاده بالذاريات وصاد^(٢)

ومع الدعاء والقرآن، لا بد من بذل الجهد، والتضرع إلى الله أن يحفظ هذا الممدوح مكافأة له على أياديه البيضاء على ابن مطروح :

ولكم ليالي بت في ديجورها لله أدعو خاشعاً متضرعاً

حتى رأيتك فوق كسرى رقعة ورأيت دونك في الجلالة تبعاً^(٣)

وهذه الأبيات تبرز درجة تعلق ابن مطروح بممدوحه، لكي يصل ليله بنهاره في الدعاء وطلب الخير له، وهذا الأمر لا يقوم به ابن مطروح فقط بل يستشعره كل الناس ويقومون به:

وإذا انتخبت له دعاءً صالحاً لم تلق غير مشارك ومؤمن^(٤)

وابن مطروح هنا يصدق مع نفسه، إذ ماذا عساه أن يقدم لأولياء نعمته غير الدعاء والشكر، والتضرع إلى الله أن يحفظهم.

وفي دعائه لهم إنما يدعو لنفسه باستمرار الخير لأن في بقائهم، وديمومتهم بقاء للنعم عليه.

(١) الديوان ج ١٩٣ ، ك ٢/١٤ ، ل ٢/٥٩

(٢) نفسه ج ١٨٧ ، ك ٢/١١ .

(٣) نفسه ج ١٨٤ ، ك ٢/٩

(٤) نفسه ج ٢٠٢ ، ك ٢/١٩ ، ل ١/١٧

- مدح المدن:

ظهر مدح المدن في شعر ابن مطروح، بسبب حياته السياسية الحافلة بالنشاط والحركة، وتحركه هنا وهناك، ولعلها كانت من الملامح التي زادت إيضاح النشاط السياسي لابن مطروح، فوجدنا في شعره إشارات لمناطق ذكر أنها كانت محل إقامة له، لم تذكرها كتب التاريخ، ولعل هذا يبرز الدور الوظيفي للشعر الذي يشهد على الحقبة التي قيل فيها.

وأول منطقة ذكرها ابن مطروح في شعره كانت منطقة الصعيد عندما مدح ابن اللمطي مستبشراً بقدومه وان الغيث هلّ عليه مع قدوم الأمير إذ يقول:

وافى بأسعد ليلةٍ ودليّةً أن الصعيد بيمن طلعته سقي(١)

وصحيح أن هذا البيت ليس فيه ذكر مدينة بعينها، ولا مدح مباشر لأي مدينة، إلا أنه أعطى المؤشر الأول لذكر ابن مطروح الأماكن مقترنة مع الخير القادم.

ويمدح ابن مطروح منطقة كاملة بأنها عصية على الاقتحام، وأنها ليست وهماً كؤهم الحالمين بإحتلالها، عندما هزأ بجيش فرنسا وقائده إذ يقول:

قد جئت مصرأً تبتغي أخذها تحسب أن الزمر يا طبل ربح(٢)

وكانه يقول إن مصر التي ظننت ليست مصر الحقيقية التي ردتك خائباً.

ويحدد ابن مطروح مدحه أكثر في مواضع أخرى عندما نجده يمدح مدناً معروفة؛ ومحدده إذ يقول مادحاً مدينة حلب:

على حلب الغراء مني تحية لها أرجّ كالمسك والعنبر الوردي

وما هي إلا جنة الخلد بهجة ولا عجب شوقي إلى جنة الخلد(٣)

يراهما شاعرنا تشبه جنة الخلد، منجذب إليها، ويرى فيها معاده، فهي مدينة جميلة ذات بهجة، ومما يزيد بها بهجة في نظره، أهلها أصحاب الصفات الفريدة:

نعم ورعى الرحمن فيها عصابة مناقبهم جلت عن الحصر والعد(٤)

فهي مدينة جميلة المظهر والأهل، جنة للناظرين، وأهلها أهل خير وحسن عشرة.

(١) الديوان ج ٢٠٠، ك ١/١٨.

(٢) نفسه ج ١٨١، ك ٢/٨، ل ١/٥٨.

(٣) نفسه ج ١٨٣، ك ١/٩، ل ٢/٥٨.

(٤) نفسه ج ١٨٣، ك ١/٩، ل ٢/٥٨.

ويمدح ابن مطروح حماة، بأنها مدينة منيعة، رجالها أهل حرب، ودون الوصول إليها المهالك والموت :

وإلا كمن يبغى حماة ودونها حماة وهي تسطر ببيض شفار (١)
مدينة ذات سطوة بسيوف تلمع في أيدي حماتها .

ثم يمدح ابن مطروح بغداد عاصمة الخلافة، فهي ظل الجميع، وهي الانجي والأنج:

لا در درى إن ونتا بي همة عن قصد دار ظلها لا يبرح
بغداد أيتها المذاكسي إنها أنجي وأنج للشؤون وأنج
خبياً وتقريباً وإنضاء فبي شوقاً إلى ذاك الجناب مبرح (٢)

فهي أرض القصد، التي يريد كل طالب للخير الوصول إليها مهما تحمل من مشاق، لأن الباعث للوصول إلى بغداد هو الرغبة في الوصول إلي جناب الخليفة الشريف، وكأنه يلمح إلى قضية شرعية الحكم التي تقول إن الحاكم ظل الله في الأرض، فبغداد مكان سكنى الخليفة، وحاضرة الإسلام، لها ظل لا يبرح يبتغي الجميع نفيوه والاستقلال به.

ولعل أكثر مدينة حظيت بنصيب وافر في شعر ابن مطروح هي دمشق التي عاش ابن مطروح فيها وزيراً حوالي ٦٤٠هـ، وتردده عليها مثل ذلك التاريخ في سفارات وزيارات إلى أن استقر بها مدة أربع سنوات تقريباً فنراه يصفها بالشامة الجميلة، أو الخال الرائق في خد الصبية .

إن وادي دمشق في الشام شامة سعاد من خال فيه برق وشامة (٣)

فهي أرض السعد، لمن رآها كلمح البرق، فكيف بمن سكنها، وابن مطروح دائم الشوق لها، يذكرها إذا ابتعد عنها ويتحرك وجده إليها :

سكن كلما تتأيت عنه حرك الوجد في الفؤاد غرامه (٤)

والإنسان لا يساويها بأي الأرض إلا الأرض المباركة مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجاز ومعراجه في فلسطين بقول:

كم شجى لولا زيارة طه ما لواه اللوى ولا رام رامه

(١) الديوان ج ٢٠٩، ك ٢/٢٣، ط ١/٧، ش ١١، ل ٢/١٩.

(٢) نفسه ج ١٧٣، ك ٢/٣ .

(٣) نفسه ل ٢/٦ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ٢/٦ ولم ترد في الديوان المطبوع .

جنةٌ وهي بالمكارة حفت من-أمرٍ تقوم منها القيامه(١)

وهي عند ابن مطروح الجنة التي لا تصفو إلا بعد تعب وكره ومكارة.

وابن مطروح في نفس القصيدة يذم أهلها وأخلاقهم لكنه يبقى على عهد المحبة لدمشق إلى أواخر أيامه، وهو عند موقعة الفرنسيس في سنة ٦٤٧هـ، ووقاه الصالح، يرسل إلى المعظم توران شاه ابن الصالح، وقد كان يحكم البلاد الشرقية يحثه على الحركة السريعة نحو دمشق، فيبث شعوره نحو دمشق عبر الأبيات الثلاث على قصرها وقلتها، فيقول :

البدار البدار يا ملك الأرض وسلطانها البدار البدار

فدمشق الشام وهي عروس هياتها لك السعادة دارا

فاهجر النوم في المسير إليها واجعل الليل بالمسير نهاراً(٢)

فهو لم يزل يراها عروساً، ويراهها دار السعادة المهيئة لخاطبتها، فليسرع إليها هذا السلطان ليحوز هذا الكنز الثمين .

وهكذا رأينا ابن مطروح يذكر العديد من المدن ويمدحها ولكن شوقه لدمشق لازمه حتى أيامه الأخيرة .

والملاحظ في مدحه للمدن أن ابن مطروح لم يمدح القاهرة في شعره ولم يذكر أهلها، أو لعله فعل ولم يصل إلينا ما قاله .

ويلاحظ على شعر المدح لدى ابن مطروح ما يلي :

- لجوء ابن مطروح للمبالغات الكثيرة التي تصعب على الذوق العادي قبولاً :
ومن ذلك قوله :

من معشر جبريل من خدامهم ويمثل ذا يمتدح المتمدح(٣)

وقوله:

وأعيذ مجدك لو عبرت إلى لظى . خدمت وكان لهيبتها لا يفلح(٤)

ومثلها العديد من الأبيات التي لم يكن ابن مطروح بحاجة إلى الوصول بمدحه فيها هذه الدرجات البعيدة في الغلو.

(١) الديوان ج ٢٠٩، ك ٢/٢٣، ط ١/٧، ش، ل ٢/١٩ .

(٢) نفسه ج ١٨١، ك ١/٨، ل ٢/٥٧ .

(٣) نفسه ج ١٧٢، ك ١/٣، مسالك الابصار ١٥٢/١١ .

(٤) نفسه ج ١٧٢، ك ١/٣، مسالك الابصار ١٥٢/١١ .

- حاكي ابن مطروح الصور التراثية القديمة في ممدوحية، فهم أهل بذل وعطاء، وشجاعة وجرأة، حلم وكرم وسعة صدر، وجمال خلق وخلق... الخ، جمعها مختصرة في بيت شعر إذ يقول :

أطواد احلام غيوث مكارم أقمار اندية ليوث جلاذ^(١)

- لجوء ابن مطروح أحياناً إلى المدح بطريقة منفرة في العرض المباشر لممدوحه وأسماء آبائه وأجداده، باضافة كلمه مدح أو كلمتين، مما يوحي أن هذه المدحة كانت مطلوبة من الممدوح، أو مدفوعة الأجر على شكل البيع والشراء، أو لتخليص النفس من موقف معين، ومن امثلة ذلك قوله :

فنعم فتى الأحيا ومستتبط الندى ومفزع محزون وملجأ لاهث

عياذ بن عمرو بن الحليس بن صالح زيد بن منظور بن زيد بن وارث^(٢)

فهذه الإطالة في ذكر النسب كأنها كانت للمباهاة من قبل الممدوح لغيره، أو نوع من استعراض القدرة على النظم من قبل ابن مطروح أمام بعض الجالسين.

- عاش ابن مطروح في البلاد المصرية والشامية طوال عمره، وهي ولا شك معروفة بجمالها واعتدال طقسها، وكثرة النباتات وتنوعها فيها، إضافة لتنوع الطيور والحيوانات، الأليفة والداجنة، أو المفترسه، وهذا الأمر لا بد أن يكون مصدر إحياء للشاعر يغرف منه، ويصبغه بلغته، ثم يضيف على ممدوحه ما يناسب من ذلك ومما يشاهده ابن مطروح حوله البحر سواء المتوسط أم الأحمر، والسيول العذبة، فيتأثر بالمياه العذبة الباردة، ويفضلها على ماء البحر المالح، ويتأثر بالبحر وطهارته ويعدل عن التميم :

نفضت يدي من كل من وطئ الثرى سواك وليس الملح كالبارد والعذب

إذا ما وجدت البحر سهلاً وروده فمالك وجه في التميم بالتراب^(٣)

فإذ ما تفاضل الماء بالمذاق، فلا شك أن العذب أشهى، وممدوح ابن مطروح نداه وفضله كذلك، وإذا ما كان التفاضل بالنسبة للاحقية والتقدم، فالماء طاهر، والتراب طاهر، ولكن ماء البحر على ملوحته أحق بالتقديم للطهارة من التميم بالتراب.

(١) الديوان ج ١٨٦، ك ٢/١٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ٢١٢ .

(٣) الديوان ج ٢١٧، ك ٢١ .

وصورة الماء والبحر أيضاً وردنا عند ابن مطروح ممزوجتين فالغيث عذب،
والبحر مالح، ولكنهما ينهران بالعطاء، كلّ ميسر لما خلق له :

الغيث والبحر وعززهما بالملك الناصر داود(١)

ثم صوره الغيث المنهمر تتكرر مع ما يرافقها من مظاهر في شخص الممدوح ...

وتأمن إذ يطفو ويطفح نائله تخاف عداه من توقد عزمه

كذا الغيث لا تخفى علينا مخايله يبشر منه البشر راجي نواله

وتتبعه من بعد ذاك هو اطله(٢) الم تر أن البرق يبدو أمامه

فالبرق يسبق الرعد، وكلاهما يسبقان الغيث، ويتبع ذلك النزول الكثيف للمطر،

والهطول المستمر، وكذا الممدوح توقد عزمه، يلمع كالبرق وبشره يشي به كالبشر ثم

يكون العطاء فالعزم برق، والبشر رعد، والممدوح غيث هائل لا تخفى مخايله.

ومن ذا يستطيع احتمال ندى الممدوح، فعطائه سيل متتابع يغرق من يقف في دربه:

ومن يرى السيل ثم يزحم فاحكم عليه بسرعة الغرق(٣)

فلا أحد يصبر لهذا السيل، ولا المحاول منافسة السيل ومزاحمته يستطيع المجازاة، فترك

السيل يمضي في دربه ناشراً عطائه أولى وأفضل .

ومع انهيار الغيث، ومرور السيل ينتشر الخير، ويخضر الروض ومن خير سيل

الممدوح نبت روض ابن مطروح واخضر، وراق جمالاً، وأينع ذاويه:

وما كنت إلا الروض باكراً الحيا فأينع زاوية ورقت خمائله

وضاع شذا أزهاره وتدفقت بمدحك من هذا الشتاء جداوله(٤)

فرغم أن الروض أينع من الماء المنهمر، إلا أن تفقد الممدوح لابن مطروح استمر،

وتواصل في كل وقت ((ببأكراه الحيا)) ليجدد شبابه وخضرته، فكما الحيا يكمل مشوار

السيل بتعهد الخير في الروض، كذا العطاء يجدد شباب ابن مطروح ومحبتة لممدوحه،

مما يدفع ابن مطروح كي يلهج بشكره، ويتدفق ثناءً عليه، كما ضاع شذا الأزهار، وفاح

برائحة عقبه ملأت الوادي، فالفضل ليس للرائحة ولا للزهر بل لمنبت الزهر ومعطيه

(١) السابق ج ١٨٣، ك ٢/٨، ل ١/٦٢ .

(٢) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٣) مسالك الابصار ١٥٨: ١١ .

(٤) الديوان ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

الخضرة والرقّة والعبق ، لذا ليس بمستغرب أن يرد ابن مطروح كل خير لصاحبه، وكل فضل إلى أهله يقول:

وإني وإن أتخفتُه بمدائح
هي السحر إلا أن فكري بابله
فما تعبت لي فكرةً في مديحه
لأني راو الفضل عنه وناقله
فلا حمد لي فيما أقول وإنما
كتبت الذي أملت على فضائله(١)
ويقول أيضاً :

تحلّى به الدهر الذي كان عاطلاً
فأضحى ملياً بالنباهة خامله
وأنتى عليه ليلته ونهاره
وطابت به أسحاره وأصائله(٢)

وابن مطروح يرى أن الدهر هو الذي جعل هذا الممدوح من المعالم البارزة على مرّ عصوره، فأحيا عاطل الدهر ونبه خامله.

وابن مطروح يعرض صورة ممدوحه معه، بمن راش جناحي طائر ضعيف فأكسبه قوة وقدرة على الطيران، كما يبدو في قوله :

يا من أياديه قبل رؤيته
راشت جناحي وطوّقت عنقي(٣)

فنعم الممدوح المتعاقبة، تعهدت ضعف الشاعر حتى أضحي قوي الساعدين يستطيع مجابهة الصعاب وحده، وأصبح مديناً له بما يطوق عنقه أيد الدهر.

وبعد .. فإن ابن مطروح قال المدح ونظمه بشكل كثير برز بشكل واضح في ديوانه مادحاً للخليفة والملوك والأمراء والكبراء، فذكر جهادهم ضد الفرنجة، وحمائتهم حرّمات الإسلام وبلاده، ثم مدحهم لتقريبهم له، وعطفهم وحديهم عليه، وتكريمه بمال أو منصب، فلهج لسانه بذكرهم، وأوضح أجمل المعاني والصور من خلال مدحه لهم، فرأهم أصحاب مكانة عالية لا تُطال، وهيبة تغضى منها الأعين، وهم أصحاب جمال مميز بوجوه باشه وخلق رضي، ومن أهل العقل والرأي، كرماء أسخياء، من بيوت عالية ونسب رفيع، إضافة لأسنة فصيحة وعلم واسع، وعفو وحلم، تضاف كلها إلى نسك وتدين، ويرى نفسه بين أيدي هؤلاء من العبيد، المطوقين بطوق الإحسان، فلا يملك لهم إلا الدعاء وطلب الخير لهم من الله.

(١) الديوان ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٢) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٣) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٨ .

* الغزل :

الغزل عرض رئيسي في ديوان ابن مطروح ويقع في ستمائة وخمسين بيتاً في الديوان المطبوع ومثلها في نسخة مخطوط برلين، فالغزل عند ابن مطروح يمثل نصف شعر الشاعر الذي وقفت عليه.

كان ابن مطروح لا يخفي ولعه بالغزل إذ تراه يقول :

وقد علم الناس أنني امرؤٌ أحب الغزال وأهوى الغزل(١)

وتنوعت قصائد الغزل عنده ، بين قصائد كاملة، ومقدمات غزلية في بدايات قصائده خصوصاً قصائد المديح، وطالت أحياناً لتطغى على الغرض الأصيل، وأحياناً أتت قليلة على شكل مقطوعات.

وقد تضمنت قصائده هذه ضروباً شتى من الغزل، فمرة يتغزل بمحبوبته واصفاً لها ، وأخرى يتغزل بجارية على اختلاف جنسيتها تركية أو فارسية، ومرة أخرى بساقية، يلتفت إلى بدوية، ثم يعدل إلى حضرية، يعشق البيض، ويميل إلى السمر، ثم يبتعد كثيراً ليتغزل بالغلما ن على عادة العديد من شعراء تلك الحقبة الذين طرّقوا هذا الغزل ونوعوا فيه، وبعضهم أسرف وأفحش عند طرّقه، ثم يرجع إلى الجادة، وينضم إلى شعراء العشق الإلهي، والغزل الصوفي على طريقة ابن الفارض، ويذكر غزلاً عذرياً.

وهو في غزله يسير على نهج الأقدمين في ألفاظه ومعانيه، إلا في المواضع التي استلزمها عصره، فالمتغزل بها شمس، أو قمر، أو ظبي، عيونها سهام، وقدّها رمح، وخطودها ورد... ، مازجاً كل هذا برقة ألفاظه وبساطة تعبيره، بحيث تقرأ شعره، فكأنه يعيش اليوم معك.

ويلج على استقامته وعفته، صحيح أنه يقدم غزله، إلا أنه يبين أن هذا الغزل يخص به نقرأ محدوداً حازوا هذه المكانة، لا يلتفت إلى قول أحد في حقهم فيقول :

فيهم يُنزه مسمعي عما تقول به العوائل
ومنحتهم غزلي ولستُ لغيرهم أبداً أغازل(٢)

(١) الديوان ج ٢١٧ ، ل ١/٥٤ ، ش ٢٦ ، ط ١/١٣ .

(٢) نفسه ، ط ٢/١١ ، ش ٢٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

فغزله منحةً لا تُقدّم لأيّ كان بل هي خاصة للخاصة وليست لغيرهم، وابن مطروح وإن كان يمنح غزله لفئة محدودة، إلا أنه لا يمنح غزله امرأة واحدة في شعره، فهو يهيم بالحسن، يتابعه هنا وهناك ويعشق الجمال، فالجمال يُطلب أينما وجد، وتأسره الملاح ويذهبن بلبه، فيقول :

وكل فتى لا يحب الملاح ويهوى المدام فما هو بطل (١)

فمحببة الجمال في نظره تساوي البطولة، فالبطولة صفة محمودة في الرجال. ويرى ابن مطروح أن الميل للجمال صفة تساوي البطولة عند الرجل سليم الطبع، ولعله هنا يفرق بين إخلاص القلب لواحدة في حبه، والإعجاب في الجمال أينما وجد.

لذا، فابن مطروح في العديد من مواضع شعره، ويعد أن يذكر بعض صفات محبوبته، يرجع ليؤكد حبه للجمال والحسن، يقول :

أفلا أهيّم بمن حكّت أوصافه الأقمار والغزلان والأغصان

والحسن يُعشق كيف كان فكيف لا أصبو لحسن زانه إحسان (٢)

فهو يهيم بمحبوبته قمرأ، غزالاً، غصناً مائلاً، فإن رأى جميلاً كالقمر ينجذب إليه كالجذابة لمحبوبته، وإن رأى رشيماً كالغزال تبعه كمتبعه لمعشوقته، وإن تنهى أمامه قدّ مشوق هام به غصناً يانعاً ففي نظره « الحسن يُعشق كيف كان » وبمن كان، يسلب لب ابن مطروح ويصبو إليه، وكلما رأى ابن مطروح الحسان لا يكتفي ولا يتوقف، بل تزداد به تباريح الهوى، فالإنسان يشرب ليرتوي، ويأكل ليشبع، ويمتّع ناظريه بالجمال ليرعوي، ولكن الأمر مع شاعرنا يزيد انطلافاً في هذا الجانب، ويزيده تعلقاً ونهما حتى غدا كالسكارى الذين لا يفيقون، بل وصل الأمر به حد الجنون الذي جعله مستغرقاً في حبه طيلة الوقت، يقول :

يا قلب ويحك ما تفيق من الجوى أمع الزمان تولة وحنون

لك كل يوم صبوّة عذريّة أعليك ندرّ أم عليك يمين

وبكل قد أنت صبيب هائم وبكل خد مغرم مفتون (٣)

(١) الديوان ، ج ٢١٧ ، ل ١/٥٤ ، ش ٢٦ ، ط ١/١٣ .

(٢) نفسه ط ٢/١٦ ، ش ٣٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ، ط ١/١٧ ، ش ٣٥ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

صحيح أن ابن مطروح صبّ هائم بكل قدّ، ومغرّم بكل خذ إلا أنه لا يعشق الجمال شهوة، بل يعشقه فكرة جمالية، ولذا يذكر لنا أن صبوته عذرية، تهيم بالمعنى المطلق وليس بالجسم المحسوس، ولذا فابن مطروح لا يرى الجمال مهما كانت صاحبتة مليحة حسنة، يستحق جمالها الالتفات والإعجاب إلا إن كان مصوناً، بعيداً عن الابتذال، يحجّب عن الطامعين، ويظهر لمن يعزف قدره ويصونه، يقول :

محبوبة في خدرها محبوبة إن الجمال يُحبُّ وهو مصون (١)

فحب الجمال عنده يكاد يماثل النظرة السامية للقيم فهو حتى في إعجابه بالجمال جادٌ لا يلهو، ولا يتابع الهوى، وإنما يتابع خلق الرجال الكبار الأبطال كما سبق ذكره فنراه يذكر عن رفضه اللهو، يقول :

إليك عني فليس اللهو من شيمي فما خلقت لغير المجد والكرم (٢)

فإن كان حب الجمال من خلقه، والتلذذ بالحسن من طباعه، فإن ذلك لا يساوي اللهو والطيش، فهما شيئان مختلفان، إذ ليس اللهو شيمة له، فحبه للجمال لا يعاب. وهو دوماً يطلب المجد، والمجد لا يكون بالابتذال، وقد يبدو هذا من غير المفهوم للرائي، أو السامع لابن مطروح، فهذا اللسان المبسوط في ذكر الحسان هل يتبعه فعلٌ مشين، فيجيب عن نفسه قائلاً :

وإني لأصبو والخلاعة مذهبي فأجمع ما بين الخلاعة والنسك (٣)

فإن كان في شعره خلاعة لفظ، فهذا لا يعدو الإعجاب كلاماً، والنسك فعلاً وعملاً، ويؤكد هذا في موضع آخر في شعره، يقول :

وإني على حب العذار ووصفه أعفُ وإن قالوا خليع عذارٍ

وكم زعموا أن الخلاعة مذهبي نعم فاتركوا لي مذهبي وشعاري

وسكري كأس من بديع جماله وما حب كأسٍ [في] الجمال بعار (٤)

فهو عفيفٌ رغم خلعه لعذاره، صاحب مذهبٍ متميز محير، يرفع رأيته ويقود ركبته، مذهب متناقض لمن لا يفهمه، «الخلاعة العفيفة»، وهو يعد نفسه الشاعر «الخليع

(١) الديوان ط ١/١٧، ش ٣٥ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ج ٢٠٠، ك ١/١٨ .

(٣) نفسه ل ٢/٥٣ ط ٢/١١، ش ٢٢ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ج ٢٠٩، ك ٢/٢٣، ل ٢/١٩، ط ١/٧، ش ١١، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦ .

الناسك))، فهو يسكر ولكن بالنظر إلى الجمال فقط، وهل هذا يحتمل صاحبه عاراً، ثم يؤكد هذا أيضاً عندما يردد جانباً من اتهام الآخرين له إذ يقول :

يُقال إن الطرف مني فاسقٌ صدقوا ولكني عفيف المئزر^(١)

ثم يطلقها ابن مطروح لتنتقل عنه في البلاد جميعاً قائلاً :

وإذا سمعت بعاشقٍ متعففٍ فاعلم بأنني العاشق المتعفف^(٢)

فإذا كان حديث الناس عن العشق يتناول بعض الناس المميزين في الحب، ولم يُعرف من هو إمام هذا المذهب فهو ابن مطروح، ليس لأنه عاشقٌ فحسب، ولا لأنه متعفف، فالشعراء العذريون سبقوه، ولكنه الخليع الناسك الذي يعاني الحب صباح مساء ويغرق فيه بالكلية دون أن يبتل، يتقدم في بحره دون زورق، ويقتحم مخاطره دون أمان :

هزّوا القدود وأرهفوا سمر القنا واستبدلوا بدل السيوف الأعينا

وتقدموا للعاشقين فكلهم أخذ الأمان لنفسه إلا أنا

لا إن لي جلدأ ولكني أرى في الحب كل دقيقة أن أفتنا

لا خير في جفنٍ إذا لم يكتحل أرقاً ولا جفنٍ تجافاه الضنا^(٣)

فهو واثقٌ من نفسه لا يأخذ لها أماناً، فالعاشق العادي يأخذ الأمان، أما هو (إمام العاشقين) ، إمام المذهب فلا، فهو يُفتن في كل دقيقة، ولكنه يبقى على ما هو عليه ناسك :

لم أنس ليلة زارني والليل ممدود الجناح

في ليلة قصرت فكان عشاؤها بيد الصباح

لم ألتفت للقائمه حتى تلفت للروح

لو كنت حاضراً رأيت فتون [جد] في مزاح

ورأيت سلطان الغرام أسير سلطان الملاح^(٤)

فهو سلطان أسير، حاكمٌ محكوم، قويٌّ ضعيف، هذا هو الهوى الصحيح وهذا هو العشق في أسمى معانيه، يأسره الحسن، ويخضع للجمال، وكل من أتى بعده يجب أن يسير

(١) الديوان ، ط ١/٩ ، ش ١٥ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ل ١/٢١ ش ١٨ ، ط ١٠ ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٦٣ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ٢٠٨ ، ك ٢٢ ، ل ٢/١٨ .

(٤) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٦ ولم ترد في الديوان المطبوع .

على طريقه، فهذا طريق لا يصل إليه أحد إلا عبر دربة وسلوك، حتى معشوقته لا تفهمه، فليس الهوى خفكان قلب، ولا ذرف دمع، ولا نوحاً وشجواً، إنه درب صعب، لا يصل نهايته إلا الأمراء والسلاطين في العشق، الذين تساموا عن الدنيا، فيخاطب محبوبته مبيناً سبيل العشق الصحيح قائلاً:

ورقاء نجد كم بشجر [تدب] ولفيض دمع [كالغمام] تسكبي
 فدعي البكا والنوح بالصوت الشجي ما أنت من أهل الهوى لا تتعبي
 لو كنت من أهل الصباة والجوى لم تلبسي طوقاً ولم تتخضبي
 إن الصبا فيه ربيبت من الصيا وورثته عن جد جدي عن أبي
 وأنا إمام العاشقين بأسرهم وجميعهم سلخوا [شرايع] مذهبي
 كم من مهالك في الغرام قطعها وموانع حتى وصلت لمطلببي
 وركبت بحر الوجد في سفن الهوى تباريح شوقي بالشجون تسير بي
 وسقيت من كأس المحبة شربةً [وذوي] الهوى شربوا بقية مشربي (١)

وهنا، يقترب ابن مطروح كثيراً من فهم أهل التصوف للعشق، صوره صورهم، وألفاظه ألفاظهم، حتى لكانك ترى ابن الفارض أو سواه عبر هذه الأبيات، فابن مطروح إمام العاشقين وسلطان المحبين. وكل من سار هذا الدرب دون تدريب وسلوك ضل وهلك، وكل من جاء بعده سلخوا طريقه وشربوا فضل كأسه، فهو يصرخ بأعلى صوته:

أنا من جُبلت على الغرام من الصيا وبه سألقى الله يوم معادي
 فإذا أتى العشاق كنت أميـرهم وجميع من قتل الهوى أجنادي (٢)

وإذا كان ابن مطروح أمير العاشقين، فهل يعشق أي امرأة بأي صفات عادية، أو مبهرة إلى حد ما، أم أن معشوقته في مرتبة لم تصلها أية معشوقة مهما تسامت، يقول:

إن قسته بالبدر ما أنصفته أو بالغزال وجدته مظلوما
 هذا نبي الحسن جاء فكلكم صلوا عليه وسلموا تسليما (٣)

فهي ليست بداراً ننصفها بوصفه، وغزلاً يُظلم بقياسه إليه، بل هي فوق هذا، حتى لا يراها معجزة بين أهل الجمال، فالمعجزة طارئة، إنها صاحبة المعجزات، إنها نبي

(١) الديوان ل ١/٧، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ج ١٨٥، ك ٢/١٠، ش ٩، ط ٦.

(٣) نفسه، ج ٢٠٤، ك ٢/٢٠.

الحسن الذي في كل يوم يأتيك بمعجزة جمال جديدة، حتى محبوبته لا ترضى بأقل من هذا الوصف، فنراه يقول على لسان حبيبته :

شبهته بالبدر قال ظلمتي يا عاشقي والله ظلماً بيننا (١)

ويلخص ابن مطروح أوصاف محبوبته في البيت التالي إذ يقول :

فسألته عند اللقاء عن اسمه ولها فقال تعجباً أنا يوسف (٢)

ومن مثل يوسف عليه السلام خلقاً وخلقاً، كل شيء فيه يُحِبُّ منفرداً عن بعضه أو مجتمعاً.

ثم يوضح ابن مطروح رأيه في الحب، فيقول :

وراح يفتنني من بينهم صنمٌ يا من رأى مسلماً يصبو إلى صنم

وخلوة فسقت فيها نواظرنا وإنما طهرتها عفة الشيم

هذا هو الحب لا شيء يدنسُه أستغفر الله لا [يخلو] من التهم (٣)

وابن مطروح يبالي في وصف محبوبته لدرجة رفعها إلى رتبة عالية تشبه الالهة عند الجاهليين الذين عبدوا النساء على اعتبارهم آلهة، لكنه يتذكر أنه مسلم، يُفْتَنُّ بالنظر ولا يُفْتَنُّ بالاعتقاد، ولا يزيد على النظر، طاهر الشيم، هذا هو الحب ليس فيه دنس، وليس فيه ما يشينه رغم أن الناظر إليه يُتَّهَمُ ويشك فيه الجالسون، فهو متدين صحيح الاعتقاد يجلس طرباً إلى محبوبته، فقط ليسمع حديثها، يقول:

شعري ومحبوبي يغنيني به وهناك تحسنُ صبوهُ المتدين (٤)

وابن مطروح لا يذكر اسم صاحبه صراحة بل يعدد الأسماء كعادة الأقدمين، فيصبح الاسم لديه قضية رمزية، لجأ إليها الشعراء لظروف اجتماعية ((وقد أصبحت فكرة الكتمان والمواربة متكأ يتكأ عليه الشعراء، ومجالاً للتفنن ... فالشاعر يعتمد اسماً أي اسم ليكني به عن حبيبته، حقيقة كانت أو خيالية)) (٥). والشعراء أكثروا من الأسماء في شعرهم ومنهم ابن مطروح إذ يقول :

(١) الديوان ج ٢٠٨، ك ١/٢٣، ل ٢/١٨ .

(٢) نفسه ل ٢/٨ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ش ٢٩ ، ط ١٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ج ١٧٧ ، ك ٢/٥ ، ش ٣١ ، ط ١٥ .

(٥) دراسات فنية في الألب العربي ، د . عبد الكريم اليافي ، ط ١ ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م ، ص ٨٧ .

لم يبق إلا أن تتيب وترعوي
وتعرض عن ليلي وتهجر زينبا(١)
ويقول في موضع آخر :

ويا عاذلي في هجر هند وزينب
وقد لاح غدري كالصباح الساري(٢)
ويقول :

سلا خاطري عن زينب ونوار
مورّد خدّ فوق آس عذاري(٣)
ويقول :

مَنّي عليّ بزورة يا زينب
فألقلب [مضنيّ] في هواك معذب(٤)
ويقول :

تُرى قبل موتي يا سعاد أراك
ويشفي فؤادي من أليم جفاك(٥)
ويقول :

أقبلت زينب بطيب شذاها
[فأضاً] البدر من ضياء سناها(٦)
ومثل ذلك في شعر ابن مطروح كثير، فالأسماء الواردة مثل هند وزينب ونوار
وسعاد ... الخ، كلها أسماء رمزية لمحبوبة غير معروفة قد تكون واحدة أو أكثر وهي
أسماء غير حقيقية ورى فيها عن اسم صاحبه حقيقة.

وابن مطروح يحاول جاهداً كتمان سر معشوقته على عادة الأقدمين إلا أن تباريح
الهوى تفيض به إلى أن يظهر الأمر، ويرفع الغطاء، ويكشف الستر، ويصل إلى مرحلة
مع محبوبته لا يخشى معها الوشاة والعذال ، يقول :

وقال أما تخشى الوشاة وتتقي
عيون الأعادي والوشاة بنا كذا
فقلت له والله يا غاية المنى
كشفت قناعي فيك بين الورى كذا
وبحثُ بسريّ واطرحتُ عواذلي
فأطرق إذ أومي بإصبعه كذا(٧)

(١) الديوان ج ٢٠٦ ، ك ٢١ ، ل ٢/١٨ .

(٢) نفسه ج ٢٠٩ ، ك ٢/٢٣ ، ل ٢/١٩ ، ط ١/٧ ، انظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦ .

(٣) نفسه ج ٢٠٩ ، ك ٢/٢٣ ، ل ٢/١٩ ، ط ١/٧ ، انظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦ .

(٤) نفسه ، ل ٢/٥١ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ل ٢/٤٩ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٦) نفسه ، ل ٢/٤٨ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٧) نفسه ، ج ٢١٠ ، ك ٢٣ ، ل ١/٢٠ ، ش ٣٧ .

فالأصل اتقاء عيون الوشاة والأعادي، والأصل أيضاً تغطية القناع. هذه هي أدبيات العشق، وطرائق استمراره، وبغيرها يتعرض الحب للخطر، ويبالغ ابن مطروح في التحرز من هذا الأمر إذ يقول :

لا تستر ما جرى فما يستتر عندي وحياة ناظريك الخبر (١)

فهو لا يقف عند حدود عدم التحفظ ، بل يطلب من محبوبته فعل الشيء نفسه، فهو صريح الحب، لا يداريه ولا يخفيه، فهل هي جرأة، أم رعونة، أم إن الأمور تداخلت في الحب فلا يُعرف العقل من الجنون، والرعونة من الجرأة، والصبر من الموت، فلم يعد يسمع نصح ناصح يطلب منه ترك محبوبته، والابتعاد عنها خشية العار الذي قد يلحق به أو بمحبوبته :

أقول لناه قد أشار بتركه لقد تهديني فيما أشرت به رشد (٢)

فالفهمي عنده لم يعد ذا قيمة، بل على العكس لقد أصبح مصدر هداية ورشد لمزيد من الاتصال والتعلق، بل إن ابن مطروح يصل إلى قناعة أن أبلغ هداية يصل إليها ألا يرى في حب محبوبته هدى :

ويا عاذلي دعني وعني فإنني رأيت الهدى في الحب أن لا أرى هدى (٣)

حتى عندما تقوم محبوبته بنصحه والطلب منه التكتّم يرفض، ويعلم عكس ذلك، يقول :

ثم لما أئبر الليلُ وجاء الفجر يجري

قال إياك رقيبِي بك يدري قلت يدري (٤)

فليس للرقيب قيمة وليس له حساب، وإن درى أو لم يدري فليس مهماً ذلك، المهم اللقاء والوصول مع الحبيب، ومهما يكن أمر العذال فإنهم تكلموا دون أن يروك، ويعرفوا حسنك، وهذا العذل بكل ظروفه غير مقبول :

عذلوا فيك فاكثروا لو انني أتأثروا

وتحيلوا حتى رأوك فمذ رأوك تحيروا

بُهِتوا بحسناك فانثنى من كان يعذل يعذروا

قل للعواذل طوّلوا إن [شيتم] أو قصرّوا

(١) الديوان ج ٢١٦ ، ك ٢/٢٦ ، ل ٢/٦٤ .

(٢) نفسه ش ٤ ، ط ٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ش ٤ ، ط ٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ، ط ٢/٨ ، ش ١٥ ولم ترد في الديوان المطبوع.

لا أنتهي لا أرعوي لا أنتهي لا أصبر^(١)

فلن يرعوي الشاعر عما يريد ولا ينتهي عن هدفه مهما طوّلتم أو قصرتم، أقلتم أو أكثرتم العذل، فإنكم تكلمتم قبل معرفة جماله، وقبل رؤيته، «فمذ رأوك تحيروا»، ثم يعيد هذه الفكرة مرة أخرى، يقول :

يا عاذلي قم تأمل صفو جلوتنا فإن نجوت بقلبٍ سالم فلم^(٢)

فالجاهل يتكلم بأي شيء ولكنه إن تفحص الأمر عاد إلى الصواب وكذلك كل من لم يرك، فإن رآك لم يتمالك نفسه ولن يسيطر على قلبه، وسيعود مثلي بقلبٍ مصابٍ بحبك. ويبدو أن الاستجابة للعذول عند ابن مطروح تمر عبر مراحل، تصل في آخرها إلى أن يصبح كلام العاذل ضرباً من الهذيان غير المقبول وغير المسموع في حق محبوبته، يقول :

وأنتي العذول يلومني من بعد ما أخذ الغرامُ عليّ فيه مأخذاً
لا أنتهي لا أرعوي عن حبه لا أنتي فليهدُ فيه من هذا^(٣)

وعذول ابن مطروح كاذب، صاحب إشاعات غير صحيحة، يلجأ للدس والإفساد لتفريق المعشوقين :

وأشاع عني عاذلي أني سلوتُ وما صدق^(٤)

فالعذول عند ابن مطروح يظهر في صورة قبيحة فهو ناه عن الوصل، بعيد عن الهدى، كثير الكلام في الإفساد، جاهل يتكلم بلا علم، كلامه هذيان، صاحب إشاعة، كاذب، فكيف بعد كل هذا يصغي إليه ابن مطروح ويترك حبيبته :

كن كما شئتَ فلستُ عنك [بسالي] يوماً ولا أصغي إلى [عذالي]^(٥)

وابن مطروح يعشق مع الصورة الجميلة في محبوبه أخلاقه الرضية وطباعه الجميلة، فليست الصورة الجميلة فقط هي ما يبحث عنه، ولكنها الأخلاق المتأغمة مع

(١) الديوان ط ٩ / ش ١٦، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه، ش ٢٨، ط ١٤، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠، ط ١/٤، ش ٦٥، ل ١/١٨.

(٤) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩.

(٥) نفسه ل ٢/٢٢ ولم ترد في الديوان المطبوع.

جمال الصورة وإلا فالجمال غير مكتمل، والصورة تكون عندها مشروخة مشوهة، ولذا نجده يقول :

ما شأنهم سُكْرُ الشَّمولِ وإنما سكر [الشمايل] (١)

فهذا الأمر يملأ النفس نشوة كما تنتشي من سكرٍ وثمل، والذي يملؤهم بذلك هو الخلق الطيب والنفس الرضية.

والوفاء من الصفات التي يعتز بها ابن مطروح في كل مناحي حياته، ويرى أن عدم الوفاء يساوي الخيانة، والخائن لا حياة له، بل ولا آخرة، ولذا رأيناه تحمل الشدة في سبيل مخدومه الملك الصالح وكاد يهلك، وهذا الأمر واضح في شعره، يقول :

ومع النصيحة فالتخلق بالوفا خلقٌ خلقتُ عليه لا متطبعاً

ومحبةٌ لدمي ولحمي ما زجتُ وهوى حنيتُ عليه مني الأضلعاً (٢)

ثم بعد أن يوضح موقفه الوفي، وأن هذا الأمر خلقٌ نفسي أصيل، وليس بالتطبع المكتسب، وأن هذه المحبة يحنو عليها ويرعاها، نراه يقول :

حق العذول بأن يقول فيفتري لكن أجلك أن يقول فتسمعاً

إن كنتُ خنتك ظاهراً أو باطناً فخرتُ [دنياي] وأخرتني معاً (٣)

فالخيانة عنده تساوي الكفر وإلا فمن الذي يخسر دنياه وأخرته من جريرة فعلٍ سوى الكافر، الذي خان المحبة والصدقة والألفة، وابن مطروح وفي لمن أحب ولكن هل الأحبة يبادلونه ذلك إذ نجده يخاطب البانة والعلم، يسألهم عن وفاء المحبوب، يقول :

بالله يا بانة الجرعاء والعلم هل الأحبة لي موفون بالذمم

أم قد تغير ما قد كنت أعهده فيهم وما كان لي بالعهد من قدم (٤)

فابن مطروح مقيم على عهده ووفائه، فهل الأحبة ما زالوا على ذلك، أم أن الجديدين قد أبليا هذا الحب وانتهى، فالوفاء صفة أصيلة عند ابن مطروح لكنها قابلة للاستفسار عند غيره، وهي موضع شكٍ عندهم أيضاً.

(١) الديوان ط ٢/١١ ، ش ٢٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ج ١٨٤ ، ك ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٤ ، ك ٢/٩ .

(٤) نفسه ، ش ٢٨ ، ط ٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

وإذا كان ابن مطروح وفاقاً لمن أحب بحكم خلقه ورجولته، فمن خلقه أيضاً الغيرة على محبوبته، فلا يستقيم طبع الرجل السليم إن كان لا يغار على من يحب وإلا فقد صفة الرجولة، وابن مطروح يخالف كل ما عُرف فلا يغار من الآخرين، ولا من النسيم، ولا الثياب، بل يصل إلى درجة تساوي حبه للمجنون، إذ لا يغار على محبوبته من نفسه فحسب، بل يغار على محبوبته من محبوبته ذاتها، يقول :

ولا تسمح بوصولك لي فإني أغار عليك منك فكيف مني^(١)

هذه هي غيرة ابن مطروح التي لا تسمح للمحوبة أن تخلو بنفسها مع نفسها إلا إن كان هو معها.

وابن مطروح يتحدث عن العزة والتذلل في الحب، إذ يرى أن التذلل للحبيب لا عيب فيه، خصوصاً وهو يتم برضاء المحبين، وفي موضع لا يُعاب فيه الرجال إذ نراه يقول :

تزيدين عزاً كلما زدت ذلةً ولولا الهوى ما ذلت الأسد للعفر^(٢)

ولكن هل التذلل للحبيب مقبول بكل صفة وفي كل مكان، فإن كان التذلل يتم برضى المحب فلن يقبل الإذلال المفروض، ولن يقبل استغلال المحبة من أجل توجيه الإهانة، ولن يقبل التجني عليه باسم الحب والمحبة :

فلست بقابلٍ ما دمتُ حياً هواناً [بالهوى] كم ذا التجني^(٣)

فحزة نفسه مساوية لحياته، والتخلي عنها يعني موته، وإن كان يدب على الأرض فالعزة ملازمة لحياته، والهوان ليس له مكان حتى في أنق المواطن شفاافية في نفسه في الحب، ولذا فابن مطروح يقبل التذلل النابع من ذاته، ويرفض الإذلال والهوان من غيره.

وإذا كان ابن مطروح يعشق الجمال، فهو يتابعه أينما كان دونما النظر إلى لونٍ أو مكان سكنى أو وضع اجتماعي، فهو يعشق البيض والسمر، والبدوية والحضرية، والسيدة والجارية، فنراه يقول :

سقى صوب الحيا تلك المغاني وإن أقوت من البيض الحسان^(٤)

فالبيض الحسان هنّ من أسرن لبّه، ويقول في موضع آخر :

(١) الديوان ل ٢/٢٠ ، ط ١٦ ش ٣٣ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ج ١٩٨ ، ك ١٧ ، ل ١٦ ، ش ١٢ ، ط ٢/٧.

(٣) نفسه ل ٢/٢٠ ، ش ٣٣ ، ط ١/١٦ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ٢/٢١ ، ل ١/١٩ ، ش ٣١ ، ط ٢/١٥.

اسمع نصحي يا من
لا تحبوا البيض إلا
فيه للعشق بقية
من [فيه] تقيّة
ر بيضاء نقيّة(١)

ثم نجده بعد كل هذا وذاك يتجه اتجاهاً آخر إذ نراه يذكر السمر وجمالهن وما يجده مميّزاً فيهن، يقول موازناً بين البيض والسمر :

أعشق البيض ولكن
إن في البيض لمعنى
خاطري بالسمر أعلق
غير أن السمر أرشق
من هجير الشمس أوفق
من الكافور أعبق
وكذا التبر من الفضة
عند الناس أنفق(٢)

فهنا ينتصر ابن مطروح للسمر، ويأتي ببراهينه التي تحببه بهن، ويعشق الترك ويواصلهن، فالجمال غير محدود بجنسية ولا أرض :

تثنى كما هز الردينيّ حامله
فعانقتُ غصناً لا يراه اخو تقيّ
وقد عبقّت بالطيب منه غلاله
فيمكن إلا أن تهيج بلابله
من الترك أضحى في الصميم وخاله
من الزنج من ذا في الملاح يماثله(٣)
ولا يُعرض عن الجمال الممزوج أيضاً بين العرب والعجم :

وسمراء كالسمراء بتّ ضجيعها
وتزيّت بزّي الترك وهي من العرب(٤)
وابن مطروح يميل إلى البدوية رغم أنه ربيب القصور، وبسلبه الحسن الطبيعي غير المتكلف وغير المصنوع :

أيا قلبُ دع عشق الحبيب المبرقع
ودونك حسناً لم يشنه تصنع
ولا تتقنع بالحبيب المقنع
فلا خير في حسنٍ أتى بتصنع
ويا قلبُ إن خالفتني وعصيتني
وحاشاك فاختر مسكناً غير أضلعي(٥)
وإني على ما في من حضرية
ليعجبني ظلُّ الخباء المشرع

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع ، كذا وردت الأبيات وفيها إختلال وزن .

(٢) الديوان ل ١/٢٢ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٢٥ ، ط ١٢ .

(٤) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ١٤ .

(٥) نفسه ج ١٧٩ ، ك ٢/٧ ، ش ١٧ ، ط ٢/٩ .

ويقول عن عشقه للبدوية في موضع آخر :

بدوي الزي إلا أنه لا يخاف العار في رعي الذمم^(١)

ويقول أيضاً :

رشاً من الأعراب مسكنه الفلا ولكم له في مهجتي من موطن

بدوية كم دونها من ضارب بالسيف مرهوب السطا لم يؤمن^(٢)

وكما يعشق العربية الصميمة ربيبة الصجراء وساكنة الفلا، فإنه يعشق القبط، وهو الذي يسكن مصر، ويتعامل معهم، فكيف لا يهفو قلبه لجمالهم، فنراه يقول :

من القبط علقته جؤذراً حوى سحر بابل في جفنه^(٣)

وبعد هيام ابن مطروح بالببيض والسمر، والعرب والعجم، والبدو والحضر، يوضح لنا مذهبه العشقي في جنسية المحبوب، إذ يقول :

وإذا أنصفت فالإنصاف بالعاقل اليق

فبديع الحسن يهوى كيف ما كان ويعشق^(٤)

مما تقدم يمكن أن ننتبين عناصر الجمال في غزليات ابن مطروح بالعناصر التالية:

* العيون لدى حبيبته ذات صفات واضحة مكلمة لبعضها :

ما دعت عيناه ذا ورع في الهوى يوماً ولم يجب^(٥)

فهي عيون أسرة حتى لذي الورع والتقى، وهو لا يقع في هواها فقط، بل يستجيب لهذا الإسار، وهي عيون دعجاء تصرع من تعرض لها كما يبدو في قوله :

مصارع الأسد بين الغنج والدعج وحلية الأنس بين العاج والسبع^(٦)

ويصور العين نرجسة غضة، لها إشراقة تغضي لها العيون، ولا تستطع مقاومتها:

ولقد غضّ ناظر النرجس الغضّ ض حياءً من ناظريك وأفلح

(١) الديوان ج ١٧٤ ، ك ٢/٤ ، ش ٢٩ ، ط ٢/١٤ ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٥ .

(٢) نفسه ج ١٧٦ ، ك ١/١٩ ، ل ٢/١٦ ، ش ٣٠ .

(٣) مسالك الأبصار ، ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ش ٧ ، ط ٢/٥ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٦) نفسه ج ١٩٧ ، ك ٢/١٦ ، ط ٢/٥ ، ش ٨ ، ل ٢/٦٠ .

أي عين ترى حسنَ عيني.....كفترنو من بعد ذلك وتفتح (١)
وكما يبدو في قوله :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| فلكم صر عن بها من الآساد | وحذار من لحظات أعين عنينهم |
| فهناك ما أنا واثقٌ بفؤادي | من كان منكم واثقاً بفؤاده |
| قلوبٌ أسيرٌ ما له من فادي | يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى |
| مكحولةٌ أجفانها بسواد (٢) | سلبته مني يوم ساروا مقلنة |

ويصور قوة عيون محبوبه أنها أحدٌ من السيف :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| خذوا جذركم من طرفها فهو ساحرٌ | وليس بناج من دهته المحاجرُ |
| فإن العيون السود وهي فواترٌ | تقدُّ السيوف البيض وهي بواتر (٣) |

فهل من نجاة لمن يقع تحت رحمتها، فماذا تكون النتيجة :

يا قوم من لمتيم

فتكت به سود الحدق (٤)

وبعد أن تفتك به العيون يطالب بدية من قاتله :

| | |
|-------------------------|------------------------------|
| خذوا قودي من أسير الكلل | فوا عجباً لأسير قتلى |
| وقولوا عليّ إذا نحتم | طعين القدود جريح المقل |
| وما كنت أعلم أن العيون | وأن القدود الظبا والأسل |
| ولي جلدٌ عند بيض الظبا | وبالأعين السود ما لي قبل (٥) |

هذه العيون التي تسبي قلب ابن مطروح وتأسر لبه، نرجسة غضة، دعجاء، تصرع الأشداء، لها إشراقة تغضي العيون منها مهابة، لحاظها مميتة، كحيلية الطرف تسحر، وتدهي، فتورها أحدٌ من السيف في الفؤاد، تجرح وتقتل المحبين، ليس لمن وقع بحبها جلدٌ ولا نجاة، هذه الصورة التي يراها ابن مطروح لعيون حبيبته تذكرنا بالنظرة العجلى التي يقبل بها جميل بثينه، حين يقول :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلبله

(١) الديوان ج ٢١١، ك ٢/٢٤، ل ٢/٢٠.

(٢) نفسه ج ١٨٥، ك ١/١٠، ط ٦، ش ٩، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦.

(٣) نفسه ج ١٩٧، ك ٢/١٦، ش ١٠، ط ٢/٦، ل ١/١٦.

(٤) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩.

(٥) نفسه ج ٢١٧، ش ٢٦، ط ١/١٣، ل ١/٥٤.

وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي أو اخره لا نلتقي وأوائله (١)
صحيح إنها صورٌ قديمة إلا أن ابن مطروح تناولها بأسلوبه فبدت جميلة محببة.

- الخدود في نظر ابن مطروح لها صفات محددة، فالخدود المحمرة من الصفات البديعة
في نظر ابن مطروح :

وادعى الوردُ أنه لون خديك ولا شك أنه كان يمزح (٢)
فالورد الجميل هو الذي يدعي مشابهته للون خديك، وهو قاصر عن ذلك وينظر
إلى امرأة قد نقشت الخضاب الأخضر على وجهها، فيريد ابن مطروح أن يمتدح هذا
الشيء، ويستخرج صورة جديدة للخد فيقول :
وأبصرت في خديه ماءً وخضرةً فما أملح المرعى وما أعذب الورد (٣)
فتخرج الصورة عنده ركيكة مهزوزة : ماء، خضرة، مرعى، وموردٌ للماء، فلم
يبق لهذه الصورة لتكتمل إلا الأنعام التي ترعى، وهذه الصورة لا تعبر عن صورة
جميلة لخدود حبيب.

ويرتفع ابن مطروح عن هذه الصورة قليلاً، ليصف الخدود بطريقة أخرى :
سقى وجنتيه الحسنُ والدمعُ وجنتي فيا وربكته رحمةً لبهاري (٤)
فوردنا الخد تشريان من معين الحسن، وابن مطروح يذرف الدمع شوقاً لهذا
الحبيب. ثم يعرض لنفس الصورة مع تغير بسيط :
خد توفد إذ ترقرق ماؤه لهفي على المتوقد المترقرق (٥)
فهنا يجمع هذا الخد بين الضدين، بين الماء المترقرق وبين النار المتوقدة، فكأن نار
القلب اندفعت عرقاً يتصبب على وجنتي الحبيب المتوقدتين المترقرقتين، ثم يذكر ابن
مطروح أن الخد الجميل هو الذي يحمل معنى وصورة العقيق :
وبخده وبشعره وعذاره معنى العقيق وبارق والمنحنى (٦)

(١) ديوان جميل بثينة ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب، بيروت ، لبنان ، ص ٨٣.

(٢) الديوان ج ٢١١ ، ك ٢/٢٤ ، ل ٢/٢٠ .

(٣) نفسه ش ٤ ، ط ١/٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ج ٢٠٩ / ٢/٢٢ ك ، ل ٢/١٩ ، ط ١/٧ ، ش ١١ / مسالك الابصار ١١ / ١٥٦ .

(٥) نفسه ج ١٩٩ / ك ٢/١٧ .

(٦) نفسه ج ٢٠٨ ، ك ، ٢/٢٠ ، ل ٢/١٨ .

وهنا نلمح بعض الإشارات المقدسة التي يحاول ابن مطروح إضفاءها على صفات محبوبته من المعالم المحيطة بمكة المكرمة، فالخد هو العقيق والشعر بارق، والعداز المنحني، فكان المحبوب أصبح لدى ابن مطروح بوضع يكاد يتفقت فيه من صفات الأُنس. ومع ارتفاع درجة الصورة عند ابن مطروح يتقدم مع محبوبته ليدخل الحرم، ولا يقف عند العقيق وبارق والمنحني، فيقول :

مقام قلبي لبعض الناس تسكنه فليهنه أنه قد حلّ في الحرم
وكيف يجحد قلبي بعدما شهدت به غلالة خدٍ ضُرِّجت بدم^(١)

وهنا الخد لم يعد بلون الورد، لقد أصبح بلون الدم، وبعد هذه المقدمات تتجلى لدى ابن مطروح الصورة المرادة للخد، فهو لم يعد دليلاً على الحسن، بل أصبح مجمع الحسن كله، وأي جمال يفوق الجنة :

صدّقتُ أن بوجنتيه جنّة لما وجدتُ رضابه من كوثر^(٢)

فالخدود عنده تكون في أجمل صورة إن كانت محمرة وردية، مشربة بماء الشبّاب متوقدة متوهجة، مقدسة كالعقيق، تجمّع فيها الحسن مثل الجنة .
وصورة الخد تفاوتت عنده بين الارتقاء وبين الهبوط، فمرة يرتفع عالياً إلى الجنة، ومرة يهبط منحدرًا إلى المرعى.

- والثغر البارد، والرضاب العذب - من الكوثر - من صفات الجمال لدى الشاعر، يقول :

نشوان ما شرب المدام وإنما أضحي بخمر رضابه متنبذا^(٣)
فالرضاب هو الذي يُسكر صاحبه، فكيف لا يسكر من رشف منه ؟ فيقول :
ثنى حسنُها طرفي عن البدر إذ بدا وقبّلتُ فاها فاغتبقت من الخمر^(٤)
واللّمي في فعله يُسكر ولكن طعمه مميز كطعم العسل :
وإن كنتَ تنكر وصلاً جرى وتزعم أن الرشا ما وصل

(١) الديوان ش ٢٨، ط ١/١٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ط ١/١٩، ش ١٥ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠، ط ٤، ش ٥، ل ١٨ .

(٤) نفسه ج ١/١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٢/٧، ش ١٢ .

فها أثر المسك في راحتني وهذا فمي فيه طعم العسل (١)
 ومن يرتشف من هذا المورد، ويغتبِق منه، ويذُق عسله، أفتراه يرتوي؟ يقول:
 ترشفتُه والليل داج كشعره وقد قلقتُ مني وغارت مراسله
 فيا لك مني مورداً ما ألدّه على عطشٍ لا يعرف الرّي ناهله (٢)
 ويعود ابن مطروح للتأكيد على فعل الريق المشابه للخمر إذ يقول:
 سكرانُ لا يصحو وليس بمنكرٍ قد صحَّ أن الريق قرقف* (٣)
 ويقول:

قلت اللمي فيما سمحت به فقالت واللمي
 فسكرت من طربي لطيب حديثها ولربما (٤)

ومع تبيان فعل اللمي وطعمه، لا بد من إيضاح الحالة التي تتناسب مع العطش، فهل يرتوي العطشان من الماء الحار، إن العطشان لا يرويه إلا الماء البارد:
 ويا ثغرة ما لي أدوِّك بارداً فيزداد ما بي من صدى وأوار (٥)
 فالثغر لا يكون إلا بارداً ليروي العطاش، ولكن الأمر لا يتم بل يزداد اللهب من جديد.
 وأفضل ما يكون الأمر - كما يراه الشاعر - ، ألا يُكثر المرء من اللمي، بل عليه الاكتفاء بحسو قطرات ورشف رشقات، كي يهدأ وتقر جوارحه:
 وما بيننا أستغفرُ الله ربيّةً سوى رشقات من فمٍ باردٍ ضنك
 فيا طيب ذلك الشهد في ذلك اللمي ويا حُسنَ ذلك الدرِّ في ذلك السلك (٦)
 هذا الثغر البارد الذي يترقق فيه الماء العذب ليس من شيء يشبهه سوى الصافي من الأحجار الكريمة:

بسحرية العينين شجرية الشذا جمانية الألفاظ درية الثغر (٧)

- (١) الديوان ج ٢١٨، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١٣.
 (٢) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١، ش ٢٥، ط ٢/١٢.
 (٣) نفسه ل ١/٢١، ش ١٨، ط ١/١٠، ولم ترد في الديوان المطبوع.
 * قرقف: الرعدة من البرد، القرقف الماء البارد المرعد، القرقف الخمر، وهو اسم لها، سميت بذلك لأنها ترقف شاربها أي ترعده، انظر لسان العرب ٩: ٢٨٢ (مادة قرقف)، وأظنها في البيت بمعنى الخمر.
 (٤) الديوان ج ٢٠٢، ك ٢/١٩، ل ١/١٧.
 (٥) نفسه ج ٢٠٩، ك ٢/٢٣، ل ٢/١٦، ط ١/٧، ش ١١، وانظر مسالك الابصار ١١/١٥٦.
 (٦) نفسه ل ٢/٥٣، ش ٢١، ط ٢/١١، ولم ترد في الديوان المطبوع.
 (٧) نفسه ج ١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٢/٧، ش ١٢.

فابن مطروح يرى الفم كالدرّ، ومن يحزّ هذا الكنز، ويمتلك هذا الماء العذب،
ويصبح الشهد والنشوة في يمينه، فقد حاز الملك، وهي من ضمن مسوغات ملك سلطان
العاشقين :

وبشرني بالملك حين لثمته وقال أيا هذا فمي خاتم الملك (١)
هذا هو الثغر الجميل بكل مكوناته عند ابن مطروح، من لمى ورضاب، وحسن فم،
فمن كان فمها كهذا فهي من معشوقات ابن مطروح.

- الشّعر: وللشعر نصيب في صفات الجمال عند معشوقة ابن مطروح، فهو يحب الشعر
الطويل الأسود :

من لم يشاهد شعره وجبينه ما فاز ناظره بليلٍ مقمرٍ
لعبت ذوابته على أردافه كالأفعوان على كتيبٍ أعرٍ (٢)
فالشعر كالليل، طويل مجدول يتراقص كالأفعى:

وذؤابة لولا سلامة مهجتي منها حلفتُ بأنها ثعبان (٣)
وطول الشعر يجب أن يكون كثيفاً في معشوقة ابن مطروح بحيث يختبئ فيه من
أراد الاختباء :

أو فاحتجت إن شئت إن لم تلقهم بدجى ذوائبي الأولى حيرنني (٤)
فهذا هو المكان الآمن من كثافته، والمخبأ الكتوم :
لا شيء أكرم من دجنة شعرها لو أن صامت حليها لم ينطق (٥)
فجمال الشعر عند ابن مطروح هو الأسود الكثيف الطويل المجدول.

- رقة الخصر : وابن مطروح يرى جمال الخصر في رفته، ونحوه، بحيث يبدو رقيقاً
يكاد يعتلّ من مرضه :

لله من شعري وخصرِكَ ما أرق وما أدق (٦)

(١) الديوان ل ٢/٥٣، ش ٢١، ط ٢/١١، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ط ١/٩، ش ١٥ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ط ١/١٦، ش ٣٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ١/١٧، ج ٢٠٢، ك ٢/١٩ .

(٥) نفسه ج ١٩٩، ك ٢/١٧، ط ٢/١٠، ش ٢٠ .

(٦) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩ .

ويضيف مصوراً رقة خصر حبيبته :

يا عليل الخصر كم أمرضت من قلب جريح (١)

فحول المرض للجسم مهلك، ولكن نحول خصر الحبيبة مهلك، ليس لها بل لمحبتها،
فعلّة خصرها أمرضت غيرها :

فاز الوشاح بضمه وحكيته أنا في القلق (٢)

فخصر محبوته رقيق دقيق، مريض ممرض، قلق مقلق.

- ضخامة الأرداف : ومع أن ابن مطروح يهيم بالخصر الرقيق، لكنه لا يرى النحول في غير الخصر، بل يرى أن المرأة الجميلة هي ذات ردف ضخّم ليحمل رشاقة خصرها، وميس غصنها، فنراه يقول مصوراً ردفها بكثيب الرمل :

وغصن القوام الرطيب فويق كثيب الكفل (٣)

والمرأة إن جمعت بين رقة الخصر وضخامة الردف، فهي ذات حسن مبهر، وهي غتية ممثلة في ردفها، فقيره مملقة في خصرها:

مثري الروادف مملق في خصره أسمعت في الدنيا بمثري مملق (٤)

ثم يوضح التباين المطلوب في نظره بين رقة الخصر، وضخامة الردف:

وكم تهت في غور خصر له وأشرفت من نجد ذاك الكفل (٥)

فالخصر غور ، والردف نجد مرتفع .

فصورة الردف التي يراها ضخّم كالكثيب مرتفع كالنجد، يجاور خصرًا رقيقًا غائراً كالغور .

- الخال : والخال في الخد من المحاسن التي يعدها ابن مطروح علامة مميزة للحبيب، فكل الصفات قد تتوفر في العديد من النساء، ولكن من وجدت فيها تلك الصفات لا بد لها من علامة تدل الحائرين للوصول إليها.

(١) الديوان ط ١/٦ ولم ترد في النسخ الأخرى. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩ .

(٣) نفسه ل ٥٤، ش ٢٣، ط ١٢ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ١٩٩، ك ٢/١٧، ط ١٠، ش ٢٠ .

(٥) نفسه ج ٢٠٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١/١٣ .

وليس كل مليحة لها خال في خدها، فما هو أثر الخال، يجيب ابن مطروح :
 ويسحر مقلته وطيب وصاله وببدر مبسمه الشهي وعطره
 وبحسن خال عمه في خده وبمسك نكهة ريقه من نشره (١)
 فالخال قد عم كل محبوبته بحسن جميل ليس في الخد فقط بل في كل جسمها.
 ويؤكد المعنى في موضع آخر :

خالها عمها بحسن جمال وحبها جواهرأ أو حماها (٢)

وإضافة للحسن الذي عم المحبوبة، فهو كالجوهر النفيس الملازم لها، وهو حارس
 لهذا الحسن فقد ((حماها)) وهنا استعمل ابن مطروح المحسنات استعمالاً مفرطاً خال،
 عم، حمو.

والخال عنده أسود بلون الند، يكاد يفوح بريح طيب، ومع أن الخال لا رائحة له إلا
 أن ابن مطروح يضفي عليه من الجمال ما لا يوجد فيه :

هذا الورد خذ أم جلتار ورد
 تلك السوالف آس أم ذلك الخال نذ (٣)

وبعد أن يحدد ابن مطروح صفات الجمال في الخال من لون، وأثر في الحسن،
 ينطلق ليذكر وظيفته في الحسن كما يبدو في قوله :

إن هداني في ليل عنبر خاله ثغره لا محيد لي عن زلاله (٤)

فهو حادي العاشقين الحيارى في ليل الوصال إلى كل المحاسن، وبدونه لا يكتمل
 جمال المحبوبة، فالخال عنده مسبل للحسن، يعم بالجمال، كالند لونا وأثراً، والعنبر فوحاً،
 حارساً للجمال ، حادٍ للحيارى التائهين في ليله.

- القوام: يرى ابن مطروح أن القوام من أهم عوامل الجمال، وبدونه لا يكتمل الحسن،
 ويتضح من شعره أنه يهوى الجسم الرشيق إذ يقول :

حويت من الملاحاة كل معنى وحزت من الرشاقة كل فن (٥)

(١) الديوان ل ٢/٥٠ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ل ٢/٤٨ ولم ترد في الديوان .

(٣) نفسه ل ١/١٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ١/١٣ ولم ترد في غيره . ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ل ٢/٢٠، ش ٣٣، ط ١٦ ولم ترد في الديوان المطبوع .

ثم يبين أن لقوام محبوبته لنداً طرياً :

وضممت منه مهفهفاً
لن القوام أغن الما(١)

ومحبوبته صاحبة قوام جميل التنتي والتمايل :

حلو الشمائل والتنتي واللمى
من يجتني من يجتلي من يرشف(٢)

وابن مطروح يراها في لين قوامها وتثنيها أشبه ما تكون بالغصن الأخضر النضير:

ونظيرها الغصن النضير إذا انتثت في حلة خضراء من استبرق(٣)

وهذا الغصن قد لان وترعرع ليس من الماء، بل هو غصن متميز، شرب من

النسيم :

عانقته فسكرت من طيب الشذا
غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا(٤)

ولكي يعطي ابن مطروح إشارة على لين قوام محبوبته، فليتها كالغصن، ولكن أي

غصن، إنه غصن الأراك الطري، المعروف للجميع بتميزه :

وأعرف قبلك الأغصان تجنى
فيا غصن الأراك أراك تجني(٥)

فتمايله بسبي العقول ويجني فؤاد المحبين.

هذا حال القوام في لينة وتثنيه، لكن إن مشقت الحبيبة قدها، فمن يصبر على هذا

الجمال، إنها تغدو رمحاً طويلاً اسماً مخيفاً محبباً، ومن ذا الذي يقوى على النزال :

هزوا قدودهم ذوابل
ونضوا لحاظهم مناصل

كم طاعن بقوامه منهم
وكم باللحظ قاتل

هذا السلاح سلاحهم
ومن الذي يقوى يقاتل(٦)

فالقد يتحول فجأة إلى سلاح فتاك قاتل، رمح للقتال، يطعن به الخصم في فؤاده،

وتتحول ساحة اللقاء بالمحبوب إلى ساحة حرب حقيفة:

حذار سيوف الهند من أعين الترك
فما شهرت إلا لتؤذن بالفتك

(١) الديوان ش ٢٧، ط ٢/١٣ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ل ١/٢١، ش ١٨، ط ١/١٠ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ١٩٩، ك ٢/١٧ .

(٤) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠، ط ٤، ش ٥، ل ١/١٨ .

(٥) نفسه ل ٢/٢٠، ش ٣٣، ط ١/١٦ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٦) الديوان ط ٢/١١، ش ٢٢ ولم ترد في الديوان المطبوع .

وإيالك من تلك القدود فإنها رماح أعدت للطعان بلا شك (١)

ويصاب ابن مطروح بطعنات الرماح وضربات السيوف ...

وقولوا علي إذا نختم طعين القدود جريح المقل (٢)

ويجمع ابن مطروح صورتين في بيت شعر واحد، فيجمع ثني الغصن، بحدة

الرمح وصلابته :

حرسوا مهفهف قدو بمثقف فتشابه المياس بالمياد (٣)

ولو توقف ابن مطروح عن هاتين الصورتين لقوام محبوبته، كالغصن الرطيب المنتهي، أو الرمح الممدود المشوق، لكان هذا أفضل، حيث عرفت هاتان الصورتان قديماً في الشعر العربي، والشاعر يفتخر بأن تصوير قوام المحبوبة بالرمح أمر غير مسبوق من قبله في الشعر العربي، وهذا من المبالغات، إذ يقول :

وبيضاء كالسمراء لينا وقامة ولم أر غيري شبه البيض بالسمر (٤)

وخلاصة الأمر ، فالمحبة لينة القوام منتشية كالغصن الرطيب، رشيقة، مليحة، كعود الأراك، صلبة كالرمح في وقفها، لينة في مشيها وميلها.

- الوجه : الوجه هو مجمع الجمال الذي إليه ينظر، وعنه يُبحث، ترنو له العيون، وتهفو لملاحظته الأفئدة، فكم من طويلة رشيقة، ذات شعر طويل، وخصر هضيم، لم يلتفت إليها أحد، لانخفاض جمال وجهها، وكم من قصيرة معيبة، أو حتى ذات عاهة، شفع لها وجهها بحسنه، وغطى بهاؤها على ما فيها، وابن مطروح يحار في جمال الوجه، فمع صورة الخدين السابقة نجده يرى الوجه أحمر ملتهاً :

تلهب ماء الخد أو سال حمرة فيا جمر ما أذكى ويا ماء ما اندى (٥)

ثم نراه يوضح لون الوجه بشكل أدق فهو كالشفق محمر :

أخجلت خد الورد منك بوجنة مثل الشفق (٦)

(١) الديوان ل ٢/٥٣، ش ٢١، ط ١١. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ج ٢١٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١٣.

(٣) نفسه ج ١٨٥، ك ١/١٠، ط ٦، ش ٩ وانظر مسالك الابصار ١١ : ١٥٦.

(٤) نفسه ج ١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٢/٧، ش ١٢.

(٥) نفسه ش ٤، ط ١/٤ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٦) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩.

ويعاود ابن مطروح وصف الوجه، فيراه درأ لولا ما فيه من مزايا الإنسان:

ولقد شهدتُ الدرُّ ثم شهدتُ
فتشابهها لولا فمَّ وبنان (١)

ويرى ابن مطروح الوجه قمرأً بديعاً :

ولا سيما قمر بديع جماله
يقوم بعذر العاشقين ممهداً (٢)

وقمر ابن مطروح أجمل من البدر :

وبي قمرأً ما بدا في الدجى
وأبصره البدر إلا أقل (٣)

وقمره محروس بقدود مثقفة كالرماح، وحراس من الخالات في الخدود :

أما وبدور الكلل
حمتها نجوم الأسل (٤)

وعندما يظن ابن مطروح أنه أنصف محبوبته عندما شبهها بالبدر، ترفض هذا

الأمر، وتقدم براهينها على هذا الرفض :

شبهتُ بالبدر قال ظلمتني
يا عاشقي والله ظلماً بيتاً

البدر ينقص والكمال لطلعتي
ولأجل ذلك رحمتُ منه أحسناً (٥)

فيتراجع ابن مطروح ، ويرى أن العديد من الأقمار والبدور لا توازي جمال

محبوبته ... ، يقول :

وإنَّ البدورُ بدا هوتَ من أفقها
حتى يُرى منها أتم وأحسناً (٦)

ولذا فابن مطروح يرى محبوبته أكبر بحسنها وضياؤها من القمر، فيتجه إلى الشمس :

وما أنس لا أنس المليحة إذ بدت
دجى فأضاء الأفق من كل موضع

فما شكَّ طرفي أنها الشمس أشرقت
ولا أنني أوتيتُ آية يوشع (٧)

فهي شمس أضاءت الأفق، حُبست عن الغروب، كما حبس الله عز وجل الشمس

ليوشع، وإن كانت الشمس لا تطل، فهناك من يعيش في فلكتها، مغرماً وقد احترق :

يا شمس قلبي في هواك عطاردٌ وقد احترق (٨)

(١) الديوان ط ٢/١٦، ش ٣٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ش ٤، ط ٤ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ٢٠٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١٣ .

(٤) نفسه ل ٢/٥٤، ش ٢٣، ط ١٢ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ج ٢٠٨، ك ٢/٢٢، ل ٢/١٨ .

(٦) نفسه ج ٢٠٨، ك ٢/٢٢، ل ٢/١٨ .

(٧) نفسه ج ٢٠٨، ك ٢/٢٢، ل ٢/١٨ .

(٨) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩ .

ويرى ابن مطروح محبوبته فوق الشمس :

وقد أخجلَ الشمسَ في حسنه ألم ترَ فيها اصفرار الخجل(١)

فالشمس خجلى من بهاء محبوبته، فهي صفراء ذابلة، ولا بد من شيء يتساوى مع محبوبته في الجمال :

قالوا وقد نظروك بعد..... د الشمس هذا أكبر(٢)

فهي نفس مراحل يقين إبراهيم عليه السلام للوصول إلى جمال الوجه المطلق :

شهدوا جمالاً لا يُحدَّ وبهجة لا تُحصِر(٣)

فوجه محبوبته أحمر ملتهب، كالشفق وهو در، أو قمر، أو شمس، بل إنه أكبر من الشمس، وهذه الصور معروفة أيضاً في الشعر العربي.

– التلفت والخفة : وابن مطروح يرى محبوبته جميلة في كل أحوالها، إن أقبلت فهي شمس أو قمر، وإن أدبرت جرت وراءها شعراً طويلاً يحميها، وإن تلفتت كانت أملح ما تكون في عين رائيتها، كانت جوذراً :

مترنخ كالغصن أو متألّق كالبدر أو متلفت كالجوذِر(٤)

فهي في تلفتها غزال يأسر، ويغلب القلب :

قد رأيناك والغزاة تسنخ فرأينا حلاك أبهى وأملح(٥)

ومن أملح من الغزال تلفتاً وخفة ورشاقة سوى الطبي :

ويا فرحة الطبي لما بدا شبيهاً لها في اللمي والكحل(٦)

ثم يراها في تلفتها وخفتها كالأغن فيقول :

وأغن * مسكي اللمي معسولة لولا الرقيب بلغت منه مرادي(٧)

(١) الديوان ج ٢١٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦ .

(٢) نفسه ط ٩، ش ١٦، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ط ٩، ش ١٦، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ط ١/٩، ش ١٥، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ج ٢١١، ك ٢/٢٤، ل ٢/٢٠ .

(٦) نفسه ج ٢١٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١/١٣ .

(٧) نفسه ج ١٨٥، ك ١/١٠، ط ٦ .

* الأغن: طبي أغن يخرج صوته من خيشومه، الأغن من الغزلان وغيرها الذي في صوته غنة، انظر لسان العرب ١٣ : ٣١٥ (مادة غنن) .

ومحبوبته بخفتها وجمالها لا يستقيم وجودها إلا ضمن مثيلاتها الحسان :

أسرب المها لا حبذا أنت من سربٍ فما منك من حظٍ لعيني ولا قلبي (١)

فهي بتلفتها وخفتها غزالة أسرت هذا الحبيب :

أغزال الكناس كيف تحيلتَ إلى أن أسرت ليث العرين (٢)

فمحبوبته في تلفتها كالجوذر أو الطيبي الأغن، أو الغزال في كناسه.

وبعد أن تعرفنا أهم عناصر الجمال التي يراها ابن مطروح في محبوبته، وكيف

استحوذت بجمالها على عقله وقلبه، وأضنت جسده، نجد ابن مطروح وبعد أن عشق هذه

المحبوبة يحاول الاتصال واللقاء، فيبدأ رحلة الوصال عبر دربه الطويل :

- الرسول إلى المحبوب: أول الأخبار تأتي لابن مطروح عبر (المسواك) فيقول:

وأفانني المسواك أن رضاها شهذ، ومسك، والأراك أمين (٣)

ويؤكد المعنى مرة أخرى :

وروى الأراك محاسناً عن ثغره يا نعم ما نقل الأراك وما روى (٤)

فالأراك رسول المحاسن، فيستجيب ابن مطروح لما سمع، ويرسل رسولا من عنده
للحبيب، وهو (النسيم) :

ألا يا نسيمَ الريح بالله بلغي سلامي على من صرت في حبه كذا

وقولي له ذاك الكئيب أقلني وأهدى سلاماً من تحيته كذا (٥)

فالرسالة واضحة، سلام، وإيضاح لحال العاشق، من مرض وكآبة، فلا يجد استجابة،
فيرسل رسولا آخر، هو رسول العشاق على مر العصور، إنه «ندامي الشاعر»،
وأخلاقه، الذين يجردهم الشاعر من ذهنه، ليحملهم ما يريد:

خليلي بالله اتركاني وصبوتي خليلي بالله ابسط لي بالعذر

أرق من الشكوى ومن غزل الشعر خليلي بالله ابغاها رسالتي

(١) الديوان ج ٢٠٧، ك ٢١ .

(٢) نفسه ط ٢/١٥، ش ٣٢، ولم ترد الأبيات في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ط ٢/١٦، ش ٣٤، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ط ٥، ش ٦، ل ٢٢، ولم ترد في الديوان المطبوع، وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠٣ .

(٥) نفسه ج ٢١٠، ك ٢/٢٣، ل ١/٢٠، ش ٣٧ .

وقولا لها ذلك المعنى بحاله سليب الكرى، حيّ المني، ميّت الصبر^(١)
ويبدو ابن مطروح هنا متأثراً بامرأ القيس عند قوله :

خليلي مرّاً بي على أم جندبٍ نقضُ لبانات الفؤاد المعذب^(٢)

فرسالة ابن مطروح واضحة، فهل تستجيب الحبيبة لها، إن أول استجابة تكون في النوم،
وليس في اليقظة :

قلو في الكرى مرّ النسيم بطيفها سرى رائداً من طيبها وهو عاطر^(٣)

إذ تسمح للنسيم أن يمسّ طيفها، وينقل عنها محاسن ما تروي الأخبار.

ثم تستجيب للرسائل، وترد برد شاف عبر رسول فصيح :

بعثتُ بنرجسةٍ إليّ ووردةٍ ففهمت أقديةا حقيقةً قصدها

لما تعذرت الزيارة أرسلت تشبيه ناظرها إليّ وخذها^(٤)

ولا يوجد في لغة المتحابين كالورد رسولاً بين الأحبة فالرسول قد وصل إلى هدفه،
النسيم حمل الرسالة، والخليلان أدياها، والمحبوب استجاب.

- ويذكر ابن مطروح أماكن اللقاء مثل حزوى، اللوى، المنحنى، وجانب الرمل:

قفوا في الحزن من حزوى ففيه طابت الشكوى

وعرج باللوى وهناً وحيوا منزلاً أقوى

ولي في جانب الرم ل غزالٍ أحورٍ أحوى^(٥)

وعندما يتم تحديد المكان، ينتظر ابن مطروح الموعد :

أوما لميعاد الرضى يا هاجري أجلّ مسمى^(٦)

- ويتم اللقاء ، وأول ما يُبدأ فيه الكلام :

(١) الديوان ج ١٩٨، ك ١٧، ل ١٦، ط ٧/٢، ش ١٢.

(٢) ديوان امرئ القيس شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤١.

(٣) الديوان ل ١/١٦، ج ١٩٧، ش ١٠، ط ٦، ك ٢/١٦.

(٤) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠.

(٥) نفسه ل ١٠، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٦) نفسه ش ٢٧، ط ١٣. ولم ترد في الديوان المطبوع.

وضمّ الدجى منا حليفي صباية يغازلني طوراً وطوراً أغازله^(١)
 فالغزل محببٌ للعاشقين، وبعد ذلك يتناشدون الشاعر في مجلسهم ...، يقول :
 شعري ومحبوبي يغنيني به وهناك تحسن صبوة المتدين^(٢)
 هذه الألفاظ تقبلها النفس وتهش لها :

ولفظ نهش إليه النفوس كما هشت إليهم للمورد^(٣)
 وأكثر ما تكون الجمال شوقاً، تكون للماء بعد رحلة صعبة في الصحراء، ثم يقول :
 بسحرية العينين، شجرية الشذا جمانية الألفاظ، درية الثغر^(٤)
 فألفاظها كالجمان الثمين، لا تقدر بقيمة، وهي ذات كلام رقيق.

ولا تُخدعوا من رقة في كلامها فإن الحميا للعقول تخامر^(٥)
 وهنا يفعل الكلام فعل الخمر بالعقول، ولكن عن طريق الأذن. وسبب ذلك أن الكلام
 يصدر من شفتين ساحرتين:

وإذ تشافهك الحديث فإنها سحرٌ، وأي [نهى] هناك يكون^(٦)
 ثم يكون في هذه الجلسات عتاب وشكوى، وهما من الأشياء المحببة للعاشقين
 يزيلان الخصام، ويجليان القلوب ، ويهدنان النفوس:

وشكوى يطيش الحليم ويجزع منها البطل^(٧)

ويقول في نفس المعنى :

كانت لكل شكاياتٍ فباح بها ثم انتصفنا فلم نحتج إلى حكم
 لو كنت تسمع شكوانا ورقتها سمعت أشهى من الأوتار والنغم
 وبعدها وإلى ذا اليوم ما نسيت أنني حلوة ذاك المنطق الرخم^(٨)
 ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن ابن مطروح في ذكره للوصال مع
 حبيبته، طرق الموضوع بطريقتين مختلفتين، الأولى على شكل سرد للوقائع وما تم في

(١) الديوان ج ١٨٨، ك ٢/١١، ش ٢٥، ط ١٢ .

(٢) نفسه ج ٢٠٢، ك ٢/١٩، ل ١/١٧ .

(٣) نفسه ج ١٨٩، ك ١٢ .

(٤) نفسه ج ١٩٨، ك ١٧، ط ٢/٧، ش ١٢ .

(٥) نفسه ج ١٩٧، ك ١٦، ط ٢/٦، ش ١٠ .

(٦) نفسه ط ٢/١٦، ش ٣٤. ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٧) نفسه ل ٢/٥٤، ش ٢٣، ط ١٢. ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٨) نفسه ش ٢٨، ط ١/١٤. ولم ترد في الديوان المطبوع .

ليالي الوصال، والثانية على شكل غزوات غرامية كما كان يفعل عمر بن أبي ربيعة، بحيث تظنها من شعر عمر، ومن أمثله ذلك :

لما طرقتُ خيامها من أهلها متكتما
فوقفت وقفة خائفٍ أبغي الأمان فعندما
قالت عليك ولا تخف من أسرتي مطر السما(١)

وحتى يستقيم منطق الأمور عند ابن مطروح بعد هذه الغزوات لا بد من أن يظهر ابن مطروح في صورة المعشوق - كابن أبي ربيعة - في حين تظهر محبوبته عاشقة لا معشوقة فهي تزوره وتأتيه، رغم ما يُعرف عن المرأة من حياء :

لم أنسَ وقد زارت على استحياء كالبدن [سرت] في الليلة الظلماء(٢)
ويقول أيضاً :

سمعتها تشتكي لدائتها شكوى تُذيب القلب والمهجا
تقول يا دايتي بليت به وما أرى من هواه لي فرجا
ومثل ما بي به ولا عجباً هوى بقلبي وقلبه امتزجا
[فهل سبيل إلى زيارته] ولو ركبت البحار واللججا(٣)

- وبعد كل هذا الحديث عن الغرام، ووصف الحسان، ووصالهن يحاول ابن مطروح إلقاء بعض الإشارات في شعره ليدلل على أنه كان عذريّ الهوى، إذ لم يتعدّ غزله قول الشعر فقط، فيقول :

تلفت والله روحي في هوى هذا المليح
ولقد لاقيت ما لم يلقي قيس بن ذريح(٤)

ثم يقول :

يا قلبُ ويحك ما تفيق من الجوى أمع الزمان تولةً وحنون
لك كل يوم صبوةً عذريّةً أعليك نذرٌ أم عليك يمين(٥)

(١) الديوان ج ٢٠٢، ك ٢/١٩، ل ١/١٧ .

(٢) نفسه ط ٢/١٧، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ج ٢٠٣، ك ٢/١٩، ل ١/٦١ .

(٤) نفسه ط ١/٦، ولم ترد في غيرها، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ط ٢/١٦، ش ٣٤، ولم ترد في الديوان المطبوع.

ولكن هل الكلام يكفي ليعتقد السامع أن صاحبه يصدق القول، وهل نعدّ إنكار ابن مطروح ونفيه للفعل الوارد في شعره حجةً مقبولة، يبدو أن الأمر فيه نظر.

وبعد، فهذه هي صورة الأنثى المعشوقة، والحببية، في شعر ابن مطروح، وقد أوضح فيها من صفات البهاء والحسن الشيء الكثير، وبالغ في تفتيت صفات حسناتها بحيث لو أراد المنتبِع لكثير من القضايا التفصيلية في غزله لتعب، ولكنه في النهاية يستطيع أن يعطي القارئ لشعره فكرة جلية عن المرأة التي يحبها ويفضلها.

= الغزل بالمذكر :

لقد شاع هذا اللون من الغزل بين العديد من شعراء تلك الفترة وذلك بسبب كثرة الحروب وما رافق ذلك من سبي للرجال والإناث حتى لقد ((أضحى الغلام في ذلك العصر من أهم متطلبات الحياة اللاهية))^(١) فقد صاحب الغلمان الرجال في مجالس الشرب والطرب وكانوا معهم للخدمة أو التتره.

وأصبح غرض الغزل في الغلمان من الأغراض المطروقة لدى الشعراء، لا يكاد ينجو منه حتى الذين لا يحبونه ولا يؤيدون هذا اللون من الغزل، وجدوا أنفسهم أمام هذا النوع، ولعل انتشاره قد توسع ((بصورة لم يسبق إليها حتى أصبح هذا الفن عادة للشعراء يفتتحون به قصائدهم، كما كانت تفتتح قصائد الشعر قديماً، بالنسيب، وبكاء الأطلال وذكر الطعائن))^(٢)، فبعض الشعراء تعامل مع الغلمان قولاً وعملاً، وكان شعره صورة عما كان يمارس حقيقة، وبعض الشعراء راقب ووصف، والبعض الآخر اكتفى بذكر بعض الإشارات في شعره حتى لا يعد من الشعراء الضعفاء الذين لا يخوضون في جميع فنون الغزل.

يقول ابن مطروح في غلامٍ مليح اسمه بدرٍون :

لك يا بدرٍون وجةٌ حاز عنوان السعادة
ينقص البدر لديه فهو بدرٌ وزيادة^(٣)

(١) حول الأئب السلجوقي، ص ٢٢٥ .

(٢) الادب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، ص ٢٣١ .

(٣) الديوان ج ٢١٨، ك ١/٢٧، ل ١/٦٢ .

فهو يصرّح باسم الغلام غير متحرج من ذلك، وإن بدرون كالبدن وهو ذو وجه يحمل السعادة كما يقول.

ثم يصف ابن مطروح العذار في خد محبوبه فيصور خدّه ديباجة وورداً، والعذار رقمٌ فوق هذا الخد كما يبدو في قوله :

ما ضرَّ بدرون عذاراً له فالورد يسعى فوقه الأرقم
فخدّه لاشك ديباجة وأحسن الديباج ما يرقم (١)

ويصور ابن مطروح وكأنه خيط تطريز في الثوب الجميل :

بخطٍ كما لاح خطّ العذار مطرّز في وجنة الأمرد (٢)

ويصور الشاعر العذار في صورة أخرى إذ يراه ألفاً في ميم كالخط الحسن على الورق الأبيض الجميل ، يقول :

قالت لنا ألف العذار بخده في ميم مبسمه شفاء الصادي (٣)

ويصف العذار في وجه محبوبه بأنه عقرب يدبّ ديبياً بطيئاً فاتكاً يلسع من اكتوى به:

قالوا حبيبك ملسوعٌ فقلت لهم من عقرب الصدغ أو من حية الشعير (٤)

ويصف الخد بالعسجد والعذار بالزمرد :

مهما اكتحلت بخده وعذاره لم تلق إلا عسجداً [وزمرذا] (٥)

ويصف ابن مطروح أثر عيون الغلام وحاجبه فيقول :

أيا حاجب الوالي فعلت بنا لحاظك ما لم تسطعه القواضبُ

ترفق على قلبي لأنك حاجبٌ فأنت على عيني لأنك حاجب (٦)

ثم يعرض لجمال غلامه المحبوب بصفة عامة، فنراه يصف غلاماً من القبط ويصوره جوئراً ساحر الأطراف، يقدم القرابين ويقدم، وهذه الأمور تزيد من تعلق ابن مطروح به، ويصوره بمن يحصل على الثواب بذهابه إلى بيعته وصومعته، ولكنه في نظر الشاعر يحمل إثم الفتك بمهجة ابن مطروح، يقول :

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان.

(٢) الديوان ج ١٨٩ ، ك ١٢٤.

(٣) نفسه ج ١٨٥ ، ك ٢/١٠ ، ط ٦ ، ش ٩.

(٤) نفسه ج ٢٠٤ ، ك ٢/٢٠ ، ط ٢/١٧ ، ش ٣٦ ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢.

(٥) نفسه ج ٢٠٣ ، ك ١/٢٠ ، ط ٤ ، ش ٥ ، ل ١/١٨ . وقد وردت كلمة زمردا بلفظ زمردا للضرورة الشعرية.

(٦) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢ ، ولم ترد في الديوان.

من القبط عُلِّقته جُودرا حوى سحر بابل في جفنه
مضى نحو بيعته راجيا حصول الثواب على ظنه
يقرَّب لكن إلى مهجتي وقدس لكن على حسنه(١)

ويؤكد ابن مطروح حسن الغلمان الذين أسروه فيقول :

وليلاً بتُ ساهره ولكن على نغم المثالث والمثاني
يطوف عليّ ولدانٌ وحرٌّ فخذ عني أحاديث الغرام
فما قابلتُ إلا بدرَ تمِّم ولا عانقتُ إلا غصن بان(٢)

فهم غلمانٌ أتقنوا فنون الطرب بالعزف على المثالث والمثاني، وهم بدور وحرور وغصون بان.

ويلح ابن مطروح على فكرة جلوسه في مجلس الأُنس دون التماذي أكثر، فيقول:

وغناهمُ شادٍ أغنَ فزادهم سروراً بشعرٍ رائقٍ حسن السببِ
تلعبُ فيهم بالكلام تلعباً كما تلعب الأمواج في البحر بالفلك(٣)

فالغلام ليس ذا صفات جسدية جميلة فقط، بل هو ذو صوت لذيذ وعذب وهو صاحب أدب، يحفظ الشعر، ويردده، ويحسن التلاعب بالألفاظ .

ويصور ابن مطروح حالة المحب للغلام ، ويوازن بين الغلام المذكر والفتاة،

ويعلل أسباب سلوّه عنها، يقول:

سلا خاطري عن زينبٍ ونوار موردٌ خدٌ فوق آس عذار
وأصبحتُ بالطبي المنطق مغرماً ولا رأي لي في عشق ذات سوار
وكم بين من يسعى نهاراً بقرطق وبين الذي يُغشى دجىً بإزار
أنيسي في النادي وفي موكبي معاً خلاف أنيسي في قرارة داري
وما فضل رب الطيلسان إذا غدا يجوز عليه حكم ذات سوار
أترضى بأن أمسي أسير أسيرة محصنةٍ أو من وراء جدار(٤)

وخلاصة القول أن ابن مطروح تغزل بالمذكر كما تغزل بالموث، وغزله بالغلمان

مرّ بنفس درب غزله بالأنثى، فالغلام عنده بدرٌ، وعذاره في خده يكسبه جمالاً إلى جماله

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢، ولم ترد في الديوان.

(٢) الديوان ج ٢٠٧، ك ٢/٢١، ل ١/١٩، ش ٣٢، ط ١/١٥.

(٣) نفسه ل ٢/٥٣، ط ١/١١، ش ٢١، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ٢٠٩، ك ٢/٢٣، ل ٢/١٩، ط ١/٧، ش ١١، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦.

كالخال في خدّ الفتاة، وفمه مستديرٌ كالميم وعيونه - ولحاضه قاطعة، وهو غزال ساحر الجفون، وغصنُ بانٍ متميل، صاحب أدبٍ وظرف، يواصله في كل وقت وفي أي مكان.

ويبدو من شعر ابن مطروح أنه لم يتعد حدود الاستمتاع بالرؤية والإعجاب بالجمال والاستئناس بالجلوس وسماع الغناء، فهو في شعره لم يذكر الوصال بالغلمان ولا طلبه ولا ألح عليه، ولا بعث رسولاً وطلب موعداً ومكاناً، ثم إن الغلام الذي أعجب به ابن مطروح كان غلام غيره، أو غلاماً في مجلس شرب، ولم يكن هذا الغلام في ملكه، وهذا يدل على أن ابن مطروح طرق هذا الفن جرياً على ما كان عليه بعض شعراء عصره.

= الغزل الإلهي - الصوفي

لقد كنت أودّ طرق هذا الموضوع عند الحديث عن الشعر الديني، ولكن لما كانت جميع صور الغزل العادي مكررة بشكل أو بآخر في هذا الموضوع، أحببت أن أعرض له في هذا الموضع لكي يبقى الموضوع متلاحقاً متناسقاً، لا سيما أن الرابط بينهم عنوان رئيس هو الغزل.

تبدأ إشارات ابن مطروح في الغزل الإلهي عبر بيتين من الشعر عارض فيهما أبياتاً لعمر بن الفارض والتي مطلعها «سائق الأظعان يطو البيد طي» فنراه يقول:

عرج بطويلع فلي ثم هوي واسأله لما جفى المعنى ولأي
بالله وإن سرى من الحي هوى احبسه لقلبي فهو للصب دوي^(١)

فهنا الصبابة تسري بحثاً عن المعنى وليس الجسد المحسوس، ثم نجده يقول قصيدة طويلة مطلعها:

أرج الخزامى نم في الأرجاء فتفتست عنه الصدى بشذاء^(٢)

وبعد أن يذكر رحلة طويلة للمحبوب ونسيم يحمل الأخبار يقول عن الأرض التي يريدتها:

وحوت من الغيد الحسان نواعماً بيضاً يهيم بحسنهن الرائي^(٣)

(١) الديوان ج ٢١٦ ، ك ١/٢٧ ، ل ٦٥ .

(٢) نفسه ل ٢/١ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ل ٢/١ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

ويصف حسنهن، وجمال عيونهن، وشعورهن، وقُدودهن، ثم يقول واصلاً إلى غرضه:
متخلصاً من ذنبه متشفعاً بالهاشمي وسيد الشفعاء^(١)

وبعد ذلك يغرق ابن مطروح في عشقه الإلهي أكثر، فنجده يقول في قصيدة مطلعها:

أيا برقَ أفاضَ دماً دموعي وأضرم نار وجدٍ من ضلوعي

وحرّك ساكنَ الأشواقِ عندي وحرّم مقلتي طيب الهجوع^(٢)

ثم يبدأ إعطاء الإشارات الواضحة عن نوع غزله:

وإن وافيت ليلاً حيّ ليلى فبلغها [عنا] صبّ ولسوع

فإن القلبَ ضيفاً في حماها [عسى] عطفاً على الضيف القنوع^(٣)

وبعد ذلك يتابع طرق الأبواب حتى يصل إلى الوصال والكشف:

وأذكر حين تبرز من خياها إذا ما الشمس تشرق بالطلوع

وإن خطرت بفكري في صلاة فأسهو في السجود وفي الركوع^(٤)

فهنا انصرف بكل أحاسيسه في الوجد والجدب إلى المعنى الرفيع الذي يسير كي يبلغه ويواصله، وأصبح مملوكاً في صحوه ونومه، حياته العادية وصلاته:

وما بي موضعٌ للعذل [يصفى] لها حبّي تملكني جميعي^(٥)

وعندما أصبح ابن مطروح مملوكاً لمحبيه، ويشعر أنه قد أصبح من العشاق المقبولين في هذا الدرب، نجده يحاول رسم الطريق لنفسه وغيره:

لآية العشق في العشاق ترتيلُ وكم لمُحكّم ذكرِ الوجد تنزِيلُ

سريرة الودّ في الأكوان [سائرة] وما لصورته في الناس تمثيل^(٦)

فالعشق له آية، والوجد لا ينزل إلا عبر محكم من الكلام، يشرح الجمال ومعناه، ويقربه للأفهام، ولكن ليس لهذا الجمال تمثيل، فهو ليس للبشر.

ثم يخاطب من أراد الوصول ويبين أن الوصول ليس عبر الدروس، بل هو سلوكٌ

للدرب، وتعبٌ ومعاناة لا بد لمن أراد نهايته من خوض غماره، يقول:

(١) الديوان ل ٢/١، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ل ٩، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٦) نفسه ل ١/٧، ولم ترد في الديوان المطبوع.

ومن تفقه في كتب الغرام له
فاسلك طريق شجون لا انتهاء له
ما لذّة العيش إلا [للأولى] سلكوا
وقل لمن عشقهم من أجل شهوتهم
في مذهب الحب تحريم وتحليل
واقهم بمن أنت مشغوف ومشغول
عشق الجمال وذاك القصد والسول
يا ذا البهايم ما هذي التماثيل (١)
فهذ العشق لا انتهاء لدربه، ولذّة هذا العشق لا يعرفها إلا من سار فيها، وسلك دربها،
ومن يظن العشق ولذته في حب أنثى أو غيرها، فهو مخطئ، بل يراه ابن مطروح من
(البهايم) التي تتبع التماثيل ولا تبحث عن الجوهر.

ثم يتابع ابن مطروح طريق العشق الصحيح، وأن الأمر قد تمكن من قلبه، فيقول :
لك في الفؤاد مكانة لم يندنا
وهم ولا في النوم طيف خيال
حللت في قلبي محلاً لم يكن
يدري به من لاعج البلبسال (٢)
وبعد إيضاح هذه المكانة لمحبيه، يخاطبه رغم عدم المشاهدة بالعين، فإن الوصال
يتم بالقلب أو عبر الشعور النفسي :

فإذا بعدت عن العيان فإن لي
أنت الأنيس إذا اعترتني وحشة
في كل وقت منك طيب وصال
وبك الملائذ إذا تغير حالتي (٣)
ومن يؤنس الخائف عند وحشته، ومن هو ملاذ المستجير به، ومن هو مغير الأحوال،
إنه الله عز وجل الذي تعلق قلب ابن مطروح به.

ويعرض ابن مطروح لحال السالك، وكيف يصل إلى الكشف بعد أن يرشف من كأس
الوصال، وبعد جهده في الوصول إلى الحمى، فيقول قطعة شعرية يبين فيها هذا الدرب:

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| إلينا أيها الساقى إلينا | فقد بزعت شموسكم علينا |
| ونحن العاشقون لكل حسن | ومولانا يحب المحسنينا |
| أحببتنا بحبكم سمونا | على من قد سما في العاشقينا |
| إليكم يا كرام الحي جننا | حليقين الرؤوس مقصرينا |
| نلوذ بحبكم فنرى أماناً | بطلعتكم فنحن الأمنونا (٤) |

(١) الديوان ل ١/٧ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ل ١/٢٣ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ١/٢٦ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

فهذا هو الوصال الذي يسمو به صاحبه عن البشير جميعا، وهو الوصال الذي يأتي بالتذلل المطلق عبر درب الحجيج، وما فيه من خشوع شامل يعطي أهله حق الملاذ بالمقام الرفيع والمنزلة السامية « أولئك لهم الأمن».

هذا هو العشق الحقيقي عند ابن مطروح، يستعمل فيه نفس مصطلحات العشق العادي من رحلة، وصبابة، ونسيم، وغيد حسان، ووجد، ووصال، وشمس تطلع، وعذول، ولكنه يميز بين عشق الجسد الذي يبغيه البهائم، وعشق الجمال والمعنى الذي لا ينتهي، ليصل في نتيجة درب السلوك إلى الأناجى بالله، وأن يلوذ بالوصال عبر لحظة كشف تعطي له الأمن والأمان.

* * *

وبعد عرض الموضوعات الغزلية لدى ابن مطروح نجده في فترة حياته الأخيرة يتذكر أيام شبابه، وما رافقه فيها من جمال، فيتوق إليها ويحب لو أن عمره توقف هناك، ومن لا يتذكر شبابه وقوته؟ فنجده يكرر الحديث في هذا المجال عدة مرات فيقول :

سلام على ذلك الزمان الذي مضى وسقياً لهاتيك المعالم والربا(١)

ويعود مرة أخرى للحنين إلى الزمان والمكان فيقول :

دارٌ صحبت العيش فيها [أخضر] ومن الشباب عليّ بردٌ معلم(٢)

ويقول :

| | |
|-------------------|---------------------|
| وإن جنتم حمى نجد | فخصوا البانة القصوى |
| أعيروني لها دمعاً | وجودوها عسى تروى |
| فكم في ظلها وقت | قطعناه كما نهوى(٣) |

فهذا الوقت الجميل الذي قطعه كما يهوى، ذهب ولم تبق منه سوى ذكرى الأحبة، وبعد هذا الأمر يذكر ابن مطروح شعراً يكاد يلاقي التجاوب في قلب من يقرؤه إن مرّ من فترة الشباب واتجه إلى الشيخوخة، فكان، ابن مطروح يبكي عبر شعره على شبابه الذاهب وينعى زهرة أيامه :

| | |
|--------------------|----------------|
| سقياً لأيامي التي | بحميد عيشي ولت |
| أيام لو سأل المشيب | لما ألمّ بشيبي |

(١) الديوان ج ٢٠٦، ل ٢/١٨، ك ٢١.

(٢) نفسه، ط ٢/١٤، ش ٣٠، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه، ل ٢/١٠، ولم ترد في الديوان المطبوع.

أيام لا أخشى الرقيباً
والدهر فيما أقتضيه
ولا صدود أحبتي
يقول لي في ذمتي
فقد الشباب تفتت (١)

ولكن الشباب لا يرجع لا بالتوجع ولا بالبكاء، ولا حتى بتفتت الكبد.

وقضية البكاء على الشباب والحنين إليه ظهرت في شعر ابن مطروح مع قضية أخرى هي الرجوع عن مذهب التصابي، أو ما أسماه « الخلاعة » والذي دفعه إلى هذا الأمر، بروز أمرٍ عظيم في نظره، ألا وهو الشيب الذي أطلّ من ثيابا شعره، فاعتبره ابن مطروح نذيراً له كي يعود إلى صوابه، فإذا كان يُقبل من ابن مطروح هذا الأمر في شبابه، فلم يعد بالمقبول عند كبره، وبرز شيبه، ولا بد من الاستجابة لنذير الشيب ولا تكون الاستجابة إلا بالتوبة والإنابة وترك المعصية وبالرجوع إلى الحق ، يقول:

صبا وهو غريب الذوائب ما صبا
وفى التصابي حقه زمن الصبا
فأما وقد لاح المشيب بفوده
فاهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا
ولم يبق إلا أن تتيب وترعوي
وتعرض عن ليلى وتهجر زينبا (٢)

هذا هو الأمر الصواب، لاح المشيب، فاقترب الرحيل ، ولا بد من توبة وإنابة إلى الله عز وجل. وعندما يحاول القلب مخالفة هذا الحال يزجره ابن مطروح ويخاطبه منتهراً مذكراً :

يا قلب ويحك ما تفيق من الجوى
قاربت معتريك المنايا فاتند
[ودنا] رحيلك فاتخذ زادا ولا
ويباب مولاك الكريم فقف ولا
أمع الزمان تولة وجنون
ودع التصابي عنك يا مسكين
تقلل فإن الشوط منك بطين
تسام فإنك بالنجاح قمين (٣)

فابن مطروح ظل على حنينه إلى شبابه وصبوته، ولم يردعه سوى الشيب الذي أعطاه النذير الحق عن قرب رحيله، ومع ذلك بقي في قلبه مكان يتفلت منه الشوق والصبابة هنا وهناك، فعقله يعقله ويعيده إلى الحقيقة، وقلبه يفرّ من العقال نحو الجوى والتصابي.

(١) الديوان ل ٢/٢١ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ج ٢٠٦، ل ٢/١٨، ك ٢١.

(٣) نفسه ج ٢٠٦، ل ٢/١٨، ك ٢١.

بعد الذي سبق عرضه نخلص إلى القول: إن ابن مطروح أراد أن يقدم مفتاحاً لشخصيته في شعره الغزلي فكانت الرجولة هي مفتاحه في ظني، خاصة وهو يتغزل بالأنثى، نراه يترفع عن الدنيا ما أمكن، يعشق الجمال فكرةً ولا يعشقه جسداً، قرنه بالبطولة، ولا يحب الابتذال في الحسن، بل يحب أن تكون المحبوبة مصونة، كره اللهو وفرق بين اللهو والطيش أيضاً، ثم يؤكد عفته وغيبرته ونسكه، يسير في ركاب أهل التصوف والعشق الإلهي ليغدو إمام العاشقين.

وهو في شعره بالغلما ن لم يزد عن الوصف والجلوس إلى مجالس الأنس، ولم يصل الأمر به إلى التعامل مع الدنيا والخوض فيما يخوض به بعض الناس.

وفي أثناء عرضه لشعره قدم العديد من الصور المكررة للمعشوقة الأنثى، فهو يراها غزلاً وقمرًا وغصناً ورمحاً وقامة مشوقةً وعيوناً أسرة قاتلة، وهذه الصفات جعلها تتسحب على معشوقه الغلام، ثم استخدم العديد منها في حديثه عن الشعر الصوفي الإلهي.

وعلى الرغم من سلاسة ألفاظ ابن مطروح وسهولتها فإن صورته عُرِفَت في الشعر العربي القديم بحيث أتى ابن مطروح ليحاول عرضها بثوب جديد، فنجح مرة وأخفق أخرى، كما حاول إيجاد بعض الصور الجديدة فنجح نجاحاً ضئيلاً لكنه أخفق أحياناً كثيرة.

وحاول ابن مطروح الالتزام في غزله بالطريقة القديمة في النسب ثم الغزل، وتابع هذا الأمر في معظم شعره الغزلي، وحتى عندما حاول الخروج على عمود الشعر في ذلك، وجدناه بخروجه يرجع إلى نفس العمود، إذ يقول:

| | |
|----------------------------------|--|
| لا أندب الربع إن أقوت معالمه | من الخليط ولا أبكي على الطلل |
| ولا أرى البرق [تغراً] لاح مبسمه | ولا أقول حمياً الريق كالعسل |
| ولا أشبه محبوبي بشمس ضحى | ولا ببدر دجى يبدو من الكلل |
| [والسهم] ما راح من جفنيه مفتضحاً | والورد ما ظل من خديه في خجل ^(١) |

(١) الديوان ل ١/١٢. ولم ترد في الديوان المطبوع.

فهل صحيح أن ابن مطروح لم يندب الربيع ولا بكى الطلل، ولم ير البرق ثغراً ولا الريق خمراً، ولا محبوبته شمساً ولا بدرأً ولا خدودها ورداً ولا جفنيها سهاماً.

ونهاية القول: إن شعر ابن مطروح في الغزل كشف التفاوت في شخصيته بين شخصية القاضي الوزير الجاد، والشاعر الرقيق المتفلسف، وكشف خبيثة نفسه التي جاهد كثيراً لتغطيتها، وقد ارتفع في غزله أحياناً كثيرة، ثم كان ينخفض فجاءة في مستواه الشعري حتى عند انتقاله من بيت إلى آخر.

وظهر ابن مطروح في شعره هذا نتاجاً صادقاً لثقافة محددة كثرت فيها مصطلحات الشعر القديم التي امتاحها شعراء تلك الفترة إضافة لما أخذه من علوم دينية وما رافق ذلك من ظروف اجتماعية وحريرية أدت إلى وضعه في مكان جيد بين شعراء بيئته في مصر والشام.

* الفخر :

لئن كان المدح هو ذكر صفات الحُسن في الممدوح، والغزل ذكر صفات الحُسن في المحبوبة، فإن الفخر هو تعداد مناقب صاحب الكلام، وعرضه لحسنات نفسه من خلال رؤيته لنفسه وصفاته، أو هو مدح النفس بطريقة أو بأخرى. وابن مطروح عندما يفخر، فهو يفخر بما يراه الناس فيه، أو بما اشتهر عنه وعُرف، فهو لم يفخر بفروسيته وخوضه المعامع.

ولعل المتتبع لشعر الفخر عند ابن مطروح يجده قد تحرك فيه بمحورين :

الأول فخره بصفاته وأخلاقه، والثاني فخره بشاعريته وشعره.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن شعره في الفخر لم يكن كثير العدد، إذ لم تبلغ الأبيات سوى أربعين بيتاً تقريباً. وسأعرض لمحوري شعره.

فخره بصفاته وأخلاقه :

- الاشتغال بالعلم : إن ابن مطروح بحكم نشأته التي قامت على انتهاج العلم والدرس، وعمله كاتباً في الديوان، وجد أن خير ما يفخر به الإنسان العاقل طلب العلم، ولذا فهو عندما يجد شخصاً يلهو ويعبث، يُعرض عنه، ويتركه، ويلتفت إلى ما يعتقده الأصوب عند الله وعند الناس، فالعلم يرفع بيوتاً لاعمام لها، لذا نجده يقول مفتخراً :

إذا امتطيتَ بدأً للكأسِ مترعةً فإن كفي للقرطاس والقلم^(١)

فهو يجد نفسه لا ترضى الدنيا، بل تتبّع ما يرفع قدر صاحبها وهي قرطيس العلم وأقلامها .

- الجد والبعد عن اللهو : والمشتغل بالعلم لا يلتفت إلى اللهو، وابن مطروح يفخر بالجدّ في حياته ونبذه اللهو، فنراه يقول مفتخراً بصفاته :

إليك عني فليس اللهو من شيمي فما خلقتُ لغير المجد والكرم^(٢)

فهو صاحب نفسٍ لا تحدّث صاحبها بغير المجد والرفعة.

- العفة : يفخر ابن مطروح بما كان يتحلّى به من العفة كما يبدو في قوله :

وإذا سمعتَ بعاشقٍ متعفّفٍ فاعلمْ بأنّي العاشقُ المتعفّف^(٣)

(١) الديوان ج ٢٠٠، ك ١/١٨.

(٢) نفسه ج ٢٠٠، ك ١/١٨.

(٣) نفسه ل ١/٢١، ش ١٨، ط ١/١٠، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وَيَصُورُ نَفْسَهُ طَاهِرَ الثِّيَابِ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا قَدْ يُقَالُ فِيهِ، كَمَا يَبْدُو فِي قَوْلِهِ :
 وَيُقَالُ إِنَّ الطَّرْفَ مِنِّي فَاسِقٌ صَدَّقُوا وَلَكِنِّي عَفِيفُ الْمُنْزَرِ (١)
 وَقَوْلُهُ: -

وخلوة فسقت فيها نواظرنا وإنما طهرتها عفة الشيم
 هذا هو الحب لا شيء يدينسه أستغفر الله لا يخلو من التهم (٢)

- ويفخر ابن مطروح بما تتحلّى به نفسه من - الأئفة - فهي نفس ترفض الضيم، وتتفر من الذل، وهو لم يُخلَقْ لغير المجد والكرم كما تقدم، وهو لا يقبل أنصاف الحلول، كما لا يقبل أصاغر الأمور، فلما أن يكون عزيزاً في صدور المجالس، وإما أن يعتزل الناس، ويتفرغ للعبادة. ولذا فلربما رأى في الموت خلاصاً.

فإمّا التصدّر في مجلسٍ وإمّا التزهّد في مسجدٍ
 وما بين هذين من ثالثٍ سوى الموت، والموت بالمرصد (٣)

ولذا تراه يرفض الهوان والتجني ما بقي على قيد الحياة فيقول :

فلستُ بقابلٍ ما دمتُ حياً هواناً [بالهوى] كم ذا التجني (٤)

ويرفض الشاعر الاستجداء والسؤال، ويفخر بصنيعه ذلك، ويراه أمراً غير مقبول لا من جبلته الأولى وخلقته الأول، ولا من التطبع الذي أتاه عبر الاحتكاك بالآخرين يقول :

قالت سل الأيام قلتُ أنا امرؤٌ تأبى السؤال خلانقي وتخلقني (٥)

وكان إذا تعرّض لمحاولة إهانة لا يقبلها، فأرض الهوان ليست دار إقامة، وعليه الرحيل إلى أرض لا تلحقه الإهانة فيها يقول :

وقد عنّ لي أربّ في المسير لأمرٍ قضى لي به مولدي
 إلى كم أهون ما لا يهـو ن وأصبر في حيث لم أحمد
 وفيه المقام ولا حالة تسرّ سوى أعين الحسد (٦)

(١) الديوان ط ٩، ش ١٥، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ط ١٤، ش ٢٨، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ١٨٩، ك ١٢ / ٢ .

(٤) نفسه ل ٢/٢٠، ش ٣٣، ط ١٦، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ج ١٩٩، ك ٢/١٧ .

(٦) نفسه ج ١٨٩، ك ١٢ / ٢ .

- ويفتخر ابن مطروح بأنه كان ذا همة عالية، لا يقبل إلا المجد والعلو، وقد يبلغ به الحد أن يدعو على نفسه إن قبلت غير تلك المكانة، كما يبدو في قوله :

لا در دري إن وَنْتَ بي همةً عن قصدٍ دارٍ ظلها لا يبرحُ(١)

وربما يظهر ابن مطروح مبالغاً حين يعد همته تضيق بها الدنيا، فهو صاحب همة متحفزة، لا تقبل التلبث والمكث، كما يبدو في قوله :

وتكفَّلتُ ببلوغ ما حاولتُهُ هممٌ يضيقُ بها الفضاء الأوسع(٢)

وقد تدفعه همته إلى كل مسعى، وإلى كل مكان، ليحقق ما يسعى إليه من أمجاد سعى في تحقيقها مهما بعدت به الآمال يقول :

إن لم أنلْ بالمغرب الأقصى المنى حاولتُ ذاك ولو بأقصى المشرق(٣)

يفتخر ابن مطروح على أقرانه في مصر، بوصوله إلى أعلى مراتب الرفعة، وهي الوصول إلى الاتصال بالخليفة، وهذا أمر لم يتمكن العديد منهم من الوصول إلى تحقيقه. ويفتخر بمكانته بينهم ، يقول :

من مبلغ قوماً بمصر تركتهم فرقاً وأعينُهُم لعودي تطمخُ

ما نلتُ من شرفٍ ومجدٍ بأذخٍ وغدا بنا فوق الكواكب مطرُحُ

فبذلك الشرف الذي أوتيته وبِحُسن منقلبِي إذا فليفرحوا(٤)

ويرى ابن مطروح أن سعيه الدائم، كان متجهاً إلى بلوغ المجد، وليس إلى جمع المال وهو أمرٌ يفخر به الشاعر ، يقول :

جلبوا الذي يقنى وينفذ عاجلاً وجلبتُ ما يبقى فمن هو أربحُ(٥)

يفتخر ابن مطروح بشجاعته وثباته في المواقف الحرجة، وأنه لا يفر في أحلك الظروف، فعند لمعان السيوف يصمد، وعند بروز الرماح يثبت، صاحب جلد على الحرب، كما يبدو في قوله :

ولقد ذكرتك والصوارمُ لمع من حولنا والسهمية شرعُ(٦)

(١) الديوان ج ١٧٣ ، ك ٢/٣ .

(٢) نفسه ج ١٧٣ ، ك ٢/٣ .

(٣) نفسه ج ٢٠٠ ، ك ١/١٨ ، ط ١/١١ ، ش ٢١ .

(٤) نفسه ج ١٧٤ ، ك ١/٤ .

(٥) نفسه ج ١٧٤ ، ك ١/٤ .

(٦) نفسه ج ١٩٥ ، ك ٢/١٥ ، ل ١/٦٠ .

وقوله:

ولي جَدَّ عند بيض الظُّبا وبالأعين السود مالي قَبيل (١)

- ويفتخر ابن مطروح بأنه قد تمكن من المحافظة على الصحبة والنصح، في اتصاله ويرى أنه لا مثيل له في نصحته، كما يبدو في قوله مخاطباً السلطان الصالح نجم الدين أيوب:

ولو ادعيتُ بأن مالك ناصحٌ مثلي شهدت بصدق هذا المُدعي (٢)

ويفتخر بأنه كان أكثر من يحيطون بالملك الصالح سداداً في الرأي، وإعمالاً للفكر، ونفعاً لصاحبه، إذ يقول:

ولطالما جربتني فوجدتني أجدي من المملأ الكثير وأنفعا

واسدٌ آراءً واتقُبَ فكرةً واشدُّ عارضةً وأطف موقعا (٣)

* وكان ابن مطروح وفياً مخلصاً، ويذكر أن الوفاء كان سجية من سجايها، وهي سجية يعتز بها ويفتخر، ويبدو ذلك جلياً في حفاظه على الصديق، فقد كان ثابت العهد، لا يجول ولا يزول، كما يبدو في قوله:

إن كنتُ خنتُك ظاهراً أو باطناً فخرتُ [دنياي] وأخرتني معاً

أؤدِّكم في عنفوان شبيبتي وأحولُ إذ عهدُ الشبيبة ضيعاً (٤)

لقد كان ابن مطروح، مهما تعرض للأذى، لا يترك ودّه القديم، ولا صديق عمره. فهي من الأمور المعروفة فيه، والأصباغ التي لا تنصل، يفخر بذلك فيقول:-

وكل خضاب سوف ينصل صبغةً وما لخضاب الود فيك نصول (٥)

لقد كان الوفاء خلقاً مميزاً لدى ابن مطروح ولذا نراه يقف عنده طويلاً، فابن مطروح قد يقبل أي أمر يُنسب إليه، إلا القول أنه قليل الوفاء، أو قليل الصحبة، إذ يقول مفتخراً:

ومع النصيحة فالتخلقُ بالوفا خلقٌ خلقتُ عليه لا متطبعا (٦)

ويقول:

(١) الديوان ج ٢١٧، ل ١/٥٤، ش ٢٦، ط ١/١٣ .

(٢) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩ .

(٤) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩ .

(٥) نفسه ج ١٩١، ك ٢/١٣، ل ٢/١٢، والنصول: يقال نصل الشعر ينصل، زال عنه الخضاب، انظر لسان

العرب (مادة نصل).

(٦) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩ .

ومن الصيا وهلم جرا شيمتي هذا الوفاء فكيف عنه أرجع^(١)
فهو خلق أصيل لازمه منذ أول خلقه، وشبَّ معه في صياها، ولكن إلى أين يمتد معه هذا
الخلق :

ووالله لا خلّت عن حبكم إلي أن أوسدّ في ملحدي^(٢)

الفخر بشعره وشاعريته:

إن الشعراء، وابن مطروح واحد منهم، عندما يذكر أحدهم شعره، فإنه يذكر شيئاً
عزيباً عليه، هو خلاصة فكره، وثمره عقله وشاعريته، ويحرص العديد من الشعراء
على الإشادة بشعرهم وتمجيده، ليحوزوا المجد لأنفسهم، فإذا تصدر الناس المجالس،
فالشعراء يتصدرون معهم بشعرهم، وإن فتحت لهم أبواب القصور فشعرهم يسبقهم.
وهو يصف شعره بالرقّة عبر غزله فيقول :

لله من شعري وخصرك ما أرق وما أدق^(٣)

وهو يصور شعره صافياً رائقاً، لا يظماً من ينهل منه، كما يقول :

واسمع مديحاً راق مو رده على كدر ورق^(٤)

وابن مطروح يرى شعره السحر الذي أتى من بابل على يدي هاروت وماروت، فكيف
لا يسحر كل من سمعه، فيقول مفتخراً :

واني وإن اتحفته بمدائح هي السحر إلا أن فكري بابل^(٥)

ويصف طرب الناس من شعره بقوله :

وكم قائل عند وصفي ثنا ك الا طرباً بك من منشد^(٦)

ثم يميل ابن مطروح إلى المبالغة قليلاً، فيذكر أن شعره لا يسحر الناس فقط، بل

إن الجماد يتحرك طرباً منه، فيقول :

واقوم أنشد ما يكاد له الصفا إن لم يسر طرباً له يتزحزح^(٧)

كما يصور الشاعر شعره بالدر والجوهر من الكلام يقول :

(١) الديوان ج ١٩٥، ك ٢/١٥، ل ١/٦٠ .

(٢) نفسه ج ١٩٠، ك ١/١٣ .

(٣) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩ .

(٤) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١٠، ش ١٩ .

(٥) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٦) نفسه ج ١٩٠، ك ١/١٣ .

(٧) نفسه ج ١٧٣، ك ١/٣ .

من جوهر الكلم الشريف تُخيرت ومن الكلام مبهرج ومنقح^(١)
وأنه كالياقوت الموصول بالؤلؤ :

نسيباً يمدح ابن الوزير وصلته كما وصل الياقوت بالؤلؤ الرطب^(٢)
ويرى ابن مطروح أن عطايا ممدوحة مهما بلغت، فهي لا تفضل شعره قدرأ بل تتكافأ
معه فقط :

تكافأ في الإحسان شعري ومنحه ولكن بخصل السبق فازت أنامله^(٣)
ويفتخر ابن مطروح بشاعريته المتنوعة التي لا يعيقها شيء، ويترسله الذي لا
يحدّه حد، فهو يقول ما يريد، وينظم ما يشاء متى شاء كما يبدو في قوله :

ملك الملوك إليها من ناظم متـرسل متـنوع متفنن
إن شئت نظماً فالذي أمليتُهُ أو شئت نثراً فاقترح واستحسن^(٤)
وابن مطروح يرى أن شاعريته قد سبقت جميع أقرانه، وتقدمت عليهم، فهو المقدم في
شعره، يقول :

ملكك القوافي أخذاً بزمامها فلا يدعيها مدع وهي في ملكي^(٥)
فقد ملك القوافي، يملكها ويتصرف فيها على هواه، وقد وصل بشاعريته إلى الحد الذي
أتعب الراكضين خلفه، فكبت خيلهم عند مجارة شعره، يقول :

فت الأولى راموا مجاراتي إلى هذا المدى وكبت ورائي قرخ^(٦)
وهو يبحث عن مثال يتبعه بين الشعراء، فيجد أن خير من يتشبه به هو حسان بن ثابت،
شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقول مادحاً الكامل - محمد - الأيوبي :
أنا فيك حسان وأنت محمد بمحمد عطفاً على حسان^(٧)

(١) الديوان ج ١٧٣، ك ١/٣ .

(٢) نفسه ج ٢٠٧، ك ٢١ .

(٣) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٤) نفسه ج ١٧٧، ك ١/٦ .

(٥) نفسه ل ٢/٥٣، ط ١/١١، ش ٢١، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٦) نفسه ج ١٧٣، ك ٢/٣ .

(٧) نفسه ج ١٧٦، ك ٢/٤ .

وابن مطروح ينظر إلى شعره فيراه في المراتب العليا، فهو تحفة من التحف، غريب عجيب، ألفاظه بكر لم يسبق إليها كالصبيّة العذراء، تفوق ببلاغتها سبحان وائل، اشتهرت على السنة للناس براً وبحراً، يقول :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| ولقد هممتُ بتحفة تُهدى له | فوجدتُ هذا النظم خير عتاد |
| [فمنحته منه بكل غريبة] | تزري فصاحتها بقيس إياد |
| وجعلته مني قرئ لجلاله | إن الثناء قرئ لكل جواد |
| وعليك يا ابن الأكرمين جلوتها | عذراء في حلل من الإنشاد |
| سحبت على سبحان ذيل بلاغة | وعلى ابن برد نفس الأبراد |
| أضحى بها الملاح يُنشد مطرباً | وبمثل ذلك راح يحدو الحادي |
| وغدت بالسنة الوري مروية | فلكم لها في الناس من حماد(١) |

وخلاصة القول : إن ابن مطروح قد افتخر بنفسه في المواضيع التي حكى قصة حياته، ووصفت أخلاقه وطباعه، فقد افتخر بطلبه العلم، وجدّه وعدم لهوه، وعفته ونفسه الأبيّة، ورفضه الذل والاستجداء، وهمته العالية، ووصوله إلى أعلى المراتب، إضافة إلى شجاعته وثباته، كما يفتخر الشاعر بإخلاصه، وسداد رأيه، وعدم خيانتته ووفائه. وفي هذا الجانب، فإن الشاعر كان صادقاً إلى حد كبير، أوضح شعره وأكدّه الذين ترجموا له من معاصريه وأهل زمانه.

وحول فخر ابن مطروح بشعره وشاعريته، راح بين القوة والضعف، فقد أجاد في العديد من المواضيع، وكبا في غيرها، فهو شاعر مكثر ولا شك، وله شعر جميل، ولكن هذا لا ينطبق على مجمل شعره، فقد نظم، وأرسل أشعاره، وملك القوافي على حد تعبيره، ولكن هل كل من ملك القافية، يستطيع أن يطلق الشعر بنفس قوة الامسك.

* الوصف :

يُعدُّ هذا الغرض من أبواب الشعر التي لا غنى عنها للشاعر، وأي شاعر يلتفت حوله يتأثر بما يشاهد من مظاهر الطبيعة، وما فيها من جمال وقبح، سواء بالمظاهر الصامتة من جبال وأشجار وسهول ومياه، أو الناطقة كالطير والحيوان والإنسان، وما في هذه المخلوقات من صفات، ويختلف مقدار التأثير من شاعر إلى آخر بمقدار ما أودع الله عز وجل في نفس كلٍ منهم من انفعال ورهافة حس، وشفافية نفس.

وابن مطروح لم يقصد غرض الوصف قصداً لذاته، بل جاء هذا الغرض إما متداخلاً مع الأغراض الأخرى، أو توطئة للوصول إليها، فالوصف عنده جاء في شعر الجهاد عندما وصف البطل بما فيه من قوة وجرأة وإقدام وغيره، أو عندما وصف العدو وما فيه من صفات قبيحة ينفر منها المطالع لهذا الشعر، أو عندما وصف المعركة وما فيها من اشتباك وقتال وجنود وقتلى وجرحى، وخيل وسلاح، إلى آخر ما يتعلق بالجهاد من صور ولوحات(١).

ورأينا ابن مطروح يصور من هجأهم بصور قبيحة، ويصفهم بالصفات التي تتناسب مع هذا الأمر، بما في ذلك وصف قبائح الخصال في الأشخاص والأماكن(٢).
وحين يتغزل يذكر ابن مطروح - مثل غيره من الشعراء - صفات الجمال، ويصف محبوبته بأحب الصفات، ذاكراً وصفاً لوجهها وعينيها وطولها وشعرها ولونها، إضافة لخصالها الطيبة وأخلاقها الرضية(٣).

وكذلك يفعل عندما يصف المدن والأماكن. وفي مدحه جاء الوصف متداخلاً معه أيما تداخل، لذا رأينا ابن مطروح عندما طرقت غرض الوصف يذكر الطبيعة، ويصف ملكاً أو أميراً، أو امرأة، أو جواً هادئاً، إضافة للمياه، والسهول، أو المدن وصفاتها، ووصف النواعير، والورود، والولدان مع ذكره للأتقياء والفساق وأفعالهم، ثم لا بد له من ذكر مجالس الأنس والشراب، حيث شاع ذكر هذا الأمر في عصر ابن مطروح، وأصبح حديث مجالس اللهو من الأغراض التي برع فيها جماعة من شعراء تلك الحقبة(٤).

(١) انظر غرض الجهاد من هذا البحث ص ٨٨.

(٢) انظر غرض الهجاء من هذا البحث.

(٣) انظر غرض الغزل من هذا البحث ص ١٤٤.

(٤) انظر الأدب في العصر الأيوبي ٢٣٩.

وقصائد الوصف المستقلة قليلة جداً في شعر ابن مطروح على اعتبار أن الوصف لم يُقصد لذاته، وأبيات الوصف المستقلة لا تتجاوز العديد من القطع الشعرية، ولا تصل إلى عشر قطع تقريباً، لا تزيد كل منها على عشرة أبيات.

ولعل أهم محاور الوصف لدى ابن مطروح وصفه للمرأة وجهاً وقامةً، وشِعراً وجيداً، ولعلّي هنا أكتفي بذكر أبيات تجمع أغلب صفات الحُسن عنده فيقول :

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| أرقاً ولا جفنٍ تجافاه الضنى | لا خير في جفنٍ إذا لم يكتحل |
| حتى يُرى منها أتمّ وأحسنا | وإنّ البدرُ بدا هوت من أفقها |
| قالت غصون البان ما أبقى لنا | لما انتشى في حُلّةٍ من سندسٍ |
| منه رشاقّة لينها لما انتشى | هذا على أن الغصون تعلمت |
| معنى العقيق وبارقٍ والمنحنى (١) | وبخده وبشعره وعذاره |

إلى غيرها من الصفات التي وردت في مواضع كثيرة من ديوانه كوصفه المحبوبة بالشمس والقمر.

ومن الأشياء التي وصفها ابن مطروح في محبوبته تساقط دمعها فيقول :

تجري مدامعه ويخفق قلبه فترى العقيق على الحقيقة واللوى (٢)

وقوله :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| فجاء العذارى يلتقطن المدامعا | وقفنّ أحلي الارض من در أدمعي |
| بقية ما أودعن مني المسامعا (٣) | يغرن على تلك اللآلي لأنها |

وقوله :

وبكت فلو نظمت لآلي دمعها ظفرت يدي منها بعقد مثن (٤)

فالدمع در يتساقط، وهو في الأصل كلام العذارى الذي اسمعنه له قبل ذلك يتنزل كالؤلؤ، يصلح للنظم عقداً، من عين كالنرجسة ينساب على خد كالورد.

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| فهمت أفديها حقيقة قصدها | بعثت بنرجسة إلي ووردة |
| تشبيه ناظرها إلي وخدها (٥) | لما تعذرت الزيارة ارسلت |

(١) الديوان ج ٢٠٨، ك ٢/٢٢، ل ٢/١٨.

(٢) نفسه ط ١/٥، ش ٦، ل ١/٢٢.

(٣) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠.

(٤) نفسه ج ٢٠٢، ك ٢/١٩، ل ١/١٧.

(٥) نفسه ج ٢٠٣، ك ١/٢٠.

إضافة لوصفه العين بالسكر والسيف الباتر :

خذو حذرکم من طرفها فهو ساحرٌ
وليس بناجٍ من دهنه المحاجر
فإن العيون السود وهي فواترٌ
تقدُّ السيوفَ البيضَ وهي بواتر (١)
وكذلك عندما يصف الفم وما فيه من أسنان، يصفه بالماء العذب الذي وُضع فيه الدر:
جلا ريقه والدر فيه منضدٌ
ومن ذا رأى في العذب دراً منضداً (٢)
ويقول:

فيا طيب ذاك الشهد في ذلك اللمی
ويا حُسن ذاك الدر في ذلك السلك
وبشرني بالملك حين لثمته
وقال أيا هذا فمي خاتم الملك (٣)
وابن مطروح بعد أن تصطاده العيون يظل حبيس المرض، فيصف كيف أضحى حاله
بعد هذا اللحظ ، يقول :

فتذكرُ أنها لمحتُ خيالاً في خلال هبا (٤)

فهو خيال يكاد لا يميزه الناظر ثم يصف نحول جسمه وسقمه في موضع آخر :
نحيل جسمي أمسى طريحاً
على فراش السقام مسقم (٥)
* ولم يقتصر وصف ابن مطروح على وصف محاسن المحبوبة بل وصف الرسالة وما
فيها، فقد وصف الكتاب والورق إذ يقول :

وافي كتابك بعد فترة
فنفى المساءة بالمسرة
وفضضفته فلثمته
لما غدا في الحسن ندرة

ثم يقول :

فحسبت أن الطرس مند
ه زجاجة واللفظ خمرة (٦)

ويقول في موضع آخر :

أفلسْتُ يا سيدي من الورقِ
فابعثُ بدرج كعريضك اليققي

(١) الديوان ج ١٩٧ ، ش ١٠ ، ط ٢/٦ ، ل ١/١٦ .

(٢) نفسه ش ٤ ، ط ١/٤ ، ولم يرد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ل ٢/٥٣ ، ش ٢١ ، ط ١/١١ ، ولم يرد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ج ١٩٥ ، ك ٢/١٥ ، ل ٢/١٧ .

(٥) نفسه ل ٢ / ٦ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٦) نفسه ج ١٨٤ ، ك ١/٩ ، ل ٢/٥٨ .

وإن أتى بالمداد مقترناً فمرحياً بالخدود والحدق (١)
 فالطرس رقيق كالزجاج، واللفظ مسكر، والمداد كالعيون السود فوق الخدود البيض.
 ثم يصف الأقلام، فهو وزير كاتب نشأت بينه وبينها إلفة دائمة فيقول :
 أنتني منك أقلام حسان حكت في الحُسن أطراف الملاح
 فحين ذكرتُ مهديها استطالت . فأزرت بالمتففة الرماح (٢)
 فهو يصفها بالأصابع الجميلة، كأطراف الملاح، التي جاعته من عزيز رفيع القدر رفع
 قدرها فأصبحت مع ذكره كالمتففة الرماح.
 ويقول في موضع آخر واصفاً القلم بسيف لا يظهر فعله إلا بالرسم :
 عجبني من قلم في كفه ليس يمضي السيف إلا إن رسم (٣)
 * ويصف ابن مطروح بركة ماء في ليلة مقمرة، ظهر فيها البدر على سطح الماء،
 يقول:

انظر إلى البركة مملوءة والبدر في احشائها يلعبُ
 كأنها مرآته فاغتندى لما رأى صورته يطرب (٤)
 فيصف البدر في صورته على سطح الماء المترجرج كالطفل الذي يلعب في أحشاء أمه،
 أو كالجدلان من رؤية نفسه في المرآة .
 * ويصف ابن مطروح النوفر بأنامل الغيد الحسان المخضبة :
 كأنما النوفر الغض غباً قطر السحاب
 أنامل الغيد ضُمَّت فيها بقايا [خضاب] (٥)
 * ويصف نرجساً بأنه كالجوهر أو الزمرد فيقول :
 كأنما النرجس الذكي وقد باتت تغذيه بدرها السحبُ
 جواهر في [روسها] ذهب كلها من زمرد قضيب (٦)

(١) الديوان ج ١٩٥ ، ك ١/١٥ ، ل ١/٦٣ .

(٢) نفسه ج ٢٠١ ، ك ٢/١٨ ، ل ١/٦٣ .

(٣) مسالك الأبصار ١١ : ١٥٥ .

(٤) نفسه ١١ : ١٧٠ .

(٥) نفسه ، ١١ : ١٧٠ وقد ورد [بقايا خطاب] وأظن الأصوب خضاب .

(٦) نفسه ١١ : ١٧٠ .

* وقال يصف ناعورة، وكيف تكفلت بري أرض غفل عنها الغمام، ويصف حركتها صعوداً ونزولاً وحملها للماء وتفريغها :

ناعورة بالري أضحت كافلة
لتربة عنها الغوادي غافلة
كانها طالعة وأفلة
وحوش قفر من ضوار جافلة
فارغة طوراً وطوراً حافلة
لها حين كرها القافلة^(١)

فهي كحيوانات القفر، ولها صوت عذب كرها القافلة .

* وقال في وصف يوم مثلج، كأنه وجه أبيض ليست فيه شامة، أو هو كالكريم ذي الأيادي البيضاء :

انظر ترى وجه البسيطة ايضا لم تبد فيه شامة سوداء
كرم السحاب فعم بالثلج الثرى إن الكريم له اليد البيضاء^(٢)
* وقال يصف تفاحاً أهدي إليه :

وتفاحة جاءت لنا هدية
وما ضره والغصن يشبه قده
فياحب ذا المهدي وياحبذا المهدي
وافديه لوجا بتفاحة الخد^(٣)

* وابن مطروح لا يحب الثقلاء فيصف ثقيلاً زاره :

وصاحب عادني يوماً فأقلقتني حتى ظننت رسول الموت وافاني^(٤)
* ويصف مخنثاً يتشبه بالنساء شكلاً وخلقاً :

يأتيك كالقينة مكحولة
ويصف وجهاً جميلاً علاه الغبار فيقول :

على وجه من أهوى غباراً فخلته بقية ليل قد علاه نهار

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٧١ .

(٢) نفسه ١١ : ١٧١ .

(٣) نفسه ١١ : ١٧١ .

(٤) الديوان ج ٢٠٥ ، ك ٢/٢٠ ، ل ٢/٦١ .

(٥) نفسه ج ٢٠٥ ، ك ٢/٢٠ ، ل ٢/٦١ .

حبيبي أزل هذا الغبار الذي أرى فقال جمالي ما عليه غبار (١)
 * كما يصف الليل البهيج وما فيه من لذة واستطالة، فيراه كليلة القدر يستمر خيرها إلى
 مطلع الفجر، فالسعد متواصل فيها، يقول :

ليل الوصال كليلة القدر يا صاح حتى مطلع الفجر (٢)

* وابن مطروح يصف تحول الزمن وأثره على الإنسان من الشباب المحبب المطرب،
 إلى المشيب الذي يُكره وينفر، فيرى الشباب كأنه محدث يحدثه، فيقول :
 تذكّار أيام الشبيبة يطربٌ وحديثها يحلو لديّ ويعذب
 وفي المقابل بعد مرور الزمن :

واليوم قد راع العذارى منظرٌ يكرهه وهو العذار الأسيب (٣)

* ويصف ابن مطروح الساقى في مجلس لهو، بالحسن وأنه كالشمس :

إلينا أيها الساقى إلينا فقد بزغت شمسكم علينا (٤)

ثم يصف الخمرة، بأنها بكرٌ عذراء تجلى، ويصف كأسها، فيقول :

قال فاشرب بكأس راحي صيرفا قلتُ بالله من شرابك زدني

قال راحي ممزوجةٌ برحيقٍ نشأتُ بالزلال في قاع دنّي

وهي بكرٌ عذراء تجلى سحيراً قم وطب واخلع العذار وغني (٥)

* ويصف فراق الأحبة وصفاً مركباً، فالصورة المألوفة أن الدين والفراق اقتربنا
 بالغراب، فيذكرنا معاً، وهنا يرى ابن مطروح أن شؤم الغراب قد انتقل إلى غيره، فقد
 انتقل إلى الجمل الذي يحمل الحبيبة بعيداً :

نعقتُ أغربة البين بهم لا رعى الله غراباً نعفاً

ما غراب البين إلا [جملٌ] سار بالأحباب [نضواً عتقا] (٦)

* وابن مطروح يصف الحرب وأدواتها، فنراه يصف السيف، فهو مبلغ الأمانى موصل
 للمنايا يركبه صاحبه، فيركب معه الصعب، ومن ركب السيف إما أن يظفر وإما أن

(١) الديوان ل ١/٦٢ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ل ١/١٥ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ل ٢/١٠ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٤) نفسه ل ١/٢٦ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ل ٢/٤٧ ، لم يرد في الديوان المطبوع .

(٦) نفسه ل ٢/٥٣ ، وعجز البيت غير واضح .

يهلك والسيف هو هو ، ينام في قرابة ملء جفنيه، أما السهد والسهر والموت فهو لصاحبه:

الأماني والمنايا بين [حدي] ومتني

نتقي الأعداء فتكي ويروق العين حسني

فتأمل هل ترى فيما ترى أعجب مني

لم يذق جفني غراري وقراري ملء جفني(١)

ثم يصور السيف بأنه مسيل للأرواح مُذهب لها من خلال صورة جميلة، إذ يقول من رسالة لصديق :

وما نسينك والأرواح سائلةً على السيوف ونار الحرب تتفد(٢)

وأفتك ما يكون السيف عندما يرهب مرفوعاً فوق الرؤوس، ليس بالمغمد الخامل، يقول:

وقد يرهب الصارم والمنتضى ويطمع في جانب المغمد(٣)

والسيف لا بد له من حبال لتعليقه على كتف وخصر صاحبه، فيذكر ابن مطروح حبيبه ويتمنى لو أنه لازمها بحيث كان شعرها كنجاد سيفه :

يا هل أبيت وهل يبيت كصارمي مني بحيث نؤايتاه نجادي(٤)

وأحلى ما يكون السيف عندما يكون في وسط المعركة يرتوي من دم الأعداء، فهو أحمر من النجيع، ارتوى تماماً منها فيقول :

والبيض حمر من نجيع دم الطلي فكأنما علّت من الفرساد(٥)

والسيوف أيضاً تهدي لجمالها وثمنها وقيمها، فكيف إذا اجتمع فيها الجمال والقيمة وغلو الثمن، يقول :

أتى منك سيف بل خزائن مال فرحت به ذا ثروة وجمال(٦)

* ثم يصف الخيل وأنها صابرة تحتل المشاق كالإبل وهي جرد فيقول :

لأكلفن الجرد ما لم تستطع صبراً عليه يعملات الأينقي

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٧١ ، وكلمة حدي في البيت الأول أظنها حدي ليستقيم الوزن .

(٢) الديوان ج ١٩٦ ، ك ١/١٦ ، ل ١/٦٣ .

(٣) نفسه ج ١٨٩ ، ك ٢/١٢ .

(٤) نفسه ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ ، ط ٦ ، ش ٨ ، مسالك الأبصار ١١ : ١٥٦ .

(٥) نفسه ج ١٨٥ ، ك ٢/١٠ .

(٦) نفسه ج ١٩٢ ، ك ١/١٤ ، ل ١/٥٩ .

وهي سريعة لا يلحقها شيء :

من كل ضامرة إذا سرت الصبا في إثرها عادت بسعي مخفق^(١)
ويصف مشيها وأنواعه ، فهي خيل مدربة تطيع قائدها :

خبياً وتقريباً وأنضاءً فبي شوقاً إلى ذاك الجناب مبرح^(٢)
ويذكر اندفاعها الشديد للحرب وملاقاة الأعداء فهي خيل لا ترهب،
عنانها منطلق :

فاعزم ولا تثني الأعنة إذ تخضب بالعلق^(٣)
ويذكر ابن مطروح صفات الجمال في الخيل فيصفها برحابه الصدر، والعلو والإشراف،
والطول، ويذكر مزية اللون الأسود فيها :

ومشرف الهادي رحيب الصدر [ي]
يمشي على مثل طول السمر
أدهم يزري بالدجي والحبر
[ذكره] قام مقام البدر^(٤)

* ويصف الجيش بأنه مأل السهل وأنه كثير العدد والعدة فيقول :
ورب خميس طبّق السهل والرّبا وزاحمت الجوزاء منه عوامله^(٥)

مما سبق نجد أن ابن مطروح قد قام بوصف ما أحاط به من نساء ومظاهر
حضارية، وأدوات حربية، بألفاظ سهلة رقيقة وصور جميلة، كان في بعضها يحاكي
الشعراء الأوائل، وأتى ببعض الصور التي كانت نتاج ثقافته وبيئته.

(١) الديوان ج ٢٠٠، ك ١/١٨ ط ١/١١، ش ٢١.

(٢) نفسه ج ١٧٣، ك ٢/٣.

(٣) نفسه ج ١٧٨، ك ١/٦، ط ١/١، ش ١٩.

(٤) مسالك الأبصار ١١ : ١٧١، ولم يرد في الديوان المطبوع.

(٥) الديوان ج ١٨٨، ك ٢/١١.

* الهجاء:

الهجاء من الأغراض التي طرقها ابن مطروح، ولكنه لم يكن مكثراً فيه، فابن مطروح عُرف بشخصيته الجادة، وتقلبه في المواقع السياسية العليا، ولم يكن يعرض إلى الهجاء إلا في حالات محددة.

وأبيات الهجاء عنده لا تصل إلى ستين بيتاً كلها في قطع شعرية يصل أكثرها عدداً إلى سبعة أبيات، وقد ورد في ديوان ابن مطروح حوالي ثلاثين بيتاً منها، وعثرتُ على شعر له في هذا الغرض يصل إلى حوالي العشرين بيتاً في مصادر أخرى أهمها ((مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار)) لابن فضل الله العمري.

ولعل اضطراب الأحوال السياسية أدى إلى ظهور أنماط اجتماعية بغیضة كالفقر، ووصول بعض الروبيضة إلى سدة الحكم، والتفاوت الاجتماعي بين طبقات المجتمع، أضف إلى ذلك الظروف التي أحاطت بالشاعر من ظلم رؤسائه له (١)، وتجاهل بعضهم له، تبعه إقصاؤه عن الديوان والوزارة، زد على ذلك سوء خلق من افترض منهم ابن مطروح الوفاء ممن تزامن وجوده بينهم أثناء نكبته، كل ذلك كان من الأسباب التي دفعت الشاعر ليظهر سلاحه في وجه الذين أساءوا إليه، فكان الهجاء أقوى سلاح يستخدمه ابن مطروح ضد من تنكروا له.

ويجدر أن أشير، أن ابن مطروح لم يكن يهجو إذا لم يُعط على مديحه، فلم يمدح ليأخذ، ولم يذم عندما مُنع (٢)، بالرغم من أن عصره قد شهد ألواناً من الفحش في القول والبيداء في الشعر على لسان عددٍ من الشعراء الهجائيين مثل ابن عُنين، وابن الجزار، فإن ابن مطروح لم يكن مثل هؤلاء.

وقد اقتصر ابن مطروح في أهاجيه على الصنوف التالية:

- هجاء الأشخاص - العامة:

فابن مطروح يصدر في هجائه عن نبع واضح، وهو محاولة سلب الصفات الحميدة عن مهجوه، وتحميلة عكسها فهو يراه ممن يقابلون الإحسان بالإساءة وهذا أمر لم يتأثر به هذا الشخص، بل هو من الطباع التي نشأت معه وليس له إلا النيد والبعد، ومن ذلك: إذا قرنت مع الحسنى إليه أسى فذاك من شؤم طبع فيه قد حدثا

(١) انظر كتاب الأئب في العصر الأيوبي، دار المعارف، ص ٢٣٧.

(٢) انظر حول الأدب في العصر السلجوقي، محمد التونجي، ص ١٣٨.

فأرفضه رفض القلي وأهجر مودته هجرأ بحق ولا تستعمل العبثا
فالمصطفى وإليه كل معجزة تُروى وعنه الهدى والصدق قد ورثا
قد قال صلى عليه الله في ملاً ما طاب منى وللشيطان ما خبثا(١)

وهو يراه بهذه الصفات من الخبائث التي يجب أن تبعد وتهجر كما يُبعد الشيطان،
مستدلاً على ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم، وابن مطروح هنا يوظف ثقافته
الإسلامية في الانتصار لنفسه على خصمه من حشد الأحاديث الشريفة والمصطلحات
الشرعية.

ثم يرى ابن مطروح أن مهجوه وصل إلى درجة كبيرة من التعامي عن الحق فهو
يتتبع عورات الناس ولا يرى عورات نفسه ، يقول:

يا عجباً للمرء مع علمه أن ليالي عمره عارية
ينظر في عين أخيه القذا ولا يرى في عينه السارية(٢)

فيرى ابن مطروح أن مهجوه قد جاوز الحد وتعدى العدل وتعامى عن كبائر نفسه
واعوجاج تصرفاته وتفرغ لتتبع عورات الناس، وكان عينه لا ترى ذنوبه التي تصل في
ارتفاعها إلى الجذع والسارية بينما ترى ذنوب غيرها التي لا تصل في حجمها
وارتفاعها مدى العين.

وهو يلج على نفسه الفكرة بشكل آخر عندما يذكر :

أتعبت [حيث] عرضك من زجاج عذرتك إن [وجهك] من حديد
وليس بمنكر [فعل قبيح] أتى من عند شيطانٍ مريد(٣)

وهو يتحدث بنفس القوة عن لا يرى عيب نفسه، فرغم أن مهجوه صاحب عيوب
كبيرة تكاد توصل أموره من كشفها واقتضاح أمرها إلى أن أصبح عرضه لا يصمد
للنقد فهو هش كالزجاج، ومن أصبح عرضه كالزجاج، واستمر في التعرض للآخرين
يكون وجهه صفيقاً صلباً كالحديد لا يتأثر ولا ينفعل، ومن هذه حاله يراه ابن مطروح قد
وصل إلى مرتبة الشيطان الذي لا يهتم لمنكر، فهو مجبول على الفحش والعمل القبيح.

(١) الديوان ج ٢٠٤ ، ك ٢/٢٠ ، ل ١/٦١ ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٦١ .

(٢) نفسه ج ٢١٨ ، ك ١/٢٧ ، ل ١/٦٥ .

(٣) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ ، ولم ترد في الديوان المطبوع . والبيت الأول فيه خلل عروضي وأظن أن
كلمة قد سقطت، وكذلك خطأ في كلمة وجهك إذ وردت (وجهه).

ويرى ابن مطروح أن بعض الصفات في مهجوه كانت سبباً في نبذ الناس له وابتعادهم عنه وعدم انسجامهم معه ومن هذه الصفات، الفسق والانحراف عن الجادة، وثقل ظله ، يقول :

وصاحب عاذني يوماً فاقلقني حتى ظننتُ رسول الموت وافاني
ولو أطال قليلاً لم يطل أجلي وجاعني غاسلي يسعى بأكفاني(١)

فهذا التقييل وصل إلى مرحلة رفض له من شاعر تساوى في نظره مع ملك الموت الذي أتى ليقبض روحه، ففي مرض الشاعر يعود هذا التقييل فكأنه الموت، ويعتبر أن عيادته للشاعر على قصرها كادت أن توصله القبر، ولعل ثقل الظل مستقبِح عند الناس على اختلاف ثقافتهم وأماكنهم. وقد سأل أحد الناس حكيماً أيهما أكثر تعباً للإنسان أن يحمل وزناً ثقيلاً أم يقابل شخصاً ثقيلاً، فقال بل أن يلقى ثقيلاً ظل لأنه حين يحمل وزناً تتعاون روحه وجسده على حمله، أما ثقل الظل فتقله يقع على الروح وحدها. وابن مطروح هنا يمزج الهجاء بسخرية محببة وظرف بحيث ينفر من مهجوه من يسمع هذه الأبيات خشية أن يتعرض لمثل ما تعرض له ابن مطروح من هذا التقييل.

وابن مطروح يرى أن الصفات القبيحة في الذين يهجوهم عديدة لكن أكثرها قبحاً هي أن يصبح الرجل مخنثاً يتخلى عن رجولته ليلتحق بركب النساء، فلا هو رجلٌ يُعرف، ولا هو امرأة تعد مع النساء، بل هو مخنث فيه اسوأ ما في الجنسين من صفات، فهو لا يحترم كريماً ولا يعرف قدر الناس، ولا يلتزم عند خصومته بأخلاق الرجال فيقول:

يا من يغضب [للنام] وظل بالكرماء يعيبث
بالله قل لي هل [يغضب] في الرجال سوى مخنث(٢)

وابن مطروح يتعرض للأذى من شخص لا يعرف قدره، يحرص على اللئام ويعيبث بكرام الناس، وهو عنده يساوي في فساد خلقه من تحول من رجولته إلى مخنث، هذه عنده الصفة المذمومة القبيحة، فمهجوه لئيم ينصر اللئام ويكره مكارم الأخلاق ويعيبث بالكرماء، ومن هذه أخلاقه لا يعقل أن يكون كامل الرجولة، بل هو مخنثٌ خبيث الأخلاق.

(١) الديوان ج ٢٠٥، ك ٢/٢٠، ل ٢/٦١ .

(٢) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ ، ولم ترد في الديوان المطبوع، وكذا وردت الأبيات غير موزونة وفيها طمس.

- هجاء المجتمع (الهجاء الاجتماعي) :

ورد هذا النوع من الهجاء في شعر ابن مطروح وقد خصص لهجاء مجموعات من الناس، أو لهجاء أماكن ومدن، إما بسبب موقف تأذى منه الشاعر أو بسبب ظرف سيئ وقع فيه. ومن ذلك ما قاله ابن مطروح يهجو بلدة دارا بسبب قاضيها الذي أساء إلى الشاعر هو وابنه، داعياً الله أن ينمعه خيره عن هذه البلدة التي لا يراها الشاعر مستحقة للرحمة فنراه يقول :

لا سقيت دارا ولا أهلها ولا ابن قاضيها الوقاح البذي
ولا رعى الله له ذمة أعني شهاب الدين ذاك الذي (١)

فابن مطروح يدعو على دارا وعلى أهلها، هذه البلدة التي لا يوجد فيها من يضع حداً لمن يعتدي على الناس، فلا رحمة بينهم ولا ذمة لهم . وشهاب الدين: هو أحد أقرباء القاضي الذي يفترض فيه العدل، فيقع الظلم من جهته، ولا يتحرك القاضي ولا أهل البلدة لنصرة ابن مطروح من هذا « الوقاح البذي» فلا سقاه الله ولا رعاه ولا رعى دارا وأهلها بسببه فهو ابن هذه البيئة السيئة التي تؤذي الناس.

ثم يذكر ابن مطروح في موضع آخر ليلة يأتي فيها ببلدة اسمها سمنود (٢) ، ويصف ما وقع له فيها من كثرة حشراتا وهوامها التي أذت جسده بحيث كانت هذه الليلة مرافقة للشقاء :

وليلة بسمنود شقيت بها لا بارك الله يوماً في سمنود
باتت براغيثها تغدو على جسدي فلم تدع فيه عرقاً غير مفسود (٣)

ويدعو عليها ألا يبارك فيها ولو حتى بيوم واحد، وهو يصف مقدار الأذى الذي وقع له فيها وأن جميع عروق جسده، كانت موضع هجوم هذه الحشرات بحيث أصبح كالمفصود الذي فتح الطبيب شرايينه ليخرج الدم منها.

وابن مطروح في موقع آخر يذكر ما وقع له في دمشق وما أصابه من أهلها ويبدو أن هذا الأمر كان في سنواته الأخيرة عند نكبته، إذ يشير الخبر إلى أنه قد «أمر» بالسفر من دمشق فيقول :

(١) الديوان ج ٢٠، ك ١/٢١، ل ٢/٦٣، وانظر مسالك الأبصار ١٦٠:١١.

(٢) سمنود: بلدة من نواحي مصر جهة دمياط على ضفة النيل بينها وبين المحلة ميلان ، انظر معجم البلدان ج ٣/٢٥٤ مادة (سمنود).

(٣) مسالك الأبصار ١٦١/١١ وهذه الأبيات لم ترد في الديوان .

يقولون سافر من دمشق ولا تُقم وذلك أمر ما عليّ به باس
فقلتُ على عيني وسمعا وطاعة فما جَلَقَ الدنيا ولا أنتم الناس (١)

وهنا تظهر إشارات السخط في شعره على دمشق وأهلها فهو لا يعتبرها الدنيا التي يحيا بها، ولا يعتبر أهلها من الناس الذين يحفظون وداً وعهداً. وبعد ذلك نرى ابن مطروح يتكلم بوضوح أكثر عن أهل دمشق الذين آذوه، فيراهم كاليهود بعباداتهم وفعالهم، بل يراهم في موضع احتقار بسبب تعصبهم السابق ليزيد بن معاوية ضد آل البيت فيعيب عليهم ذلك، ويرى أن هذه الخصال القبيحة منحدره اليهم عبر أجدادهم الذين غدروا من هو أكرم منه فيقول :

تخذتم السبت يوم عيد وهذه سنة اليهود
وكان يكفيكم ضلالاً شربكم الماء من يزيد (٢)

وأهل دمشق كانوا يحتفلون بيوم السبت كاليهود، وهو يرى هذا الأمر عيباً، واليهود عنده شر الناس، ويرى أن أهل دمشق "ضلالاً" حموا يزيد وقاسموه طعامهم وشرابهم ضد من هو خير منه، وهذه هي عاداتهم التي هي مثل عادات اليهود يوالون الفاسد ويتركون النقي، يتبعون الضال ويتركون النقي، هذه الصفات التي رآها ابن مطروح منهم جلاًها بشكل أكثر وضوحاً في موضع آخر من شعره، على الرغم من أن هذا الشعر تظهر فيه النزعة الشيعية إلا أن البحث في الأمر سيأتي في موطن آخر.

وهو يرى أن أهل دمشق يختلفون عن بلادهم، فهو يرى دمشق شامة من شامات الأرض، تستحق الوجد والشوق، وهي جنة، وهو هنا يخالف رأيه السابق فيها إذ لم يعتبرها الدنيا، ومع أنه قد اعتبرها هنا جنة إلا أنها قد حُفّت بالمكاره إذ يقول :

إن وادي دمشق في الشام شامة سَعَدَ من خال فيه برق وشامه (٣)
حتى يقول :

جنةٌ وهي بالمكاره حُفّت من امور تقوم منها القيامة (٤)

(١) ذيل مرآة الزمان ٢١١:١-٢١٢ وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) الديوان ج ٢٠٥، ك ٢/٢٠، ل ٢/٦٣، مسالك الأبصار ١١:١٦٠.

(٣) نفسه ل ١/٧، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ل ١/٧ ولم ترد في الديوان المطبوع..

وابن مطروح يراها صعبة الانقياد لا تصفو- لشخص إلا بعد أن تقوم قيامته، ثم يراها معاندة للفضلاء، مساعدة للدون، تغرب الشريف وتحتضن الجاهل إلى غير هذه الصفات التي تقدم بياناً صريحاً لمن يريد الرحيل عنها.

| | |
|---|-----------------------------|
| ومن الفقر بيعته العمامة ^(١) | كم فضيل من أهلها عانته |
| (فتمنى) قبل السؤال حمامه ^(٢) | وإلى الدون فاقةً أوجته |
| وابل القطرات يحكي انسجامه | غربته وشرقته بدمع |
| قابله بعزها والكرامة | وأخو الجهل إن تغرب فيها |
| مذهباً والعبيد تمشي أمامه | أركبته من فوق بغل بسرج |
| كل مولى لن يرتضيه غلامه | وأقامت في بابه من بنيها |
| روسته وعلته الضخامة | بعدما كان سفلة في البرايا |
| ورم المشي والحفا أقدامه | طالما قام للحراث إلى أن |
| لذوي الفقر خسة وليامة | ثم لما ذاق صار ييدي |
| كيف [يرضى] بها اللبيب مقامه | والتي هذه [الخصائل] فيها |
| نحو نجد ونحو أرض اليمامة ^(٣) | سوف أبدأ الرحيل عنها قريباً |

فهذا هو حال ابن مطروح مع دمشق، مذلة للشرفاء، حاضنة للدون والسفلة وبلدٌ هذا حاله ليس بلد إقامة واستقرار، ولا بُد من الإسراع بمغادرتها، خاصة وهي تُقدم للرياسة الموالي وتترك الصرحاء، وهؤلاء الموالي لا يصلح الواحد منهم لأدنى الأعمال، بل لا يصلح حتى لأعمال الدواب، فقط يصلح «للحراث» الذي جعل أقدامه تتورم من المشي بلا حذاء، ولا يكتفي ابن مطروح بهذا بل يسلب منهم الصفات الحسنة في الدواب، فبعض الدواب يفي لأصحابه لكن مثل هذا لما وصل الرياسة فيها أبدى الخسة واللؤم لأصحابه الفقراء، وبلدٌ هذه أخلاق ساكنيه [وخصائلهم] ليست بلد إقامة.

- الهجاء السياسي، ويشمل :

هجاء دولة: وهي أبيات عرض فيها ابن مطروح لحكم حاكم، وأن فترة حكمه فترة إذلال لأهل العلم والادب لأن من يرأسها يخلو من هذه الصفات، وهو بذلك كأنه يصف، في حين يُفرغ ما في نفسه على هذا الحاكم ودولته فيقول:

(١) الديوان ل ١/٧ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) وردت كلمة فتمنى في المخطوط (فتمنا) .

(٣) وردت كلمة يرضى في المخطوط (يرضا) .

ودولة خالية
من كل فن وأدب
الفاعل رأسها
وهو كما تدري ننب(١)

فهو يراه ننباً لا يستحق أن يكون رئيساً، فلا يقبل ابن مطروح له أن يكون حتى حيواناً بل ذيل حيوان .

هجاء الأعيان: وهو في هذا المقام يهجو القضاة والفقهاء، وكما سبق ذكر هجاء ابن مطروح لابن قاضي دارا، نراه أيضاً يهجو شيخاً بطريقة ساخرة مضحكة فيقول :

دخل الشيخ فلان في الدين بمرة

وتعاطى الزهد جداً فكفانا الله شره(٢)

تدل هيئة الشيخ الخارجية على أنه من أهل الدين، ولكن حقيقته ليست كذلك، فلم يقترب من الدين إلا مرة واحدة، وهذا الأمر فقط يكفي لإهانة هذا الشيخ، فكيف إذا أراد أن يستغرق في الأمر أكثر وأراد أن يكون زاهداً، فإنه في زهده (بتعاطاه) كمن يتعامل مع شيء مردول، ثم يختم كلامه بالدعاء بكف الشر منه.

وابن مطروح هنا يسلب صاحبه صفة الدين المفترضة في (الشيخ)، ويراه غير جاد في دعواه، ويرفق هذا الأمر بسخرية لاذعة.
ونراه يقول في آخر:

ما اعتكاف الفقيه من فرط زهد [علم] يقضي به رمضان

هو شهر تغل فيه الشياطين ولا شك أنه شيطان(٣)

ويؤكد ابن مطروح على المعاني السابقة، ويزيد عليها تشبيه هذا الشيخ بشيطان يُغل في شهر الصوم، شهر رمضان كما تغل الشياطين، وهذا الاعتكاف ليس حقيقياً وهذا الزهد ليس صادقاً، فهذا الفقيه كاذب في دعواه بالاعتكاف والزهد، وهو شيطان حُبس في رمضان كغيره من الشياطين.

هجاء مذهبي: وهو هجاء نلمح فيه انتصار ابن مطروح لآل البيت وقد سبق ذكر هجائه لأهل دمشق عندما قال عنهم :

وكان يكفيكم ضللاً
شريك الماء من يزيد(٤)

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ١١ : ١٦٠ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ١١ : ١٦٠ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٤) الديوان ج ٢٠٥/ك ٢/٢٠، ل ٢/٦٣، مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ .

فهو يراهم من المؤيدين ليزيد الذي آذى آل البيت. ونراه في موضع آخر وبمناسبة عاشوراء والتي تمثل ايداء لآل البيت وقتلاً ومذبحة لهم، ويفترض الحزن بيوم ذكراها، يرى ابن مطروح بعض الناس يُبدي السرور والفرح ويتزين ويكتحل سروراً، فيصب عليه ابن مطروح جام غضبه إذ يراه ملحداً قليل الدين، كالدابة، ثم يتوعده بعذاب الله في الآخرة :

| | |
|--------------------------|--------------------------------------|
| يا يوم عاشوراء قد هجت لي | حزناً [و] كم أفرحت من ملحد |
| كل قليل الدين إن قنته | بمحكم الأرسان لم ينقد |
| يأتيك كالقينة مكحولة | عيناه مخضوب بنان اليد |
| يسخر بالسمر وما فعله | من فعلهم عندي بمستبعد |
| يابن رسول الله من ستره | يومك فالويسل له من غد ^(١) |

ومن خلال الأبيات السابقة يقوم ابن مطروح بهجاء هذا النفر هجاءً مقدماً حتى إنه يصفهم بمن يفعلون فعل النساء، وليس هذا بمستبعد عنهم بعد أن برزت أخلاقهم كمن يشمت بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويسر بالأذى لآل بيته، ولكنه لا يذكر أي لفظة قبيحة سوى إشارات ذكية عندما وصفهم بالدواب عبر إشارته «بمحكم الأرسان»، وبالعهر عبر إشارته «كالقينة - بالسمر» إضافة لكلمات ملحد وقليل الدين.

هجاء اليهود : وابن مطروح في هجائه لليهود لا يخرج عن سبقه في هجائهم، فاليهود أهل الفتنة دائماً، يفسدون في الأرض، فهو يراهم كالأفاعي السامة المؤذية، التي تسبح في الظلام للأذى، لا يستطيعون المواجهة، يكثر من النباح كالكلاب ولا يلاقون السباع، وابن مطروح لا يذكرهم على سبيل التعمية بل يذكر هذا للدأودي رئيس اليهود فيقول :

| | |
|----------------------|-----------------------------------|
| أبساء البيان ومادعاك | إلى التحكك بالأفاعي |
| سر في الوهاد وخل | قوماً سيرهم فوق اليفاع |
| لا يحفلون بنباح | مسا للكلاب وللسباع |
| قسماً [لئن] احوجتني | فلأبسطن يدي وباعني ^(٢) |

(١) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ والأبيات لم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ١١ : ١٦٠ والأبيات لم ترد في الديوان المطبوع.

فاليهود في نظره مهرة في الكلام، لديهم بيان مقنع ناعم لكنهم كالأفاعى، ولا يملون منه ولا يفترون، فهم كالكلاب المستمرة بنباحها، وإن بيانهم هذا ينطلي على البسطاء وصغار العقول فيقول له دعك منه وإلا فأنا من سيتصدى لك (لئن احوجتني فلأبسطن يدي وباعي)).

وعندها اصمد للسباع أيها الكلب فلن ينفعك هذا النباح المستمر. مما سبق ذكره نجد أن شعر ابن مطروح يمثل تأثراً شخصياً بمواقف متفرقة أكثر مما يعكس شخصية هاجية، فهو رجل سياسة جاد لم يطرق الهجاء إلا اضطراراً، من أذى أصابه من شخص، أو موقف من أناس، أو من مكان باستثناء بعض المواقف التي غضب فيها لله فهجا أصحابها مثل هجائه اليهود وهجائه الفرحين بيوم عاشوراء. وهو في هجائه كان يركز على العيوب الأخلاقية والسلوكية عند المهجو، ولم يذكر عيباً جسدياً ولا ذماً لخلقته مع إضافة صورة مضحكة ساخرة، حاكي فيه ابن الرومي الذي كان ساخراً بالدرجة الأولى من كل شيء خصوصاً الثقلاء^(١). تقوم على التصوير الوصفي، ولم يبرز الفحش في هجائه ولا الألفاظ البذيئة باستثناء الفاظ بعدد أصابع اليد الواحدة، مع تخرجه من ذكر العورات وما يخدش الحياء.

(١) عبد الحميد محمد جيدة/ الهجاء عن ابن الرومي/ منشورات المكتب العالمي، بيروت للطباعة والنشر ص ١٢١، وانظر ديوان ابن الرومي / تحقيق د:حسين نصار/ مطبعة دار الكتب/ ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م : ٦٠.

الإخوانيات :

يبرز هذا الغرض في شعر ابن مطروح بشكل واضح، يلحظه أي مطالع لشعره، وهو وثيق الصلة بشعر المدح من حيث ذكر صفات الخير في المخاطب، إلا أنه أكثر صدقاً في المشاعر، ذلك أنه يتعامل مع أصدقاء نمت بينهم أواصر المحبة، وتمتنت بشكل واضح من المبسطة والألفة دون تحرج أو تكلف، مما أفرد هذا الغرض عن المدح وشعر الإخوانيات يُبرز العلاقات القائمة في حقبته بين الناس، من الصفوف الأخرى غير الصف الأول من الملوك والوزراء والشعراء يتوازي عملهم والمراسلات الوثائقية عند نظرائهم عبر هذا الغرض، فإذا كانت الوثائق السياسية توضح أحداث تلك الحقبة، وتطور النقود والمسكوكات يدل على تطور الحالة الاقتصادية، فإن الشعر يساهم مساهمة كبيرة في إيضاح مدى تطور الحالة الأدبية، ومعالم تلك البيئة الثقافية إضافة إلى غيرها من الأحداث.

وشعر الإخوانيات يراوح بين المدح والغزل، من حيث ذكر محاسن المخاطب، إذ نجد فيها ذكر كرم الشخص المعني وودّه، وبلاغته وحكمته وعقله، ثم يذكر الغربية عن الرفاق والشوق إليهم ووقوف الوشاة بينهم، وفي كل المراحل كان التركيز على الأخوة القائمة، مع ذكر التهادي المتبادل بينه وبينهم، وابن مطروح يقول في أبيات أرسلها إلى صديق مع هدية هي كرة الأرض، واسطرلاب، وسكين، فقال :

كرة الأرض مع محيط السماء لك أهديت يا كريم الإخاء^(١)

وبيت الشعر السابق يدل على مستوى ثقافي وحضاري معين عاش فيه ابن مطروح وصحبه، يشي بثقافة وعلم متخصص، وإلا فماذا يستفيد هذا الصاحب من كرة الأرض، ومن الإسطرلاب إن لم يكن له دراية وعلم بها، وقدرة على الاستخدام، يضاف إلى ذلك أن هذا البيت يدل على أن بعض القضايا التي كانت محل لغط وعدم وضوح في أوروبا، حُسمت قديماً في الثقافة والفكر العربي مثل موضوع كروية الأرض، فهذا الشعر قيل في القرن السابع باعتباره من البدهيات العلمية، وبالتالي إثباته تم قبل هذا الزمن بكثير.

(وابن مطروح كما يبدو في قوله يرى هذه الصداقة ترتفع لتصل إلى درجة القرابة والنسب والأخوة الحقيقية)

(١) الديوان ج ١٩٤، ك ١/١٥، ل ٢/٥٩.

يقول :

فبالود الذي أمسى وأضحى بيننا نسبا
إذا أنا مت فاندبني فرب اخ اخأ ندبا(١)

ويرى ابن مطروح صديقه قد وصل إلى درجة لا مزيد عليها إذ يقول :

لا استزيذك ودأ يا أكرم الناس عندي(٢)

ويشعر ابن مطروح أن ود صديقه له لا يحتاج إلى إثبات، وهذا الود لا تلون فيه

ولا تصنع، لا يختلف بمرور الزمن ولا ينصل :

وكل خضاب سوف ينصل صبغة وما لخضاب الود فيك نصول(٣)

فالود يقوم على المحبة الحقيقية ، وليس على التصنع الذي يختلف إذا عدت عليه

عوادي الأيام، وهذا الصديق واحد من مجموعة مميزة، عالية القدر، هم الذين اختارهم

ابن مطروح ليكونوا صحبته وخلاته :

وأخلاء كرام لا ترى فيهم خسيس(٤)

ويؤكد هذا المعنى ثانية بقوله :

وباكرني اخلاء كرام يُشار إلى علاهم بالبنان(٥)

فهم النخبة يودهم ويودونه، ويبدأونه الزيارة، فهم الذين باكروه وأتوه، وهؤلاء القوم

ليسوا كراماً بأخلاقهم فحسب بل كرام ببذلهم وسخائهم إلى درجة لا يستطيع معها

الشاعر التعبير عن شكره تجاه من أحسن إليه ، يقول :

ولو أن قساً في عكاظ أعارني بلاغته وابن المقفع يعـدّه

تجاوزت في الإعياء رتبة باقل إذا رُمئت أن أحصى نداءه ورفده(٦)

فهو ذو ندى لا يحصى، وكرم لا يُحد، وأكثر ما كان البر والخير من صديقه

الصدوق ورفيقه عمره، البهاء زهير، إذ لا يفتأ في كل مناسبة يوده ويهاديه، وكذلك ابن

(١) الديوان ج ١٩٥، ك ٢/١٥، ل ٢/١٧.

(٢) نفسه ج ١٩٣، ك ٢/١٤، ل ١/٦٣.

(٣) نفسه ج ١٩١، ك ٢/١٣، ل ٢/٦٢.

(٤) نفسه ط ١/٨، ش ١٣، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ج ٢٠٧، ك ٢/٢١، ل ١/١٩.

(٦) نفسه ج ١٩١، ك ٢/١٣، ل ٢/٦٢.

مطروح، ويرسل البهاء هديةً إلى ابن مطروح، فيجيبه ابن مطروح شاكرًا في بيتي
شعر:

أقول وقد توالى منك برٌّ وأهلاً لا برحتَ لكلِ خيرٍ
الا لا تذكرُوا هرمًا بخيرٍ فما هرمٌ بأكرمٍ من زهيرٍ^(١)

فالبر متواصل من البهاء مثل تواصل عطاء هرم لزهير بن أبي سلمى، في القصة
المعروفة عندما قال للناس أنه لن يألُ يمنح زهيراً كلمالقى عليه السلام، فابن مطروح
يجد البهاء زهير أكرم من هرم بمرات لدرجة لا يقبل أن يُذكر هرمً مقارناً به، وابن
مطروح يرسل لصديق له ذاكراً عطاه له وأنه من الأجواد فيقول:

أصبحت تعطي والأراذل تمنعُ أوسعنتا جوداً ولوماً أوسعوا^(٢)

وماذا يتهادى الشعراء والأدباء غير أدوات الأدب ومستلزماته فيرسل ابن مطروح
إلى صديق له يشكره على أقلام أهداها إليه:

أنتني منك أقلام حسانٌ حكت في الحسنِ أطرافَ الملاح
فحين ذكرتُ مهديها استطالت فأزرتُ بالمتقفة الرماح
وقد وثقتُ بناني أنْ مهما كتبتُ بها وصلتُ إلى النجاح^(٣)

ويبدو هذا الأمر من العادات المألوفة بين هذه المجموعة من الأصدقاء، فإن لم يرسل
أحدهم للآخر هدية طلب الآخر هديته، فابن مطروح يطلب من صديقه البهاء زهير
هديته من الورق والحبر يقول:

أفلسـت يا سيدي من الورقِ فأبعث بدرج كعروضك اليققي
وإن أتى بالمداد مقترناً فمرحياً بالخدود والحدق^(٤)

وهدية الأمراء أهل الجيش تختلف عن هدية الأدباء، ومن المجموعة المحببة لابن
مطروح الأمير فخر الدين، الذي ارتبط معه بصداقة مميزة، فماذا عساه يرسل هذا القائد
العسكري هدية إلى ابن مطروح، إنه سيف مجوهر لا يقدر بثمن يقول:

(١) الديوان ج ١٩٤، ك ١/١٥، ل ١/٦٣، انظر تفصيل قصة هرم بن سنان/ شرح ديوان زهير بن أبي
سلمى / الإمام أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني / نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب / ١٣٦٣ هـ -
١٩٧٣م/الدار القومية للنشر ص ٥٣.

(٢) نفسه ج ٢٠١، ك ٢/١٨.

(٣) نفسه ج ٢٠١، ك ٢/١٨، ل ٢/٦٠.

(٤) نفسه ج ١٩٥، ك ٢/١٥، ل ١/٦٣.

أتى منك سيفاً بل خزانة مال
فرحنتُ به ذا ثروةٍ وجمالٍ
واصبحتُ الأيام ترهب جانبي
وتهرب من بطشي به وقتالي (١)

ويتولى ابن مطروح الوزارة، ويصبح ناظراً لديوان المواريث، فيرسل إليه صديقه
الشيخ مهذب الدين بن الخيمي ستة أبيات بهذه المناسبة، يقول :

لمهيار مصر أسجلَ الفضلُ عندنا
وأبطلت الدعوى لمهيار فارسٍ
فبينهما في النظم والنثر إن همبا
سبرتَهما ما بين ماشٍ وفارسٍ
فتىً نظر السلطان فيه مخايل الدراية
والديوان نظرة فارسٍ
فولاه أموال المواريث حامياً
به سيرتها من كلٍ أجراً فارسٍ
كان ابن مطروح أقام ابن أحمدٍ
وأحياه من بعد البلى وابن فارسٍ
وكل أميرٍ في البلاغة عنده
غلامٌ فلا تبعث سواه بفارس (٢)

ويردُ ابن مطروح على ابن الخيمي بسبعة أبيات على نفس الوزن والقافية يقول منها :

أباعثها ملء المسامع حكماً
قوافي تجلى كالعداري العرائس
شوارد عن أوهام قوم شواردٍ
أوانس تزرى بالحسان الأوانس
مهذبة جاءت لنا من مهذبٍ
تذل [له] كل القوافي الشوامس (٣)

وهذه المجموعة من الأدباء والشعراء كانت في بؤرة الصراع مع الفرنجة، فهل يعقل أن تظل مجتمعة متواصلة؟ بالطبع لا، إذ لا بد لكل واحد منهم أن يحمل عبأ مسؤوليته، ويغادر البلاد مرتحلاً، مبتعداً عن أصدقائه وأحبائه ومن يأنس بهم، وتبدأ المراسلات بينهم تحمل الشوق والحنين، فقد رحل البهاء زهير ورحلت معه مسرات ابن مطروح، وتتوقف عجلة البهجة في حياته إلى أن يعود صديقه الصدوق وخله الوفي، يقول :

رحلتُم وطلّقتُ المسراتِ بعدكم
ثلاثاً وراجعتُ الهمومَ على رغمي
وقد كان همّي وحدةً فيه مقنّع
فجاء الذي أربى وزاد علي همّي
ويا دهرُ كم ذا الحرب حسبك فانتد
وسالم فقد قيل السلامُ من السلم
رضيتُ بظلمي فيك لو كنت مؤثراً
أخلاي بالإنصاف منك وبالحم

(١) الديوان ج ١٩٢، ك ١/١٤.

(٢) نفسه ج ١٩٦، ك ١/١٦، ل ١/٦٠.

(٣) نفسه ج ١٩٧، ك ٢/١٦، ل ١/٦٠.

سلاماً على اللذات بعد فراقكم إلى أن تعودوا بالسلامة والغنم^(١)
 ولعل هذه الأبيات توضح بشكل جلي عمق العلاقة القائمة بين الاثنين إلى درجة يرى
 ابن مطروح فيها ان الكون قد أظلم بابتعاد صديقه وسفره عنه، وأن الزمن الرضي ثبت
 في لحظة وداعه ولن يعود إلى سابق عهده إلا إذا عاد البهاء زهير سالماً غانماً.
 ويسافر شمس الدين ابن خلكان صديق ابن مطروح، فيكتب إليه ابن مطروح ذكراً شوقه
 ووحشته بعد فراق صديقه ، يقول :

يا من استوحش طرفي له لم يخلُ قلبي منه في أنس
 والقلبُ والطرفُ على ما هما عليه ماوى البدرِ والشمس^(٢)
 ومع ابتعاد الأحبة وازدياد الشوق ، لا بد لابن مطروح من تفقد حال أصحابه ، فيرسل
 مستفسراً عن انقطاع الأخبار ، يقول :

ما انقطعت عني أخباركم إلا بشغلٍ شاغلٍ عني
 فالله لا يوحشني منكم والله لا يوحشكم مني^(٣)
 ويسأل عنه القادمين من الشام إلى مصر ، فلقد برّح به الشوق، كشوق المحب إلى
 محبوبه ، يقول :

أسائل عنك القادمين فكلهم يبشرنني من بشر وجهك بالقرب
 وقالوا تراه في السويداء نازلاً فقلت صدقتم في السويداء من قلبي^(٤)
 وتتقطع الأخبار فلا خبر ولا كتاب حتى يبدأ الشاعر بالظن في سبب الانقطاع تراه أمر
 عادي أم جفاء وهجران ، يقول :

يا ليت شعري لماذا قطعت عني كتبك
 أهل تجدد شيء عليّ أوجب عتبك
 إنني أعيدُ من الهجر والقطيعة قلبك^(٥)

(١) الديوان ج ١٩٤ ، ك ١/١٥ ، ل ٢/٥٩ .

(٢) نفسه ج ١٩١ ، ك ١/١٤ ، ل ٢/٦٢ .

(٣) نفسه ج ١٩٦ ، ك ٢/١٦ .

(٤) نفسه ج ١٩٦ ، ك ٢/١٦ .

(٥) نفسه ج ١٩٣ ، ك ٢/١٤ .

ويصل الكتاب الذي انتظره ابن مطروح طويلاً، فيجد فيه ابن مطروح ما ينوب عن قدوم صديقه، اذ كل ما أتى من الأحبة حبيب، فيقوم بلثمه كما لو أنه الصديق ذاته، يقول:

وافي كتابك بعد فترة فنفى المساءة بالمسرة
وفضضته فلثمته لما غدا في الحسن نُدرة^(١)

ولأهمية الكتاب نجده يحتل مكانة مرموقة بين الأصدقاء، إذ يصفونه بأحسن الصفات ويتغزلون به كما لو أنه فتاة جميلة، كيف لا وهو رسول الأحبة، يقول:

فطربتُ حين قرأتُه وسكرتُ لكن ألفَ سكرة^(٢)

وهذا البيت يزداد فيه تشخيص ابن مطروح للكتاب فكأنه صاحبه، يقف معه ويحدثه، فالطرب لا يكون إلا بالسماع، وهنا حصل الطرب بالقراءة، وناب الكتاب عن جلسة الأصدقاء، ومجلس الطرب الذي كان يجمعهم، فالكتاب أيضاً أسكره، ويتداخل الواقع مع الشعور الداخلي الغامر لدى ابن مطروح، فما أن يرى الكتاب ويقرأه حتى تتفجر في نفسه الذكريات، ويرى وجوه أصحابه حوله، فالمنشد يطربهم، ومجلس الطرب الذي كان يضمهم اجتمع من جديد، بل وسكر ابن مطروح من هذا الكتاب، حتى إن الورق المكتوب عليه قد غدا زجاجة والألفاظ خمرة. والكتاب كالروضة الجميلة التي تبتهج بها العيون، يقول:

أرسلتَ طرساً يحاكي روضةً أنفاً فاللحظ يروى متى ما شاء من ديمك^(٣)

بل وابن مطروح يشم في الكتاب رائحة الأحبة، فهو كحال يعقوب عليه السلام مفجوع بفقد أحبته ينتظر منهم قدوماً أو رسولاً، ليجد فيه رائحتهم، يقول:

شممتُ من طيبه نشرأ ذكرتُ به طيبَ الثناء على المعهود من كرمك^(٤)

والكتاب حمل درر الكلام بلفظ بديع، وخط حسن ملأ سمع وبصر ابن مطروح، فهو كالحسناء الجميلة التي يسهر معها محبتها، يقول:

أرسلتها دُرراً حَلَّتْ مسامعنا يا بحرُ حسبك ما أهديتَ من دررٍ

لفطاً وخطاً وكلّ منهما حسنٌ من محسنٍ فهي ملءُ السمعِ والبصرِ

(١) الديوان ج ١٨٤، ك ١/٩، ل ٢/٥٨.

(٢) نفسه ج ١٨٤، ك ١/٩، ل ٢/٥٨.

(٣) نفسه ج ١٩٢، ك ١/١٤، ل ١/٥٩.

(٤) نفسه ج ١٩٢، ك ١/١٤، ل ١/٥٩.

فلم أزل أجتلي ليلي محاسنها واجتتيها فقل في الزهر والزهر^(١)

وصوره الصديق تتضح أكثر عند الحاجة إليه وابن مطروح أثناء وجوده في خدمة الصالح يتعرض للحصار في آمد، فيذكر صديقه البهاء زهير، فيرسل إليه يقول :
ولقد ذكرك والصوارم لمع من حولنا والسّمهرية شرع
وعلى مكافحة العذول ففي الحشا ناراً إليك تفيض منها الأضلع^(٢)
وهذه الصورة مكررة منقولة عن عنتر بن شداد عندما قال « ولقد ذكرك والرماح نواهل ... » ولكنها تدلنا على ارتباط مميز بين الأصدقاء. ويرسل أيضاً في مناسبة شبيهة يقول :

أصدرتها والعوالي في الطلى ترد في موقف فيه ينسى الوالد الولد
وما نسيك والأرواح سائلة على السيوف ونار الحرب تتقد^(٣)
ويصاب ابن مطروح بمرض فيرسل البهاء مستفسراً عن حاله، فيتأثر ابن مطروح بهذا الشعور وصدق التعاطف فيقول :

أيا من راح عن حالتي يسائل مشفقاً حديداً
ومن أضحى أخاً لي في الودا دوفي الحنو أباً
وحقك لو نظرت إلي كنت تشاهد العجبا
جفوناً تشتكي غرقاً وقلباً يشتكي لها
وجسماً جالت الأسقام فيه فراح منتهياً^(٤)
ويعتب أحد أصدقاء ابن مطروح عليه لكثرة انشغاله عنه، وعدم لقائه، فيصل العتب له، ويعتذر عن ذلك بقوله :

اعتذاري بكثرة الشغل لا أر ضاه عذراً وأنت أكثر شغلي
ولعمري لئن عتبت بحق كيف ينسى حقوق مثلك مثلي^(٥)

(١) الديوان ج ١٩٦ ، ك ١/١٦ ، ل ١/٦٠ .

(٢) نفسه ج ١٩٥ ، ك ٢/١٥ ، ل ١/٦٠ .

(٣) نفسه ج ١٩٦ ، ل ١/٦٣ وانظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٢٠٦ .

(٤) نفسه ج ١٩٥ ، ك ٢/١٥ ، ل ١/٦٠ .

(٥) نفسه ج ٢٠٠ ، ك ٢/١٨ .

فالعتاب صفاء النفوس يقبله ابن مطروح، والاعتذار بالانشغال غير مقبول بين الأصدقاء الخُص.

وصروف الدهر لا تترك الأخلاء والرفاق فمنهم من يتوفى، ومنهم من يسافر ولا يعود، ومنهم من يتغير عليه حال الزمان فيسعه أصحابه ويساعده، ولكن ابن مطروح يُنكب من الملك الصالح مع أقرب الناس إليه البهاء زهير، والصالح لم يكن يغفر زلة ولا يقبل عثرة، فلم يستطع أحد الوقوف إلى جانبهما، فسأت أحوالهما، وطفا بهما كيل الشقاء والبؤس فنرى ابن مطروح يبكي ذلك الزمان ويتحسر عليه، يقول:

سقياً لأيامي التي بحميد عيشي ولت^(١)

وتتفض القلة الباقية بعد سنوات طويلة من الألفة، وهو يرى حالته في سوء مستمر، فيقول :

وفيم المقام ولا حالة تسرُّ سوى أعين الحُسد^(٢)

ويلتفت حوله فلا يشاهد أحداً من الملازمين له، ولا المؤانسين، بحيث أجتنبه الجمع الباقي، يقول :

وجانيني كل من كان لي
وصارت مشاهدتي عنده
بمنزلة العين للأثمـد
مشاهدة الشمس للأرمد^(٣)

وتذكر الأخبار لنا أن هذه المجموعة قد بقيت على العهد والمحبة في قلوبها فالشاعر الأديب جمال الدين يحيى بن عبد العظيم الجزار يمدح ابن مطروح ويذكر فضله وخيره والأيام الخوالي معه، وذلك في الفترة التي اشتدت الأمور فيها على ابن مطروح فيقول:

هو ذا الربع ولي نفس مشوقة
فقبيح بي في شرع الهوى
فاحبس الركب عسى أقضي حقوقه
ولئن أضحي مجازاً بعدهم
بعد ذلك البرُّ أن أرضى عقوقه
فغرامي فيه ما زال حقيقاً

ثم يقول :

يا صديقي والكريم الحُرُّ في
ضع يداً منك على قلبي عسى
مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه
أن تُهدّي بين جنبيّ خفوقه^(٤)

(١) الديوان ل ٢١ / ٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ج ١٨٩ ، ك ٢ / ١٢ .

(٣) نفسه ج ١٨٩ ، ك ٢ / ١٢ .

(٤) الوفيات ٦ : ٢٢٤ .

إلى أن يقول :

فيه الحُسْنُ خليقاً لم يزل والمعالي باين مطروحَ خليقَه (١)

وتذكر الأخبار أن من أخلأ ابن مطروح الذين استمروا على المحبة شمس الدين ابن خلكان - صاحب الوفيات - ، إذ عندما يذكر وفاة ابن مطروح ((وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة بمصر ودفن بسفح المقطم وحضرت الصلاة عليه ودفنه)) (٢) .

وبعد، فقد ظهر لنا شعر الإخوانيات لدى ابن مطروح بارزاً في ذكره محاسن إخوانه وأصدقائه وإشادته بأفعالهم الطيبة وخصالهم الحميدة وما حفظوه من وداد بينهم، وبقاء على العهد أفراداً أو جماعات برؤهم متصل، وهداياهم لا تنقطع ، ومجالسهم ذات بهجة وروعة، لا يتفرقون إلا عند عظام الأمور، وعند تفرقهم يسري الحنين بينهم بشكل متعاضم، يسألون عن الأحوال، ويلاقون الركبان بالخبر، ينتظرون كتاباً، ثم ما أصاب هذه الصداقة من تفرق بالموت، أو تشتت بالخوف من غضبة الصالح وبقاء العديد منهم على العهد، فكان هذه الأشعار قد أعطت بعض الإضاءات لجوانب خفية من حياة ابن مطروح وأصدقائه، لتكمل النظرة الكلية لهذا الشاعر وبيئته الشعرية كرجل سياسة وإنسان عبر شبكة العلاقات التي أقامها مع من حوله.

(١) الوفيات ٦ : ٢٢٤ .

(٢) نفسه ٦ : ٢٢٤ .

الفصل الرابع

التقويم الفني

لشعر ابن مطروح

- التجربة الشعرية

- بناء القصيدة

- اللغة والأسلوب

- الفنون البديعية

- الصورة الشعرية

الفصل الرابع

* التجربة الشعرية:

تقع حياة الشاعر جمال الدين بن مطروح في الفترة الأخيرة من حياة الدول الإسلامية وهي الفترة التي شهدت أحداثاً كثيرة في تاريخ الصراع بين المسلمين والفرنجة في مصر وبلاد الشام، وقد كان للأدب حضور واضح في هذه الحياة من حيث التعبير عن هذه الأحداث ومن حيث المساهمة الفعلية في هذا الصراع، لأن الأدب في تاريخ الشعوب كان ولا يزال من أهم الوسائل الفعالة في استنهاض الهمم، وتحريك النفوس، وتوجيه الطاقات نحو الأهداف النبيلة والمقاصد العليا للأمم.

والشاعر المجيد هو من يستطيع أن يُخَدَّ عمله عبر الأجيال من خلال القبول الذي يلاقه هذا العمل لدى المتلقين له، وأهم أدوات النقل هذه صدق المشاعر، وصدوق الإحساس، وهذا الأمر أشار إليه ابن طباطبا عندما تحدث عن أمور لا بد من وجودها في العمل الأدبي كي تجد القبول لدى السامع، وذلك عندما تحدث عن موافقة الإحساس للمعاني، واللفظ في الدخول إلى النفس وأن للنفس كلمات روحانية، من جنس ذاتها توافق الحال في القائل والسامع، وعبر عنه بوضوح عند حديثه عن ((صدق العبارة فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات تضاعف حُسن موقعها عند مستمعها، لا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلفة فيها، والتصريح بما كان يُكتمُ فيها))^(١).

فيذا الصدق وما يضاف إليه من دقة الكشف هي التي تؤدي إلى الشعور الذي يغمر القارئ أو السامع للعمل الأدبي، وهو ما أسماه البعض (البوح) وقد يكون مبعث هذا الشعور تبادل التفاعل بين العمل الأدبي والمتلقي، فالعمل الأدبي المليء بالإبداع والصدق يفرض جو الشعور بالجمال ولا بد للشعور بالجمال كي يظهر إلى الواقع من مُستشعرٍ تتوافر فيه رهاقة الحس بحيث يلتقط الإشارات المنبعثة من العمل الأدبي. يقول جويو ((إن الشكل يكون جميلاً إذا عمل أكبر عدد ممكن من العناصر العصبية التي يتعلق بها الإدراك، ولم يتعب إلا أقل عدد ممكن من العناصر))^(٢)، ولما كانت التجربة الشعرية هي الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الپثناعر، حين يفكر في

(١) عيار الشعر، ابن طباطبا ص ١٦، ١٧.

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة/جويو/ ترجمة سامي الدروبي/ دار الفكر بالقاهرة/ ١٩٤٨م/ ص ٥٦.

أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه (١) فإن ابن مطروح قد عاش أحداث عصره بشكل متصل وشاهد احتلال الصليبيين لدياره، وتأثر بما حوله من مجريات خصوصاً ما كان يتعلق منها بمدينة القدس من تحرير، ثم ضياع، وإعادة تحرير، واتسمت التجربة الشعرية لديه بصور ذات ألوان متعددة غلبت عليها الدعة في بلاط الأمراء والملوك، واستغرقت معظم أيام حياته، تبعثها حياة اتسمت بالقلق والخوف والنبذ والإبعاد، وبدأت تجربة ابن مطروح الشعرية مبكرة منذ نشأته الأولى في قوص، إذ قال الشعر صغيراً، مادحاً فيه الأمير مجد الدين اللمطي، عندما أتى الصعيد والياً عليه عام ٦٠٦هـ (٢) وظل في بلاطه ردحاً من الزمن إلى أن غضب عليه الأمير المذكور، وأرسل ابن مطروح إليه شعراً ينم عن صدق عاطفة، وشعور بالخوف، وطلب للصفح، يقول:

أقلني ما قد كان مني جهالة أقالك رب يعلم السر والنجوى
وما أنا من نبي الذي كان تائب ومن تاب تمحو الذنب توبته محوا (٣)

ويترك ابن مطروح الصعيد، ويتجه شطر القاهرة إلى بلاط الكامل - محمد بن العادل -، ويرى انتصاره والمسلمين على الفرنج في دمياط في المرة الأولى، ويحس ابن مطروح بما يحسه أي مسلم وهو يعيش هذه اللحظات الغالية بالنصر على عدو اقتحم البلاد، فينطلق ابن مطروح يمدح الكامل، مبيناً بأسه في الحرب، وقوة جيشه، وكثرة عدد جنده وعدتهم، ويصوره ناصراً للدين يقول:

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه ومذل أهل الشرك والطغيان (٤)

وفي هذه المرحلة يشيد ابن مطروح بالأشرف موسى أيضاً، وهو شقيق الكامل، الذي حضر لنصرة أخيه، ورفد عساكر المسلمين في دمياط، ويرجع إلى الشام ثم البلاد الشرقية وتقع الفتن في تلك البلاد، يتصدى لها الأشرف موسى، ويقمع أهلها، ويعيد الأمن والأمان، فيذكر ابن مطروح ذلك في شعره إذ يقول:

ولى الخوارزمي منها هارباً وهلم جرا قلبه لم يسكن (٥)

(١) انظر النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م، ص ٣٤٨.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١: ١٨٨.

(٣) الديوان ج ٢٠١، ك ٢/١٨، ل ٢/٦٠.

(٤) نفسه ج ١٧٦، ك ٢/٤.

(٥) نفسه ج ١٧٧، ك ١/٦.

ثم ينتقل ابن مطروح إلى خدمة الملك الصالح- نجم الدين- مع صديقه البهاء زهير، وتتشأ علاقة قوية بينهما وبين الصالح وهو ينوب عن أبيه في البلاد الشرقية (آمد وسنجار...) وفي هذه الفترة يشهد ابن مطروح أغلب أحداث حياة الصالح من انتقال ورحلة، وحرب، خوف وأمن، وإقبال وإيبار. ووصل إلى مراتب عليا لديه، منها الوزارة ونيابة دمشق.

وفي أثناء ذلك يشهد ابن مطروح وقوع أحداث جسام، كان أبرزها تسليم القدس للصليبيين صلحاً،^(١) وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى نقطة هامة تتعلق بابن مطروح ألا وهي غياب هذا الحدث تماماً من شعره رغم ضخامته وشدة ألمه، وعظم المصيبة فيه، إذ لم يتطرق له مطلقاً لا هو ولا صديقه البهاء زهير، ولعل مرد ذلك إلى أنهما كانا يعملان في خدمة الصالح بن الكامل صاحب هذه الفعلة الشنعاء، وهذه من آفات مداح السلاطين تتطلق ألسنتهم بالقول إن واكبت ريحهم ريح حكاهم وتخفو وتخفي أشعارهم عندما يخشون على أنفسهم، خائفين مشاعر الأكم والتحرق في داخلهم، صامتين في موقف يجب فيه الكلام وإيضاح الأمر. بل إن ابن مطروح لم يُشر إلى الأحداث المرافقة لذلك، مثل استعانة الكامل بالإمبراطور الصليبي ضد المسلمين وضد بعض الحكام آنذاك لتثبيت حكمه.

ولم يكتب للكامل الذي سلم القدس للصليبيين أن يحظى برويتها محررة مرة ثانية، ومات وفعلته هذه ماثلة أمام عينيه، شاهدة عبر التاريخ عليه.

ويقع الاختلاف بين ورثة ملك الكامل، ويحدث الإقتتال بينهم، ويقتررب موعد انتهاء فترة تسليم القدس للصليبيين، ويأخذون بحشد قواتهم لاستمرار أخذها منتهزين فرصة اقتتال المسلمين بعضهم مع بعض، ويتحرك الناصر داود من الكرك نحو القدس بجيشه وجيش الصالح الذي كان محتجزاً لديه في الكرك، ويحاصر المدينة المقدسة ويحررها ثانية، وينطلق لسان ابن مطروح يمدح الناصر على قيامه بهذا العمل الجهادي الكبير، على الرغم من أن ابن مطروح لم يكن من رجاله بل كان من رجال الصالح نجم الدين^(٢).

(١) ذيل مرآة الزمان ١: ١٢٨ .

(٢) انظر موضوع شعر الجهاد في هذا البحث، ص ٨٨.

واتصل ابن مطروح بالخليفة العباسي المستنصر في بغداد، وعدّ هذا الاتصال قمة مميزة في حياته، وشرفاً رفيعاً ناله، ونقطة مضيئة برزت واضحة في شعره إذ يقول :

من مبلغ قوماً بمصر تركتهم فرقاً وأعينهم لعودي تطمح
ما نلتُ من شرفٍ ومجدٍ باذخ وغدا بنا فوق الكواكب مطرح
فبذلك الشرف الذي أو تيتّه وبحسن منقلبي إذا فليفرحوا(١)

وتستقر قواعد الحكم للصالح نجم الدين، ويبسط نفوذه على معظم بلاد أبيه في مصر والشام، ويعرف لابن مطروح والبهاء زهير سابقتهم معه عندما بقيا على عهدهما معه ووفائهم له عند الشدائد، فيرفع محلهم، ويصبح البهاء زهير على نيوان الإنشاء ويتولى ابن مطروح النيابة بدمشق للصالح، ثم يتغير عليه الملك الصالح، ويغضب من وينبذه، بسبب سعاية ووشاية ويلحقه الأذى والذل، ويغدو طريداً لا يُسمح لأحدٍ بالاختلاط معه، أو الشفاعة فيه وعبر ابن مطروح عن هذه المرحلة بكل صدق وقد كان واقعياً في تصوير حاله كما يبدو في قوله:

فعلام بعد الاصطفاء نبئتني نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت في حقي كلام معاشر أقصى مناهم أن أبيت مضيعاً(٢)

وقوله:

وفيم المقام ولا حاله تسرّ سوى أعين الخسد
وقصر يومي عن أمسه وأخشى اطرادهما في غد
وجانبني كل من كان لي بمنزلة العين للإثم(٣)

وتنتهي فترة الإقصاء هذه مؤقتاً، بوفاة الصالح نجم الدين سنة ٦٤٧هـ، وتتولى زوجته شجرة الدر إدارة شؤون الدولة، في حين يتولى صديق ابن مطروح الأمير -فخر الدين بن شيخ الشيوخ- قيادة الجيش، الأمر الذي أعاد لابن مطروح مكانته وأشاع السرور في حياته وشعره من جديد ، يقول:

يا دهر لا تمدد لظلمي بعدها كفاً فما لك طاقة بعنادي
أنا في زمام ابن الأكارم نازلٌ من ظلّه في سجع* وبراد(٤)

(١) الديوان ج ١٧٤، ك ١/٤ .

(٢) نفسه ج ١٨٤، ك ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٨٩، ك ٢/١٢. *الإثم: حجر من الكحل، وقيل هو نفسه الكحل. انظر لسان العرب، مادة (ثمد).

(٤) نفسه ج ١٨٦، ك ١/١١. *سجع: الهواء المعتدل بين الحر والبرد. انظر لسان العرب، مادة (سجع).

وتعود الحياة إلى خضرتها لدى ابن مطروح ولكن فترة قصيرة، إذ لا يلبث فخذ الدين أن يلاقي الله شهيداً في معركة دمياط الثانية سنة ٦٤٧هـ، وتنتهي المعركة وينتصر المسلمون فعبّر ابن مطروح عن إحساسه وإحساس المسلمين إزاء الانتصار الذي حققه الجيش المسلم على الفرنج، فجاء تعبيره صادقاً مطابقاً للواقع، في رسم صور السعادة والسرور والتعبير عن مشاعر المسلمين حيال هذا النصر المبين، إذ يقو مخاطباً الفرنسيين لويس التاسع قائد جيش الفرنج المهزوم :

رُحْتَ وَأَصْحَابِكَ أودعتهم
بِقَبْحِ أفعالِكَ بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم
إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها
لعل عيسى منكم يستريح^(١)

وبمقتل فخر الدين تظلم الدنيا في عيني ابن مطروح، ويظل له بصيص نور في القادم من بعيد وهو الملك توران شاه ابن الصالح نجم الدين، الذي ما إن يصل حتى يأتمر به مماليك أبيه، ويقتلونه، عندها تُخيم السوداوية على حياة ابن مطروح تمام وتهال عليه الضربات من كل جانب فمن موت الأحبة، إلى انعدام النصير، إلى قلة ذات اليد، والألم النفسي الشديد المرافق للنزح والإبعاد، إضافة إلى رؤية من هم دون مستواه يمرحون ويمنهون ويتحكمون حتى في مصيره. فيقع فريسة المرض الذي يهدده قواه، ويضعف بصره، ويعجز الأطباء عن مداواته ويستشعر ابن مطروح كل ذلك بنفسية الشاعر المرهفة، فينطلق لسانه ليصور مراحل النهاية في حياته مرحلة مرحط طالباً من الله العون والمغفرة والشفاء يقول:

يا رب قد عجز الطبيب فداوني بلطف صنعك واشفني يا شافي^(٢)

وخلاصة القول إن التجربة الشعرية لدى ابن مطروح ذات ميسم واقعي، وصدق فني جاءت صورها في مستوى الحدث، وكان شاعرنا أميناً في نقل تجربته، إذ عبّر عن مشاعر الأمة وأحاسيسها، إضافة إلى انفعالاته الخاصة، بكل أمانة وصدق عبير شعره الذي قاله في العديد من المناسبات، والتلمة الواضحة لديه هي سكوته عن موقفه الكامل يوم سلم القدس للأعداء، إذ إن تسليم القدس للأعداء جريمة لا تقبل تحت أي ظرف، وكذلك السكوت عن ذلك لا يقبل أيضاً تحت أي مبرر.

(١) الديوان ج ١٨١، ك ١/٨، ل ٢/٥٨.

(٢) شذارات الذهب ٥:٢٤٩ ولم ترد في الديوان. وكلمة (شافني) كذا وردت. والصواب (شافني).

بناء القصيدة :

يقصد ببناء القصيدة أجزاؤها الرئيسية التي تنظمها ، وهي ما يعبر عنه بالابتداء والتخلص والخواتيم ، ثم ما يتصل بذلك من وحدة البناء، ووحدة القصيدة، وقد بقيت القصيدة العربية التقليدية هي النموذج المفضل لدى الشاعر جمال الدين بن مطروح، وظلت هذه القصيدة تبنى وفق الشكل القديم من حيث الطول والوزن والقافية وتعدد الأغراض في القصيدة الواحدة ، فقد تجمع غزلا ومدحا وحكمة وغير ذلك من الأغراض ، وهي سمة واضحة في القصائد الطويلة عند الشاعر.

وفي الحديث عن بناء القصيدة عند ابن مطروح ساركز على الأجزاء التي يراها النقاد أساسية في بناء القصيدة ، وهي الاستهلال والمقدمة وحسن التخلص والخاتمة ثم البحث في وحدة القصيدة وترابط أجزاء القول فيها وبعد ذلك في المطولات والمقطوعات.

يرى حازم القرطاجني أن تحسين الاستهلال أو المطالع من أحسن الأمور في صناعة الشعر إذ هي الطبيعة الدالة على مابعداها المنتزلة من القصيدة منزلة الغرة من الوجه ، تزيد النفس بحسنا ابتهاجا ونشاطا(١) لذلك وجب أن يكون المطالع مناسباً ومتمشياً مع موضوع القصيدة وفق القاعدة البلاغية «مطابقة الكلام لمقتضى الحال»(٢)، وابن مطروح قد اهتم بمقدمات قصائده اهتماماً كبيراً ، وأولاه عناية خاصة لأنها أول ما يطرق الأسماع، ويلفت الانتباه، وكان ابن مطروح يصطنع الألفاظ المعبرة في هذه المقدمات ، إضافة إلى التعابير القوية في مواضع والعذبة في مواضع أخرى ، فيأتي مطلع القصيدة في الغالب مناسباً للموضوع الأساسي فيها.

ومقدمات ابن مطروح ليست كلها على مستوى واحد من حيث الجودة والبراعة ، فبعضها قد أجاد الشاعر فيها وأبدع وبخاصة في المقدمات الغزلية التي جرى فيها الشعراء القدماء في براعة الاستهلال وجزالة العبارة، وحسن اختيار الألفاظ والقوافي،

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني - ابن الحسن ، ت ٦٨٤هـ ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجا ، دار الكتب الشرقية، تونس ، ١٩٦٦م ، ص ٢٨٥ ، وانظر كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر-، أبو هلال العسكري - الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت ٣٩٥ هـ ، تحقيق علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضا إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م ، ص ٤٣٥ .
(٢) انظر بناء القصيدة العربية، د. يوسف بكار، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

وفي بعض القصائد المدحية جودة في المطلع، أما في بقية القصائد، وفي المقطعات الشعرية فالطابع الغالب هو طابع الصنعة وكثرة استخدام البديع.

كما يحرص ابن مطروح على عذوبة الألفاظ، وجرس الموسيقى، وحسن تأليف

الكلام في مقدماته يبدو ذلك في قوله :

وبديعُ الحسن كم هذا التجني
وحويت من الملاحاة كل معنى
ومن أغراك بالإعراض عني
وحزت من الرشاقة كل فن (١)

وقوله :

خذوا جذركم من طرفها فهو ساحر
فإن العيون السود وهي فواتر
وليس بناج من دهته المحاجر
تقد السيوف البيض وهي بواتر (٢)

وقوله :

هي رامة فخذوا يمين الوادي
وحذار من لحظات أعين عينهم
ودعوا السيوف تقر في الأغمام
فلكم صرعن بها من الأساد (٣)

- وتحمل مقدمات ابن مطروح الغزلية الكثير من المعاني القديمة كما في قوله :

تثنى كما هز الرديني حامله
فعانقت غصنا لا يراه أخو تقي
من الترك أضحي في الصميم وخاله
ترشفته والليل داج كشعره
فيالك مني موردا ما أله
وضم الدجى منا حليفي صباية
وما خلته إلا حسامي أضمسه
وطافت بنا السراء من كل جانب
وقد عبقت بالطيب منه غلائله
فيمكن إلا أن تهيج بلابله
من الزنج من ذا في الملاح يمانله
وقد قلقت مني وغارت مراسله
على عطش لا يعرف الري ناهله
يفازلني طورا وطورا أغازله
على عانقي من ضفرتيه حمائله
ورقت حواشي ليلنا وشمائله (٤)

وتذكرنا هذه المقدمة التي تحمل معاني الغزل التقليدي بمقدمات الشعراء

السابقين، وقد حرص ابن مطروح فيها على اختيار الألفاظ السهلة والصور البسيطة.

(١) الديوان ، ل ٢/٢٠ ، ش ٣٣ ، ط ١/١٦ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٢) نفسه ج ١٩٧ ، ك ٢/١٦ ، ل ١/١٦ ، ش ١٠ ، ط ٢/٦ .

(٣) نفسه ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ ، ط ١/٦ ، ش ١٠ .

(٤) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٥ ، ط ٢/١٢ .

ويميل ابن مطروح في مطالع قصائده الجهادية والمدحية إلى الألفاظ ذات الإيقاع القوي فقد يفتح قصيدته بالنكبير كما في قوله :

الله أكبر أي طرف يطمح أم أي ذي لسن يقول فيفصح (١)
وقد يفتتحها بالسخرية كما يبدو في قوله :
قل للفرنسيس إذا جئتسه مقال صدق من قؤول فصيح
قد جنت مصرا تبتغي أخذها تحسب أن الزمر ياطبل ربح (٢)
وقد يفتح قصائده بالمدح كما في قوله :
قُدستَ من ملك عظيم الشأن متتابع الحسنات والإحسان (٣)
وقوله طالبا الصفح :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ومثلك أولى مثلي الصفح والعفو (٤)

- وتندر في شعر ابن مطروح المقدمات الطليّة وما حوته من رموز على عادة الأقدمين (٥) إلا مقدمة واحدة استهلها بالدعاء بالسقيا لديار الأحبة مطلعها :

سفاك يا دار هطل من الديم ولا خلوت من اللذات والنعم (٦)

- والملاحظ في مقدمات القصائد أن الشاعر يعمد في أحيان كثيرة إلى الأساليب الإنشائية وبخاصة أسلوب الإستفهام ، وذلك لتنبية المخاطب وإثارة اهتمامه ومن ذلك قوله :

أتجزع للموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع (٧)
وقوله :

من مبلغ عني المليك الأروعا عن عبده يحيى مقالا مقنعا (٨)
وقد يبدأها بالنداء كما في قوله :

(١) الديوان ج ١٧٢ ، ك ١/٣ ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ١٥٢ .

(٢) نفسه ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨ .

(٣) نفسه ج ١٧٦ ، ك ١/٤ .

(٤) نفسه ج ٢٠١ ، ك ١/١٨ ، ل ٢/٦٠ .

(٥) انظر اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، د. منصور عبد الرحمن ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٦) الديوان ش ٢٨ ، ط ١٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٧) نفسه ج ١٣ ، ك ١/٢٥ ، ل ٢/٦٦ .

(٨) نفسه ١٨٤ ، ك ٢٨ .

ياأيها الظاهر في حجبه (١)

يا أيها الشامخ في قُربه

وقد يبدأها بصيغة الأمر كما في قوله :

خذوا جذركم من طرفها فهو ساحر وليس بناج من دهته المحاجر (٢)

وقد يعتمد إلى الاستفهام والصنعة في مقدمات قصائده كما سيرد في الحديث عن أسلوب الشاعر.

* وبعد استقرار شعر ابن مطروح نتبين أنه تجاوز المقدمات التقليدية في جزء من شعره وبخاصة في القصائد الحماسية المرتبطة بأحداث الصراع ارتباطاً مباشراً، ولعل ذلك مرده إلى أن موقف الجهاد والحماس لا يناسب وذكر المرأة كما أشار إلى ذلك ابن الأثير بقوله ((إذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث كفتح أو هزيمة جيش وغير ذلك، فإنه ينبغي ألا يبدأ بالغزل لأن هذا يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه)) (٣).

أما في بعض الأغراض فلم يرد ذكر المرأة في شعره وتفاوت التزام ابن مطروح بين التوجه فوراً إلى غرضه دون مقدمة وبين التقديم لغرضه ومن ذلك قوله في المدح :

قدست من ملك عظيم الشأن متتابع الحسنات والإحسان (٤)

وفي موضع مدح آخر نراه يذكر مقدمة غزلية طويلة حتى يصل إلى غرضه كما في قصيدته المشهورة ((هي رامة فخذوا ...)) إذ قال عشرين بيتاً من الشعر تقريبا عن محبوبته وتغزل بها ثم خلس إلى مدح فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

أما في غير المدح فالأغلب في شعره أنه تناول الموضوع دون مقدمات غزلية أو سواها ولعل مرد ذلك إلى أن ابن مطروح نظم معظم شعره قصيراً في مقطعات، يقول في قصيدته المشهورة لدى هزيمة الفرنسيين في موقعة المنصورة ((قل

(١) الديوان ج ٢١٤، ك ٢٥، ل ١/٦٣.

(٢) نفسه ج ١٩٧، ك ٢/١٦، ل ١/١٦، ش ١٠، ط ٢/٦.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير - أبو الفتح أبو المكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبان، ت ٦٣٧ هـ، تحقيق د. محمد الحوفي ود. بدوي طباطبة، ط ١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة،

١٣٨١ هـ - ١٩٦٠ م، ٣ : ٩٧.

(٤) الديوان ج ١٧٦، ك ١/٤.

للفرنسيس... (١) فابن مطروح ومن أول كلمة في القصيدة هجم على غرضه مخاطباً ملك الفرنج لويس التاسع.

- وخلاصة القول أن ابن مطروح اهتم كثيراً بمقدمات قصائده إذ جاءت بسيطة وواضحة، مزركشة ببعض الصور، خفيفة عذبة على الأذن غير مغرقة في الخيال، محكمة الربط بباقي أجزاء القصيدة، وقد وفق في بعض المقدمات إلا أن طابع الصنعة لازمه إلى حد معين.

* * * * *

أما حسن التخلص أو الخروج فمعناه (٢) أن يسرد الناظم أو الناثر كلامه في غرض من الأغراض، غير قاصد إليه بانفراده، ولكنه سبب إلى غيره، ثم يخرج منه إلى كلام هو المقصود، بينه وبين الأول علقمة ومناسبة بحيث يكون الكلام آخذاً بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ في قالب واحد مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه (٣)، وحسن التخلص ليس من الأمور السهلة عند الشعراء جميعهم، ولا يجيد هذا الفن إلا الشعراء الكبار، لأنه يحتاج إلى دربه وذكاء حتى لا يشعر القارئ بهذا الانتقال من غرض إلى غرض.

وقد جاء حسن التخلص عند شاعرنا علامة على حذقه وقوة تصرفه، ومن حسن التخلص عنده، قوله في قصيدته التي مطلعها :

هي رامة فخذوا يمين الوادي ودعوا السيوف تقر في الأغماد (٤)

فبعد مقدمة غزلية استغرقت عشرين بيتاً تحدث فيها الشاعر عن جمال المحبوبة، وحبها لها وحالته من هذا الحب، يتخلص من ذلك تخلصاً جميلاً في شطر بيت «وكذاك فخر الدين...» حيث قابل بين حاله التي ليس لها شبيهه وحال الممدوح التي ليس لها شبيهه في الجود، يقول :

أنا من جبلت على الغرام من الصبا وبه سألقى الله يوم معادي

(١) الديوان ج ١٨١، ك ٢/٨، ل ١/٥٨.

(٢) انظر سر الفصاحة، الخفاجي عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، ت ٤٦٦هـ، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٨٢م، ص ٢٦٨.

(٣) انظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، يحيى بن حمزة ت ٧٤٩هـ، مطبعة المقتطف، ١٩١٤م، مصر (صورة مصورة عنها). ٢ : ٣٤٧. وانظر المثل السائر ٣ : ١٢٨.

(٤) الديوان ج ١٨٥، ك ١/١٠، ط ٢/١٦، ش ١٠.

فإذا أتى العشاق كنت أميرهم - وجميع من قتل الهوى أجناسي
أصبحت مالي في الصبابة مشبه وكذاك فخر الدين في الأجواد(١)
فقد وفق ابن مطروح في تخلصه من غرض إلى غرض ، وفي قصيدته التي
مطلعها :

بأبي وبى طيف طرق عذب اللمى والمعتق(٢)

يتحدث بعد مقدمته الغزلية عن الطيف ومسراته والحب ولوعته وجمال محبوبه ثم
يخلص إلى غرضه ألا وهو مدح الأشرف موسى وتفضيله على غيره يقول :

لا والذي اجتمعت على تفضيله كل الفرق
موسى الذي اصطحب الندى في راحتيه واغتنق
الأشرف المنصور حدث عن علاه ولا فرق(٣)

وقد جاء التخلص في هذه القصيدة في بيت واحد ((موسى الذي ...)) وهو
المستحب عند النقاد ، قال أسامة بن منقذ ((ويستحب أن يكون الخروج والتشبيب في
بيت واحد ، هو شيء ابتدعه المحنثون دون المتقدمين))(٤).
وقصيدته التي مطلعها :

تنثى كما هز الريني حامله وقد عبقث بالطيب منه غلائله(٥)

أحسن الشاعر التخلص من الغزل إلى المدح كما يبدو في قوله:

وضم الدجى منا حليفي صبابة يغازلني طورا وطورا أغازله
وما خلته إلا حسامي أضمه على عاتقي من ضفرتيه حمائله
وطافت بنا السراء من كل جانب ورقت حواشي ليلنا وشمائله
وهبت علينا نفحة عنبرية كعرف عماد الدين حين تقابله
فقت من الإجلال أنشد مدحه وقد سبققتي قبل ذاك فواضله(٦)

(١) الديوان ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ ن ط ١/١٦ ، ش ١٠

(٢) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦ ، ط ١/١٠ ، ش ١٩ .

(٣) نفسه ج ١٧٨ ، ك ١/٦ ، ط ١/١٠ ، ش ١٩ .

(٤) البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، ٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ، تحقيق د. أحمد بدوي ود. حامد عبد

المجيد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ، ١٩٦٠ م ، ص ٢٨٨ .

(٥) الديوان ج ١٨٨ ، ك ١١ ، ش ٢٥ ، ط ٢/١٣ .

(٦) نفسه ج ١٨٨ ، ك ١١ ، ش ٢٥ ، ط ٢/١٣ .

وقد جاء التخلص في شطر بيت ((كعرف عماد الدين ...)) ليظهر الربط بين طيب رائحة المحبوب وطيب رائحة عماد الدين ، فبينهما علاقة تشابه ومن هذه العلاقة يبدأ الشاعر في مدحه.

مما تقدم نتبين أن التخلص عند ابن مطروح قد امتاز بالبراعة ، ولم نعثر على قصائد للشاعر فيها إخفاق في حسن التخلص ، فالشاعر كان حريصا في حسن الخروج والانتقال من غرض إلى غرض وهذا الأمر ساهم في إكساب شعره رونقا وجمالا.

* * * * *

ويرى النقاد أن حسن الخاتمة أو حسن الانتهاء لدى الشاعر والنائر أن يختما كلاهما بأحسن خاتمة فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ولإنها ربما حُفظت عن دون سائر الكلام ويرى حازم القرطاجني أن الخاتمة ينبغي أن تكون أحسن ما اندرج في حشو القصيدة، ووجب الاعتناء بها لأن فيها منقطع الكلام ووجب أن يكون ((ما وقع فيها من الكلام أحسن ما اندرج في حشو القصيدة وأن يتخرج فيها من منقطع الكلام على لفظ كربه، أو معنى منفرد بالنفس عما قصدت بحالته إليه ... وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضوع لأنه منقطع الكلام وخاتمته ، فالإساءة فيه مَعْفِيَةٌ على كثير من تأثير الإحسان المتقدم على النفس ولا شيء أقيح من كدر على صفو)) (١).

وقصائد ابن مطروح ليست ذات مستوى واحد في خواتيمها فبعض القصائد لها نهايات فنية طبيعية ، تتسجم مع تسلسل الأبيات في القصيدة ، وبعضها ليست كذلك ومن الأمثلة على النهايات الطبيعية قصيدته التي مطلعها :

تنتى كما هز الرديني حامله وقد عبت بالطيب منه غلائله (٢)

إذ جاءت الخاتمة متدرجة مع تسلسل الأبيات بحيث يتوفا المتلقي لاستقبال النهاية، يقول الشاعر :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| وزاحمت الجوزاء منه عوامله | ورب خميس طبق السهل والربي |
| قواعد هذا الدين واشتد كاهله | بكم يا بني شيخ الشيوخ تأيـدت |
| بأنك كافيـه وأنك كـافله | فقد علم السلطان في كل موقف |
| وحامي حماه أن تصان معاقله (٣) | وأخلق بملك أنت حارس سرجه |

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٨٥ ، وانظر تعبير التعبير، ابن أبي الأصبع ص ٦١٦.

(٢) الديوان ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٢٥ ، ط ٢/١٣.

(٣) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٢٥ ، ط ٢/١٣.

وقصيدته التي مطلعها :

قل للفرنسييس إذا جئته مقال صدق من قؤول فصيح (١)

فبعد أن سخر ابن مطروح من الملك لويس التاسع ((الفرنسييس))، وما حل به من هزيمة منكرة وأسرره مع كبار قائنته وحبسه مقيدا في دار القاضي ابن لقمان جاءت النهاية منسجمة مع جو القصيدة العام إذ يقول:

إن كان باباكم بذا راضيا فرب غبن قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثار أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على عهدها والقيد باق والطواشي صبيح (٢)

وفي بعض القصائد، تأتي الخاتمة عند ابن مطروح مبتورة أو شبه ناقصة بحيث

تبقى النفس متطلعة إلى ما يقال تريد المزيد ، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها :

سلا خاطري عن زينب ونوار مورد خد فوق آس عذار (٣)

فبعد المقدمة الغزلية، خلص الشاعر إلى المدح فعدّد بعض صفات الممدوح، ووصل إلى

نهاية القصيدة التي تأتي متسلسة يقول :

ومن يبتغي عند الغواني مودة كمن يبتغي أخذ الأثير بثاري

وإلا كمن يبغي حماة ودونها حماة وهي تسطو ببيض شفار (٤)

ومن أمثلة الخاتمة المبتورة في شعر ابن مطروح قصيدته التي مطلعها :

قدست من ملك عظيم الشأن متتابع الحسنات والإحسان (٥)

إذ بعد الإشادة بنصر الملك الكامل على الفرنجة في دمياط ينتقل ابن مطروح فجاءة

للحديث عن عدله وأمن البلاد في عهده دون أن يكمل الغرض يقول :

أمنت حتى العفر في راماتها وأخفت حتى الأسد في خفان

ونشرت عدلك في البرية كلها حتى استوى القاصي بها والداني (٦)

(١) الديوان ج ١٨١ ، ك ٨ ، ل ١/٥٨ .

(٢) نفسه ج ١٨١ ، ك ٨ ، ل ١/٥٨ .

(٣) نفسه ج ٢٠٩ ، ك ٢/٢٣ ، ل ٢/١٩ ، ط ١/٧ ، ش ١١ .

(٤) نفسه ج ٢٠٩ ، ك ٢/٢٣ ، ل ٢/١٩ ، ط ١/٧ ، ش ١١ .

(٥) نفسه ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

(٦) نفسه ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

وانتهت القصيدة هنا، وأظن الأمر يرجع إلى فقدان بعض أشعار الشاعر، وإن كانت هذه هي نهاية قصيدته، فلا شك أن خاتمة القصائد هنا لم تكن في مستوى يماثل المرجو من شاعرنا ابن مطروح.

- وثمة خاتمة يقصد إليها الشاعر قصداً ولا تمثل النهاية الطبيعية للقصيدة، فمن ذلك :
تعشقت بدرا وجهه مشرق كذا إذا ماس خلت الغصن من قده كذا(١)
فبعد أبيات الغزل يفجؤك الشاعر بخاتمة مدح في البيت الأخير يقول :

وأقسم بالله العظيم ووجهه الكريم وإلا مت معتقدا كسدا
لئن صد عني معرضا متدلا وأصبح حبل الود ما بيننا كذا
تعلفت بالسلطان أيوب سيديا ومن جوده في الناس بين الوري كذا(٢)

مما تقدم نتبين أن الخاتمة في قصائد ابن مطروح قد راوحت بين التسلسل الطبيعي لاستقبال الخاتمة بشكل سلس ورفيق وعذب وخاتمة لم تكن كذلك إذ توقف الكلام لسبب أو لآخر دون استيفاء الغرض حقه في النهاية الطبيعية، وبين هجوم على نهاية تشي بأنها قد قصدت لذاتها كأنها ألصقت إصاقاً في ذيل القصيدة.

* * * * *

ومن القصايا التي تحسن الإشارة إليها ضمن بناء القصيدة، قضية المطولات والمقطعات، فعند النظر في شعر ابن مطروح، واستقصاء توزيعه على القصائد والمقطعات، نرى أن شعره بجملته قد وصل إلى ألفين وخمسمائة بيت من الشعر، توزع قسمها الأول في اثنتين وثلاثين قصيدة، اشتملت ثلث شعره فقط وبالتحديد (٨٤٧) ثمانمائة وسبعة وأربعين بيتاً من الشعر، والقصائد التي جاوزت أبياتها الثلاثين بيتاً لم تزد على عشر قصائد، جاوزت اثنتان منها الخمسين بيتاً، فابن مطروح لم يكن يعتمد على الإطالة، وقصيدته اللتان أطال فيهما، الأولى كانت في مدح صديقه فخر الدين، ذاك القائد الوزير الذي كان من العلامات البارزة في حياة ابن مطروح، إذ أعاد له مكانته التي سلبها إياها الملك الصالح، فانطلق لسان ابن مطروح يقول الشعر، ذكراً صفات فخر الدين ومناقبه وجهاده، وأسرته، ثم ذكر محنته وكيف أنها فخر الدين، وبلغت

(١) الديوان ج ٢١٠، ك ٢/٢٣، ل ١/٢٠، ش ٣٧.

(٢) نفسه ج ٢١٠، ك ٢/٢٣، ل ١/٢٠، ش ٣٧.

أبيات هذه القصيدة اثنتين وسبعين بيتاً، إذ وافقت محبة لشخص فخر الدين في نفس الشاعر، مقترنة بالجميل الذي أسداه إليه.

كما أبرزت القصيدة قدرة الشاعر، ومقدار أخذه لعنان القوافي، وقصيدته الثانية كانت في موقف نظر ابن مطروح إليه باعتباره قمة الارتقاء في حياته السياسية، أعنى بذلك وصوله إلى بغداد، ومدح الخليفة المستنصر، فهو ينظر إلى ذلك نظرة هيبية ووقار، وتختلط في نفسه معاني الرهبة الدنيوية، مع عظمة الخلافة، إضافة إلى شعوره الديني العميق بقرب الخليفة نسباً من النبي صلى الله عليه وسلم فنظم ابن مطروح قصيدته واصفاً مشاعره في أبيات وصلت إلى خمسة وخمسين بيتاً من الشعر.

وقصائده الثمانون الطويلة الأخرى تنوعت في أغراضها بين اعتذار ومدح وغزل، في حين كان الغزل هو الأغلب في قصائده التي تقل عن ثلاثين بيتاً، والتي بلغت عدتها عشرين قصيدة.

أما بالنسبة للمقطعات الشعرية فقد كثر عددها في شعره حتى وصلت إلى (٢٤١) مئتين وإحدى وأربعين مقطوعة شعرية، اشتملت على ألف وخمسمائة وستة وأربعين بيتاً من الشعر، تفاوت عدد الأبيات في كل منها من بيتين إلى اثني عشر بيتاً، أي ما يصل إلى ثلثي شعر ابن مطروح، ولعلنا نلمح من ذلك ميل ابن مطروح إلى الشعر القصير، ومحبه لإيصال ما يريد سريعاً إلى السامع، إذ إن الشعر القصير يبقي السامع في انتباه طوال فترة سماع المقطعة، ثم لا يلبث أن يجد الشاعر قد فرغ مما أراد، وهو لم يزل مشدوداً إلى القول، ولو أن ابن مطروح لم يقم بنظم شعر طويل على قلة قصائده، فربما عد ذلك من النقص في شاعريته، فهو يشي بقصر النفس، وأن الشاعر ليست لديه القدرة على متابعة شعره، خصوصاً أن كثرة المقطوعات الشعرية لدى الشاعر يُنظر إليها باعتبارها علامة نقص تُظهر قصر النفس الشعري^(١)، وبالتالي فإن ابن مطروح عندما نظم قطع الشعرية القصيرة، إضافة إلى قصائده الطوال، أبرز بعض الجوانب النفسية في داخله وأراد من خلال مقطعاته إيصال فكرة سريعة، أو نفثة وجدانية معينة قام بتكثيفها من خلال بضعة أبيات، فحملها كل مشاعر الوجد لديه.

ولعل البعض يذهب بهم الظن إلى أن المقطوعة الشعرية تخرج عفواً الخاطر، وهذا الكلام ليس صحيحاً على إطلاقه، فبعض القطع الشعرية تخرج من صاحبها بعد

(١) انظر أبو فراس الحمداني، حياته وشعره ص ٣٢١.

معاناة تعتمل في وجدانه فترة من الوقت، ثم يظهر سبب معين يساهم في خروجها من اللاشعور إلى حيز الواقع.

ومقطوعات ابن مطروح بعددها المرتفع، ملأت أغراضها جوانب حياته، وأضاعتها فمنها ما كان غزلاً صافياً رائقاً، خرج على شكل مداعبة للأحبة، ومنها ما جاء شكوى وعتاب، وقسم آخر كان لتهنئة، وقسم آخر في الوصف، ومن أمثلة صدق العاطفة وقوة الإبانة عن الغرض في مقطعات ابن مطروح، شعره معتزلاً لابن اللمطي طالباً الصفح والعمو عن الزلة، يقول:

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| ومثلك أولى مثلي الصفح والعموا | لك الله إن العفو أقرب للتقوى |
| أقالك رب يعلم السر والنجوى | أقلني ما قد كان مني جهالة |
| ومن تاب تمحو الذنب توبته محوا | وها أنا من ذنبي الذي كان تائب |
| فأبى الذي تأبى وأهوى الذي تهوى | من الآن [أسعى] في تدارك ما مضى |
| فتجبر لي كسراً وتكشف لي بلوى | عسى نظرة لي باصطناعك منعما |
| فله من ذا البؤس ثم لك الشكوى | فإني في بؤس بسخطك كارب |
| وهذي جفوني ما غفت ساعة غفوا(١) | فهذا فؤادي ما يقرّ وجيبه |

والناظر في هذه الأبيات يلمح صدق عاطفة الشاعر، ومدى حرارة اعتذاره المنبثقة من ثانياً نفس أصابها الرعب والخوف من تهديد الحاكم، فدافعت عن نفسها دفاعاً حاراً عبر شدة الاعتذار وحرارته وتكراره، وكذلك نظم ابن مطروح بمقطعات في الهجاء والتوبة والأحاجي، بحيث تكاد تقترب مقطوعاته من فكرة البرقية الوجدانية في غرضها، وتقل من مشاعر ابن مطروح ما كان مختصراً مفيداً.

اللغة والأسلوب :

يمتاز شعر ابن مطروح من الناحية اللغوية بسهولة الألفاظ ووضوح الكلمة، فقد جاءت ألفاظه وعباراته متميزة بسهولة التراكيب وسلامتها، مع فصاحتها وحسن اختيارها، ولا نجد غرابة تدعو إلى تفسير أو شرح، ولعل ذلك يعود إلى البيئة التي عاش فيها الشاعر.

فغالبية أشعار ابن مطروح سهلة اللفظ قريبة المعنى(٢) وقد كان الشاعر مهتماً

(١) الديوان ج ٢٠١، ك ٢/١٨، ل ١/٦ .

(٢) انظر الألب في العصر الأيوبي محمد زغلول سلام، ص ٣٧٥.

بتخيّر الألفاظ ولم يدخل في شعره من الألفاظ الأعجمية التي شاعت في زمنه إلا بعض أسماء الأعلام مثل قصيدته المشهورة في الفرنسييس كما أنه تجنب استخدام الألفاظ العامية التي شاع استخدامها في الشعر خلال تلك الحقبة ، كما تعد لغة ابن مطروح انعكاساً لتنوع ثقافته وكذلك ثقافة عصره، وقد تمثلت هذه الثقافة في قاموسه الشعري بصورة جلية. وتباينت أساليب الفنون الشعرية ولغتها بالنظر إلى الفن الشعري المقصود حماساً أو فخراً إذ جاءت لغته فخمة جزلة، وعند الحديث عن الغزل كانت ألفاظه رقيقة، أي أن يوائم الشاعر بين اللغة والغرض، إذ يجب أن يكون شعره ((قريباً معانيه سهلها، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى بين الأبيات))^(١) والمدقق في موضوعات شعر ابن مطروح يمكنه القول إن المدح عنده قد امتاز بسهولة التركيب ووضوح وقوته كي يتفق ومكانة الممدوح، أما في الغزل فقد اتسم بوضوح المعاني إضافة إلى رفته وعذوبته، وفي الجهاد طغت الألفاظ اللغوية الفخمة مع وضوح المعاني في حين لجأ إلى الألفاظ السهلة ومعاني التهكم والسخرية في هجائه.

ولم يقتصر ابن مطروح على أسلوب بعينه ، بل تنوعت الأساليب وتعددت تبعاً لتعدد الأغراض.

ويمكن أن نجل السمات الأسلوبية المستخدمة عند ابن مطروح ضمن العناوين التالية : الأسلوب الإنشائي ، الأسلوب التقريري ، الأسلوب الخطابي. وأساليب أخرى.

اعتمد ابن مطروح في استهلاكات قصائده على الأساليب الإنشائية لتبنيه المتلقي وإثارة اهتمامه وتحضير ذهنه للقول ومن ذلك :

— أسلوب الإستفهام : ويظهر ذلك في قوله :

أخنساء ما قلب المتيم من صخر فيقوى على حمل الصبابة والهجر^(٢)
 — أسلوب النداء : عندما يناجي ابن مطروح الله عزوجل ويدعوه طالباً رحمته يقول :

يامن علا في ملكه فاقتررب ومن بدا في نوره فاحتجب^(٣)

* * * * *

— أسلوب الأمر : يقول :

(١) العدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني - أبو علي الحسن بن رشيق ت ٤٥٦هـ، تحقيق د.محمد فرقران، ط ١ ، دار المعرفة، بيروت ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ٢ : ٧٧١.

(٢) الديوان ج ١٩٨ ، ل ١٦ ، ط ٧ ، ش ١٢ .

(٣) نفسه ج ٢١٢ ، ك ٢٤٤ ، ل ٦٥ .

حدث فقد حدثتنا دوحة السلم عنهم فما أنت في قول بمتهم^(١)

* * *

— أسلوب الدعاء : يقول

يا رب قد عجز الطبيب فداوني بلطف صنعك واشفني يا شافي^(٢)

* * *

— أسلوب القسم : يقول

قسما بفيك وما حوى قسما عظيما في الهوى^(٣)

وقوله أيضا :

وأقسم بالله العظيم وقوله ال.....كريم وإلا مت معتقدا كذا^(٤)

* * *

— أسلوب النهي والنفي يقول :

لا أستزيدك ودا يا أكرم الناس عندي^(٥)

نتبين مما سبق أن ابن مطروح قد قام بتتويج الأساليب الإنشائية التي استخدمها بشكل دل على ثقافة واسعة وصدق انفعال مما أكسب شعره فخامة وقوة .

ويقصد الشاعر إلى استخدام الأسلوب التقريري عند رغبته في تأكيد معنى من المعاني ينظر إليه الشاعر بجلال وعلو مكانة، أو حين يريد الشاعر طرح أفكاره ومبادئه، لذا نرى الشاعر يقف عند محور محدد، ويلج عليه ليزيده إيضاحا، ومن ذلك:

— استخدام كم الخبرية ، يقول :

كم في بيوت بسفح الرمل من قمر على قوام كخوط البانة النضر

(١) نفسه ، ل ٢/٢٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) شذرات الذهب ، ٥ : ٢٤٩ ، ولم ترد في الديوان.

(٣) الديوان ش ٧ ، ط ١/٥ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ٢١٠ ، ك ٢/٢٣ ، ل ١/٢٠ ، ش ٣٧.

(٥) نفسه ج ١٩١ ، ك ٢/١٣ ، ل ١/٦٢.

وكم هلال من الأطواق مطلعُه ذوايب الشعر في بيت من الشعر (١)
وقوله :

كم شجي لولا زيارة طه ما لواه اللوى ولا رام رامة (٢)
ثم يقول :

كم فضيل من أهلها عانته ومن الفقر بيعته العمامة (٣)
وقد استخدم هذا الأسلوب ابن مطروح للتكثير والتضخيم.

— عمد ابن مطروح إلى استخدام التكرار في ألفاظ شعره ومعانيه ، من أجل التأكيد على بعض ملامح الفنون البيعية ، أو لتثبيت بعض المعاني لدى القارئ ، إضافة إلى تكرار الحرف في البيت الواحد لإحداث إيقاع موسيقى متميز ، ومن أمثلة تكرار الألفاظ في القصيدة قوله :

تجري مدامعه ويخفق قلبه فترى العقيق على الحقيقة واللوى
وإذا تألف بـارق في بـارق طفقت تتم عليه أسرار الجوى
لا يستطيع إذا جرى ذكر اللوى أن يطمئن فلا رعى الله اللوى
وتماكنته صبوة عذرية في طيها الوجد المبرح والجوى (٤)

والشاعر في هذه الأبيات كرر كلمتي « اللوى » و « الجوى » للتأكيد على صورة البكاء، ويبدو أيضا أن طابع الصنعة قد لازمه ، الأمر الذي جعله يكرر كلمات بعينها، ويظهر ذلك جليا في قصيدته التي يكرر فيها كلمة « كذا » مرات عديدة، يقول:

تعشقت بـدراً وجهه مشرق كذا إذا ماس خلت الغصن من قده كذا
له مقلّة كحلاء نجلاء إن رنت رمت أسهما في قلب عاشقه كذا
تبدى فقال الناس لا بدر غيره وخر له كل الورى سجداً كذا
أقول وقد عاينته ويمينه على خده إذ طال مفتكرا كذا (٥)

فقد كرر ابن مطروح لفظة « كذا » في قصيدته أكثر من خمس عشرة مرة ، ليعطي قصيدته إيضاحا في الصورة ، وإيقاعاً موسيقياً أعذب. كما سمحت لفظة كذا للسامع في

(١) الديوان ل ٢/٧ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) نفسه ل ٢/٦ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٣) نفسه ل ٢/٦ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ل ١/٢٢ ، ش ٦ ، ط ١/٥ ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٥) نفسه ج ٢١٠ ، ك ٢/٢٣ ، ش ٣٧ ، ل ١/٢٠ .

الإطلاق وراء تخيل ما يمكن تصوره من كل موضع وردت فيه ، إذ في البيت الأول يتخيل السامع صورة امرأة طويلة تميل كالغصن ، وفي الثاني صورة عيون رائعة...

وقد استخدم ابن مطروح تكرار الحروف في البيت الواحد إذ يقول :

أيا قلب دع عشق الحبيب المبرقع ولا تتقنع بالحبيب المقنع^(١)

إذ كرر حرفي « القاف » و « العين » أكثر من مرة مما أعطى للبيت موسيقى خاصة، وابن مطروح يستخدم التكرار في المعاني بكثرة خاصة في الغزل عندما يصف المرأة بطول القامة والتثني كالرمح الأسمر، وكذلك في صورة ممدوحيه، ووصف كرمهم وشجاعتهم، يقول متغزلاً :

تنثى كما هزّ الردينيّ حامله وقد عبقت بالطيب منه غلاله^(٢)

يقول مكرراً المعنى بطريقة أخرى :

وسمراء كالسمراء بتّ ضجيعها تزيت بزّيّ الترك وهي من العُرب^(٣)

والأمثلة في شعر ابن مطروح كثيرة على التكرار ليفيد التقرير من أجل تجلية فكرة أو تأكيد معنى.

* الواقعية :

هي رجوع الشاعر إلى عصره وبيئته والتحدث عنها، من أحداث سياسية ووقائع عسكرية، وعلاقات إنسانية، إضافة إلى الحديث عن البيئة ومظاهرها. إذ عند حديث ابن مطروح عن الأحداث السياسية والعسكرية أبرز الصراع بين المسلمين والفرنج وما رافق ذلك من صور أبطال مجاهدين، ومعارك خالدة، إضافة إلى أسماء قادة الفرنج الذين كانوا في الجهة المقابلة، وما استلزمه التصوير من ذكر للخيل والسيوف والرمح والسهام، وما نتج عن ذلك من قتل وجرح وأشلء، ودماء على السيوف والرمح. وما أسفرت عنه المعارك من انتصارات خالدة ذكرها في شعره مثل معركة دمياط الأولى والثانية، وذكره تحرير القدس ثانية. كما ذكر ابن مطروح أسماء المناطق التي تردد فيها بسفارات أو نزلها نائباً للسلطان من الصعيد إلى حلب ثم دمشق فأمد وبغداد والخليل ...، وقد سبقت الإشارة لذلك.

(١) الديوان ج ١٧٩ ، ك ٢/٧ ، ش ٧ ، ط ٢/٩ .

(٢) نفسه ج ١٨٨ ، ك ٢/١١ ، ش ٢٦ ، ط ٢/١٢ .

(٣) نفسه ج ٢٠٧ ، ك ٢١ .

وقد برزت في شعر ابن مطروح سمة أسلوبية تقوم على استخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية التي توضح الأثر الديني في شعر الشاعر، من ذكر الله، والإسلام، والأنبياء، والمعجزات، والنار والجنة، يقول :

واضمم إليك جناح ملك بالسماك قد التحق (١)

ينظر إلى قول الله عزّ وجل ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ (٢)

وقوله :

وفي القلب نار للخليل توقدت وما ذقتُ منها لا سلاماً ولا برداً (٣)

ينظر إلى قول الله عزّ وجل ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (٤) .

وقوله :

نحن في منزلٍ هو النار حرّاً ولكم منزلٌ كجنة الخلد
فأفيضوا فيه علينا من الماء ومطلوب ما سواه تعذي (٥)

ينظر إلى قول الله عزّ وجل ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرّمها على الكافرين﴾ (٦) .

وقد لجأ ابن مطروح للاقتباس من كتاب الله تزييناً لشعره ورفعاً لقوة العبارة فيه.

— ومن السمات الأسلوبية لجوء ابن مطروح إلى تضمين شعره بعض مصطلحات علم الحديث كما يبدو في قوله مستخدماً مصطلحات الرواية والإسناد :

من معشر تروي العدا خبر العُلا عنهم وتسنده إلى الحساد (٧)

(١) الديوان ج ١٧٩ ، ك ١/٧

(٢) سورة طه ، الآية ٢٢ .

(٣) الديوان ش ١/٤ ، ط ٤ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) سورة إبراهيم ، الآية ٦٩ .

(٥) الديوان ج ٢١١ ، ك ١/٢٤ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ٥٠ .

(٧) الديوان ج ١٨٦ ، ك ٢/١٠

وقوله :

ولا زال موقوفاً على الدمع ناظري متى لم يبت وجداً عليك مسهداً^(١)
يشير إلى رواية^(٢) الحديث وسنده^(٣)، والحديث الموقوف^(٤)، وسواه من مصطلحات علم
الحديث.

— ومن الأساليب التي عمد إليها ابن مطروح الاستعانة بالفاظ ومعان من علم الفقه،
يقول:

إذا ما وجدت البحر سهلاً وروده فما لك وجة في التيمم بالتراب^(٥)

يشير إلى القاعدة الفقهية المعروفة « إذا حضر الماء، بطل التيمم »^(٦).

— ومن السمات الأسلوبية التي نحاها ابن مطروح في أشعاره استخدام الحوار، وهذه
السمة كثيرة الشيوع لديه إما بالحديث مع شخص آخر، أو بالحديث مع نفسه مما يدخل
الحركة، ويغير المألوف في ثنايا نظمه، يقول :

| | |
|------------------------------|---|
| وقائلة: ماذا التخوف كلـه | من الله وهو المنعم المتفضل |
| فقلت لها: علمي بما قد جنيتـه | وإني عليم حين أقدم أسأل |
| فقلت: إذا فكرت في يومٍ موقف | يهونُ عليك الأمرُ جداً ويسهل |
| فقلت لها: أرشدت للخير كله | ولو كنتُ ذا حزمٍ لما كنتُ أخجل ^(٧) |

(١) الديوان ط ١/٤، ش ٤، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) رواية الحديث: هي الطريقة التي يؤدي بها الحديث النبوي الشريف من سماع وقراءة على الشيخ
ونسخ عنه، وإجازة، ومناولة، ومكاتبة، وإعلام ووصية ووجادة. انظر الباعث الحثيث شرح
اختصار علوم الحديث، الحافظ ابن كثير، ٧٠١ - ٧٧٤ هـ، تأليف أحمد محمد شاكر، دار الكتب
العلمية، بيروت - لبنان، دون تاريخ، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٣) السند: هو العلم الذي يبحث في رجال الحديث، ضبطاً وأمانةً وعدالةً. انظر الباعث الحثيث - ابن كثير،
ص ٢٧ وما بعدها.

(٤) الحديث الموقوف: هو ما يختص بالصحابي وما يسميه بعض الفقهاء والمحدثين أثراً، وقالوا: الخبر
ما كان عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والأثر ما كان عن الصحابي - أي ما توقف إسناده حتى
الصحابي. انظر الباعث الحثيث، ص ٤٥.

(٥) الديوان ج ٢٠٧، ك ٢١.

(٦) انظر الموطأ لإمام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس رضي الله عنه، صححه ووثقه وخرجه أحاديثه
وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، ١: ٥٤

(٧) الديوان ج ٢١٥، ك ٢/٢٦، ل ٢/٦٥.

فهنا أراد ابن مطروح أن يبين مدى قلقه وخوفه ومحاولة زوجته التخفيف عنه عبر هذا الحوار الشعري الذي أداره هو على لسانه ولسان زوجته. ومثل قوله :

| | |
|------------------------------|--|
| أعلمتها أن التفروق في غسد | قالت وعيش أبي لقد أحزنتني |
| وبكت فلو نظمت لآلي دمعها | ظفرت يدي منها بعقد مثن |
| وتقول إذا أوجفت خيفة أهلها | اضرب بلحظي أو بقدي فاطعن |
| أو فاحتجب إن شئت إن لم تلقهم | بدجى ذؤابتي الأولى حيرنني ^(١) |

— ومن السمات الأسلوبية التي يستخدمها ابن مطروح في شعره، المبالغة، ومن ذلك ما يبدو في قوله:

| | |
|------------------------------|--|
| لما سموا سمحوا فحدث صادقاً | عن أنفسي تسمو وأيد تسمخ |
| حيث النجوم تعد من حصبائها | والبرق منها بالسناكب يقدح |
| والغيث حيث يرى الملائك سجداً | وجباها عرقاً هنالك ترشح ^(٢) |

وقوله :

| | |
|----------------------------|---|
| ما أبصرته الشمس إلا واختفت | خجلاً ولا غصن النقا إلا التوى |
| قالوا أفيه سوى رشاقة قدّه | وفتور عينيه وهل موتي سوى ^(٣) |

وعلى الرغم من أن المبالغة قد أتت قوية عالية التصوير، فإنها حين ترتبط بالأمور العقديّة تتقل على الأسماع ويستقلها الطبع السليم.

— ومن السمات الأسلوبية التي عمد إليها ابن مطروح أسلوب السخرية والاستهزاء في هجائه، أو حين يذكر أعداء الأمة الفرنج، إذ يحط من قيمة قائدهم وجيشهم، ويصف مصيرهم الحالي، ومصيرهم الآتي إن عادوا لمثلها، يقول :

| | |
|----------------------|--------------------------|
| قل للفرنسيس إذ جنته | مقال صدق من قؤول فصيح |
| آجرك الله على ما مضى | من قتل عبّاد يسوع المسيح |

ثم يقول :

| | |
|-------------------------|-----------------------|
| خمسون ألفاً لا يرى منهم | إلا قتيل أو أسير جريح |
|-------------------------|-----------------------|

(١) الديوان ج ٢٠٢، ك ٢/١٩، ل ١/١٧.

(٢) نفسه ج ١٧٣، ك ١/٣.

(٣) نفسه ل ١/٢٢، ط ١/٢٥، ش ٦، ولم ترد في الديوان المطبوع.

فردك الله إلى مثلها
 لعل عيسى منكم يستريح
 إن كان باباكم بذا راضياً
 فرباً غيب قد أتى من نصيح^(١)
 وفي هجائه كان يميل إلى السخرية أيضاً ليصل إلى ما يريد من النيل من مهجوه،
 مع مرح وفكاهة إذ يقول :

دخل الشيخ فلان في الدين مرة
 وتعاطى الزهد جداً فكفانا الله شره^(٢)
 وقد أكثر ابن مطروح من السخرية في هجائه ملصقاً صور السخرية بمهجوّه، وتم
 إيضاحه في عرض الهجاء.

— وقد استخدم ابن مطروح في شعره ألفاظاً سهلة ميسورة بحيث يفهمها ويدركها السامع
 بصرف النظر عن الزمن. ويكاد شعر ابن مطروح يخلو من الألفاظ الغريبة أو الصعبة
 إلا كلمات معدودة ، مثل قوله :

وتكفلت ببلوغ ما حاولته
 وهمّ يضيق بها الفضاء الأفيح
 فالشذمية* في الأزمة ترتمي
 والأعوجية* في الأعنة تمرخ^(٣)
 فهاتان اللفظتان لا يفهمها السامع اليوم لبعده الوقت وعدم الاستعمال، وقد تكون مفهومه
 في حينها.

— ومن السمات الأسلوبية التي عمد إليها ابن مطروح في شعره الاقتباس من القرآن
 الكريم، يقول :

وأعيذ جسمك بعدها من وعكة
 تعتاده بالذاريات وصاد^(٤)

* * *

— وابن مطروح يعمد إلى الإفادة من شعر الشعراء السابقين، ففي قوله :

ولقد ذكرتك والصوارم لمع
 من حولنا والسمة شراع^(٥)

(١) الديوان ج ١٨١ ، ك ٢/٨ ، ل ١/٥٨ .

(٢) مسالك الأبصار ١١ : ١٦٠ ، ولم ترد في نسخ الديوان .

(٣) الديوان ج ١٧٣ ، ك ٢/٣ . * ورد تفسير الشذمية على هامش نسخة كوبريلي ما نصه (قوله
 الشذمية أي الإبل المنسوبة إلى شذقم) انظر هامش ورقة ك ٢/٣ . * الأعوجية : النوق التي تُنسب إلى
 فحل من الجمال مشهور يقال أنها سبقت القطا عند سيرها، هامش ك ٢/٣ .

(٤) الديوان ج ١٨٥ ، ك ١/١٠ ، ش ٩ ، ط ١/٦ .

(٥) نفسه ج ١٩٥ ، ك ٢/١٥ ، ل ١/٦ .

يشير إلى قول عنتره :

ولقد ذكرك والرماح نواهلً
مني وبيض الهند تقطر من دمي (١)

وفي قوله :

ألا لا تذكروا هراً بخيرٍ
فما هرم بأكرم من زهير (٢)
فابن مطروح عند مدحه للبهاء زهير يشير إلى قصة زهير بن أبي سلمى الشاعر
الجاهلي لهرم بن سنان والحارث بن عوف لسعيه في الصلح بين عبس ونبهان (٣).

وفي قوله :

وبالعيون التي في طرفها مرض
وبالخدود إذا احمرت من الخجل (٤)
يشير إلى قول جرير بن عطية :

إن العيون التي في طرفها حورٌ
قتلنا ثم لم يحيين قتلانا (٥)
وفي قوله :

لم أنس وقد زارت على استحياء
كالبدر سرت في الليلة الظلماء (٦)
يشير إلى قول أبي فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم
وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر (٧)
والأمثلة على تأثر ابن مطروح بالشعراء الذين تقدموه كثيرة.

* * *

— ومن الأساليب التي قصدها ابن مطروح استخدامه ألفاظاً مستوحاة من علم اللغة، فهو
يستخدم مصطلحات لغوية تشير إلى الحالات الإعرابية المعروفة من كسر وضمّ وغير
ذلك، يقول :

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري، اختيار العلامة يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف
بالأعلم الشنتمري ٤١٥ - ٤٧٦ هـ ، تحقيق لجنة إحياء التراث بدار الآفاق الجديدة، ط ٢،
بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ٢: ١٢٩.

(٢) الديوان ج ١٩٤، ك ١/١٥، ل ٦٣.

(٣) انظر أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الأعلم الشنتمري، ١ : ٢٦٩.

(٤) الديوان ج ٢١١، ك ٢/٢٤، ل ٦١.

(٥) ديوانه ٨٣

(٦) الديوان ط ١٧، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٧) ديوانه ١١٥

أعربت في هام العدي لغة الردى
ورفعتها بعوامل المران^(١)
إذ يذكر الإعراب والرفع واللغة والعامل^(٢).

* * * * *

— وقد استخدم ابن مطروح ألفاظاً مستوحاة من علم الفلك، إذ يشير إلى هدية أرسلها إلى صديق هي صورة لقبة السماء مع مجسم كرة الأرض يقول :

كرة الأرض مع محيط السماء لك اهديت يا كريم الإخاء^(٣)

مما تقدم نلاحظ أن ابن مطروح قد نوع في أساليبه مستخدماً في شعره أساليب مختلفة منها الإنشائي والتقريرى والخطابي معتمداً على قاموس وافر من المعلومات والألفاظ المستوحاة من القرآن والسنة وشعر الشعراء السابقين والعلوم المتنوعة، إضافة إلى تأثره بأحداث عصره من حروب وما فيها من قتل وخيل وسلاح، وجاءت ألفاظه سهلة ميسورة إذ لم يتبع الألفاظ المهجورة ولا الثقيلة على الأذن، فجاء شعره نتاج عصره وابن بيئته.

الفنون البديعية :

شاع في هذا العصر استخدام المحسنات البديعية إلى حد الإسراف، فصرف معظم الشعراء جلّ اهتمامهم وعنايتهم إلى هذه الظاهرة الأدبية، وغدت مقياس الجودة الذي يقاس به الأدب لدى النقاد^(٤). والطابع العام للشعر في هذه الفترة هو شيوع البديع والصنعة، والذي غدا حاجة وضرورة يقتضيها الذوق الأنبي العام في تلك الفترة.

يقول الدكتور محمود إبراهيم: «يستمر الاهتمام بالبديع في القرن السادس وبخاصة في مصر والشام حيث اهتم علماء البلدين بالبديع وفنونه على أساس اهتمامهم بالخصائص الحسية والجمالية في فنون القول وتقديمها على الخصائص المعنوية، وجوانب الإقناع الفعلي، ومن ثم ظهر البديع فناً في التعبير وطريقاً من طرق القول

(١) الديوان ج ١٧٦ ، ك ٢/٤ .

(٢) انظر الأصول في النحو، ابن السراج أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي ت ٣١٦ هـ، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ج ١ : ٤٥ .

(٣) الديوان ج ١٩٤ ، ك ١٥ ، ل ٥٩ .

(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ٢٩٤ .

الجميل الذي يمتع الأذن ويعذب وقعه في النفوس. وشيئاً فشيئاً أصبح البديع غاية في حد ذاته وبالغ الأدباء فيه وفرعوا له حتى أسرفوا في ذلك» (١).

فالاتجاه السائد في تلك الفترة هو اقتران الأدب بالبديع، حيث أصبح كل أديب يسعى إلى تزيين فنه الأدبي بالمحسنات اللفظية والمعنوية، وبألوان البديع المختلفة ليحقق الروعة والجمال لأدبه، ويتعامل ومقتضيات العصر التي أصبح الذوق العام عندها بديعياً. وقد حفل شعر تلك الحقبة بألوان البديع المختلفة وشيوع الصناعة اللفظية، ولما تجد شعراً ينهج صاحبه غير هذا النهج، وقد استخدم ابن مطروح عدداً من الفنون البديعية في شعره، مثل :

– الجناس: ومعناه أن يورد المتكلم كلمتين، تجانس كل واحدة منها صاحبتهما في تأليف حروفها، ومنها ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظاً واشتقاقاً، ومنه ما يجانسه في تأليف الحروف دون المعنى (٢).

ويعد الجناس أحد المميزات الخاصة لأسلوب ابن مطروح، فقد اعتمد عليه كثيراً في قصائده، وكان هدفه من ذلك تحقيق إيقاع موسيقى خاص في الشعر، وكان يبالي في ذلك كما في قوله:

ذكر الصبّا فصبّا وكان قد ارعوى صبباً على عرش الغرام قد استوى (٣)
وقد جاء الجناس في الصبّا وصبباً، ارعوى واستوى.

وقوله:

فإن العيون السود وهي فواتر تقدّ السيوف البيض وهي بواتر
فلو في الكرى مرّ النسيم بطيفها سرى رائداً من طبيها وهو عاطر (٤)
يجانس ابن مطروح بين فواتر وبواتر، وفي البيت الثاني الكرى وسرى.

وقوله :

بغداد أيتها المذاكي إنها أنجى وأنجع للشؤون وأنجح (٥)
وقد أورد أنجى وأنجع وأنجح.

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص ٢٠٠.

(٢) انظر كتاب الصناعتين، العسكري ص ٣٥٣.

(٣) الديوان ط ١/٥، ش ١/٦، ل ١/٢٢، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ١٩٧، ك ٢/١٦، ل ١/١٦، ط ٢/٦، ش ١٠.

(٥) نفسه ج ١٧٣، ك ٢/٣.

وقوله :

وصلت إلى درجات العُلا وصلت على الزمن المعتدي (١)
وظهر ذلك في قوله وصلت ، وصلت.

وقد يعمد ابن مطروح إلى استخدام الجناس بشكل متكلف كما في قوله :

بعيشك حدث العشاق عني وشافهم بما أبصرت مني
فإن سألوك فقل فارقت يحيى يموت جوى ويحيى بالتمني (٢)

ويبدو التكلف باستخدام الجناس واضحاً في قوله يحيى ويحيى.

وقوله في موضع آخر:

ولي عادل في حبها غير عاذر وما ينفع الأبصار لولا البصائر (٣)

ويبدو ذلك في قوله عادل، عاذر، وكذلك الأبصار والبصائر.

مما تقدم نتبين أن ابن مطروح قد استخدم التجنيس عند ذكر كلمات فيها مشابهة في اللفظ والمعنى، أو في اللفظ فقط، أو بجزء من الألفاظ المستخدمة. ومن التجنيس ما كان محبباً خفيف الوقع على الأذن، والقليل منه كان متكلفاً تجشم ابن مطروح للوصول إليه صعوبة الصنعة وثقلها على المسامع.

لقد اعتمد ابن مطروح على المجانسة لتحقيق إيقاع موسيقي خاص ينسجم مع جو القصيدة، يعيش فيها المتلقي أجواء القصيدة بكل معانيها، كما استخدم الجناس في بناء قوافي قصائده حتى لا يحس القارئ أن تلك القوافي تنبثق انبثاقاً تلقائياً من الكلمات السابقة لها في صنعة خفية.

- الطباق: إن المطابقة في الكلام تعني الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت الشعري من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد (٤). وقد برز هذا الفن واضحاً في شعر ابن مطروح، وأكثر منه في قصائده. وقد جاء الطباق عنده عفويّاً في بعض الأحيان، ولكنه في بعضها الآخر يبدو متكلفاً، ومن أمثلة الطباق قوله :

(١) الديوان ج ١٨٩، ك ٢/١٢ .

(٢) نفسه ل ٢/٢٠، ش ٣٣، ط ١/١٦، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ١٩٧، ك ٢/١٦، ل ١/١٦، ط ٢/٦، ش ١٠.

(٤) كتاب الصناعيين / العسكري ص ٣٣٩ .

وقد نسخت لي آية السُخْط بالرضى ولم أَرِ مثل اليسر يأتي على العسر (١)
وقد وردت المطابقة في البيت السابق بين السخط والرضى واليسر والعسر.
وقوله أيضاً :

ويسعى فتسعى حية الشَّعرِ خلفه وإن شئتَ قلَّ ليلٌ وراءَ نهارٍ (٢)
فبعد أن ذكر طول شعر محبوبته وأنها كالحية السوداء التي تسعى وراءها، ذكر هذه
الصورة التي يشبه بها وجه حبيبته بالنهار وشعرها بالليل، فأنت المطابقة عنده في
لفظتي ليل ونهار.
وقوله أيضاً :

عشق المعالي فاقتدى بثلاثةٍ تغنيه في الإصدار والإيراد (٣)
وظهرت المطابقة في قوله الإصدار والإيراد.
وقوله :

كريمٌ له بيت كريمٍ تقاسمت أو اخره إرثُ العُلا وأوائله (٤)
وورد الطباق في قوله أو اخره وأوائله.
وقد يأتي الطباق عفو الخاطر دون تكلف أو صنعة فيكون سهلاً عنياً كما في قوله:
تزيدين عزاً كلما زدتُ ذلةً لولا الهوى ما ذلتُ الأسدُ للعفر (٥)
وقوله :

صعبٌ على الأعداء إلا أنه سهلٌ اهتراز العطف للقصاد (٦)
وقوله :

إن لم أنل بالمغرب الأقصى المنى حاولت ذلك ولو بأقصى المشرق (٧)
والأبيات الثلاثة السابقة جاء الطباق فيها سهلاً ولطيفاً في معناه ، ففي البيت الأول انسجم
الطباق مع الغرض وهو الغزل، فتدلل المحب يزيد في عزّة المحبوبة، وفي البيت الثاني
جمع الممدوح بين الضدين، فهو صعب على الأعداء وسهلٌ لقصّاده ومحبيه، وكذلك في

(١) الديوان ج ١٩٨، ك ٢/١٧، ل ٢/١٦، ط ١/٨، ش ١٣ .

(٢) نفسه ط ١/٧، ش ١١ ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٣) نفسه ج ١٨٥، ك ٢/١٠ .

(٤) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١ .

(٥) نفسه ج ١٩٨، ك ١/١٧، ل ١٦، ط ٢/٧، ش ١٢ .

(٦) نفسه ج ١٨٦، ك ٢/١٠ .

(٧) نفسه ج ٢٠٠، ك ١/١٨، ط ١/١١، ش ٢١ .

البيت الثالث جاء الطباق ليعبر عن نفسية الشاعر القلقة من البقاء في أرض لا خير في سكّانها، فأراد الشاعر إظهار ما يعتلج في صدره من بغض للمكان برغبته للحركة إلى أية بقعة سواء كانت المغرب الأقصى أو أقصى المشرق.

نتبين مما سبق أن الطباق قد ساهم بشكل فاعل في تجميل قصائد ابن مطروح، كما ساهم بشكل فاعل في إبراز المعاني وتشخيصها إلى حد معين، كما أظهر بعض المعاني النفسية عند الشاعر.

- المقابلة : « يقصد بها إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»(١).

وقد استخدم ابن مطروح المقابلة في شعره وظهر ذلك جلياً، ومن ذلك قوله:

جلبوا الذي يفنى وينفذ عاجلاً و جلبت ما يبقى فمن هو أربحُ(٢)

في شطري البيت بين حالتين حالة من جلب ما ينفذ، وحالة من جلب ما يبقى، وكأنه يقول لا يستويان.

وقوله :

يا ناصر الدين الحنيف بسيفه ومذل أهل الشرك والطغيان(٣)

وقد قابل ابن مطروح بين حالة الممدوح الذي يقوم بنصر دين الله، وهو في نفس الحال يذل أهل الشرك. فهي صورة عزة قوم وإذلال آخرين.

ومن الجدير ذكره أن المقابلة تضيف على الشعر سمة موسيقية ذات جرس خاص تساهم في تجلية صورة الممدوح.

- التورية : اعتمد ابن مطروح على التورية في بعض قصائده، فمن ذلك قوله:

لله أي فضيلة أدركتها في خدمة المولى الوزير الناسك

عند الإمام الشافعي لقيته فظفرت عند الشافعي بمالك ي(٤)

(١) كتاب الصناعين ، ص ٣٣٧.

(٢) الديوان ج ١٧٤ ، ك ١/٤.

(٣) الديوان ج ١٧٦ ، ك ١/٤.

(٤) نفسه ج ١٩٢ ، ك ١/١٤ ، ل ١/٦٣.

فمن البيتين السابقين ذكر ابن مطروح زيارته لقبر الإمام الشافعي، ووجد هناك من يريد، فورى بقوله «بمالك» عن يريد، وهو كمن يملك ابن مطروح بإحسانه وجوده، فكلمة مالك تبدو لأول وهلة أنها تعني الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وهو في الحقيقة أراد معنى آخر ألا وهو شعوره بالعرفان تجاه معين الدين بن شيخ الشيوخ. وقوله :

وشقايقاً قبلتها في خده حتى رنا لدنوها النعمان (١)

في البيت السابق أشار إلى احمرار الخد وورى بصورة شقائق النعمان الحمراء. مما سبق تبين لنا أن ابن مطروح عمد إلى استخدام التورية لإيضاح بعض المعاني في موضع، وفي إيضاح الصورة مرة أخرى.

- رد الأعجاز على الصدور: وهو (التصدير) ، وقد سماه ابن المعتز رد أعجاز الكلام على ما تقدمها (٢) وقد طرق ابن مطروح هذا الفهم في شعره يقول :

وروى الأراك محاسناً عن ثغره يا نعم ما نقل الأراك وما روى (٣)

فبعد ذكر رواية الأراك عن محاسن ثغره، يعود ثانية ليثني على هذا الأمر. وقوله :

فإن كان أسر العاشقين كما أرى فيا رب لا تنقذ محباً من الأسر (٤)

إذ يذكر حالة الأمر لدى العاشقين، ثم يعود للدعاء لاستمرار هذه الحالة إن كانت كذلك. وقد ساهم استخدام ابن مطروح لهذا الفن في التأكيد على المعاني التي أحب إبرازها.

- حسن التعليل : من الفنون التي استخدمها ابن مطروح، إذ يورد الموقف ثم يوضح سبب حذره منه، كما في قوله :

ولا تُخدعوا من رقة في كلامها فإن الحميا للعقول تخامر (٥)

(١) الديوان ط ٢/١٦، ش ٣٤، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٢) اليديع ، ابن المعتز أبو العباس عبد الله بن المعتز، ت ٢٩٩ هـ ، تحقيق وتقديم د. محمد عبد المعتم خفاجي، ط ١، دار الجليل - بيروت ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. ص ٤٧.

(٣) الديوان ط ٥ ، ش ٦ ، ل ٢٢ ، ولم ترد في الديوان المطبوع.

(٤) نفسه ج ١٩٨ ، ك ٢/١٧ ، ل ٢/١٦ ، ط ١/٨ ، ش ١٣.

(٥) نفسه ج ١٩٧ ، ك ٢/١٦ ، ط ٢/٦ ، ل ١٦ ، ش ١٠.

فحديثها رقيقٌ في رقة الخمر، ولكن الخمر على لطافتها تسلب العقل وتذهب به، وكذلك كلامها.
وقوله :

لا يخدعناك لحظ طرف فاتر
أبدأ ولا تأمن لعطفه لين
فالخمر وهي كما علمت لطيفة
ولها من الألباب أي تمكن^(١)

فحد السيف لطيف ناعم ، إلا أنه قاتل، وكذلك لحظ العين الفاتر الساهي، وأيضاً الرمح لينٌ ينثني غير أنه فتاك، وكذلك قامة المحبوبة وتثنيها، والخمر ولطفها كما تقدم.
ويتبين لنا أن الشاعر عمد إلى هذا الفن لزيادة تفتيق المعاني وإيضاح ما يرجو إيضاحه في ذهن السامع وإلقاء الضوء على بعض الصور وتقسيماتها، أو بعض المعاني ودلالاتها.

نخلص إلى القول أن ابن مطروح قد تأثر بمقاييس عصره الأدبية واستخدم البديع ولاقى لديه قبولاً واستحساناً، فعني كثيراً بالتصنيع البديعي حافظاً ومقتفياً لمذهب المطابقة والتجنيس، فظهرت ألفاظه وتراكيبه مزخرفة مزركشة، تفاوتت كثرةً وقلّةً حسب المواضيع، قربية من الذوق العام والطبع السوي، لكنه في بعض الأحيان كان بعيداً على قلّة هذه المواضيع في شعره، محاولاً محاكاة السابقين في هذا الدرب.
الصورة الشعرية:

تعتمد الصورة في الشعر على خيال الشاعر، ((وهي أساس الشعر، وروحه، وهو قائم عليها، وهي جزء من مبنى القصيدة، وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه وتعبيره عن حالة نفسية معينة يعاني منها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة))^(٢)
وعناصر الصورة الأساسية، المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية والشاعر بخياله يلتقط صورة ببراعة، ويقيم علاقات بين الأشياء المتباعدة، وهو يتتبع الأشياء الساكنة فيبث فيها الحركة، ويلونها كيف شاء، والهدف من ذلك كله هو أن يصل بشعره إلى مستوى جمالي رفيع له تأثير في قلوب السامعين.

وقد عُني ابن مطروح بالصورة الفنية في شعره، واثكاً في ذلك على ألوان البيان المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وقد كان مقلداً في بعضه، مجدداً في

(١) الديوان ج ١٧٦ ، ك ٢/٥ ، ش ٣١ ، ط ١/١٧.

(٢) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص ٣١١ .

بعضها الآخر. ويعود سبب التقليد إلى سيطرة الموروث الشعري القديم عليه وعلى شعراء عصره بعامه، أما محاولة التجديد والإبداع فكانت غاية كل شاعر وكل أديب. وقد تعددت مصادر الصورة في شعر ابن مطروح فتارة يستمدّها من الحروب كما في قوله:

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| يلقي الكمأة فمن نجا من سيفه | غلطاً فما ينجو من الأصفاد |
| وتراه أثبت ما يرى في معرك | والخيل تعثر في القنا المياد |
| حيث النفوس عن الجسوم بمعزل | فكانها غضبي على الأجساد |
| والبيض حمراً من نجيع دم الطلي | فكانها علّت من الفرصاد* |
| فهناك يقدم ضاحكاً مستبشراً | وهناك يُحجم كل ليث عادي (١) |

فقد رسم الشاعر في هذه الأبيات مجموعة من الصور استمدّها من عالم الحروب حيث صورّ النفوس الثابتة والنفوس المتزعزعة، وحيث صورّ الخيل في عثرتها، وصورّ السلاح المتلونّ بالدم، وهي معروفة في الموروث الأدبي القديم .
وقوله:

| | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| عفافٌ وإقدام وحزم ونائل | الا في سبيل المجد ما أنت فاعله |
| إذا سار فوق الراسيات تزعزعت | وصدعت السبع الشداد صواوله |
| ورب خميس طبق السهل والربا | وزاحمت الجوزاء منه عوامله |
| يكم يا بني شيخ الشيوخ تأيدت | قواعد هذا الدين واشتد كاهله (٢) |

وهذه الصور المستمدة من عالم الحرب هي صور قديمة معروفة عند الشعراء السابقين، والشاعر يقف هنا موقف المحاكي والمقلد، وتارة يستمد ابن مطروح صورة من عالم الطبيعة كما في قوله:

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| وأعيد مجدك لو عبرت إلى لظى | خمدت وكان لهيبها لا يفلح |
| وتبدلت في الحال روضاً منبتاً | زهراً وبات الغيث فيها يسفح |
| وغدت جداولها تصفق بهجة | والأيك ترقص والحمام تصدح (٣) |

* الفرصاد: عجم الزبيبي والعنب، الفرصاد والتوت الأحمر، الفرصاد الحُمرة، انظر لسان العرب ٣:٣٢٣ (فرصد).

(١) الديوان ج ١٨٥، ك ١/١٠، ش ٩، ط ١/٦ .
(٢) نفسه ج ١٨٨، ك ٢/١١، ش ٢٦، ط ١/١٢ .
(٣) نفسه ١٧٢، ك ١/٣، مسالك الابصار ١١/١٦٠.

وتتردد صور الطبيعة كثيراً في شعره كما في قوله:

وما كنتُ إلاّ الروض باكره الحيا
فأينع زاويه ورقته خمائله
وضاع شذا أزهاره وتدفت
بمدحك من هذا الثناء جداوله (١)

وقوله:

فما شك طرفي أنها الشمس أشرفت
ولا أنني أوتيت آية يوشع
تميل من الإدلال والسكر والصبأ
كما مال نشوان بصرف المشعشع (٢)

فما الروضة الغناء غنى حمأها
وأحسن منها في الحلبي المنوع (٣)
وقوله:

تلعب فيهم بالكلام تلعباً
كما تلعب الأمواج في البحر بالفلك (٤)

فصور الروضات الخضراء، والأزهار الجميلة، والغيث المتساقط عليها، وصور الشمس والأمواج والبحر هي من الصور التي اطردها في الشعر العربي القديم، وقد حرص الشاعر على رسمها تقليداً بمن سبقه، وتأثراً بعالم الطبيعة من حوله.

وتارة يستمد ابن مطروح صورته من العلوم المختلفة وبخاصة علم الفلك كما في قوله:

لا تخدعن بظاهر عن باطن
قد يظهر الإنسان ما لم يبطن
والسبعة الأفلاك ما حركاتها
إلاّ مخافة أن تقول لها اسكني (٥)
وقد تستفاد الصورة من علوم القرآن والعقيدة الإسلامية كما في قوله:
وشهدت فيه في الحقيقة يوسفأ
حسناً وحسنياً في علأ وسداد (٦)

وقوله:

واصدع حشا الرومي من
واضمم إليك جناح ملك
ك بعزمة مثل الفلق
بالسماك قد التحق (٧)

(١) الديوان ج ١٨٨، ك ٢/١١، ش ٢٦، ط ٢/١٢ .

(٢) نفسه ج ١٧٩، ك ٢/٧، ش ١٧، ط ٢/٩ .

(٣) نفسه ج ١٧٩، ك ٢/٧، ش ١٧، ط ٢/٩ .

(٤) نفسه ل ٢/٥٣، ش ٢١، ط ١/١١، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(٥) نفسه ج ٢٠٢، ك ٥/٢، ش ٣٠، ل ٢/١٦، مسالك الأبصار ١١: ١٥٣ .

(٦) نفسه ج ١٨٥، ك ١/١٠، ش ٩، ط ١/٦ .

(٧) نفسه ج ١٧٨، ك ٢/٦، ش ١٩، ط ١/١٠ .

وقوله:

وتسعى بالثريا فيه كأساً
ولكن من رحيق سلسبيل
ولا أرضى لها بنت الدنان
بأيدي عبقریات حسان^(١)

وقوله:

لما بدا للغانيات وقد بدا
قطعن أيديهن حين رأينه
من حسنه مالا يحد ويوصف
بما افتتنن وقلن هذا يوسسف

وقوله:

فريد جمال وحد القلب حبه
وما بيننا أستغفر الله ريبة
وقد يستفيد من علوم الأدب وما يقرب منها من علوم ومثال ذلك قوله:
مطرز من وجنة الأمرد
كما هشت الهيم للمورد
نفيس الحلبي على الخرد
وسجع يفوق كعهدي به

وقد تؤخذ الصورة من علم الحديث كما في قوله:

من معشر تروي العدا خبر العلا
عنهم وتسنده إلى الحساد

وقوله:

وروى الأراك محاسناً عن ثغره
وقد يأخذ صورته من علم التاريخ كما في قوله:

كم يلهجون بقيصر من قيصر
لعداه عسر عند يوم لقائه
في ذا المقام وصاحب الإيوان
وله عليهم قدرة النعمان

وقوله:

لا آل برمك إن جرى ذكر الندي بلغوا مداه ولا بنو عباد

وقد أجاد ابن مطروح في رسم بعض الصور في قصائده وتغنى في تلوينها بألوان مختلفة، وأضفى عليها طابع الحركة وبت فيها الحياة، لكن بقيت هذه الصور جزئية تعتمد في الغالب على براعة التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

(١) الديوان ج ١٧٨، ك ٢/٦، ش ١٩، ط ١/١٠ ..

فلو في الكرى مَرّ النسيم بطيفها سرى رائداً من طيبها وهو عاطر
قلاندها تشكى الظما وشاحها وإن شرفت من معصمها الأساور
بعيدة ما بين المخلخل والطلّى ترى الطرف عنها ينثني وهو حاسر
إذا ما انتهى الخلخال أخبار قرطها فيا طيب ما تملي عليه الضفائر

ففي هذه الأبيات مجموعة من الصور الجزئية عبر بها الشاعر عن جمال المحبوبة، فصور النسيم المار بطيف الحبيب يستمتع بطيب الرائحة، والقلاند كأنها إنسان يشكي، والخلخال يتشوق ويشتهي سماع أخبار القرط، فتأتي الضفائر فتزوده بالأخبار السارة عن القرط، كل هذه الصور قائمة على التشخيص والتجسيم، ولكنها لا تعطينا صورة متكاملة متناسقة الأجزاء.

وقوله وقد جسم البحر في صورة إنسان يغار:

ولقد يغار البحر من معرفه حتى يرى متتابع إلا زباد
وقوله:

والدهر تاه بمجدكم فكأنما ألستموه رونق الأعياد
وقوله وقد جسم الأراك في صورة محدث أو راوٍ للأخبار:

وروى الأراك محاسناً عن ثغره يا نعم ما نقل الأراك وما روى
وقوله في تشخيص الشمس:

ما أبصرته الشمس إلا واختفت خجلاً ولا غصن النقا إلا التوى
وقوله في تجسيم المسواك:

وأفانني المسواك أن رضا بها شهدّ ومسكّ والأراك أمين
ويفتخر ابن مطروح بالتجديد في الصورة كما في قوله:

وببضاء كالسمراء لينا وقامة ولم أر غيري شبه البيض بالسمر
ويرسم لقصيدته صورة مجسمة لامرأة جميلة كما في قوله:

وإلى أمير المؤمنين رفعتها عذراء تنفر من سواه وتجمع
من جوهر الكلم الشريف تخيرت ومن الكلام مبهرج ومنقح
محبوبة وحديثها بين السورى إنّ الإناء بما وعاه ينضح
تسري الكواكب طالبات شأوها وتبيت في بحر المجرة تسبح

ويبدو طابع الصنعة على بعض الصور كما في قوله:

أنا من جبلت على الغرام من الصبا وبه سألقي الله يوم معادي

فإذا أتى العشاق كنت أميرهم وجميع من قتل الهوى أجنادي
وقوله:

أنتم لهذا الملك لا زلتم له بمثابة الأعضاء والأعضاء
وقوله:

وبكت فلو نظمت لآلي دمعها ظفرت يدي منها بعقد مثنى
وقوله:

فعلام بعد الاصطفاء نبذتني نبذ النواة بقول واش قد سعى
وقوله:

تسبب بمدح ابن الوزير وصلته كما وصل الياقوت بالؤلؤ الرطب
كسوت بفخر الدين شعري محاسناً فأضحى له فخر على السبعة الشهب
وقوله:

يا شمس قلبي في هواك عطارد لولا تعرضه لها لم يحرق
وأجل ذنبي عندها عدم الغنى فكأنه شيب ألم بمفرقي
وقوله:

شبهته بالبدر قال ظلمتني يا عاشقي والله ظلماً بيناً
البدر ينقص والكمال لطلعتي ولأجل ذلك رحمت منه أحسنا

ونخلص إلى القول بأن الصورة الشعرية في شعر ابن مطروح هي صورة جزئية في الغالب الأعم، وقد اعتمدت على وسائل البيان المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية، وقد تصنع ابن مطروح في كثير من صورته التي طبعت بطابع التقليد والاتباع، كما ابتكر وجدد في بعضها الآخر مما يدل على خيال واسع، وقريحة مبدعة .

الخاتمة -

لقد اشتملت هذه الدراسة على دراسة لشاعر من شعراء الحروب الصليبية وهو «جمال الدين يحيى بن مطروح» الذي لم يحظ باهتمام الكتاب والباحثين. وقد حرصت على دراسة حياة الشاعر في مراحل حياته المختلفة، وأوليت اهتمامي للوقوف على إنتاجه الشعري. فجاءت دراستي في أربعة فصول، درست في الفصل الأول حياة ابن مطروح فعرضت لسيرته وتحدثت عن اسمه ونسبه، وكنيته، وأسرته، وأظهر البحث لي أن ابن مطروح كان متزوجاً، حرص على عدم ذكر زوجته أو أي من أسرته في شعره، كما تحدثت عن مراحل حياته، منذ ولادته في صعيد مصر سنة (٥٩٢ هـ)، وعاش حياته الأولى بين أسبوط وقوص حتى مقبل شبابه، وهناك بدأت بواكير شعره، حيث مدح والي الصعيد ابن اللمطي سنة (٦٠٨ هـ)، والتقى في بلاطه بالشاعر المعروف البهاء زهير، وارتبطا بعدها برباط صداقة متين، ثم ارتحل إلى القاهرة واتصل بأفراد البيت الأيوبي، وشهد وقائعهم ضد الفرنجة.

واتصل بالصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وأصبح وثيق الصلة به، وارتحل معه إلى الديار الشرقية «الرها وكيفا وسنجار»، ثم عاد معه إلى دمشق بعد وفاة الكامل ليشهد التنازع على ولاية عهد الكامل، وفي هذه الفترة برزت مواهب ابن مطروح السياسية عندما تحرك جاداً لتخليص مخدمه من الأسر في الكرك، ونجح في مسعاه وأصبح الصالح حاكماً لمصر والشام، وتسلم ابن مطروح نظارة الخزانة ثم ناظراً لديوان الجيش، فوزيراً للصالح نجم الدين، وفي هذه المرحلة تبرز في شعر ابن مطروح لغة حياة الدعة والرفاهية، وأظهرت في هذا الفصل ثقافة ابن مطروح وبينت أثرها في شعره، وتحدثت عن سبب نكبة ابن مطروح، وحاولت تجلية أسبابها، ثم ختمت الفصل الأول بالحديث عن وفاته، وقد ظهر لي ابن مطروح في سيرة حياته رجلاً جاداً، مثابراً، وفيماً للصحية، صبوراً.

وتحدثت في الفصل الثاني عن مصادر شعر الشاعر المطبوعة والمخطوطة، وأوضحت أن نسخة الجوانب قد تمّ طبعاها في القسطنطينية سنة

(١٢٩٨هـ)، وقام بنشرها مصحح الجوائب يوسف النبهاتي، واشتملت على (٨٢٧) بيتاً من الشعر.

ثم تحدثت عن نسخة مخطوط كوبريلي في تركيا، وتبين لديّ من خلال الدراسة والتدقيق أنها أصلٌ لنسخة الجوائب، وأثبتت تاريخ نسخها (١٠١٢ هـ)، واسم ناسخها عمران بن محمد المغربي، وعدد الأبيات التي تضمنتها (٧٨٤) بيتاً من الشعر.

كما تناولت الحديث عن نسخة المتحف البريطاني المؤرخة بتاريخ (١٠٨٨ هـ) المتضمنة على (٥٣٣) بيتاً من الشعر، مع الإشارة إلى أنها خلت من ذكر اسم الناسخ.

وتحدثت عن نسخة ما نشيستر التي لم ترد فيها إشارات إلى مكان النسخ وزمانه، أو اسم الناسخ، وأثبتت عدد الأبيات التي اشتملت عليها (٥٢٦) بيتاً من الشعر.

كما عرضت إلى نسخة برلين، وبينت أنها تقع في قسمين يتخللهما صفحات سوداء، وقد اشتملت على (١٥٧٣) بيتاً من الشعر، ولم أجد أي إشارة تدل على تاريخ نسخها، كما أغفل ناسخها محمد الحريري الحلبي ذكر تاريخ النسخ، وبعد عرض النسخ قمت بإعداد جداول أوردت في الجدول الأول الذي يحمل الرمز (أ) الشعر المشترك في النسخ جميعها، وأماكن الاتفاق والاختلاف. ثم أوردت في الجدول الثاني الذي يحمل الرمز (ب) القصائد التي انفردت بها نسختا ما نشيستر والمتحف البريطاني دون غيرهما، مع اتفاق بسيط مع نسخة برلين. ثم أوردت جدولاً ثالثاً يحمل الرمز (ج)، ذكرت فيه ما انفردت به نسخة برلين عن باقي النسخ.

وبعد الإنتهاء من نسخ ديوان الشاعر، بحثت عن شعر الشاعر في المصادر الأخرى، وتحدثت عن عدد من المصادر التي ترجمت للشاعر وأوردت شعراً له من أهمها: مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الذي أورد (١٧٥) بيتاً من الشعر لم ترد في نسخ ديوان الشاعر، وكذلك ذيل مرآة الزمان الذي أورد صاحبه (١٠٠) بيتاً أخرى لابن مطروح لم ترد في نسخ الديوان، ثم خرجت

بنتائج هامة أوضحت فيها أن نسختي الجوائب وكوبريلي متشابهتان، وكذلك المتحف البريطاني مع ما نشيستر، وبيئت أن ما اتفقت عليه نسختا ما نشيستر والمتحف البريطاني مع الجوائب وكوبريلي لم تزد على (٢٣٥) بيتاً فقط، وأن نسخة برلين اتفقت مع نسختي الجوائب وكوبريلي بـ (٤٠٦) أبيات فقط، ثم أوضحت أن الزيادة في نسختي ما نشيستر والمتحف البريطاني عن نسخة الجوائب (٢٨٧) بيتاً، وأن زيادة نسخة برلين عن نسخة الجوائب بلغت (١١٦٧) بيتاً، يضاف إليها (٢٧٥) بيتاً في مخطوط كتاب مسالك الأبصار وكتاب ذيل مرآة الزمان فيصبح مجموع ما وقفت عليه للشاعر (٢٥١٩) ألفين وخمسمائة وتسعة عشر بيت تقريباً أي بزيادة عن الجوائب تصل إلى (١٧٠٠) ألف وسبعمائة بيتاً تقريباً، تفرّدت نسخة برلين بحوالي (١١٦٧) بيتاً.

ثم عرضت لمشكلة اختلاط شعره بغيره وأوضحت أن الأبيات المختلف في دقة نسبتها لابن مطروح لا تزيد عن مائة بيت من الشعر، وأوردت جملة من الأدلة والقرائن تؤيد صحة ما ذهب إليه في تأكيد نسبتها لابن مطروح، أو لغيره.

وعرضت في الفصل الثالث موضوعات شعره المتعددة من شعر جهاد، ذكر فيه ابن مطروح التحرير الثاني لبيت المقدس سنة (٦٣٧هـ) على يد الناصر داود الذي أزال عار الكامل الأيوبي بعد أن قام بتسليم القدس للصليبيين، كما سجل ابن مطروح هزيمة لويس التاسع في دمياط سنة (٦٤٧هـ)، وأظهر البحث أن ابن مطروح كان شاعراً غزلاً في المرتبة الأولى، إذ امتد شعره على مساحة زادت على نصف الديوان، وقد بدأت بحثي في حياة ابن مطروح وصورته في مخيلتي أنه شاعر مجاهد بسيفه وقلمه، ثم انتهيت إلى أنه شاعر غزل، أتقن فنونه، وأن قدرته قد برزت تماماً في هذا الغرض عبر صور ومعاني عذبة، كما اتضح لي من البحث أن ابن مطروح على الرغم من طول نفسه إلا أنه مال إلى نظم الشعر القصير، وظهر من خلال البحث أن ابن مطروح كان من الشعراء المجيدين في الأغراض التي طرقها .

وفي الفصل الرابع تناولت شعر ابن مطروح بالتقويم الفني، فتحدثت عن تجربته الشعرية ودورها في إغناء شعره، وخلصت إلى أنه كان أميناً في تجربته باستثناء موقفه المرفوض يوم سكت عن فعلة الكامل عندما قام بتسليم القدس للصليبيين، إذ لم أجد لهذا الأمر الجلل أي صدى في شعره، مكتفياً بمدح الناصر داود يوم فتح القدس.

ثم تحدثت عن بناء القصيدة لدى ابن مطروح، وأنه كان مقلداً في ذلك، إذ التزم في قصائده المألوف عن الأقدمين من ابتداء وتخلص وخواتيم، مخالفاً مذهبه هذا في بعض الحالات عندما كان يهجم على غرضه هجوماً.

ثم عرضت في بحثي إلى فنه وأسلوبه الشعري، وأوضحت أن تعدد الأساليب لديه جاء ليثري تعبيره عن تجربته ونقل ما يعمل في داخله، وأن أساليبه قد جاءت عن وعي تام بما يفعل، من أجل إبقاء شعره مقبولاً في أذن سامعه. وأن ابن مطروح لم يلجأ إلى الصعوبة في الألفاظ والمعاني، إذ خلا معجمه الشعري من الألفاظ الغريبة والثقيلة على الأذن، وأن ألفاظه كانت نتيجة طبيعية لبيئته وثقافته.

ثم تحدثت عن الصورة الشعرية، عند ابن مطروح، وتبين من خلال البحث أنها جاءت مفعمة بالحركة، تنوعت مصادرها بين الطبيعة والحرب، إضافة إلى ما اقتبسه ابن مطروح من صور وردت في القرآن الكريم. وقد جاء تشخيصه قريب التناول في الذهن عميق الأثر، مما دفع العديد من المؤرخين والأدباء إلى وصفه بصاحب الشعر الرائق، وبالشاعر المجيد.

في النهاية أعقبت دراستي بإضافة غير مسبوقه لمجموعة من أشعار الشاعر خلت منها طبعة الجوانب تصل إلى أكثر من (٦٠٠) ستمائة بيت من الشعر، وهي إضافة جديدة بالتنويه والذكر، وسأقوم إن شاء الله بإخراج كامل شعر ابن مطروح الذي وقفت عليه في وقت لاحق.

وفي ختام القول، أمل أن أكون قد استطعت بهذه الدراسة تجلية جوانب هذا الشاعر، وأن ألقى الضوء على حياته وشعره اللذين ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بالأحداث الجسام التي وقعت في عصره، والتي تأثر بها وخلدها في شعره.

ثبت المصادر والمراجع

- ابن الأثير : أبو الفتح أبو المكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الملقب بـ (ضياء الدين) ت : ٦٣٧هـ ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. محمد أحمد الحوفي، و د. بدوي طبائه، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠ م .
- ابن الأثير الجزري: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد، (ت: ٦٠٦ هـ)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، دار الفكر، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣ م .
- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخه مصورة عن الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ١٩٣٥ م .
- د. أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٩ م .
- د. أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، (بدون تاريخ) .
- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، الوفا في أحوال المصطفى، مطبعة السعادة، ١٩٦٦ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، (ت: ٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م .
- ابن رشيق القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت: ٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق د. محمد قرقران، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨ م .

- ابن السراج : أبو بكر محمد بن سهم بن السراج النحوي البغدادي، (ت: ٣١٦)،
الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، الطبعة الأولى، مؤسسة
الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م .
- ابن سناء الملك : هبة الله جعفر بن محمد، (ت: ٦٠٨ هـ)، ديوان شعر،
اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه وتقديمه د. المرحوم محمد عبد الحق، م إل-
كاي (إكسون)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد،
الهند، ١٣٧٧ هـ، ١٩٥٨ م .
- ابن سناء الملك، حياته وشعره، تحقيق محمد إبراهيم نصر، مراجعة د. حسين
محمد نصر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م .
- ابن سنان الخفاجي : عبد الله بن محمد بن سعيد (ت: ٤٦٦ هـ)، سر
الفصاحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢ م .
- ابن شاعر : محمد بن شاعر الكتبي، (ت: ٧٦٤ هـ)، فوات الوفيات والذيل
عليها، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ م .
- ابن طباطبا : محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق د. طه
الحاجري و د. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦ م .
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، (ت: ١٠٨٩ هـ)،
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق، بيروت، (بدون تاريخ).
- ابن فضل الله العمري : شهاب الدين أحمد بن يحيى، (ت: ٧٤٩ هـ)، مسالك
الأبصار في ممالك الأمصار، نسخة مصورة عن معهد تاريخ العلوم العربية
والإسلامية، جامعة فرانكفورت في ألمانيا الاتحادية، صدرها فؤاد سزكين،
١٩٨٨ م. ((مخطوط)) مصور عن أصل رقم ٣٤٢٣ آيا صوفيا، استانبول.
- ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية،
(ت: ٧٥١ هـ)، إغاثة اللهفان عن مصاد الشيطان، تحقيق محمد حامد الفقي،
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٥٧ هـ، ١٩٣٩ م .
- ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، (ت: ٧٧٤ هـ)،
البداية والنهاية، ط ٣، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٠ م .

- ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، (ت: ٧٧٤ هـ)،
الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تأليف أحمد محمد شاكر، دار الكتب
العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).

- ابن المعتز : أبو العباس عبدالله بن المعتز، (ت: ٢٩٩ هـ)، البدیع، تحقيق و
تقديم د. محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠ هـ،
١٩٩٠ م.

- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، (ت: ٧١١ هـ)، لسان
العرب، دار صادر، (بدون تاريخ).

- ابن منقذ : أسامة بن منقذ، (ت: ٥٨٤ هـ)، البدیع في نقد الشعر، تحقيق
د. أحمد بدوي و د. حامد عبد الحميد، منشورات وزارة الثقافة، مصر، ١٩٨٦ م.

- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (ت: ٦٩٧ هـ)، مفرج
الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. حسنين محمد ربيع، مراجعة سعيد
عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧ م.

- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن
ابراهيم المقدسي الشافعي، (ت: ٦٦٥ هـ)، ((كتاب)) الروضتين في أخبار
الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥ م.

- أبو العتاهية : إسحق بن إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان الغزي،
المعروف بأبي العتاهية، (ت: ٢١٠ هـ)، الأبوار الزاهية في ديوان أبي
عتاهية، عني بطبعه الأب لويس شيخو اليسوعي، الطبعة الرابعة، المطبعة
الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٤ م.

- أبو نواس : الحسن بن هاني، ديوان شعر، تحقيق بدر الدين حاضري، محمد
حمامي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان.

- أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، (ت: ٢٩٥ هـ)،
((كتاب)) الصناعاتين الكتابية والنثر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو
الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.

- الأدفوي : أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي، (ت: ٧٤٨ هـ)،
الطالع السعيد الجامع أسماء نحياء الصعيد، تحقيق سعد محمد سعد، مراجعة د.
 طه الحاجري، دار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ م .
- الأشرف الغساني الملك، (ت: ٨٠٣ هـ)، العسجد المسبوك والجواهر المحكوك
في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاعر محمود عبد المنعم، دار التراث
 الإسلامي، بيروت، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥ م .
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزا و غلي التركي
 المشهور بسبط بن الجوزي، (ت: ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان،
 الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن -
 الهند، ١٣٧٣ هـ، ١٩٥٢ م .
- بروكلمان - كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. رمضان عبد
 التواب، راجع الترجمة د. السيد يعقوب بكر، ط٣، منشورات المنظمة العربية
 للتنمية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣ م .
- بسام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت،
 ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م .
- البهاء زهير : أبو الفضل زهير بن محمد المهلبي المصري، (ت: ٦٥٦ هـ)،
ديوان شعره، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، (بدون تاريخ) .
- الترمذي : أبو عيسى محمد بن سودة بن موسى السليمي، (ت: ٢٧٩ هـ)،
صحيح سنن الترمذي، اختصار السند محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى،
 نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م .
- ثعلب : الإمام أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني، شرح ديوان زهير بن أبي
سلمة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، دار القومية للطباعة والنشر،
 القاهرة، ١٣٦٣ هـ، ١٩٧٣ م .
- الجرجاني : عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق أحمد مصطفى
 المراغي، المكتبة العربية بالقاهرة، ١٩٣٢ م .

- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الشهير بالملا كاتب الجبلي، (ت: ١٠٦٧ هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢ م .
- حازم القرطاجي : ابن الحسن، (ت: ٦٨٤ هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية التونسية، تونس، ١٩٦٦ م .
- الحريري : محمد بن علي المغربي الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنجة الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق د. سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، سوريا، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م .
- د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥ م .
- الحموي : ياقوت بن عبد الله الرومي، (ت: ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م .
- الحميري : محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان (بدون تاريخ) .
- الخضري : الشيخ محمد الخضري بك، تاريخ الأمم الإسلامية/ الدول العباسية، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، القاهرة، ١٩٧٠ م .
- الدارمي : أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضلي، سنن الدارمي، تحقيق مصطفى ديب البنا، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١ م .
- داود بن عمر الأنطاكي : المعروف بالأكمة، (ت: ١٠٠٨ هـ)، أخبار العشاق، الطبعة الثالثة، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٢٨ هـ .
- ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م .
- ديوان امرئ القيس، شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مصر .
- ديوان جميل بثينة، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، (بدون تاريخ) .

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرح وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨١ م .
- الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٨٤هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق ج ٢٣ د. بشار عواد معروف و د. محيي الدين هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ م .
- الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٨٤هـ)، العير في خير من عير، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ م .
- ولك رينيه و أوستن وارن، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٧٢ م .
- الزبيدي، الإمام زين الدين أحمد، (ت: ٨٩٣ هـ)، مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح، تحقيق إبراهيم بركة، مراجعة أحمد عرموش، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦ م .
- الزركلي : خير الدين الزركلي، الأعلام، ط ٥، دار العلم للملايين، ١٩٨٠ م .
- زكي نجيب محمود، فلسفة وفن، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ م .
- سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢ م .
- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، الطبعة الرابعة، الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦ م .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت: ٩١١ هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الموسوعات، دار إحياء الكتب المصرية، ١٣٢١ هـ .
- شقره : محمد إبراهيم، الوسيلة إلى شفاعة صاحب الوسيلة، ط ١، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ١٩٨٣ م .

- الشنتمري : الأعمى يوسف بن سليمان بن عيسى، (ت: ٤٧٦ هـ)، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التراث بدار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، دار الآفاق، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م .
- د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٧م .
- د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ودورها في الحركة الفكرية، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م .
- د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م .
- د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، الطبعة الأولى، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م .
- عبد الحميد محمد جوده، الهجاء عند ابن الرومي، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر، بيروت، (بدون تاريخ).
- عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم، نزهة الأبيصار في طرائف الأخبار والأشعار، المكتب الإسلامي، دمشق، (بدون تاريخ) .
- د. عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، ؟ ، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م .
- عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، مكتبة المتنبى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م .
- عزمي عبد محمد أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة، الطبعة الأولى، مؤسسة باكير للدراسات، الزرقاء، الأردن، ١٩٩٣م .
- العلوي : يحيى بن حمزة، (ت: ٧٤٩ هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م .
- العيني : بدر الدين محمود، (ت: ٨٥٥ هـ)، عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م .

- القاضي : الإمام إسماعيل بن إسماعيل القاضي، (ت: ٢٨٢ هـ)، كتاب فضل الصلاة على النبي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩ م .
- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي، (ت: ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف، (بدون تاريخ) .
- كولنجد، مبادئ الفن، ترجمة أحمد حمدي محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، (بدون تاريخ) .
- كوليردج، سيرة أدبية-النظرية الرومانتيكية في الشعر، ترجمة عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣ م .
- مالك : الإمام مالك بن أنس، الموطأ، صححه ودققه وخرّج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٥ م .
- محمد التونجي، حول الأدب في العصر السلجوقي، الطبعة الأولى، منشورات مكتبة قورينيا، بنغازي- ليبيا، ١٩٧٤ م .
- د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة، (دون تاريخ) .
- د. محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الهجري إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف، مصر، (بدون تاريخ) .
- د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢ م .
- د. محمد نعيم ياسين، كتاب الإيمان، طباعة جمعية عمال المطابع، عمان، الأردن، ١٩٩٢ م .
- د. محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق، مكتبة الأقصى، عمان، ١٣٩١ هـ، ١٩٧١ م .
- محمود فايز إبراهيم السرطاوي، نور الدين في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، دار البشير، ١٩٩٠ م .

- مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، المطبعة المصرية، (بدون تاريخ) .
- المقرئزي : أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥ هـ)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح ووضع حواشي محمد مصطفى زيادة، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧ م .
- المقرئزي : أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥ هـ)، الخطط المقرئزية، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (بدون تاريخ) .
- المقرئزي : أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥ هـ)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧ م .
- المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني، (ت: ١٠٤١ هـ)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وفهرسة يوسف البقاعي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م .
- مكليش : آرشيالد، الشعر والتجربة، ترجمة سلمى الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٣ م .
- د. منصور عبد الرحمن، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧ م .
- النووي: شيخ الإسلام شرف الدين زكريا بن يحيى(ت: ٦٧٦ هـ)، مقن الأربعين النووية، ضبط وشرح محي الدين مستو، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧٧ م .
- النويري الإسكندراني : محمد بن قاسم بن محمد النويري، (ت بعد : ٧٧٥ هـ)، كتاب الإمام في ما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقفة الإسكندرية، بدأ تحقيقه د. أتين كومب، وأتمه ياتكي يورن و دال عزيز سوريال، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة الدكتور محمد عبد الصمد خان مدير دائرة المعارف - حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م .

- اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد البعلبكي الحنبلي (ت: ٧٢٦هـ)، ذيل مرآة الزمان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد/ الهند، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م .
- د. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩.

Abstract

IBN MATRUH - JAMAL EDDIN

A Biography and Poetry

By

Omar Wafiq Othman Saber

Supervised by

Prof. Dr. Abdul Jalil Abdul Muhdi

This study aimed at realizing the following objectives; knowing the period in which the poet Ibn Matruh lived (592-649 A.H) and its effect on his poetry.

The study was planned on the readings of the poems from inside and on the application of the complementary method - the utilizing of all the different methods.

The study consisted of four chapters, the first of which discussed the biography and the poet up to death.

In the second chapter I stated that he himself collected his poetry during his last days. I also stated that Yusuf Al-Nobhani printed the poetry in 1298 A.H and published it , in 827 lines.

Moreover, I mentioned that the poetry was distributed into four manuscripts : Berlin, Manchester, British Museum and Coberly.

The four manuscripts were perused and scrutinized by me. I also revealed that some sources stated that the poet composed unmentioned lines in the manuscripts.

In the third chapter I wrote about the different subjects of his poetry: poems of valour of religion, of sentiments, of eulogy of boasting of description , of satire and of friendliness.

In the fourth chapter and the epilogue I shed light on the unmentioned lines in the printed book.

ملحق شعر

جمال الدين بن مطروح

(أ) شعر ابن مطروح في نسخ ديوانه :

الجوائب ، كوبريلي ، ما نشيستر ، المتحف البريطاني

وما فيها من زيادة.

(ب) شعر ابن مطروح الذي ورد في مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري، وهو يزيد على (١٧٥) بيتاً من الشعر.

(ج) شعر ابن مطروح الذي ورد في كتاب ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى

ابن محمد اليونيني. (ت ٧٢٦ هـ)، وهو يصل إلى (١٠٠) بيتاً تقريباً.

شعر ابن مطروح في نسخ ديوانه :
الجوائب، كوبريلي، ما نشيستر، المتحف
البريطاني
وما فيها من زيادة.

شعر ابن مطروح في نسخ ديوانه :
الجوانب ، كوبريلي ، ما نشيستر ، المتحف البريطاني
وما فيها من زيادة

(١)

وقال وكتب بها مع كرة واسطرلاب وسكين أهداها :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| كرة الأرض مع محيط السماء | لك أهديت يا كريم الإخاء |
| وإذا ما قبلتها فلك المنـ | ة عندي يا أكرم الكرماء |
| ثم سيكينة تناسب منك | الذهن في لطفها وحسن الصفاء |
| وتفألت أن تدوم سعيداً | نافذ الأمر صائب الآراء |

انظر ج ، ك ، ل .

(٢)

وقال في الدوبيت :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| ما زلت أضمه إلى أحشائي | حتى فترت عن ضمّه أعضائي |
| لو كنت رأيتنا لقلت اتحدا | كالخمرة إذ مزجتها بالماء |

انظر ج ، ك ، ل ، ش

(٣)

وقال رحمه الله تعالى :

| | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| لم أنس وقد زارت على استحياء | كالبرد سرت في الليلة الظلماء * |
| بانّت ويدي موضع العقد بها | من غير جنابة ولا فحشاء * |

* انظر ط فقط ، ولم ترد في الديوان المطبوع ج .

(٤)

وقال رحمه الله تعالى*:

ذكر الصبّا فصبا وكان قد ارعوى
تجري مدامعه ويخفق قلبه
وإذا تآلق ببارق من ببارق
لا يستطيع إذا جرا ذكر اللوا
وتملكته صبوة عنريسة
وأنا نذيرُ العاشقين فمن يُرد
فخذوا أحاديث الهوى عن صادق
وبمهجتي رشاً أطالت عدلي
ما أبصرته والشمس إلا واختفت
قالوا أفيه سوى رشاقة قدّه
وروى الأراك محاسناً عن ثغره
ولقد يعز علي موتي ظامناً
ومن العجائب أن أموت من الظمي
* انظر ل ، ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع ج.

(٥)

وقال*:

قفوى في الحزن من حزوى
وعرج باللوى وهناً
وإن جئتكم حمى نجد
أعيروني لها دمعاً
فكم في ظلها وقست
ولي في جانب الرمد
لوى بالمنحنى عهد
سلوا أجفان عينيسه
فإن عشت وقد صد فحـ
* انظر ل فقط ، ولم ترد في الديوان المطبوع ج.

(٦)

وقال :

عَظُمَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ
يُفِعْفُو وَيُثِيبُ

هذه تربية من قد
والكريم المحض من يعص
انظر ج ، ك ، ل

(٧)

وقال :

يبشرني من بشر وجهك بالقرب
فقلت صدقتم في السويداء من قلبي

أسائل عنك القادمين فكلهم
وقالوا تراه في السويداء نازلا
انظر ج ، ك

(٨)

وقال وكتب بها جواب أبيات راسله بها وهو مريض :

بهاء الدين زهير

يُسائلُ مشفقاً حديبا
د وفي الحنو أبا
كنت تشاهدُ العجبا
وقلباً يشتكي لها
فيه فراح منتهبا
عني أعين الرقبا
خيالاً في خلال هبا
م قول وا حربا
وأضحى بيننا نسبا
فرب أخ اخأ ندبا
من بيكي على الغريا
الغرام وما قضى أربا

أيا من راح عن حالي
ومن أضحى أخالي في الودا
وحقك لو نظرت إلي
جفوناً تشتكي غرقاً
وجسماً جالت الأسقام
تسائلُ أنفس الواشين
فتذكر أنها لمحت
فوا حرباً وهل يُشفي المتب
فبالود السذي امسى
إذا مات فاندبني
وقل مات الغريب فأين
قضى أسفاً كما شاء

انظر ج ، ك ، ل، مع اختلاف بسيط في بعض الكلمات.

(٩)

وقال غفر الله لنا وله وللمسلمين :

صبا وهو غريب الذوائب ما صبا
فأما وقد لاح المشيب بفوده
زلم ييق إلا أن تتيب وترعوي
وفي النفس مني صبوة بعد ذا وذا
ولم أنس لما زارني من أحبُّه
وما زارني يوماً كما زار في الدجى
وما زاره حتى رأى الناس نوماً
فبادرت إجلالاً له أئتم الثرى
وقلت له تفديك نفسي وأسرتي
وقال على رأسي أزورك صاغراً
وعاطيته الصهباء حتى إذا انتشى
فنادمت بستاناً وغازلت جودراً
وتم لنا ما لا سمعت بمثله
سلام على ذاك الزمان الذي مضى
انظر ج ، ك ، ل

(١٠)

وقال يمدح الطواشي شمس الدين صواب :

ولما تيممناك قال رفاقنا
وقلت لصحبي شرفوا تبلغوا المنى
إلى أين تبغي قلت خير جناب
فغير صواب قصد غير صواب
انظر ج ، ك ، ل ، مسالك الأبصار .

(١١)

وقال في يوم الجمعة عاشر رجب (٦٤٨ هـ) مناجياً ربه سبحانه وتعالى :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| يا أيها الشامخُ في قُربهِ | يا أيها الظاهرُ في حجبهِ |
| بالبابِ كلبٍ وجلِ خائفِ | من طولِ ما أسلف من ذنبهِ |
| جاءك يستغفر مما جنى | ملقى مع الذل على جنبهِ |
| وهو مع الخوف شديد الرجا | فأنت يا مولاي أولى به |
| منكس من خجلِ رأسه | باسطِ خديه على تربهِ |
| فهل له غيرك من راحمٍ | هل يرحم الكلبَ سوى ربهِ |
| وهل له منك طمأنينة | تدخل بالأمن على قلبهِ |

انظر ج ، ك ، ل

(١٢)

وقال أيضاً واملاه على عز الدين على بن غياث القرشي قريبه وأذن له في روايته على

التواريخ الآتي ذكرها :

فمما أملاه يوم الخميس تاسع رجب سنة ٦٤٨ هـ بالقاهرة المحروسة متضرعا ومثوسلا

إلى ربه تعالى :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| يا من علا في ملكه فاقترب | ومن بدا في نوره فاحتجب |
| ومن هو القصدُ لأهل النهى | والمطلب الأسنى وكل الأرب |
| عودتني الانس فلا تنسني | وهبني الرحمة فيما تهب |
| ونفحة من نفحات الرضى | تطفئ عني لفحات الغضب |
| وقد قدمتُ اليوم يا سيدي | عليك ضيفاً أخذاً بالحسب |
| معتمداً منك على راحمٍ | مستمكاً منك بأقوى سبب |

انظر ج ، ك ، ل

(١٣)

وقال :

يناجيه في عبد تضاعف كربُه
وإن ضاق بي شرق الوجود وغربه
وغير عظيم عند عفوك ننبه
ويبعد أن يلقاه بالرد ربُه
ولا سُد من دون الإجابة حجبه
برحمة قلب منه فالله حسبُه

الا واقف في باب مولاه واصل
فيسأله التخفيف عني تكرماً
وإن قال عبد منذب يطلب الرضى
فوالله ما تبطي الإجابة دونه
فما ضاق باب الله عن قصد سائل
ومن يسع في تنفيس كربة مسلم
انظر ج ، ك ، ل

وقال يمدح فخر الدين :

فما منك من حظ لعيني ولا قلبسي
إليه التفاتي بالبشاشة والرحب
لأن مكاني منه في الطرف والقلب
فبات أسيري وهو يفتك بالقلب
تزيّت بزّي التّرك وهي من العرب
ولم ترض لي شرب الحليب من القعب
فحمرته تلهيك عن خضرة العشب
ولا شيء أحلى من مكارمة الحب
رويدك لا تحفل بأهلي ولا صحبي
لتحميهم من مورد الطعن والضرب
وضارب بلحظي فهو أمضى من القضب
خواتين قصر في المقانع والنقب
فها هي في وشي من القمص والعصب
غدت من نسيبي في القلائد والسحب
كما وصل الياقوت باللؤلؤ الرطب
فأضحى له فخرٌ على السبعة الشهب
ورياه من جمر ومن مندل رطب
فنحن لدية في سرور وفي رعب
سواك وليس الملح كالبارد العذب
فمالك وجه في التيمم بالترب

أسرب المها لا حبذا أنت من سرب
ويا حبذا سرب إذا سار بي الهوى
وأزلني فوق المنازل رفعة
ورب غزال فيه يهوى تغزلي
وسمراء كالسمراء بت ضجيعهما
سقتني حلالاً من حُمياً رضابها
وقالت أجل عينيك في ورد وجنتي
كريمة حي تبدل النفس في الهوى
تقول وقد أوجفت خيفة أهلها
ومن واردي أرسل عليهم أفاعيا
وطاعن إذا ما طاعنوك بقامتي
نضت حشمة عنها البراقع إذا رأته
وعاف لها لبس المطارف طرفها
وما رَضِيَتْ لبس العقود لأنها
نسيب يمدح ابن الوزير وصلته
كسوتُ بفخر الدين شعري محاسناً
زكيّ ذكي القلب يحسب ذهنه
يروق جمالاً إذ يروع مهابة
نفضت يدي من كل من وطىء الثرى
إذا ما وجدت البحر سهلاً وروده
انظر ج ، ك

وقال رحمه الله تعالى : *

| | |
|------------------------|-------------------------|
| يا لقومي أين يذهب بي | في هوى ذا الأسمر الذهبي |
| أنا منه في الغرام به | أتقلبي وهو في اللعيب |
| وإذا حاولت منه رضاً | بذل المجهود بالغضب |
| من بني الأتراك مقلته | قد غزت في العجم والعرب |
| لو رأته الشمس لاستتورت | وتوارت عنه في الحُجب |
| وله في الحسن معجزة | لم تكن من قبله لنبي |
| ما دعت عيناه ذا ورع | فسي الهوى يوماً ولم يجب |
| ومعان لو خطرت على | صخرة ذابت من الطرب |
| وقوام زانه كفل | زينة الأغصان بالكثيب |
| ثمل من خمر ريقته | ليس يدري ما ابنة العنب |
| فمه كأس مجاجته | قرقف والثغر من حبيب |
| وترى خيلان وجنته | كفتيت المسك في اللهب |
| مالحما خذه أثر | لحوار البرد في الشنب |
| يستق المشي من صلف | فيه فوق الأنجم الشهب |
| ومطيل سب عاشقه | تية معشوق وجهل صبي |
| ليته بالوصل يسمح لي | أو يمنيني ويمطل بي |

* انظر ط ، ش ولم ترد في الديوان المطبوع .

(١٦)

وقال في رابع عشر رجب من السنة المذكورة (٦٤٨ هـ) :

عصيتك طول أيام الحياة
فإن سامحتني كرماً وفضلاً
وإن عاقبتني فبوجه عدل
على أنني جميل الظن جداً
وجيتك تائباً عند الممات
فقد يعفو الكريم عن الجناة
ولكن أنت أجدرُ بالأناة
على حذري وكثرة سيئاتي

* انظر ج ، ك ، ل .

(١٧)

وقال يهجو ابن اخت نجم الدين وكان يلقب (ناطور السماء) :

إذا قرنت مع الحسنى إليه أسى
فأرفضه رفض القلى واهجر مودته
فالمصطفى وإليه كل معجزة
قد قال صلى عليه الله في ملاً
فذاك من شؤم طبع فيه قد حدثنا
هجرأ بحق ولا تستعمل العبثنا
تروى وعنه الهدى والصدق قد ورثنا
ما طاب منى وللشيطان ما خبثنا

* انظر ج ، ك ، ل .

(١٨)

وقال رحمه الله تعالى :

مصارعُ الأسد بين الغنج والدعج
والدرُّ ما كان في المرجان منبته
ما قيل أن را الراؤون أحسن من
أهوى الغصون إذا مرَّ النسيم بهما
وحلية الأوس بين العاج والسبيج
دع البحار وما يكتزن في اللجج
حدائق الورد تُسقى من دم المهج
ترنحت غير ما أميت من العوج

* انظر ج ، ك ، ل ، ط ، ش .

(١٩)

وقال أيضا :

شكوى تذيب القلوب والمهجا
وما أرى من هواه لي فرجا
هوى بقلبي وقلبه امتزجا
ولو ركبت البحار واللججا
أراق يا دايتي دمي حرجا
كشارب الراح راح مبتهجا

سمعتها تشتكي لدايتها
تقول يا دايتي بليت به
ومثل ما بي به ولا عجب
فهل سبيل إلى زيارته
وإن درى والذي بقصتنا
فرحت مما سمعت مبتهجا

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٠)

وقال وكتب الى ابن عمه صدر الدين بن مطروح محاجيا في طراريح :

وخبيراً بالأحاجي
مثله يا من يحاجي

يا بصيراً بالمعمى
حدث الشمال قل لي

انظر ج ، ك .

(٢١)

وقال :

قد رأيناك والغزاة تسنح
واجتلىنا بدر السماء تماماً
ولقد غض ناظر النرجس الغض
أي عين ترى له حسن عينيك
وادعى الورد أنه لون خديك
فلهذا صببا بحبك قلباً
قلت خدي المعصفر أوفى شهودي
وترنحت والقضيب ولكن
وعهدت الرقاد يالف جسمي

فرأينا حلاك أبهى وأملح
فلقد كنت منه أسنى وأصبح
حياء من ناظريك وأفلح
فترنو من بعد ذاك وتفتح
ولا شك أنه كان يمزح
كاد فيه نار الصباية تقدح
قال هذا بالدمع منك مجرح
لم يدع ناظرا إلى الغصن يطمح*
فرأى جفناك المليح فرجع*

انظر ج ، ك ، ل .

* هذان البيتان لم يردا في نسخ الديوان ووردا في ذيل مرآة الزمان ٢٠٣:١

(٢٢)

وقال عندما كَسَرَ الملك المعظم الفرنسيس واعتقله بدار فخر الدين بن لقمان وقيده بقيد
من ذهب ووكل به خادما يسمى صبيحاً :

قل للفرنسيس إذا جئتـه
أجرك الله على ما مضى
قد جئت مصرأ تبتغي أخذها
فساقك الحين إلى ادهم
رحت وأصحابك أودعتهم
خمسون ألفاً لا يرى منهم
فردك الله إلى مثلهـا
إن كان باباكم بذا راضياً
فاتخذوه كاهناً انـه
وقل لهم أن اضمروا عودة
دار ابن لقمان على عهدـها

مقال صدق من قوول فصيح
من قتل عباد يسوع المسيح
تحسب أن الزمر يا طبل ريح
ضاق به عن ناظريك الفسيح
بقبح أفعالك بطن الضريح
إلا قتيل أو أسير جريح
لعل عيسى منكم يستريح
فرب غبن قد أتى من نصيح
أنصح من شق لكم او سطيح
لأخذ ثار أو لقصد صحيح
والقيد باق والطواشي صبيح

انظر ج ، ك ، ل ، وهي من الشعر المشهور لابن مطروح .

(٢٣)

قال وكتب بها إلى صديق أهدى له أقلاما :

أنتني منك أقلام حسـان
فحين ذكرت مهديها استطالت
وقد وثقت بناني أن مهمـا

حكى في الحسن أطراف الملاح
فازرت بالمتقفة الرمـاح
كتبت بها وصلت إلى النجاح

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٤)

وكتب على باب دارِ عمرها :

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| لم تخلُ دارٌ قط من رفده | دار عمرناها بإتعام مَنْ |
| أيوب زاد إليه في مجده | الملكُ الصالح رب العلى |
| والنصر والتأييد من جنده | اليمن والتوفيق من حزبه |
| من نعم الله ومن عنده | أغنى وأقنى فالذي عننا |
| فليصنع المالك مع عبده | فقل لحسادي إلا هكذا |

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٥)

وقال يذكر حلب وملكها، وكتب بها إلى شمس الدين لولو بحلب المحروسة :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| لها أرج كالمسك والعنبر الوردي | على حلب الغراء مني تحية |
| ولا عجبٌ شوقي إلى جنة الخلد | وما هي إلا جنة الخلد بهجة |
| مناقبهم جلت عن الحصر والعد | نعم ورعى الرحمن فيها عصابة |
| مباح الحمى خفاق الوية المجد | وخصص منهم منعماً راجح النهى |
| وعند ملوك الأرض واسطة العقد | هو النير العلوي غير مدافع |
| على أن قرب الدار خيرٌ من البعد | فما زاد قرب الدار إلا تشوقاً |

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٦)

وقال عند وداعه الأمير حسام الدين بن علي عند توجهه الى مكة شرقها الله تعالى:

| | |
|--------------------|--------------------|
| له علي أيادي | أودع الى الله مولى |
| بعد طول الجهاد | دعاه مولاه للحج |
| له ما له من مراد | فقلت يا رب بلغ |
| ض فاروه بالغواد | وحيث سار من الأر |
| جرباً على الاعتياد | واردده رداً جميلاً |
| وقدرتي واجتهادي | وذاك غاية سؤلي |

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٧)

وقال أيضا :*

| | |
|-----------------------|------------------------|
| بمحكم الارسان لم ينقد | كل كليل الذهن إن قدته |
| عيناه مخضوب بنان اليد | يأتيك كالقينة مكحولة |
| من فعلهم عندي بمستبعد | يسخر بالسمر وما فعله |
| يومك فالويل له في غد | بأبي رسول الله (من سره |

ووردت في مسالك الأبصار **

| | |
|------------------------|-------------------------|
| حزنا وكم أفرحت من ملحد | يايوم عاشوراء قد هجت لي |
| بمحكم الأرسان لم ينقد | كل قليل الدين إن قدته |
| عيناه مخضوب بنان اليد | يأتيك كالقين مكحولة |
| يومك فالويل له من غد | يابن رسول الله من سره |

* انظر ج ، ك ، ل .

** انظر مسالك الأبصار .

(٢٨)

وقال أيضا :

ليس في التقويم لي
بل ألفناه زماناً
فصحبناه بحسن العهد
رأي ولا حسن اعتقاد
إلف أنس واعتياد
من غير ارتياد

انظر ج ، ك ، ل .

(٢٩)

وقال في مליح اسمه بدرون:

لك يا بدرون وجة
ينقص البدر لديه
حاز عنوان السعادة
فهو بدرٌ وزيادة

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٠)

وقال في الملك الناصر داود بن السلطان الملك المعظم :

ثلاثة ليس لهم رابع
الغيث والبحر وعزهما
عليهم معتمد الوجود
بالملك الناصر داود

انظر ج ، ك ، ل .

(٣١)

وقال في الملك السعيد :

وانا السعيد إذا صلحت
وإذا ارتضاني عبده
لخدمة الملك السعيد
فالناس كلهم عبيدي

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٢)

وكتب إليه أيضا (أي الى عماد الدين ابن شيخ الشيوخ) :

ولو أن قسًا في عكاظ أعارني بلاغته وابن المقفع بعده
تجاوزت في الاعياء رتبة باقل إذا أردت أن أحصي نداءه ورفده

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٣)

وقال وكتب بها إلى بعض اخوانه :

لا استزيدك ودأ يا أكرم الناس عندي
لكن قصدت بهذا تذكار أنسي وعهدي

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٤)

وقال يهجو أهل دمشق :

تخذتم السبت يوم عيد وهذه سنة اليهود
وكان يفيكم ضلالاً شربكم الماء من يزيد

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٥)

وقال أيضا - متوسلاً :

| | |
|--------------------------|------------------------|
| يا من لديه الجميلُ موجود | وكل خير لديه معهود |
| وهو على كل شدةٍ ورخي | بالسنِ الخلق وهو محمود |
| امنن على عبدك الفقير بما | ينعشه اليوم فهو مجهود |
| وقد مددنا إليك أيدينا | لا خيبت والكريم مقصودُ |

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٦)

وقال أيضا في اليوم المذكور :

| | |
|--------------------------|-----------------------------|
| يا من إذا دعاه عبده وجده | ولا يخيبُ لديه قصدُ من قصده |
| امد يدك بإحسانٍ ومغفرةٍ | لمذنبٍ مد مضطراً إليك يده |

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٧)

وقال أيضا وكتب بها في صدر كتاب :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| أصدرتها والعوالي في الطلى ترد | في موقف فيه ينسى الوالد الولد |
| وما نسيك والأرواح سائلة | على السيوف ونار الحروب تتقد |

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٨)

وقال أيضا - يهجو الرشيدي :

| | |
|-------------------------|--------------------|
| قالوا الرشيدي على ما به | من ابنةٍ ربت للشدد |
| فقلتُ من أعجب شيء جرى | عزلكم للسيف بالغمد |

انظر ج ، ك ، ل .

(٣٩)

وقال وكتب بها إلى مظفر الدين بن عبد الله المصري ونقل من خطه :

نحن في منزلٍ هو النار حرا
فأفيضوا فيه علينا من الماء
ولكم منزل كجنةٍ خلد
ومطلوب ما سواه تعدي

انظر ج ، ك ، ل .

(٤٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الأديب البليغ يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح :*

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى
وأبصرت في خديه ماء وخضرة
أقول لناه قد أشار بتركه
تلهب ماء الخد أو سال حمرة
فلم لا نهيت الثغر أن يعذب اللمي
يلوم عليه من يهيم بدونه
بنفسي من لو جادني بوصاله
وما كل معسول اللما يجلب الهوى
وفي القلب نار للخليل توقدت
وربع الذي أهواه يروي شرابه
فقبلته في الخد تسعين أوحدا
فما أملح المرعى وما أعذب الورد
لقد تهديني فيما أشرت به رشدا
فيا جمر ما أنكى ويا ماء ما أندى
وهلا أمرت الصدر أن يكتم النهدا
ومن كان يهوى ... لم يعرف الشهدا
فلا أنعمت نعمي ولا أسعدت سعدى
ولا كل مصقول الطلاء يسلب الرشدا
وما نقت منها لا سلاماً ولا بردا
العطاش ويشفي بربه الأعين الرمدا

* انظر ش ، ط ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال سامحه الله :

فلا زلت في نار الصدود مخلدا
 متى سمعت من لام فيك وفندا
 متى لم يبت وجداً عليك مسهدا
 رأيت الهدى في الحب أن لا ارى هدى
 يقوم بعذر العاشقين ممهدا
 فريد صفات الحسن أهيف أغيدا
 ومن ذا رأى في العذب دراً منضدا
 فقلت لك البشرى اجتماع تولدا
 وإن كنت مياس المعاطف املدا
 وإلا فقابله بوجهك إن بدا
 وإن رحمت تسبي مقلّة ومقلدا
 وعقد الرضا ما بيننا قد تاكدا
 تجمّع شمل قسط إلا تبددا
 تنثي حياءً منه أن يتلسودا
 على أن ماء الحسن فيه توقدا
 من اليوم أهوى قربه وإلى (غدا)
 وأصبو إذا شاهدت خذا موردا
 على ورع فيّ لما تبدى تزهدا

متى بت إلا في هواك موحدا
 ولا سمعت أذني حديثاً يسرها
 ولا زال موقوفاً على الدمع ناظري
 ويا عاذلي دعني وعني فإتني
 ولا سيما قمر بديع جماله
 تعشقه حلو الشمائل واللمما
 جلا ريقه والدر فيه منضداً (منضداً)
 رأيت بخديه بياضاً وحمرة
 أعصي النقا ما أنت عندي شبيهه
 ويا بدر لا تغضب فإنك عبده
 ولو مت يا غصن النقا ما حكيتة
 وسقيا لبيت بات فيه معانقي
 وقال اغتمم لثمي (وظمي) فطالما
 فعانقت قدأ يمتع الغصن كلمما
 وقبّلت خذا ماؤه قد ترقرقت
 ومازلت مذ نيطت عليّ تمائي
 أهيم إذا أبصرت قدأ مهفهفاً
 لطافة معني فيّ تسري مع الصبا

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح تغمده الله تعالى برحمته يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله :

أم أيّ ذي لسن يقول فيفصح
فمن العجائب أن لفظاً يجنح
أنا نقدر عنده ونسباً
فخراً لمفتخر به يستجح
ارثاً ومكة والصفاء والأبطح
عمر فجاد له الغمام الذلح
طفقت قرارة كل واد تطفح
ذهبت فصول الحول وهو مصوح
فالبيت أملك والسجية اسجح
وبمثل ذا يتمدح المتمدح
عن أنفوس تسمو وأيد تسمح
فلخيلهم مسرى هناك ومسرح
والبرق منها بالسنايك يقدح
وجباها عرقاً هناك ترشح
حمد السرى سار لها يتصبح
بحبوحة الفردوس باب يفتح
ما فاز إلا من به يتمسح
ما زال يغبق بالنسيم ويصبح
أرج السعادة من ثراها ينفح
إن لم يسر طرباً له يترشح
فبأي شيء بعد ذلك يمدح
من لا يدين بحبه لا يفح
لسواك والشرف الذي لا يرجح

الله أكبر أي طرف يطمصح
حرم الخلافة والامام امامنا
عظم المقام عن المقال فحسبنا
شرفاً بني العباس ما أبقيتم
لكم المقام ويثرب بين السورى
أو ليس جدكم الذي استسقى بسه
فبقدر ما رمق السماء بطرفه
وغدا الحجاز به مريعاً بعدما
لا يدعي هذي المناقب مدح
من معشر جبريل من خدامهم
لما سموا سمحوا فحدث صادقاً
فوق السماء خيامهم مضروبية
حيث النجوم تعد من حصائها
والغيث حيث يرى الملائك سجداً
متواضعين لعزّة نبويّة
أخليفة الله الرضي هل لي إلى
حتى أطوف بذلك الحرم الذي
واجيل في ملكوت قدسك ناظراً
وأقبل الأرض المقدسة التي
وأقوم أنشد ما يكاد له الصفا
هذا الذي نزل الكتاب بمدحه
هذا نذير النفخة الأخرى الذي
هذا هو الملك الذي لا ينبغسي

قسماً أبر به ولا اتسمح
 خدمت وكان لهيبها لا يفاح
 زهراً وبات الغيث فيها يسفح
 والأيك ترقص والحمام تصدح
 عن قصد دار ظلها لا يبصرح
 أنجى وأنجع للشؤون وأنجح
 شوق إلى ذلك الجنب مبرح
 عذراء تنفر من سواه وتجمح
 ومن الكلام مبهرج ومنقح
 إن الإناء بما وعاه ينضح
 وتبيت في بحر المجرة تسبح
 طول السرى والابن حسرى طلح
 هذا المدى وكبت ورائي قرح
 لم يشهدوا ومنحت ما لم يمنحوا
 هم يضيّق بها الفضاء الأفيح
 والأعوجية في الأعنة تمرح
 من وجهه سر النبوة يشرح
 فيما يعز به لديه ويصبح
 حتى الجماد لذكره يترنح
 فالطرف يطرف والجوانح تجنح
 عملاً يقول الله فاعفوا واصفحوا
 فرقاً وأعينهم لعودي تطمح
 وغدا بنا فوق الكواكب مطرح
 وبحسن منقلبي إذا فليفرحوا
 أضحت بضائعهم تذال وتطرح
 وجلبت ما يبقى فمن هو أربح
 فلمط مدحك ذي اللاكي تصلح
 قرأت على أعدائها لن تفلحوا

واليّة بالواخذات الى منسى
 وأعيد مجدك لو عبرت الى لظى
 وتبدلت في الحال روضاً منبتاً
 وغدت جدولها تصفّق بهجة
 لا درّ دري إن ونت بي همة
 بغداد أيتها المذاكي انها
 خبياً وتقريباً وانضياءً فبي
 وإلى أمير المؤمنين رفعتها
 من جوهر الكلم الشريف تخيرت
 محجوبةً وحديثها بين الورى
 تسري الكواكب طالبات شأوها
 فتفوتها شرفاً فتصبح وهي من
 فأت الأولى رامو مجارتي الى
 قبلت ما لم يبلغوا وشهدت ما
 وتكفلت ببلوغ ما حاولته
 فالشذمية في الأزمة ترتمي
 حتى وصلت بها سرادق أبلج
 مستتصراً بالله يمسي دائباً
 تعرو المنابر حين يُذكر هيبه
 تغشى النواظر ان بدت أنواره
 يعفو ويصفح قادراً عن جنى
 من مبلغ قوماً بمصر تركتهم
 ما نلت من شرفٍ ومجد باذخ
 فبذلك الشرف الذي أوتيتُه
 إني لأريج متجراً من معشر
 جلبوا الذي يفنى وينفذ عاجلاً
 الله حسبك يا ابن عم محمد
 لا تلّ عرش خلافة مذحطتها

وقد استقر الملك فوق سريرها
في ظله للأندين فلذ به
ما لا رأت عين ولا سمعت به
إن الخلافة لم تكن إلا لكم

انظر ج ، ك .

والعز تحت لوائها لا يبرح
إن كنت تقبل من نصيح ينصح
أذن ولا أمسى ببال ينصح
من ادم وهلم جرا تصلح

وقال أيضا وكتب بها الى فخر الدين عبد الله بن المختار قاضي زاده

كريم الأرومة والمحتد
 وصلت على الزمن المعتدي
 وحزت به قمة الفرقد
 د تدل على سوود السيد
 علي وعندي وكم من يسد
 لأمر قضى لي به مولدي
 ل فاني في سكرة المرقد
 ن وأصبر في حين لم أحمد
 تسر سوى أعين الحسد
 وأخشى اطرادهما في غد
 بمنزلة العين للأثم
 مشاهدة الشمس للأرمد
 إليهم وأنفض منهم يدي
 وإما التزهيد في مسجد
 سوى الموت والموت بالمرصد
 ويطمع في جانب المغمد
 ك كتاب فساعد به واسعد
 يد ويعطف لي قسوة الجلمد
 ويأوي إلى ذروة الفرقد
 مطرز من وجنة الأمرد
 كما هشت الهيم للمورد
 نفيس الحلبي على الخرد
 فراقك يا ذا المحيا الندي
 وقد نبت شوقاً ولم أبعد
 ويا زفرا تي إليه اصعد

تملكت من سيد أصبـد
 وصلت الى درجات العـلا
 وطلت السماك به قاعداً
 فإن اقامات مجد العبيد
 وكم لك من نعمة ضخمة
 وقد عن لي أرباً في المسير
 عسى صحوة من خمار الخمو
 الى كم أهون ما لا يهـو
 وفيه المقام ولا حاله
 وقصر يومي عن أمسه
 وجانبني كل من كان لي
 وصارت مشاهدتي عنده
 سارحل لا مضمراً عودة
 فإما التصدر في مجالس
 وما بين هذين من ثالث
 وقد يرهب الصارم المنتضى
 وغاية ملتسمي في علا
 لطيف يلين بأس الحـد
 ويستنزل العصم من نيقها
 بخط كما لاح خط العذار
 ولفظ تهش إليه النفوس
 وسجع يفوق كعهدي به
 ومما يشق على مهجتي
 وأعجب بعدك من صحتي
 فيا أدمعي انحدري بعده

عليك السلام سلام امريء
حليف ولاتك في خلوة
وكم قائل عند وصفي ثنا
إذا السحر يعزى الى بابل
لعمري عمرُ ثنائي عليك
فمنك تعلمت سحر البيان
ووالله لا خلعت عن حكم

انظر ج ، ك .

مقر بفضلك لم يجحد
خطيباً ثنائك في مشهد
ك الا طرباً بك من منشد
إذا السجع يؤخذ من معبد
وهنيت بالعمر السرمهد
ونزهت نفسي عن العسجد
الى أن اوسد في ملحدي

وقال يمدح فخر الدين

ودعوا السيوف تقر في الأعماد
 فلکم صرعن بها من الأسـاد
 فهناك ما أنا واثقٌ بفـوادي
 قلب أسير ما له من فـادي
 مكحولة أجفانها بسـواد
 عينٌ على العشاق بالمرصـاد
 لولا الرقيب بلغتُ منه مرادي
 فالحسن منه عاكف في بـادي
 في ميم مبسمه شفاء الصـادي
 ما بين بيض طُبا وسمر صعـاد
 فتشابه الميـاس بالميرـاد
 ليرق لي فأراه من عـوادي
 مني بحيث ذوابتاه نجـادي
 شغفا أو الأطواق للأجـاد
 من خذّه المترقرق الوقـاد
 أنا في هواه أعبدُ العُـباد
 إن كان يرضا البدر فيه سهـاد
 والعذل منه كناظري ورقـادي
 يا عادلي فيه وضل رشـادي
 وبه سألقي الله يوم معـادي
 وجميع من قتل الهوى أجنـادي
 وكذاك فخر الدين في الأجـواد
 مصرٌ غدت تزهو على بغـداد
 قلب الخميس معاً وصدر النـادي
 غلطاً فما ينجو من الأصفـاد
 والخيل تعثر في القنا الميـاد

هي رامة فخذوا يمين الـوادي
 وحذار من لحظات أعين عيـهم
 من كان منكم واثقاً بفـواده
 يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى
 سلبته مني يوم ساروا مقلـة
 ولحي من أنا في هواه ميـت
 وأغن مسكي اللما معسولـه
 في بيت شعرٍ نازل من شعـره
 قالت لنا ألفت العذار بخـده
 كيف السبيلُ الى وصال محجـب
 حرسوا مهفها قد بهمئذ فـب
 ومن المنى لو دام لي فيه الضنـى
 يا هل أبيت وهل يبيت كصارمـي
 وأضمه ضم المناطق خصـره
 وأجيل منه ناظري في ناـضـر
 وأزيل فضل لثامه عن كـوكـب
 يا حبذا سهر الدجا في بـدره
 ومفند لي في هسواه ومسمعي
 ماتت يطيل الله عمرك سلوتـي
 أنا من جبلت على الغرام من الصبـا
 فإذا أتى العشاق كنت أميرهـم
 أصبحت مالي في الصباية مشبـة
 شرفاً بني شيخ الشيوخ ومن بهـم
 ملك تملك بالشجاعة والنـدى
 يلقي الكماة فمن نجا من سيفـه
 وتراه أثبت ما يرى في معـرك

فكانها غضبي على الأجساد
 فكانما علت من الفرصاد
 وهناك يُحجم كل ليث عادي
 حتى يرى متتابع الإزبياد
 تغنيه في الإصدار والإيراد
 ر أو بالرأي منه الهادي
 فغنيت عن وشل وورد ثماد
 حسناً وحسني في علأ وسداد
 فلقيت من نعماء بيض أيسادي
 لجلال منفرد عن الأنسداد
 فأعجب لفردي جامع الأضداد
 سهل اهتزاز العطف للقصداد
 وكذا تكون فضائل الأمجاد
 بأس الملوك وعفة الزهاد
 بلغوا مداه ولا بنو عباد
 عنهم وتسنده إلى الحساد
 حيث النجوم بها من الأوتساد
 قد كفت بيوارق ومهاد
 أقمار أنديّة، ليوث جلال
 البستموه رونق الأعياد
 بمثابة الأعضاء والأعضاد
 ضلوا فما وجدوا لهم من هادي
 فلقد غدا للدين خير عماد
 والتبر لا يخفى على النقاد
 وثناءكم عوضاً عن الأوراد
 كفاً فما لك طاقة بعنادي
 من ظلة في سجع وبيراد
 وبيك اغناني عن الأعساد

حيث النفوس عن الجسوم بمعزل
 والبيض حمراً من نجيع دم الطلي
 فهناك يقدم ضاحكاً مستبشراً
 ولقد يغار البحر من معروفه
 عشق المعالي فاقتدى بثلاثه
 بحسامه السفاح، أو بلوائه المنصسو
 يممته فوجدت بحراً زاخراً
 وشهدت فيه في الحقيقة يوسفأ
 أبدت لي الأيام سوداً مكأره
 وحللت حيث ترى الأنام شواخصأ
 متوقد العزمات فياض الندي
 صعباً على الأعداء إلا أنه
 متواضع والنجم دون محله
 يسطو ويعفو قدرة وتورعأ
 لا آل برمك إن جرى ذكر الندي
 من معشر تروي العدا خبر العلا
 ضربت على كرة الأثير خيامهم
 وبدت هناك وجوههم وأكفهم
 أطواد أحلام، غيوث مكأرم
 والدهر تاه بمجدكم فكانمأ
 أنتم لهذا الملك لا زلتم لسه
 وإليه لولاكم بين السورى
 فالله يحرس بيتكم بعماده
 ميزتكم فوجدتكم خير السورى
 فلاجعلن ولاءكم لي قبلة
 يا دهر لا تمدد لظلمي بعدهأ
 أنا في زمام ابن الأكارم نأزل
 أنا في حماية واحد لكنأ

كانا ولا افترقبا على ميعاد
 بشرى الثرى بحيا السحاب الغادي
 يا معشر الرواد والوراد
 حتى حسبنا الشحر هذا الوادي
 فوجدت هذا النظم خير عتاد
 تزري فصاحتها بقيس إياد
 إن التناء قري لكال جواد
 حاشاه أفصح ناطق بالضاد
 عذراء في حلل من الإنشاد
 وعلى ابن برد نفس الأبراد
 وبمثل ذلك راح يحدو الحادي
 فلکم لها في الناس من حماد
 إن كان لي في العمر فضلة زاد
 بالعز وانظر لي بعيون وداد
 فالجاء اليق لي من الإرفاد
 أحد ولا أعطي سواك قيسادي
 باليمن والإسعاف والإسعاد
 تعتاده بالذاريات وصاد
 فوق الثرى من طارف وتالاد

بقدومه قدم البشير كأنمدا
 واستبشرت مصر ومن فيها به
 واخضر وادبها وفاض فدونكم
 وغدا تراها عاطراً من طيبه
 ولقد هممت بتحفة تهدي لسه
 فمحتته منه بكل غريبه
 وجعلته مني قري لجلاله
 أصبحت إذ أصبحت من مذاحه
 عليك يابن الأكرمين جلوتها
 سحبت على سحبان نيل بلاغه
 أضحي بها الملاح يتشد مطرباً
 وغدت بالسنة الوري مرويه
 فلاسمعك بعدها أمثالهمدا
 إن كنت لي عنها مثيباً فاحبني
 وارفع محلي واعطف الايام لسي
 فإليك قد هاجرت لا الوي على
 واهنا بشعبان الذي استقبلته
 واعيد جسمك بعدها من وعكته
 وفذاك كل العالمين وكل مسدا

انظر ج ، ك ، ط ، مع اختلاف في عدد الأبيات .

(٤٥)

وقال أيضاً:

عانقته فسكرتُ من طيب الشذا
نشوان ما شرب المُدام وإنما
كتب الجمالُ على صحيفة خدّه
يا ناظري اهنأ وقد شاهدتسه
مهما اكتحلت بخدّه وعذاره
أضحى الجمال بأسره في أسره
وأتى العذول يلومني من بعدما
لا أنتهي لا أرعوي عن حبه
والله لا خطر السلو بخاطري
إن عشتُ عشتُ على هواه وإن أمت
إني ليعجبني تلافِي في الهوى

غصنٍ رطيبٍ بالنسيم قد اغتذا
أضحى بخمرِ رضابه متبذوا
يا حسنه لا بأس أن يتعوذا
والله لا رمداً تخاف ولا قذا
ما تلق إلا عسجداً (وزمردا)
فلأجل ذاك على القلوب استحوذا
أخذ الغرام عليّ فيه مآخذوا
لا انتهي فليهدُ فيه من هذا
ما دمتُ في قيد الحياة ولا اذا
وجداً به وصبابةً يا حبذوا
ويلذلي ما قد لقيتُ من الاذا

انظر ج ، ك ، ل ، ط ، ش ، ذيل مرآة الزمان .

(٤٦)

وقال أيضا :

إذا ماس خلت الغصن من قده كذا
رمت أسهماً في قلب عاشقه كذا
وخر له كلُّ الوري سجداً كذا
على خذه إذ طال مفكراً كذا
أراك ضجيعي ليلةً أمناً كذا
أتيتك فاحفل بي فقلت له كذا
لفيه لي أن مال من سكره كذا
عيون الأعادي والوشاة بنا كذا
كشفت قناعي فيك بين الوري كذا
فأطرق إذ أومي بأصبعه كذا
أحب اكتام السرِّ قلت له كذا
سلامي على من صرت في حبه كذا
وأهدى سلاماً من تحيته كذا
يسائل عن حالي بأنمله كذا
وإلا مست معتقداً كذا
وأصبح حبلُ الود ما بيننا كذا
ومن جوده في الناس بين الوري كذا

تعشقتُ بدرأ وجهه مشرق كذا
له مقلةٌ كحلاء نجلاء ان رنت
تبدى فقال الناس لا بدر غيره
أقول وقد عاينته ويمينه
فدتك حياتي يا منى النفس هل ترى
فقال وقد أبدى التبسم ضاحكاً
وبت على طيب العناق مقبلاً
وقال أما تخشى الوشاة وتتقي
فقلت له والله يا غاية المنى
وبحت بسري وأطرحت عواذلي
وقال أما أنذرتك الآن انني
الا يا نسيم الريح بالله بلغني
وقولي له ذاك الكئيب اقلني
عساه إذا وافت تحية عبده
وأقسم بالله العظيم ووجهه الكريم
لان صد عني معرضاً متدلاً
تعلقتُ بالسلطان أيوب سيّداً

انظر ج ، ك ، ل ، ش .

(٤٧)

وقال يهجو ابن قاضي دارا :

ولا ابن قاضيها الوقاح البذي
أعني شهاب الدين ذاك الذي

لا سقيت دارا ولا أهلها
ولا رعى الله له ذمة

انظر ج ، ك ، ل .

وقال عفا الله عنا وعنه امين :

خذوا جذركم من طرفها فهو ساحر
فإن العيون السود وهي فواتسـر
ولا تُخدعوا من رقة في كلامها
منعمة لو صادف الورد خدها
من القاصرات الطرف غارت لحسنها
قلو في الكرى مرّ النسيم بطيفها
قلاندها تشكي الظمما ووشاحها
بعيدة ما بين المخلخل والطللى
إذا ما اشتهى الخلال اخبار قرطها
ولي عاذلٌ في حبا غير عاذرٌ
ويا عاذلي بالله ما أنت عاذر
أعن قدها تتنى يدي وهو أهيفٌ

وليس بناج من دهته المحاجر
تقد السيوف البيض وهي بواتسـر
فإن الحميا للعقول تخامر
بكت وجرت من مقلتيها بـوادرُ
ضرائرها والنيرات الضرائسـر
سرى رائداً من طيبها وهو عاطر
وإن شرفت من معصمها الأساور
ترى الطرف عنها ينتثي وهو حاسر
فيا طيب ما تملي عليه الضفائر
وما ينفع الأبصار لولا البصائسـر*
أعن مثل هذا الحسن تتنى النواظر
وعن فمها تحمي فمي وهو عاطرُ

انظر ج ، ك ، ل ، ش ، ط .

* هذا البيت فقط لم يرد في الديوان المطبوع وورد في نسختي ط ، ش .

أخنساء ما قلبُ المَـتِـمِـمِـنِ من صخر
 رويداً لمضنى فيك أما جفونسه
 وماذا الذي يجدي وسالمك الردى
 تزديدن عزاً كلما زدتُ ذلّةً
 خليلي بالله اتركاني وصوتتي
 خليلي بالله أبلغها رسالتتي
 وقولا لها ذاك المعنى بحالمه
 بليت بمن يصبو الحليمُ لحسنها
 بسحرية العينين شجرية الشذا
 وبيضاء كالسمراء لينا وقامة
 تثنى حسنُها طرفي عن البدر إذ بدا
 ولم ألتفت للظبي لما تلتفت
 على أن في الأغصان منها تشابهاً
 وهم زعموا أن المدام بثغرها
 فإن صح ان الخمر جلت بعينها
 وقد نسخت لي آية السخط بالرضى
 فبتُ ويهينني لذيتُ عناقها
 وتكسر لي أحفانها عند ضمها
 فما شئتُ من ضم ولثم وغير ذا
 فإن كان أسر العاشقين كما أرى

فيقوى على حمل الصبابة والهجر
 فغرقى وأما قلبه فعلى الجمر
 عليك تلافى في هواك ولا تدري*
 ولولا الهوى ما ذلت الأسدُ للعفر
 خليلي بالله ابسطا لي بالعذر
 أرق من الشكوى ومن غزل الشعر
 سليب الكرى حي المنى ميت الصبر
 فكل ملام في محبتها يغري
 جمانية الألفاظ درية الثغر
 ولم أر غيري شبه البيض بالسمر
 وقبلتُ فاها فاعتبقت من الخمر
 ومأنتُ وقد مالت عن الغصن النضر
 إذا ما تثنت في غلائلها الخضر
 لما عاينوا من مقلتيها من السحر*
 بفيها فما في شربها بعدُ من وزر*
 ولم أر مثل اليسر يأتي على العسر
 وقد قيدتني في قيود من الشعر
 فتجبرني في ذلك الضم بالكسر
 وقالوا درى الواشي فقلت لهم يدري
 فيا رب لا تتفد محباً من الأسر

انظر ج ، ك ، ل ، ط ، ش .

* هذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع ووردت في نسختي ط ، ش .

مورد خد فوق آس عذار
ولا رأي لي في عشق ذات سوار
وبين الذي يُعشى دجى بـأزار
خلاف أنيسي في قرارة داري
يجوز عليه حكم ذات سوار
أعف وإن قالوا خلع عسذار
نعم فأتروا لي مذهبي وشعاري
وما حب كاس بالجمال بعمار
فلا زلتُ ذا سكرٍ به وخمار*
وغنى فقل في أيكة وهزار
ويجلو الدجى عنا بكأس عقار
وإن شئت قل ليل وراء نهار
فيا وردتيه رحمة لبهـاري
فيزداد ما بي من صدى وأوار
وقد لاح عذري كالصباح الساري
محصنة أو من وراء جدار
فما هي إلا في هواه جوار*
كمن يبتغي أخذ الأثير بثار*
حُماة وهي تسطو ببيض شفسار*
وبحر ندا منه وطود فخار*
نداه وأما إن سطا فحذار*

سلا خاطري عن زينب ونوار
وأصبحت بالطبي الممنطق مغرماً
وكم بين من يسعى نهاراً بقرطق
أنيسي في النادي وفي موكبي معا
وما فضل رب الطيلسان إذ غدا
واني على حب العذار ووصفه
وكم زعموا أن الخلاعة مذهبي
وسكري كاس من بديع جماله
سقاني من الأحداق أقداح قهوة
وان ماس فالغصن الرطيب نظيره
وعهدي به يجلو المدامة بيننسا
ويسعى فتسعى حية الشعر خلفه
سقى وجنتيه الحسن والدمع وجنتي
ويا ثغرة ما لي أنوقك بأرداً
ويا عاذلي في هجر هند وزينب
أترضى بأن أمسي أسير أسيرة
وقد حير السبع الدراري بحسنه
ومن يبتغي عند الغواني مودة
وإلا كمن يبغي حماة ودونها
وأبيض في بين المفاضة ظيغم
هو الملك المولى المظفر فالتمس

انظر ج ، ك ، ل ، ط ، ش .

* هذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع ووردت في نسختي ط ، ش .

(٥١)

وقال أيضا وكتب بها الى الملك المعظم ابن الملك الصالح :

البدارَ البدارَ يا ملك الأَر ض وسلطانها البدارَ البدارا
فدمشقُ الشامَ وهي عروس هياتها لك السعادة دارا
فاهجر النومَ في المسير إليها واجعل الليلَ بالمسير نهارا

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٢)

وقال أيضا لما أخذ الملك الناصر هذا القدس الشريف من الفرنج :

المسجد الأقصى له عادةٌ سارت فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخرا

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٣)

وقال في جواب كتاب :

وافى كتابك بعد فترة فنفي المساءة بالمسرة
وفضفته فلثمته لما غدا في الحسن ندرة
واواته الاصداع والالفا ت قامات والسين طرة*
فطربت حين قرأته وسكرت لكن الف سكرة
فحسبت أن الطرس من له زجاجة واللفظ خمرة

انظر ج ، ك ، ل ، ط ، ش .

* هذا البيت لم يرد في الديوان المطبوع وورد في نسخة ك .

(٥٤)

وقال وقد عمّر عمر عماد الدين بن شيخ الشيوخ حماماً :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| حمامٌ مولانا وسيننا | شيخ الشيوخ صفا له العمرُ |
| تمت محاسنها فليس بها | للعيب لا عينٌ ولا أثرُ |
| تزهو السماء بأن حوت قمرأ | وبكل ناحية بها قمر |
| قالوا فصفها قلت مختصراً | هي جنةٌ وسراجها عمر |

انظر ج ، ك ، ل ، مسالك الأبصار .

(٥٥)

وقال أيضا وكتب بها الى ابن أبي عصرون رحمه الله :

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| يا فاضلاً بهرتنا من فصاحته | بلاغةً لم تكن في قدرة البشسر |
| أرسلتها درراً حلت مسامعنا | يا بحر حسبك ما أهديت من درر |
| لفظاً وخطأً وكلّ منهما حسن | من محسنٍ فهي ملء السمع والبصر |
| فلم أزل أجتلي ليلي محاسنها | وأجتنيها فقل في الزهر والزهر |

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٦)

وقال عند وفاته :

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| قالوا قضى الملك المسعود قلت لهم | لا تطمعوا في بقاء الشمس والقمر |
| قل للملوك استقروا في ممالككم | مات الذي كنتم منه على حذر |

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٧)

وقال أيضا يشكره :

أقول وقد توألى منك برّاً
أهلاً لا برحت لكل خيرٍ
الا لا تذكروا هراً بما بخيرٍ
فما هرمَ بأكرم من زهيرٍ

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٨)

وقال (دوبيت) :

لا تستر ما جرى فما يستتر
عندي وحياء ناظريك الخبر
لا بأس عليك فالفتى منبسطاً (منبسطاً)
في حبك كلُّ هفوة تغتفر

انظر ج ، ك ، ل .

(٥٩)

وقال أيضا في اليوم المذكور : (تاسع رجب سنة ٦٤٨ هـ بالقاهرة المحروسة)

قالوا الأطباء على كثرة
قد عجزوا عنك فماذا تشير
فمن يداويك لتشفى به
قلت يداويني اللطيف الخبير

انظر ج ، ك ، ل .

(٦٠)

وقال وكتب إليه من (سر من رأى) محاجياً فيها :

أيا من له الفهم دون الورى
ومن زند فطنته قد وري
أبن لي عن مشكلٍ غامضٍ
فما مثل (فرّح من ابصرا)

انظر ج ، ك ، ل .

(٦١)

وقال أيضا في مليح لسع :

قالوا حبيبك ملسوع فقلت لهم من عقرب الصدغ أو من حية الشعر
ف قيل بل من أفاعي الأرض قلت لهم من أين تسعى أفاعي الأرض للقمر

انظر ج ، ك ، ط ، ش .

(٦٢)

وقال أيضا في أيام الخوارزمية والتردد بينهم :

أنا أولى بما ذكرت من الأمثال إن كان في الحراف يفاخر
كل يوم في رحلة ومقام بين ما قيل قد أتى قيل سافر
عاكف فيه لا على صنم فر دكاني أستغفر الله أزر
بين حاناتنا نروح ونغدو فكانني ذلك الفلاني الآخر

انظر ج ، ك .

(٦٣)

وقال مفردا :

ومثلك من رعي ودأ قديماً ولا سيما يؤكدُ بالجوار

انظر ج ، ك .

(٦٤)

وكتب اليه الشيخ مهذب الدين بن الخيمي أيام كان على الديوان بالمواريث :

لمهيار مصر اسجل الفضل عندنا
فبينهما في النظم والنثر إن هما
فتى نظر السلطان فيه مخايل الدرا
فولاه أموال المواريث حامياً
كان ابن مطروح أقام ابن احمد
وكل امير في البلاغة عنده
وابطلت الدعوى لمهيار فارس
سبرتهما ما بين ماش وفارس
ية والديوان نظرة فارس
به سربها من كل أجراً فارس
واحياه من بعد البلى وابن فارس
غلام فلا تبعث سواء بفارس

انظر ج ، ك ، ل .

(٦٥)

وكتب اليه الجواب :

أباعثها مل المسامح حكممة
شوارد عن أوهام قوم شوارد
مهذبة جاءت لنا من مهذب
تعز على من رامها غير ربهها
سداسية لو قال اتى بسابع
وحاولت منها الراء والسين فاحتمت
حميت حماها ثم أغلقت بابها
قوافي تجلى كالعداري العرائس
أوانس تزرى بالحسان الأوانس
تدل له كل القوافي الشوامس
وتطغى فما تعطى قياداً للامس
لها ابن سليمان اتى بعد خامس
علي بحام ذي اقتدار وحابس
وحصنت منها كل بيت بفارس

كما كتب إليه بعد ذلك : **

أتاني من علاك بديع نظم
بيوت ستة شرفت علأ
ولو أن السلافة مازجتها
ولو كانت خصورا [أو] نحورا
كسمط الدر في حسن اتساق
على الست الجهات بلا اختلاق
حلت بعد المرارة في المذاق
لأفنتها ملازمة العناق

* انظر ج ، ك ، ل .

** انظر مسالك الأبصار ، وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع .

(٦٦)

وقال أيضا وكتب بها الى نائب القاضي بدر الدين السخاري وهو مولانا قاضي القضاة
شمس الدين ابن خلكان عفا الله عنه :

يا من استوحش طرفي له لم يخل قلبي منه في أنس
والقلب والطرف على ما هما عليه مأوى البدر والشمس

انظر ج ، ك ، ل .

(٦٧)

وقال أيضا وكتب بها في حصار آمد : *

ولقد ذكرتك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شرع
وعلى مكافحة العذول ففي الحشا ناراً اليك تفيض منها الأضلع
ومن الصبا وهلم جرا شيمتي هذا الوفاء فكيف عنه أرجع

وقال : **

سَطَرَتِهَا وَالسْمَهْرِيَّةُ شَرَع من حولنا والمشرفية تلمع
وعلى مكافحة العدو ففي الحشا شوق إليك تضيق عنه الأضلع
ومن الصبا وهلم جرا شيمتي هذا الوفاء فكيف عنه أرجع

* انظر ج ، ك ، ل .

** انظر ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ف: ٢٠٦ وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع .

(٦٨)

وقال أيضا فيه وأوصى أن يكتب على قبره :

أتجزع للموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع
ولو بذنوب الوري جنته فرحمته كل شيء تسع

انظر ج ، ك ، ل .

وقال أيضا يمدح الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل قدس الله روحهما ونور

ضربحهما :

أيا قلبُ دع عشقَ الحبيب المبرقع
ودونك حسناً لم يُشْنهُ تصنعُ
ويا قلبُ إن خالفتني وعصيتني
وإني على ما في من حضريّة
وما أنسَ لا أنسَ المليحة إذ بدت
فما شك طرفي أنها الشمس أشرقت
تميل من الادلال والسكر والصبأ
فما الروضة الغناء غنا حمامها
تمنيت منها قبلةً فتمنعت
وعانقتها حتى تتأثر عقدها
وقالت وعقد القاف منها سجيّة
فوالله أما أن يكون كلامها
واقسم لو كان ابن ادهم حاضراً
أو الملك المسعود عزّ مقامه
لأقبل يسعى نحوها متواضعاً
حيّاً إذا حيّاً وأما إذا سطا

ولا تتقنع بالحبيب المقتنع
فلا خيرَ في حسنٍ أتى بتصنع
وحاشاك فاختر مسكناً غير أضلعي
ليعجبني ظلُّ الخباء المشرع
دجى فأضاء الأفق من كل موضع
ولا أنني أوتيت آية يوشع
كما مال نشوانٌ بصرف المشعشع*
بأحسن منها في الحلي المنوع*
وجادت بوصل بعد طول تمنع
ولو رضيت عوضتها در أدمعي
أقم عندنا ما شيت غير مروع
من السحر أو فالسحر خامر مسمعي
ويسمعها أنسته ثوب التورع
على ما به من عزّة وترفع
وإن زاد قدراً فوق كسرى وتبع
فخفه أو اصنع أنت ما أنت تصنع*

انظر ج ، ك ، ط ، ش .

* هذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع ووردت في نسختي ط ، ش .

(٧٠)

وقال يعاتب بعض الملوك :

من مبلغ عني المليك الأروعا
يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم
وإذا النجوم سعت لتترك مجدهم
أيجوز أن ابقى ببابك ظامئاً
ولو ادعيت بأن مالك ناصح
ومع النصيحة فالتخلق بالوفا
ومحبة لدمي ولحمي مازجت
ولطالما جربتني فوجدتني
وأشدّ آراءً وأتقّب فكسرة
ولكم ليالٍ بتّ في ديجورها
حتى رأيتك فوق كسرى رفعة
فعلام بعد الاصطفاء نبذتني
وسمعت في حقي كلام معاشري
حقّ العذول بأن يقول فيفتري
إن كنت خنتك ظاهراً أو باطناً
أودّكم من عنفوان شببتي

انظر ج ، ك .

(٧١)

قال وكتب الى فخر الدين بن قاضي دارا :

أصبحت تعطي والأراذل تمنع
إني أغار على المناصب أن يرى
أوسعتنا جوداً ولو ما أوسعوا
من لا يليق بها يضر وينفع

انظر ج ، ك .

(٧٢)

وقال أيضا :

وقفتُ أحلي الأرضَ من در ادمعي فجاء العذارى يلتقطن المدامعا
يغرّن على تلك اللآلي لأنهُـا بقیةً ما أودعن مني المسامعا

انظر ج ، ك .

(٧٣)

وقال وكتب اليه أيضا يستهديه ورقاً وحبراً :

أفلست يا سيدي من الورق فابعث بَدْرَج كعرضك اليقق
وإن أتى بالمداد مقترناً فمرحباً بالخدود والحدق

وقال : **

ولم أر أعجب من كاتب يشاحح إخوانه في الورق
فأرسل به كيباض الثغر على مثل سواد الحدق

* انظر ج ، ك ، ل .

** انظر مسالك الأبصار ، وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع .

(٧٤)

وقال أيضا منه :

لما لمع البرق أضاء الشرق والصبح مزرر عليه الافق
نبهت حبيبي أحسب الصبح بدا ما أسرع ما روعتني يا برق

انظر ج ، ك ، ل .

وقال أيضا يمدحه :

عذب اللما والمعتق
 له معانقاً حتى أبق
 ت سوى الصبابة والحرق
 ولاي قلب ما استرق
 ولواء قلبي قد خفق
 وحرمت انسك يا أرق
 لك عطارد وقد احترق
 ي الكاتين لها مشق
 لك بوجنة مثل الشفق
 وعلامة الخجل العرق
 فتكت به سود الحرق
 رمقاً به لما رمق
 حظه عليه وما امتشق
 ن عليه دائرة النطق
 ن وفي الفؤاد له سبق
 وحكيته أنا في القلق
 ه فخاف دمعي فانطلق
 أخشى عليك من الغرق
 ه به فقبل واعتق
 ما أرق وما أدق*
 ه فما أطقاً وما اتفق
 أني سلوت وما صدق
 تفضيله كل الفرق
 في راحتيه وأغتبك
 ث عن علاه ولا فرق
 والعزم يرتق ما انفتق

بأبي وبي طيف طرق
 ما أن مددت يدي إلي
 ثم انتبهت فما فما وجد
 فلاي عقل ما سبى
 فطفقت أنشد بعده
 اوحشت جفني يا كرى
 يا شمس، قلبي في هوا
 في نون صدغك حرت أ
 أخجلت خد السورد من
 حتى تقطر ذائباً
 يا قوم من لمتيم
 وبقلبه من لم يدع
 سيان ما اشتملت لوا
 ملك الملاح ترى العيو
 ومخيم بين الجفو
 فإز الوشاح بضميه
 قيدت قلبي في هوا
 يا من يزاحم أدمعي
 طوبى لمن ظفرت يدا
 لله من شعري وخصرك
 حاولت أن أسلو هوا
 وإشاع عني عاذلي
 لا والذي اجتمعت على
 موسى الذي اصطبغ الندى
 الأشرف المنصور حن
 ذو الرأي يبني ما وهى

ك ببابه أضحوا سُوق
ك إلى مدى شرفِ سبق
ورأوا غباراً لا يَشُق
لرأى وذي خرَسِ نطق
ة إذ تَخَضَّبُ بالعَلق
لا اثم في دمٍ من مرق
رياً يُبلِغُها الشَّـرَق
منك بعزيمةٍ مثل الفلق
ك بالسماك قد التحق
رده على كـدرٍ، ورَق
لكنه بك قد نفق
مصريةً فيها قلق
شوقاً وأنت بها أحق

ملك إذا مثلَ الملو
وإذا تسابق والمـو
فراوا شهاباً ثاقباً
أو لو مسحت على عم
فاعزم ولا تنثني الأعـم
من كل مهجةٍ مـارق
وارو السيوف من الظمـا
واصدع حشا الرومي
واضمم إليك جناح مـ
واسمع مديحاً راق مـو
قد كان قبلك كاسداً
خذها على ما خيلت
زارتك في غسق الدجى

انظر ج ، ك ، ط ، ش .

* هذا البيت لم يرد في الديوان المطبوع وورد في نسختي ط ، ش .

(٧٦) وقال أيضا يمدح مجد الدين: (انظر ج ، ك ، ط ، ش)

من لي بغصن باللحاظ ممنطق
 مئري الروادف مملوق في خصره
 يعصي العذول عن الهوى ويطيعني
 وغريرة زارت على بخل بها
 لم أنس ما قالت وقد لمست يدي
 خافت عواقب محنتي من أجلها
 لا شيء أكنم من دجنة شعرها
 حتى الحلبي لحسنها متوسوس
 خد توقد إذ ترقرق ماءؤه
 ونظيرها الغصن النضير إذا انثت
 ويروقني منها اخضرار خضابها
 فبخسها هي زهرة للمجتبي
 ولكم بها من خلوة هي حلوة
 وأقول يا أخت الغزال ملاحمة
 يا شمس قلبي في هواك عطارد
 وأجل ذنبي عندها عدم الغنى
 قالت : سل الأيام قلت أنا امرؤ
 وإذا سألت سألت رباً راحماً
 لأكلفن الجرد ما لم تستطع
 من كل ضامرة إذا سرت الصبا
 أن لم أنل بالمغرب الأقصى المنى
 لا فزت بالمأمول من طلب العلا
 وافي بأسعد ليلةٍ ودليله
 لله أية آية لك لم تكن
 أي الملوك سواك يقدم جيشه
 فليهنني والأولياء قدومه
 كم قلت للأعداء روموا سلمه

حلو المحيا واللمى والمنطق
 أسمعت في الدنيا بمئري مملوق
 فأنا السعيد به وعاذله الشقي
 لما بعثت لها زيارة مشفق
 ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
 فبكت لشمل دموعي المتفروق
 لو أن صاميت حليها لم ينطق
 فاعجب لحسن للجماد منطق
 لهفي على المتوقد المترقرق
 في حلة خضراء من استبرق
 والغصن ليس يروق ما لم يورق
 ويطيبها هي زهرة المستنشق
 كعتابها كرضابها كتملقي
 فتقول لا عاش الغزال ولا بقي
 لولا تعرضه لها لم يحرق
 فكأنه شيب الم بمفرقي
 تآبى السؤال خلانقي وتخالقي
 قطعت يد مدت الي مسترزق
 صبراً عليه يعملات الأنيق
 في أثرها عادت بسعي مخفق
 حاولت ذاك ولو بأقصى المشرق
 وبقرّب مجد الدين إن لم أصدق
 أن الصعيد بيمن طلعه سقي
 لسواك ممن قد مضى أو من بقي
 جيشان من رعدٍ وغيثٍ مغدق
 في غيظ كل منافق متملق
 وحذار من ذا الأفعوان المطرق

(٧٧)

وقال وكتب جواباً الى بعضهم عفا الله عنه :

ما معدن الدر والياقوت غير فمك
وانظم من النثر ما تسبى العقول به
وابشر فانك قد أصبحت منفرداً
وكل ذي همّة علياء قد قصُرت
أرسلت طرساً يحاكي روضة انفاً
شممت من طيبه نشرأ ذكرتُ به
فانثر علينا عقود الدر من كلمك
فالنظم والنثر منقولان من قلمك
وكلُّ حسنٍ غدا يعزى الي شيمك
عما حويت فما تسمو الي هممك
فالحظ يروى متى شاء من ديمك
طيباً الثناء على المعهود من كرمك

انظر ج ، ك ، ل .

(٧٨)

وقال أيضا بديهاً وقد زار قبر الامام الشافعي رضي الله عنه فصادف عنده الصاحب
معين الدين بن الشيخ رحمه الله تعالى :

له أي فضيلة ادركتها
عند الامام الشافعي لقيته
في خدمة المولى الوزير الناسك
فظفرت عند الشافعي بمالك ي

انظر ج ، ك ، ل ، مسالك الأبصار .

(٧٩)

وقال :

يا ليت شعري لماذا
أهل تجدد شيء
اني اعيد من الهج
قَطَعَتْ عني كتبك
علي أوجب عتباك
ر والقطيعة قلبك

انظر ج ، ك .

(٨٠)

وقال أيضا منه :

ما يقتلني وحق عينيك سواك
هلا أكرمت يا حبيبي مثواك

أهواك وما بزحتُ مضنى بهواك
ملكتك مهجتي فبرحتُ بها
انظر ج ، ك .

(٨١)

وقال أيضا :

فوا عجباً لأسيرٍ قَتَل
طعين القدود جريح المقل
وأن القدود الطبا والأسل
وبالأعين السود ما لي قيل
وأبصره البدر إلا أفـل
ء ويهدي بغرته من أضل
ألم تر فيها اصفرار الخجل
شبيها لها في اللمي والكحل
على أنه جار لما عدل
ط وخص روادفه بالكسل
فلمست أميل الى من عدل
وعما جرى بيننا لا تسـل
ق وذبلتُ مرشفه بالقُبل
وأشرفتُ من نجد ذاك الكفل
بحي على خير ذاك العمل
وتزعم أن الرشا ما وصل
وهذا فمي فيه طعم العسل
أحب الغزال وأهوى الغزل
ح ويهوى المدام فما هو بطل
ويا مطرب الحي زدني جذل

.....

خذوا قودي من أسير الكلل
وقولوا عليّ إذا نُحتمُ
وما كنت أعلمُ أن العيون
ولي جلدٌ عند بيض الطبا
وبي قمرًا ما بدا في الدجى
يُضل بنظرته من يشا
وقد أخجل الشمس من حسنه
ويا فرحة الطبي لما بدى
لقد عدل الحسن في حكمه
فعم معاطفه بالنشأ
فلا تكثروا اللوم يا عدلي
وجاد الزمان به ليلـة
فأنحلتُ قامته بالعنا
وكم تهت في غور خصر له
واننت من فوق ذاك الكئيب
وان كنت تتكر وصلأ جرى
فها أثر المسك في راحتي
وقد علم الناس أنني امرؤ
وكل فتى لا يحب المسلا
فيا ساقى الراح قم واسقني

انظر ج ، ل ، ط ، ش ، ولم ترد في ك ، وأضافها ناشر نسخة الجوائب من خارج كوبرلي .

(٨٢)

وقال وأهدى له الأمير فخر الدين ابن الشيخ سيفاً مجوهرأ :

أتى منك سيفاً بل خزانة مال فرحْتُ به ذا ثروةٍ وجمال
وأصبحت الأيام ترهبُ جانبي وتهرب من بطشي به وقتالي
وما ضرني أن رُحْتُ منه مقلداً إذا لم اكن في معقلٍ وئمالي
يزين يميني يوم حرب وربما غدا يوم سلم زينة لشمالي

انظر ج ، ك ، ل .

(٨٣)

وقال أيضا وكتب إليه :

الية بقُدود الهيف ميلها سكر الشباب فما تخلو من الثمل
وبالعيون التي في طرفها مرض وبالخدود إذا احمرت من الخجل
وبالنحور إذا زانت قلائدها وبالثغور إذا اومت الى القبل
لم الق مذ بنت عنكم ما أسرُّ به وليس لي بعدكم في العيش من امل

(٨٤)

وقال أيضا : **

الية بفتور الأعين النجل وبالخدود إذا ما هزها هيف
لأنت عندي على ما فيك من صلفٍ وبالثغور اذا اومت الى القبل
احبابنا لا وما بيني وبينكم أحلا من الأمن عند الخائف الوجل
لأن ظفرتُ بلقياكم وفزت بها من الوداد وما ودي بمنتقل
إن قدر الله أن أحظى بزورتكم ما استشرفت بعدها نفسي الى أمل
وهبتكم كل ما ألقاه من أجل وهبتكم كل ما ألقاه من أجل

* انظر ج ، ك ، ل .

** انظر ش ، ط ، ولم ترد في الديوان المطبوع . والقطعتان السابقتان أظنهما قطعة واحدة بروايات مختلفة .

(٨٥)

وقال أيضا وكتب بها الى عماد الدين ابن شيخ الشيوخ :

وكل خضاب سوف ينصل صبغه
وما لخضاب الود فيك نصول
ووالله لا انسى جميلك لو غدت
تدافعني عنه قنا ونصول

انظر ج ، ك ، ل .

(٨٦)

وقال أيضا في يوم الخميس سابع عشر رجب من السنة المذكورة :

يا أيها الناس اعملوا لمعادكم
وخذوا لأنفسكم بحوطة حازم
وحذار من تقريظكم نفساً كما
واخشوا مقام الله جل جلاله
وسوى فقصر عنه كل مقصر
وحذار من عرض الحساب وطوله
فيما يقال الفوز عند لقائه
وأقل ما يرعون روعة منكر
وإذا بدأتم واختتمتم عوده
قبل الوقوف على المقام الأول
عن كل ما في الأرض بات بمعزل
فرط الفعال من العبيد الضال
فهي السبيل الى الطريق الأمثل
حتى استقر من الرعيـل الأول*
في عرضه يوم الحساب الأطول
وكذا أتانا في الكتاب المنزل
ونكير من تحت الحصى والجنـدل
صلوا الصلاة على النبي المرسل

انظر ج ، ك ، ل .

* هذا البيت لم يرد في الدوان المطبوع وورد في ل فقط .

(٨٧)

وقال أيضا وقد قلق عند موته وتخوف فأنكرت زوجته عليه :

وقائلة ماذا التخوف كله
فقلت لها علمي بما قد جنيتُ به
فقلت إذا فكرت في يوم موقف
فقلت لها ارشدت للخير كله
ويكفيك قول المصطفى وهو الذي
وقد سأله عنه قال بل اعملوا وفي
من الله وهو المنعم المتفضل
وإني عليم حين أقدمُ أسأل
يهون عليك الأمرُ جداً ويسهل
ولو كنتُ ذا حزم لما كنتُ أخجل
به صار في كل الدهور التوسل
خبرٍ قال اعقلوا وتوكلوا

انظر ج ، ك ، ل .

(٨٨)

وقال في العشرين من رجب المذكور :

أشهد أن الله سبحانه
وكل ما جاءت به رسله
وهم دعاة الله في أرضه
وجاهدوا فاجتهدوا وماونوا
لهو الإله الواحد العدل
حق لكل يشهد الكسل
وفعلهم مهما اتوا عدل
يوماً ولا كلوا ولا ملوا

انظر ج ، ك ، ل .

وقال يمدح عماد الدين :

وقد عبقت بالطيب منه غلائله
 فيمكن إلا أن تهيج بلابله
 من الزنج من ذا في الملاح يماثله
 وقد قلقت مني وغارت مراسله
 على عطش لا يعرف الري ناهله
 يغازلني طوراً وطوراً أغازله
 على عاتقي من ضفرتيه حمائله
 ورقت حواشي ليلنا وشمائله
 كعرف عماد الدين حين تقابله
 وقد سبقتني قبل ذاك فواضله
 ولكن بحصل السبق فازت أنامله
 فأينع ذاويه ورقت خمائله
 بمدحك من هذا الثناء جداوله
 وتأمّن إذ يطفو ويطفح نائله
 كذا الغيث لا تخفى علينا مخايله
 وتتبعه من بعد ذلك هواطله
 تيمم مصرأ من ذرى الشرق وابله
 فكل الورى ايتامه وأرامله
 فبين الثريا والسماك منازلله
 اواخره ارث العلا وأوائله
 لما غالت الحرّ الكريم غوائلله
 عن الوحي يملينا الذي هو قائله
 فأضحى ملياً بالنباهاة حامله
 وطابت به أسحاره واصائله
 هي السحر إلا أن فكري بابله
 لأنني راوي الفضل عنه وناقله

تثنى كما هز الرينيّ حامله
 فعانقت غصناً لا يراه أخو تقسى
 من الترك أضحى في الصميم وخاله
 ترشفته والليل داج كشعره
 فيا لك مني مورداً ما ألسده
 وضمّ الدجى منا حليفي صبابه
 وما خلته إلا حسامي أضمه
 وطافت بنا السراء من كل جانب
 وهبت علينا نفحة عنبرية
 ففمت من الاجلال أنشد مدحه
 تكافأ في الاحسان شعري ومدحه
 وما كنت إلا الروض باكرة الحيا
 وضاع شذا أزهاره وتدقت
 تخاف علاه من توقد عزمه
 يبشر منه البشر راجي نواله
 الم تر أن البرق يبدو أمامه
 ولم أر غيثاً مثل غيث سماجه
 كفى والدأ من حمل هم لولده
 على مهل يا من يحاول مجده
 كريم له بيت كريم تقاسمت
 له شيم لو أن في الدهر بعضهما
 بليغ إذا ما أورد اللفظ خلته
 تحلى به الدهر الذي كان عاطلاً
 وأثنى عليه ليله ونهاره
 وإني وإن أتخفته بمدائح
 فما تعبت لي فكرة في مديحه

فلا حَمَدَ لي فيما أقولُ وإنما
 عفاةً وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
 إذا سار فوق الراسيات تزعزت
 ورب خميسٍ طبق السهلَ والرُّبا
 بكم يا بني شيخَ الشيوخ تأيـدت
 وقد علم السلطان في كل موقف
 واخلق بملك أنت حارس سرجه
 انظر ج ، ك ، ووردت في ش ، ط تسعة أبيات فقط .

(٩٠)

وقال أيضا :

اعتذاري بكثرة الشغل لا أر ضاه عذراً وأنت أكثر شغلي
 ولعمري لئن عتبت بحق كيف ينسى حقوقَ مثلك مثلي
 انظر ج ، ك .

(٩١)

وقال فيه أيضا :

رأيتُ المشدين يستخرجون ن وهذا الرشيدي يستدخلُ
 وفي كل يوم على عينه يولى ويعزلُ من يعزلُ
 انظر ج ، ك .

(٩٢)

وقال أيضا :

لما طرقتُ خيامها
 فوقفت وقفة خائف
 قالت عليك ولا تخف
 قلت القري قالت أبحث
 قلت اللمى فيما سمحت
 فسكرت من طربي لطيب
 انظر ج ، ك ، ل .

(٩٣)

وقال وكتب بها الى بعضهم وقد قصده فاحتجب عنه :

لا غرو إن حُجِبَ الامير ووجهه بدر التمام
فالبدر من عاداته أن يختفي تحت الغمام
فليهنه إن كان قـ رقت له شمس المدام
وليبق محروس المزا ج معاً ومحروس النظام

انظر ج ، ك ، ل .

(٩٤)

وقال وكتب بها الى الصاحب بهاء الدين زهير رحمه الله تعالى :

رحلتُم وطلقتُ المسرات بعدكم ثلاثاً وراجعتُ الهمومَ على رغمي
وقد كان همي وحده فيه مقنع فجاء الذي أربى وزاد على همي
ويا دهر كم ذا الحرب حسبك فائتد وسالم فقد قيل السلام من السلم
رضيتُ بظلمي فيك لو كنت مؤثراً اخلاي بالانصاف منك وبالْحلم
سلام على اللذات بعد فراقكم الى أن تعودوا بالسلامة والغنم

انظر ج ، ك ، ل .

(٩٥)

وقال يمدح الكمال بن العديم :

خرجتُ من النعيم الى النعيم الى المولى الكمال بن العديم
ولولا أن أسيء لقلتُ اني خرجت من الجحيم الى النعيم

انظر ج ، ك ، ل .

(٩٦)

وقال أيضا في اليوم المذكور :

قدمت عليك يا رب البرايا فآمن روعتي يوم القـدوم
وكيف ولا اخاف ولي نوب قدمت بها على الملك العظيم
فما قدمت بين يدي زادا ولكني قدمت على كريم

انظر ج ، ك ، ل .

(٩٧)

وقال فيه :

إن عفا مولاه عنه إن مولاه رحيم
يغفر الذنب ويعفو كيف لا يعفو الكريم

انظر ج ، ك .

وقال أيضا يمدح السلطان الملك الناصر يوسف عند مسيرة الى حلب المحروسة :*

لا وعينيك ويكفي ذا القسم
أيها الراقد في لذاته
ويح قلبي من هوى مستهزىء
شاهدوا مبسمه مع أدمعي
قمرٌ تم على عشاقه
اشتكى سقمي الى اجفانه
بدوي السزى إلا أنه
ربما هم بلثمي هازناً
لا تراه ناسياً لفظه لا
من يرد الغيث إن قيل همي
عجبي من قلم في كفه
أنتم من معشر ذكر الندى
هم جبال الحلم إن أغضبتهم
كلما مذ كريمة راحة
ملك العلم تراه ناشرا
حارت الأفكار في وصف فتى
حاولوا القسمة في أمواله
ياوزير الدست خذها جملة
وابق للسودد سورا لا وهى

ما رأت عينيَّ يوماً منذ كم
نم هنيئاً إن عيني لم تتم
ما رأني حنقاً إلا ابتسم
وانظروا أي أفاح وعنم
كل كبد منه لما قيل تم
ومتى يشفى سقام بسقم
لا يخاف العار في رعي الذمم
فإذا ما سُمته اللثم اللثم
كصلاح الدين لا ينسى نعم
من يصدُّ الليث إن قيل هجم
ليس ينضى السيف إلا إن رسم**
عنهم وإن كانوا رمم
فإذا استهديتهم كانوا ديم
أخرتها للعلامكم قدم
من علمه أعلى علم
علوي العلم علوي الهمم
ودعوا عليها ليست تقنسم
فإذا ما فصلت كانت حكم
وسوارا للمعالي لا إن فصم

* انظر ج ، ك ، ش ، ط ، وقد وردت فيها عشرة أبيات .

** وردت القصيدة نفسها في مسالك الأبصار تسعة عشر بيتاً ، أي بزيادة تسعة أبيات
عن الديوان المطبوع ونسخ المخطوطات .

(٩٩)

وقال يفتخر :

فما خلقتُ لغير المجد والكرمِ
فإن كفي للقرطاس والقلمِ

اليك عني فليس اللهور من شيمي
إذا امتطيت يداً للكأس مترعةً

انظر ج ، ك.

(١٠٠)

وقال أيضا :

أو بالغزال وجدته مظلوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

إن قسته بالبدر ما أنصفته
هذا نبيُّ الحُسنِ جاء فكلكم

انظر ج ، ك.

وقال يمدح أخاه الأشرف مظفر الدين أبا الفتح موسى رحمه الله تعالى :

فأراك حظ المجتلي والمجتبي
وأبيك عن لحظات تلك الأعين
وبشعره عن بيت شعر قد غني
ولكم له في مهجتي من موطن
بالسيف مرهوب السطا لم يؤمن*
لا أنتهي لا ارعوى لا انتهي
انا في الصبابة قدوة فاستفتني
نال الخلود وليس ذاك بممكن
أبدأ ولا تأمن لعطفة ليين
ولها من الألباب أي تمكن
هذي التي في حبها لمتنتني*
لتيقن العذال فيها أنتني*
ومتى ينال الوصل من مثلون
واخذتني يا تاركي من مأمني
وكذا الرقاد صبا اليه وملنتني
فمتى أراك ويا كرى أوحشتني
والوجد باق والتصبر قد فنتني
قالت وعيش أبي لقد أحزنتني
ظفرت يدي منها بعقد مثنى
اضرب بلحظي أو بقدي فاطعن
بدجى ذوائبي الأولى حيرنتني
ويذيب قلب الخاشع المتدين
من فتنة شعاء لو لم أفتن
وهناك تحسن صبوة المتدين
إلا الثناء على علا شاه ارمن

واقى وأقبل في الغلائل ينتهي
ورنا فما تغني التمام والرقى
أغناه ذابل قدّه عن ذابل
رشاً من الاعراب مسكنه الفلا
بدوية كم دونها من ضارب
قل للعواذل في هواه الا انتهوا
يا لائمى في الحب غير مجرب
من بات يملك قلبه من طرفها
لا يخدعك لحظ طرف فاتر
فالخمر وهي كما علمت لطيفة
كم قلت للعذال لما زرتها
لو شاهدوا منها الذي شاهدت
وبليتي من صائد لي نافر
البستني يا هاجري ثوب الضنى
حتى فؤادي خانني ووفى له
يا قلب ما أنست بعدك راحة
عهدي به ويدي مكان وشاحه
اعلمتها أن التفرق في غدر
وبكت فلو نظمت لآلي دمعها
وتقول إذ أوجفت خيفة أهلها
أو فاحتجب إن شئت إن لم تلقهم
فسمعت ما يلهي اللبيب مؤلها
وشدا بشعري فافتنت ويا لها
شعري ومحبوبي يغنيني به
لا شيء يطرب سامعاً كحديثه

موسى وتمم بالرحيم المحسن
 في نظرة من وجهه لم تغبن
 لم تلق غير مشارك ومؤمن
 نظرت إليك فما اراه بمؤمن
 وعداك والأموال ماذا تقنتي
 شيم لها الاملاك لم تنفطن
 وتهامة وبلاد عبد المؤمن
 وهلم جرا قلبه لم يسكن
 يا رب من سطوات موسى نجني
 ولقد ظفرت بلثمها فليهنني
 يا ليت قومي يعلمون بأنني
 ما كل رافع صوته بمؤذن
 من كان في شك به فليوقن
 فيه ولا نظراؤه لكنني
 مترسل متتوع متفنن
 أو شئت نثراً فاقترح واستحسن
 قد يظهر الانسان ما لم يبطن
 إلا مخافة أن تقول لها اسكني
 عمي النواظر عنك خرس الأسن

الأشرف الملك الكريم المجتبي
 ملك إذا أنفقت عمرك كله
 وإذا انتخبت له دعاء صالحاً
 يا أيها الملك الذي مسن فاتمه
 أفنيت خيلك والصوارم والقنا
 أبقت لك الذكر الجميل مخلداً
 وشجاعة رجف العراق لذكرها
 ولى الخوارزمي منها هارباً
 ودعاؤه في ليله ونهاره
 ما كان أشوقني للثم بنانه
 ودخلت من أبوابه في جنه
 يا مكثري الدعوى اخفضوا أصواتكم
 أنا من يحدث عنه في أقطارها
 هذا مقام لا الفرزدق ما هرر
 ملك الملوك اليكها من ناظم
 إن شئت نظماً فالذي امليت
 لا تخدعن بظاهر عن باطن
 والسبعة الأفلاك ما حركاتها
 عاشت عداك ولا أشخ عليهم

انظر ج ، ك ، ل .

* الأبيات الثلاثة وردت في ل فقط ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمتنا الله ورحمه ورحم أموات المسلمين :

واستبدلوا بدل السيوف الأعينا
أخذ الأمان لنفسه إلا أنسا
في الحب كل دقيقة أن افتنا
أرقاً ولا جفن تجافاه الضنا
لا تستطيع الأسد تثبت إن رنا
حتى يرى منها أتم وأحسنا
قالت غصون البان ما ابقى لنا
منه رشاقة لينها لما انتشى
معنى العقيق وبارق والمنحنى
ومن الحرير تراه جداً الينا
يا عاشقي والله ظلماً بيننا
ولأجل ذلك رحمتنا منه أحسنا

هزوا القدود وأرهفوا سمر القنا
وتقدموا للعاشقين فكلهم
لا إن لي جلدًا ولكني أرى
لا خير في جفن إذا لم يكتحل
وأنا الفداء لبابلي لحظته
وإن البدور بدا هوت من ألقها
لما انتشى في حلة من سندس
هذا على أن الغصون تعلمت
وبخده وبشعره وعذاره
أقضى علي من الحديد فواده
شبهته بالبدور قال ظلمتني
البدور ينقص والكمال لطلعتني

انظر ج ، ك ، ل .

(١٠٣)

وقال أيضاً :

سقى صوب الحيا تلك المغاني
ملاعب أنسنا والشيب منا
وربع ما مررت عليه إلا
يذكرني زماناً لو صفا لي
ولو دانت لياليه لكانت
وبكرني أخلاء كرام
فخمشنا خدود الورد ظرفاً
وما أنسى ولو نسي التصابي
ولا روضاً جررت به ذيولي
وليلاً بت ساهره ولكسن
يطوف عليّ ولدان وهور
فما قابلت إلا بدر تم
واحبيت الدجى لعباً ولهسواً
وما أبقت صروف الدهر منا
وإلا كالتجد من محب
فمذ فارقت كرهاً وأعزز
فطرفي والكر طرفاً نقيض

وإن أقوت من البيض الحسان
بعيداً والشباب الغض داني
لواني الوجد لي الخيزران
خليل مثله فيه كفاني
تتوب عن الغواني للمغاني
يُشار الى علاهم بالبنان
وضاحكنا ثغور الأقحوان
مصاحبة الشباب وإن جفاني
خليّ البال منطلق العنان
على نغم المثالث والمثاني
فخذ عني أحاديث الحسان
ولا عانقت إلا غصن بان
على أنني سفكت دم الدنان
سوى مثل المودة في القيان
وكالاحسان في هذا الزمان
عليّ بان أفارق عنفوان*
ودمعي والحيا فرسي رهان*

انظر ج ، ك ، ل ، ش ، ط .

* هذان البيتان لم يردا في الديوان المطبوع ، ووردا في ش ، ط .

(١٠٤) -

وقال وقد عاده وكان قبل ذلك تأذى من ابن الكتبي :

وصاحب عاذني يوماً فأقلقتني
ولو أطال قليلاً لم يطل أجلي
فليت شعري وطلاب الهوى عجب
وقد جرى من فتى الكتبي شائبة
فكل يوم حميم لسي أحم به
حتى ظننت رسول الموت وإفاني
وجاعني غاسلي يسعي بكفاني
أعاذني أم لحاه الله عاداني
بالأمس أخلت قوى صبري وجثماني
أحسنتم أحسنتم يا بن الكتبي [الباني]

انظر ج ، ك ، ل .

(١٠٥)

وقال أيضاً عند وفاته دويين :

أصبحت بقعر حفرتي مرتها
يا من وسعت عبادته رحمة
لا أملك من دنياي إلا الكفنا
من بعض عبادك المسيئين أنا

انظر ج ، ك ، ل ، ش .

وقال أيضا يمدح السلطان الكامل - ناصر الدين محمد بن العادل رحمه الله تعالى:

قُدستَ من ملكٍ عظيم الشان
متوقد العزمات فياض النـدا
كم يلهجون بقيصرٍ من قيصرٍ
تتزاحم التيجان في أبوابه
حتى إذا بصرتَ به أبصارهم
ويروقهم بمقامه ويروعهـم
إن الملوك بأسرهم خولٌ لـه
لِعِداه عُسْر عند يوم لقائـه
صان المعالي حيث كان أباً لها
ضاقت بعسكرك الفياقي والذرى
أفد المواكب كالكواكب والتحق
ألقي مقاليد الممالك عنـوةً
وتشوف الأملاك لاسمك كلما
أعربت في هام العدى لغة الردى
يا ناصر الدين الحنيف بسيفه
أما وقد علقت يدي بمحمـدٍ
وتمسكتُ يُمناي منه بناصـرٍ
أنا فيك حسانٌ وأنت محمـدٌ
لله رايتك التي قد أصبحت
أنى قصدتَ بها رجعت وتحتها
أمنتَ حتى العُفر في راماتها
ونشرتَ عدلك في البرية كلها

انظر ج ، ك .

(١٠٧)

وقال أيضا عند ختان الملك المغيث فخر الدين صاحب الكرك :

لقد سرت البشائر والتهاني
ويصغر كل مبتهج إذا ما
تودُ الزهرة الزهراء فيها
وأن البدرَ طار في يديها
وتستلمي من الأملاك لحناً
وتُسقى بالثريا فيه كأساً
ولكن من رحيقٍ سلسبيل
ويصغر خادماً بهرامٍ فيه
فلولا أنه فرضَ علينا
وقطُ الشمع يُكسبه ضياءً

الى الثقيلين من إنس وجان
نسبناها الى هذا الختان
لو اتخذت له احدى القيان
وأن مراسيلها الفرقسدان
كما قدر المثالث والمثاني
ولا أَرْضى لها بنت الدنان
بأيدي عبقریات حسان
على ما فيه من بأس الجنان
لما قُدت لختته يدان
وقط الظفرِ أفرح للبنان

انظر ج ، ك .

(١٠٨)

وقال في صدر آخر :

ما انقطعت عني أخباركم
فالله لا يوحشني منكم

إلا بشغل شاغل عني
والله لا يوحشكم مني

انظر ج ، ك .

(١٠٩)

وقال :

من هو سلطان أرض مصر
سيقتضي منكم ديوناً
نصحتكم نصح ذي اعتناء
شوال ميعادنا جميعاً
تلوتها سورة عليكم

وصاحب الشام والجزيرة
تقدي بها أعين قريرة
بكم فكونوا على بصيرة
وتقبل الدولة المنيرة
وعن قريب تصير سيرة

انظر ج ، ك ، ل .

(١١٠)

وقال أيضا :

أن ليالي عمره عاريسه
ولا يرى في عينه السارية

يا عجباً للمرء مع علمه
ينظر في عين أخيه القذا

انظر ج ، ك ، ل .

(١١١)

وقال أيضا :

فهمتُ أفديها حقيقة قصدها
تشبيه ناظرها إليّ وخذها

بعثتُ بنرجسةٍ إليّ ووردةٍ
لما تعذرت الزيارة أرسلتُ

انظر ج ، ك .

(١١٢)

وقال وكتب إلى الأمير مجد الدين اسماعيل ابن اللمطي وإلى قوص وكان يهدده :

ومتلك أولى مثلي الصفح والعفووا
أقالك رب يعلم السرّ والنجوى
ومن تاب تمحو الذنب توبته محسوا
قأبي الذي تأبي وأهوى الذي تهوى
فتجبر لي كسرا وتكشف لي بأسوى
فله من ذا البؤس ثم لك الشكوى
وهذي جفوني ما غفت ساعة غفوا
وإني لأرجو الان منك الرضى الحلوا
ومنك الرضى لا زلت في جنة المأوى
ولا بدع إن عاقبت مثلي ولا غروا
تري المنّ أطلى من جنى المن والسلوى

لك الله إن العفو أقرب للتقوى
أقلني ما قد كان مني جهالة
وها أنا من نثبي الذي كان تائب
من الآن فاسعى في تدارك ما مضى
عسى نظرة لي باصطناعك منعما
فإني في بؤس بسخطك كـأرب
فهذا فؤادي ما يقرّ وجيبه
وقد نالني من سخطك المرّ ما كفى
فسخطك نار لا أطيع اصطلاءها
فإن تولني عفوا فإنك أهله
فلا زلت تولي العفو عن كل هفوة

انظر ج ، ك ، ل .

(١١٣)

وقال منه :

واسأله لما جفى المعنى ولأي
أحبسه لقلبي فهو للصبّ دوي

عرّج بطويلع فلي ثم هوي
بالله وإن سرى من الحي هوى

انظر ج ، ك ، ل .

(١١٤)

وقال *

لانت معاطفه ولا يتعطف
قد صح أن الريق منه قرقف
من يجتني من يجتلي من يرشف
اللحظ سيف والقوام مثقف
يا قوم حتى النوم لي يستضعف
لا يا ضنى جسدي أرق وأضعف
من حسنه ما لا يحد ويوصف
بما افتتن وقلن هذا يوسف
هو بالذي ألقاه مني أعرف
ولقل ما يلق الكئيب المدنف**
حتى كاني من دموعي ارعف
فاعلم بأني العاشق المتعطف
والنفس من وجد به تتلهف

بأبي غزال تائه متصلف
سكران لا يصحو وليس بمنكر
حلو الشمائل والتثني واللمسي
شاكي السلاح وما تكلف حملاه
هجر الكرى جفني وواصل جفنه
وسرى الى جسدي ضنى أجفانه
لما بدى للغانيات وقد بدا
قطن أيديهن حين رأينه
أشكوا إليه وما عسى أن أشكسي
ووحقه لم يبق في بقية
كبت يفيض نجيعها من أدمعي
وإذا سمعت بعاشق متعطف
ولربما أخلوا به منتزها

* انظر ش ، ط ، والأبيات السابقة لم ترد في الديوان المطبوع .

** انظر مسالك الأبصار ولم يرد البيت في ش ، ط .

(١١٥)

وقال *

وأظنه يحنو علي ويعطف
أضحى بطرفي ناظريه يطرف
قد نكرت فيه ولا يتعرف
ناجت لما ألقى الحمام الهتف
وأماله بالوصل عطف مسعف
من صده وحياه بما لا يوصف
ولها فقال تعجباً أنا يوسف

وعد الزيارة وعد من لا يُخلف
بدر بدا في القلب منزله وقد
لما رأى عشقي يزيد وحالتسي
وشكت نجوم الليل من سهري وقد
معربة أنفاس الصباية عاطف
ودنا وقد حيا وأحيا ميتسأ
فسألته عند اللقاء عن اسمه

* انظر ل فقط ، والأبيات لم ترد في الديوان المطبوع .

فما شهرت إلا لتؤذن بالفتك
 رماح أعدت للطعان بلا شك
 وإلا فقد عرضت نفسك للهالك
 وقد عبقث منه المضاجع بالمسك
 قالوا لقد جئت بالإفك
 كلانا بحمد الله خال من الشرك
 سوى رشقات من فم بارد ضحك
 توهمت اني بين قسارة والنبك
 ويا حسن ذاك الدر في ذلك السلك
 وقال أيا هذا فمي خاتم الملك
 فباتت عليهم عين راووقهم تبكي
 تقهقه من فرط المسرة بالضحك
 ولم يرجعوا بها إلى مذهب المكي
 سروراً بشعر رائق حسن السبك
 كما تلعب الأمواج في البحر بالفلك
 فلا يدعيها مدع وهي في ملكي
 وإن كان لا أخذي يفيد ولا تركي
 ودعني من قول ابن حجر قفا نيك
 فأجمع ما بين الخلاعة والنسك

حذار سيوف الهند من أعين الترك
 وإياك من تلك القود فإنها
 فإن كنت مقدماً على البيض والقنا
 ورب غزال بات منهم مضاجعي
 وبتنا بحال لو يُخبر مخبر سواي بها
 فريد جمال وحد القلب حبه
 وما بيننا استغفر الله ربيّة
 إذا ما سقاني في الهجير رضا به
 فيا طيب ذاك الشهد في ذلك المي
 وبشرني بالملك حين لثمته
 وسرب أراقوا بينهم دم كرمية
 وباتت أباريق المدام لديهم
 وقد جعلوا قول العراقي حجة
 وغناهم شاد أغن فزادهم
 تلعب فيهم بالكلام تلعباً
 ملكت القوافي آخذاً بزمامها
 وإن زاحم الأقوام فيها تركتهم
 فقم نهب اللذات قبل فواتها
 وإنني لأصبو والخلاعة مذهبي

* انظر ل ، ش ، ط ، والقصيدة لم ترد في الديوان المطبوع .

أما وبدور الكلال
وتفاح تلك الخدود
وغصن القوام الرطيب
لأنت وإن شفتني
أحباً إلى مهجتني
وليلة وصل خلعت
لبسنا ثياب العنقاق
وفي طي ذاك العنقاق
وحليت ذاك الغزال
ورشف شفا علتني
وشكوى يطيش الحليم
فيا لك من ليلسة
وفيها خلعت العذار
وعتب يزيل الجوى
فهل عائد لي الصبا
ودولة أنس مضت
فلو أنها تشترى

حمتها نجوم الأسسل
ونرجس تلك المقل
فويق كئيب الكفل
جفاك وطول الملل
من الأمن بعد الوجل
ويا عاذلي لا تسل
مزرة بالقبسل
غبت كؤس الحسل
بجوهر ذاك الغزل
وبالرشف تشفى العلل
ويجزع منها البطل
حبتني المنا والأمل
مطرأاً للعذل
ورشف يزيل العلل
وتلك الليالي الأولى
وهل نافعي قول هل
لعجلت فيها الأجل

* انظر ل ، ش ، ط ، والقصيدة لم ترد في الديوان المطبوع .

ومن أغراك بالأعراض عني
 وحزت من الرشاقة كل فن
 وسلطت السهاد بكل جفن
 فيا غصن الأراك أراك تجني
 تصيدني هوى الرشا الأغن
 ففتنت به ولا يدري بأني
 لقلت معذبي بالله زندي
 أغار عليك منك فكيف مني
 هواناً بالهوا كم ذا التجني
 وشافهم بما أبصرت مني
 يموت جوى ويحيى بالتمني
 أميل إليه وهو يميل عني **
 هواناً بالهوى كم ذا التجني **

ببيع الحسن كم هذا التجنسي
 حويت من الملاحه كل معنى
 ووكلت الغرام بكل قلب
 وأعرف قبلك الأغصان تجني
 وعهدي بالظبا تصطاد حتى
 وأعجب ما أحدث عنه إنبي
 ولو أضحي على تلقى مصراً
 ولا تسمح بوصلك لي فإنبي
 فلست بقابل ما دمت حياً
 بعيشك حدث العشاق عني
 فإن سألوك فقل فارقت يحيى
 عدو لي أسميه حبيباً
 جفاً وقللاً وإعراضاً وهجراً

* انظر ل ، ش ، ط ، والأبيات لم ترد في الديوان المطبوع .

** وهذه الأبيات وردت على هامش نسخة ط فقط .

(١١٩)

وقال رحمه الله تعالى : *

| | |
|---------------------|------------------|
| بات في احشاء صدري | غصن نيسط بيـدر |
| بدوي نازل من شعره | في بيت شعر |
| حامل نجداً وغوراً | منه في ردف وخصر |
| مارنا واهتز إلا | كان في بيض وسمر |
| حبذا ليلة وصل | منه بل ليلة قدر |
| أشرقت عن نور وجه | وسنا كأسٍ وثغر |
| وتعانقنا فما ظنك | في ماء وجمر |
| وتعابتنا فقل ما شئت | من نظم ونثر |
| ثم لما أدبر الليل | وجاء الفجر يجري |
| قال إياك رقيبسي | بك يدري قلت يدري |

انظر ط ، ش ، ولم ترد الأبيات في الديوان المطبوع .

(١٢٠)

وقال رحمه الله تعالى : *

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| أهواه أسمر في اعتدال الأسمر | يختال في ورق الشباب الأخضر |
| مترنح كالغصن أو متألّق كالبد | ر أو متلفّت كالجـوذر |
| من لم يشاهد شعره وجبينه | ما فاز ناظره بليـل مقمر |
| لعبت ذؤابته على أردافه | كالأفعوان على كتيب أعفر |
| صدقت أن بوجنتيه جنّة | لما وجدت رضا به من كوثر |
| ولقد غنيتُ بخده وبشعره | ما شيت من ذهبٍ وقل من جوهر |
| ويقال إن الطرف مني فاسق | صدقوا ولكني عفيف المئزر |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى : *

| | |
|--------------------|---------------------|
| لو أنني أتأثـرُ | عذلوا فيك فأكثروا |
| فمذ رأوك تحيروا | وتحيلوا حتى رأوك |
| من كان يعذلُ يعذر | بُهِتوا بحسبك فأنثى |
| إن شيتم أو قصروا | قل للعواذل طولسوا |
| لا أنثى لا أصبر | لا أنتهي لا أرعوي |
| فرضاب تغرك كوثر | إن كان وجهك جنة |
| بعد الشمس هذا أكبر | قالوا وقد نظروك |
| فعميت لما أبصروا | أغويتني وهديتهم |
| وبهجة لا تحصرُ | شهدوا جمالاً لا يحد |
| عندي النعيم الأكبر | حسبي رضاك فإنه |
| فأنا المقل المكثر | أغنيتني وسلبتني |
| يداك باعداً أقصر | يا دهر لا تمدد إلي |
| أخشاه والمستنصر | الله لي من كل ما |
| والإمام الأطهر | الله لي فيما احاذر |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(١٢٢) وقال رحمه الله تعالى: (انظر ش ، ط ، ولم ترد في الديوان المطبوع)

طاب شرب الراح فانهض
برد الجو ورقفت
وتولا الهم عنا
فتفضل فادينا
مجلس فيه من الحسن
حيثما استقبلت حيثك
وظباء تنهـادي
وأخلاء كرام
بذلوا الأموال سيان
ألفوا النعمة حتى
ولهم في كل فن
كلهم إن أقبلت الغورا
فيهم من ليس يشقى
فأداروها عقاراً
بنت كرم عبتها
واعدها قديماً
وجدت من قبل أن يخلق
ولقد كانت وما كان
طفلة في حنوها
شرفت قدراً فما
ذكرت أحقادها
فاستثارت مثل ما
فلها في طلب الثار
لست أدري وهي تجلا
أرحيقاً أم حريقساً
فانهب اللذات من قبل
لا يفتك الشرب في الجمعة

أيها الخيل الرئيس
في الزجاج الحندريس
وانطفأ ذاك الوطيس
كل ما تهوى النفوس
صنوف وجنوس
بدور وشموس
بين أغصان تميم
لا ترى فيهم خسيس
لديهم والفلوس
ما ترى في القوم بوس
أخذوا فيه دروس
مطراق عبوس
بهم الدهر جليس
أضجرت ماها الحبوس
أول الدهر المجوس
للقرابين القسوس
طسم وجـروريس
على الأرض أنيس
وهي عجوز دريبس
سكنها إلا السروس
حيث لها العلج يدوس
أبرز ليث الغاب خيس
حنيث وحسيس
مثلما تجلا العروس
أودعت منها الكؤوس
تواريك الـرموس
إن فسات الخميس

(١٢٣)

وقال رحمه الله تعالى :*

| | |
|-----------------------|---------------------|
| هزوا قدودهم ذوابل | ونضوا لحاظهم مناصل |
| وتوشحوا بشعورهم | حتى حسبناها خمائل |
| وتمنطقوا بنواظر العشا | ق وادرعوا الغلايل |
| كم طاعن بقوامه منهم | وكم باللحظ قاتل |
| هذا السلاح سلاحهم | ومن الذي يقوى يقاتل |
| حر الهجير بهجرهم | ولوصلهم برد الأصائل |
| ما شأنهم سكر الشمول | وإنما سكر الشمايل |
| فيهم ينزّه مسمعي | عما تقول به العواذل |
| ومنحتهم غزلي ولستأ | لغيرهم أبداً أغازل |
| السحر ما نفثت لواحظهم | فلا تسمع ببابيل |
| يا قاتلي بجفونه | قد صح أن السحر قاتل |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(١٢٤)

وقال رحمه الله تعالى :*

| | |
|------------------------|-------------------|
| سألت من أمرضني | في قبلة تشفي الأم |
| فقال : لا لا أبداً | قلت نعم قال نعم |
| فقال : غضباً، قلت : لا | إلا سماحاً وكرم |
| قال : فسراً، قلت : لا | إلا على رأس علم |
| فقال : خذها بالرضي | مني حلالاً وابتسم |
| فلا تسأل عما جرا | استغفر الله وتم |
| وظن ما شيت بنا | فالحب يحلو بالثم |
| ولا أبالي بعد ذا | باح جسود أو كتم |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى :*

فلقد أصبت القلبَ لما
والله ما أجرمتُ جرماً
أبقى صدودك فيّ اثماً
أو ما تراقب فيّ إثماً
يا هاجري أجلّ مُسمّى
بحسنه لمّا استتما
لا بليتٍ أصمّ أعمّا
للغرام عرفت طعمّا
زار الحبيبُ عجباً مما
فوشى العبير به ونمّا
حتى خشيتُ عليه يديّما
لذن القوام اغن الما
عطفه الممشوق ضمّا
عضباً ولثمّا
لثمي على شفثيه ختما
أراه يرشف منه ظلماً
تُروى البشام به وأظما
راحاً يفوق سناً وشمّا
أودعت منها الكاس نجما

أنظرت أم فوقتَ سهمما
لا يا معذبَ مهجتي
أحسنّت لي رمقاً وما
يا مُرضي ومعذبي
أو ما لميعاد الرضى
أفديك من قمر ضالّت
يا عاذلي أخفي الصباية
عني إليك فما أظنك
لو كنت حاضرنا وقد
كتمّ الزيارة جهده
وبدا الحيساء بخسده
وضممت منه مهفهفاً
وودت من شغفٍ ... أفتت
بل لو قدرتُ أكلتُه وشربتُه
ولو استطعتُ جعلتُ من
ويغيرني المسواك حيسن
ولقد يعز علي أن
ولربما عاطيتُه
باتت تضيء كأنما

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى : *

ولا خلوت من اللذات والنعم
 بها ولذاتنا كانت على علم
 هل الأحبة لي موفون بالذمم
 منهم وما كان لي بالعهد من قدم
 حلت فمرت مرور الطيف بالحلم
 منه بدور نياجيتها من اللمم*
 يا من رأى مسلماً يصبو الى صنم
 وإنما طهرتها عفوة الشيم
 استغفر الله لا يخلوا من التهم
 على الرضا وتعاهدنا فما لقم
 ثم انتصفنا فلم نحتج الى حكم
 سمعت أشهى من الأوتار والنغم
 أذني حلاوة ذلك المنطق الرخم
 فإن نجوت بقلبي سالم فلم
 فليهنه أنه قد حل في الحرم
 به غلالة خذ ضرجت بدم
 يا نايم الطرف طرفي منك لم ينم
 أكني بهذين عن خذ ومبتسم

سفاك يا دار هطال من الدير
 فكم قطعنا ثمار العيش يانعة
 بالله يا بانه الجرعاء والعلم
 أم قد تغير ما قد كنت أعهد
 وما نسيت ولا أنسى لهم خاساً
 ومجسماً طلعت من كل ناحية
 وراح يفتنني من بينهم صنم
 وخلوة فسقت فيها نواظرننا
 هذا هو الحب لا شيء ينسئ
 لما خلونا تعاقدنا يداً بيد
 كانت لكل شكايات فباح بها
 لو كنت تسمع شكوانا ورقتها
 وبعدها والى ذا اليوم ما نسيت
 يا عاذلي قم تأمل صفو جلوتنا
 مقام قلبي لبعض الناس تسكنه
 وكيف يجحد قلبي بعدما شهدت
 يا فارغ القلب قلبي منك في شغل
 أهوي العقيق وأهوى الابرقين وقد

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

** هذا البيت ورد في ش فقط .

وقال رحمه الله تعالى : *

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| هي دارهم وأنا المحب المغرم | فعلام تُتكرُ أن دمعي يسجمُ |
| مالي اغادرها بقلبٍ منه | بالعتب وهي علي منه أكرم |
| ولقد يفوح الترب منها عنبرٌ | وترى بها الحصبا در ينظم |
| دار صحبت العيش فيها أخضرٌ | ومن الشباب علي بُردٌ مُعلم |
| وهتكت خدر الليث وهو ممنعٌ | ولثمتُ خدَ الريم وهو ممنع |
| حيث الغصون عن الحسان عبارة | ومن الحلي بلا بلا تترنمُ |
| الحقف ردفاً والشقيقة وجنة | والغصنُ عطفٌ والاقاحة مبسمُ |
| في كل مثنٍ حية من شعره | وبكل خدي من عذارٍ أرقمُ |
| من كل رامٍ حاجباً بشبيبهه | وعلى القياس فمقلتاه اسهمُ |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى : *

ودعوا ما يقال عن مجنون
 فسلوني من قبل أن تفقدوني
 يُمنسي مثلي سليل عقلٍ ودين
 أبداً ما استسوغته انيني
 أنا منه بين المنا والمنون
 الى أن اسرت ليث العرين
 إنني فيهما من المقرون
 ورسولي اليك غير أمين

حدثوا عن صبايتي وشجوني
 أنا في مذهب الغرام امام
 ليس بالعاشق المتيم من لم
 لا يراني من النحول رقيبي
 وبقلبي من ليس يرحم قلبي
 أغزال الكناس كيف تحيلت
 وبلاي من حاجبيك ولكن
 وعذولي عليك غير أمين

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى :*

ومهفهف قد القضيبي وقده
 لكن يروقني الذي في خسده
 ورنأ إلي وقد رأى ريم النقا
 فاصطانني انسان من [حاستته]
 ولقد شهدت الدر ثم شهدت
 وذؤابة لولا سلامة مهجتي
 أفلا أهيم بمن حكمت أوصافه
 والحسن يُعشق كيف كان فكيف لا
 وإذا نسيتُ فلستُ أنسى قوله
 ويسؤني قول العذول لقد سلا
 وشقايقاً قبلتُها من خدو
 لم لا آتية على الزمان وأهله

وكلاهما متأود ريان
 البستان لا ما ضمه البستان
 يرنو وكل منهما وسنان
 ما لا تصيد مثله الانسان
 فتشابها لولا قم وينان
 منها حلفت بأنها ثعبان
 الأقمار والغزلان والأغصان
 أصبو لحسن زانه إحسان
 إن خنتني فحسيبك الرحمن
 لا عشت يوم يمر بي السلوان
 حتى رنا لذنوها النعمان
 والصالح السلطان لي سلطان

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى : *

لو كان لي عند الورود معين
 فلكم قتيلٌ خلفها وطعين
 أسد لها دون النصال عيون
 وتزاحمت اسد الشرا والعين
 وترى الكناس وما يليه عرين
 تسعى بها تحت الردوف غصون
 إن كنت تفهم والصبح جبين
 تحت اللثام محاسن وفتون
 ورد حقيقي ولا نسرين
 كالصخرة الصماء ليس يلين
 أمع الزمان توله وجنون
 اعليك نذرٌ أم عليك يمين
 وبكل خدٍ مغرم مفتون
 يوماً فقلن اللؤلؤ المكنون
 شهدٌ ومسكٌ، والأراك أمين
 سحرٌ ، وأي نهاً هناك يكون
 إن الجمال يُحب وهو مصون
 ودع التصابي عنك يا مسكين
 فإن الشبوط منك بطين
 تسام فإنك بالنجاح قمين

ما الجمال بوجنتيك معين
 لكن حمته أسنةً واعنةً
 كيف الورود وحولها من يعرب
 سقط الحيا وترنحت أجيادهم
 فترى المها وما يليها ضيفم
 فهناك فوق الأرض أقمار الدجا
 فالليل نم عبارة عن طـرة
 من كل ضاربة اللثام وإنما
 في خدما وردٌ ونسرين ولا
 ولقد يلين لي الصفا وفؤادها
 يا قلبٌ ويحك ما تفيق من الجوى
 لك كل يوم صبوة عذرية
 وبكل قدر أنت صب هائم
 سئل الضراير عن حقيقة ثغرها
 وأفانني المسواك أن رضابها
 وإذا تشافهك الحديث فإنها
 محجوبة في خدرها محبوبية
 قاربت معترك المنايا فأتد
 ودنى رحيلك فاتخذ زادا ولا تقلل
 وبباب مولاك الكريم فقف ولا

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(١٣١)

وقال رحمه الله تعالى: *

| | |
|-----------------------|----------------------|
| قسماً عظيمًا في الهوى | قسماً بفيك وما حوى |
| ذابت عليك وما غوى | ما ضلَّ صاحب مهجةٍ |
| نجم السلو به هوى | يا أيها القمر الذي |
| من الصبابة والجوى | ماذا أثرت على القلوب |
| هزءً بأعطاف اللوى | وأغن في اعطافه |
| وركابه بيد النوا | أفدي الذي ناجيته |
| ولكل عبدٍ ما نوى | مولاي حُبك نيتي |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

(١٣٢)

وقال رحمه الله تعالى: *

| | |
|--------------------|------------------------|
| في هوا هذا المليح | تلفت والله روحي |
| يلق قيس بن ذريح | ولقد لا قيت ما لم |
| في الهوى طب المسيح | ولقد أعجز دائي |
| بأخي الجفن القريح | يا قريير الجفن رفقاً |
| فيك من خفت روح | يا ثقيل السردي ماذا |
| من قلب جريح | يا عليل الخصر كم أمرضت |
| عصيان النصيح | يا نصيحي ومن اللذات |
| أو أوارى في الصفيح | أنا لا أسلو هو هواه |
| من كلام المستريح | ويح ما يلقا المعنا |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

وقال رحمه الله تعالى :*

| | |
|--------------------------------|---------------------------------|
| فسائل الربع أين الركب قد بانوا | هذا العنيبُ وهذا الرند والبسان |
| ساجي الجفون غضيض الطرف وسان | ففي هواجهم من حبنا قمر |
| بأن بابل الحافظ وأجفان | ما كنتُ أعلم لولا سحر مقلته |
| ضلالهم فيه توحيد وإيمان | يا حبذا صفحٌ ووصل به (أمم) |
| فكيف أسلو وفوق الورد ريحان | ما كنتُ أسلو وكان الورد منفرداً |
| لولا بدور وغزلان وكثبان | وما اشتياقي إلى نجد وساكنها |

* انظر ط ، ش ، ولم ترد في الديوان المطبوع .

شعر ابن مطروح الذي ورد في مخطوط
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
وهو يزيد على (١٧٥) بيتاً من الشعر

ما ورد من شعر ابن مطروح في مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن
فضل الله العمري ت ٧٤٩
السفر الحادي عشر

وقوله عندما أراد المظفر الدار التي بناها بقلعته وكتب على بعض نواحيها :

| | |
|-----------------------|--------------------|
| يا دار بالملك المظفر | جمعت فيك المعادة |
| ملك غدت في كل جیدن | من صنایعه قلادة |
| الفضل طبع والسماح ورا | ثة والخير عادة |
| شرف لعمر أبیک ما | فيه احتمال للزيادة |

مسالك الأبصار ١١:١٥٦

وقوله ارتجالا يهنىء أولاد الشيخ ليلة العيد :

| | |
|------------------------|--------------------------|
| آل حموية ما أنصفكم | من يهنیکم بشهر أو بعيد |
| أنا الدهرُ حقیقا عبدکم | والموالي لا تهنى بالعبيد |

مسالك الأبصار ١١:١٥٨

وكتب إلى صديق أهدى إليه كساء :

| | |
|--------------------|---------------------|
| مولاي عبدك واثق | بكریم ودك والإخاء |
| فلذاک أرسل ما يلیق | من الهدية في الشتاء |
| أنت الخلیل حقیقة | فجمعت شملك بالكساء |

مسالك الأبصار ١١:١٥٨

وقال يشكر بعض الأمراء وقد أحسن إلى أهله في غيبته ولم يمكنه الإجتماع به عند حضوره :

| | |
|------------------------|------------------------|
| يا من أيديه قبل رؤيته | راشت جناحي وطوقت عنقي |
| ما امتع العبد أن يزورك | لكبرياء فيه ولا حمق |
| لكن لفرط السماح عندكم | ألبستني حلة من الفرق |
| ومن يرى السيل ثم يزحمه | فاحكم عليه بسرعة الفرق |

مسالك الأبصار ١١:١٥٨

وقال ارتجالاً في مرض القاضي الأشرف بن الفاضل :

| | |
|---------------------|-------------------|
| ليتني كنت فداءً | لفتى عبد الرحيم |
| ذى المعالي والمعاني | والكريم بن الكريم |
| ولئن أضحي عليلاً | فاستمع قول عليم |
| داره الروضة حسناً | وهو فيها كالنسيم |

مسالك الأبصار ١١:١٥٨

وقال :

| | |
|----------------------|----------------------|
| ولم أر أعجب من كاتب | يشاح إخوانه في الورق |
| فأرسل به كيباض الثغر | على مثل سواد الحدق |

مسالك الأبصار ١١:١٥٩

الأبيات التالية زيادة لم ترد في نسخ الديوان تابعة للقصيدة التي مطلعها ((لا وعينيك))
عجبي من قلم في كفه
أنتم من معشر ذكر الندى
هم جبال الحلم إن أغضبتم
كلما مذكريم راحة
ملك العلم تراه ناشرا
حارت الأفكار في وصف فتى
حاولوا القسمة في أمواله
ياوزير الست خذها جملة
وابق للسؤدد سورا لا وهى
ليس ينضى السيف إلا إن رسم
عنهم وإن كانوا رمم
فإذا استهديتهم كانوا نيم
أخرتها للعلماء منكم قدم
من علمه أعلى علم
علوي العلم علوي الهمم
ودعوا عليها ليست تقسم
فإذا ما فصلت كانت حكم
وسوارا للمعالي لا انفصم

مسالك الأبصار ١١:١٥٥

وكتب إلى مختص الصالحي بعد ذلك من أبيات :

أتاني من علاك بديع نظم
بيوت ستة شرفت علأ
ولو أن السلافة مازجتها
ولو كانت خصورا [أو] نحورا
كسقط الدر في حسن اتساق
على الست الجهات بلا اختلاق
حلت بعد المرارة في المذاق
لأقنتها ملازمة العناق

مسالك الأبصار ١١:١٥٩

وقال يهني بتشريف :

بك أصبح التشريف يشرف قدره
كالبيت يكسى لا لرفع مزية
يا من به كل الملابس تشرف
لكنها ستر ورسم يعرف

مسالك الأبصار ١١:١٥٩

وقال :

أرى قلبي يطير إليك شوقاً
وما أنا من لقائك (بالبعيد)
كذلك العيس أكثر ما (يراه)
حوائم حين تنو للورود

وردت كلمة (بعيد) وأظن الأصوب بالبعيد ، وكذلك كلمة (يراه) وأظن الأصوب ما تراها .

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال:

ودولة خالية من كل فن وأدب
الفاعل راسها وهو كما تدري نذب

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال :

يامن يغضب للنم وظل بالكرماء يعبث
بالله قل لي هل تغصب في الرجال سوى مخنث

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال :

دخل الشيخ فلان في الدين بمرّة
وتعاطى الزهد جدا فكفانا الله شرّه

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال :

أُتعبت (و) عرضك من زجاجٍ عذرتك إن (وجهه) من حديد
وليس بمنكر فعل قبيح أتى من عند شيطان مرید

وردت وعرضك وأظن الأصوب حيث عرضك ، كما وردت وجهه وأظن الأصوب
وجهك .

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال في صباه يذكر الداودي رئيس اليهود :

أبأء البيان وما دعاك إلى التحكك بالأفاعي
سر في الوهاد وخلّ قوما سيرهم فوق اليفاعي
(لا يحفلون) بناجٍ مال الكلاب وللسباعي
قسما لئن أحوجتني فلأبسطن يدي وباعي

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال :

ما اعتكاف الفقيه من فرط زهد علم يقضي به رمضان
هو شهر تغل فيه الشياطين ولا شك أنه شيطان

مسالك الأبصار ١١:١٦٠

وقال :

وليلة بسمنود شقيت بها لا بارك الله يوما في سمنود
باتت براغيثها تعدوا على جسدي فلم تدع فيه عرقا غير مفصود

مسالك الأبصار ١٦١:١١

وكتب إلى ابن القوصي :

أيها الساحب بالفضل على سحباي ذيلا
لست بالمجنون حاشاك فلم لا زرت ليلا

مسالك الأبصار ١٦٠:١١

وقال في كتاب كتبه إلى أهله بالقاهرة :

إذا فكرت في زمن اجتماعي بكم وذكرت حادثة الفراق
وضعت يدي على قلبي احترازا مخافة أن يطير من اشتياقي

مسالك الأبصار ١٦١:١١

وقال أيضا :

من رحمة يحظى بها عاشق
كل هوألي غيركم طالق

ياساكني مصر أما عندكم
لا تتهموني بهوا غيركم

مسالك الأبصار ١١:١٦١

وقال :

والنجم ليس بمنكر أن يطلعا
من منةٍ ويدٍ إليّ بها سعى
لمُبْتَثري وحلفت ألا يرجعا
فلي الهنا (.....) ويدمعا

مازلت مرتقبا طلوعك دائما
حتى أتى عنك البشير فيالها
فلو ان قلبي في يدي لوهبته
هو في ركابك مذ رحلت ملازم

مسالك الأبصار ١١:١٦١

وقال :

والسكر بادٍ على شمائله
قوموا انظروا الظبي في حبايله
يا من رأى الغصن في أصايله
عنده رحمة لسائله

أقبل يختال في غلايله
وقد غدا ساحبا ذوايله
وماس في حلةٍ معصفرةٍ
وسلته رحمة منهم في ما

مسالك الأبصار ١١:١٦١

وقال في صبي اسمه بدرون وكان حاجبا :

أيا حاجب الوالي فعلت بنا لحاظك ما لم تستطعه القواضب
ترفق على قلبي لأنك حاجب فأنت على عيني لأنك حاجب

مسالك الأبصار ١١: ١٦٠

وقال بدرون أيضا :

ما ضرَّ بدرون عذارٍ له فالورد يسعى فوقه الأرقم
فخذَه لاشك ديباجة وأحسن النيباج ما يرقم

وقال في نصراني :

من القبط علقته جوذرا حوى سحر بابل في جفنه
مضى نحو بيعته راجيا حصول الثواب على ظنه
يقرب لكن إلى مهجتي وقدس لكن على حسنه

وقال في ترجيح السمر :

أعشق البيض ولكن خاطري بالسمر أعلق
إن في البيض لمعنى غير أن السمر أرشق
وظلال الأيك عندي من هجير الشمس أوفق
وشذا العنبر والمسك من الكافور أعبق
وكذى التبر من الفضة عند الناس أنفق
وإذا أنصفت فالانصاف بالعاقل أليق
فبديع الحسن يهوى كيف ما كان ويعشق

مسالك الأبصار ١١ : ١٦٢

وقال في تفصيل البيض :

اسمع نصحي يا من فيه للعشق بقية
لا تحبّ البيض إلا من فيه تقيه
والتي جاء بها المختار بيضاء نقيه

مسالك الأبصار ١١:١٦٢

وقال :

قلبي عليك أرق من شعري
أن لا ترقّ لعاشق دنفٍ
ما كنت أعلم قبل مقتلته
يا بدر إن أنا مت فيك هوى
أعدته منك نحافة الخصر
حي الصباية ميت الهجر
أن الجفونَ معادن السحر
لي أسوة الشهداء في بدر

مسالك الأبصار ١١:١٦٣

وقال :

أحبابنا ذاك الغرام بحاله
أقص عليكم من حديثي عجائباً
وإن لم يكن قد زاد شيئاً فما نقص
فإن شئتمُ أسمعتم أحسن القصص

مسالك الأبصار ١١:١٦٤

وقال :

قالوا الشباب جنون والمشيب نهى
الحق قلتم ولكن ما يفيدكم
فقلت والقول مني غير مردود
فيا وقار مشيبي لست من أدبي
مزية الحلم عند العادة الرود
ويا رعونة أيام الصبا عودي

مسالك الأبصار ١١:١٦٥

وقال من أبيات :

وبالظبي وسنانا وبالغصن يانعا
يرى عنده للعاشقين مصارعا
إليّ وإلاّ يقتضيني ودايعا
فجاء العذارى يلتقطن المدامعا
بقية ما أودعن مني المسامعا
فيا ليت أن الدست أصبح مانعا

أعلل طرفي عنك بالبدر طالعا
أفي كل يوم للتفرق واقفا
كأن النوى يبغي دخولا قديمة
وقفتُ أجلي الأرض من در ادمعي
يغرن على تلك اللاكي لأنها
وما كان ذلك القرب إلاّ لذي النوى

مسالك الأبصار ١٦٥:١١

وقال من قصيده :

وراح مصطحبا بالدمع مغتبقا
أو لاح برق فقل قلب له خفقا
ويا دموعي لقد أنذرتني الغرقا
بالله من كان مثلما يقل صدقا
(وقد تسرب مني قلبه خنقا)
من يشرب الدمع معذور إذا شرقا

أضحى معني وأمسي والها قلعا
إن فاض سيل نقل أجفانه ذرفت
فيا ضلوعي لقد أسعرتني لهبا
هذا حديثي عن يقيني وذا خبري
أستودع الله من ودعته يوما
وكم شرقت بدمع عند ذكرهم

مسالك الأبصار ١٦٥:١١

وقال في أرمذ :

وقيل عيون الناس عيني ومن يهوى
تغض عن الفحشاء في السر و النجوى
أذاها ولكن قصده شرف المأوى
الحاجب الجاني فهل قبل الرشوى
لكل أخي قصد لدرك الذي يهوى
إلى أن غدا يستمطر (في الجدوى)

رقت كل عين عين مالك الشكوى
ويارب عجل بالشفاء لمقلة
وما الرمد العادي عليها بمبتغ
فهلا نهاه الحاجبان فطالما نهى
ولم أر أندى منك عينا لسائل
ومستنزل الألفاظ في العين غرة

مسالك الأبصار ١٦٦:١١

وقال:

أما وقدود السمر غير الذوايل
وسود عيون لو لقيت بها العدا
لقد راعني للمالكية منزل
وقفت به والدمع حار مسايلا
ولكنها ما ماس تحت الغلايل
أثنتهم عني ببيض المناصل
غدا مقفراً من أهله غير أهل
فلم أر في أطلاله غير سايل

وقال :

يا ساقى الراح ووجدني به
إرث لحالي في الهوى واسقتني
أورثت لوني صفرة زائدة
من كل كأس جرعة واحدة

مسالك الأبصار ١١:١٦٦

وكتب إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ في يوم مطير :

لا تدع يومك هذا عاطلاً بالله يذهب
وأدر فيه كؤوساً من مدام تتلهب
(فيها) سقراً ما دام أديم اليوم أشهب
فلحين الكأس لا يعجب إلا وهو مذهب
وانهب العيش فقد أفلح من للعيش ينهب

وكتب إليه :

ما ترى الروض وما أحسنه
فهي أرواح الندامى والتي
مزنة تبكي وروض يضحك
من كل زقّ (...) يسفك

مسالك الأبصار ١١:١٦٧

وقال :

لم أنس ليلة زارني
في ليلة قصرت فكان
لم ألتفت للقائه
لو كنت حاضرنا رأيت
ورأيت سلطان الغرام
خوفت فيه من الفضيحة
ونهى اللواح عن هواه
والليل ممدود الجناح
عشاؤها بيد الصباح
حتى تلفت للروح
فنون جد في مزاح
أسير سلطان الملاح
مالهوى لولا افتضاحي
ولا كرامة للواحي

مسالك الأبصار ١١:١٦٧

وقال :

بنتم فصبري بعدكم معوزي
يا جفوني أين أين الكرى
وسلوتي ليس إليها سبيل
ويا فؤادي أين صبري الجميل

مسالك الأبصار ١١:١٦٧

وقال :

قد قتلت الخلق يا ملك الملاح
بذابل وحسام لحظي أما
وليس عليك فيهم من جناح
(انتهيته) من حمل السلاح

وقال :

قال العواذل قد شاه عذارا راحلا من صده
فقلت وهمتم فأنا الذي خلعت العذار على خده

وقال :

تعشقتة حلو الشمال واللمى
رأيت بخديه بياضا وحمرة
فريد صفات الحسن أجد أعيذا
فقلت لي البشرية اجتماع تولدا

مسالك الأبصار ١١:١٦٩

وقال :

ويهنيك عاشت صنوتي وسهادي
نعم صدقوا لكن سلوت فؤادي

لك العمر ماتت سلوتي ورقادي
وشنع أني قد سلوت معاشر

وقال من أبيات :

حبك توحيداً وإيماناً
إرث لصب فيك حيراناً

أما تخاف الله في من يرى
يا من حوى الرقة في خصره

وقال :

عجائب الدنيا ولا تتقضي
فامتزج الأحمر بالأبيض

من عجب الدنيا وما تنتهي
تغاير الورد على خذه

مسالك الأبصار ١١: ١٦٩

وقال :

كأن لم يضق إلا به وجه الأرض
فيا من رأى حلوا يقال له غضّ

ألا لا أرى فيمن أرى من أحبه
وحلو اللما غضّ الشباب (فشيئّه)

وقال في ضوء البدر على البركة :

والبدر في أحشائها يلعب
لما رأى صورته يطرب

انظر إلى البركة مملوءة
كأنها مرآته فاغتدى

وقال في النوفر :

غبت قطر السحاب
فيها بقايا خضاب

كأنما النوفر الغض
أنامل الغيد ضمت

مسالك الأبصار ١١: ١٧٠

وقال في النرجس :

كأنما النرجس الذكي وقد باتت تغذيه بدرها السحب
جواهر في رؤوسها ذهب كلها من زمرد قضب

وقال في ناعورة :

ناعورة بالري أضحت كافلة
لتربة عنها الغواذي غافلة
كأنها طالعة وآفة وحوش قفر من ضوار حافلة
فارغة طورا وطورا حافلة
لها حنين كـرغاء القافلة

مسالك الأبصار ١١: ١٧٠

وقال في يوم متلج :

انظر ترى وجه البسيطة أبيضاً لم تبد فيه شامة سوداء
كرم السحاب فعمّ بالتلج الثرى إن الكريم له اليد البيضاء

وقال وكتبه في سيف :

الأماني والمنايا بين حدّي ومثني
تتقي الأعداء فتكي ويروق العين حسني
فتأمل هل ترى فيما ترى أعجب مني
لم يذق جفني غراري وقراري ملء جفني

مسالك الأبصار ١١: ١٧١

وقال في فرس أدهم :

ومشرف الهادي رحيب الصدري
يمشي على مثل طوال السمـر
أدهم يزري بالدجى والحبر
ذكره قام مقام البدر
فهو على ضوء سناها يسري

وقال يستهدي قصب سكر من فخر القضاة :

نحن من ذكراك في طرب
فعمى تهدي لنا قصباً
ولها من ذابها طرب
فقدماً أطرب القصب

وقال في هدية التفاح :

وتفاحة جاءت لنا هدية فيا حبذا
وما ضره والغصن يشبه قدّه
المهدي ويا حب ذا المهدي
وأفديه لو جا بتفاحة الخدّ

وقال :

مولاي قد أرسلت تفاحةً
(..) خلّت خذك في لونه
أودعتها سراً وقبلتها
همت بها عجباً ونقطتها

مسالك الأبصار ١١ : ١٧١

* * *

شعر ابن مطروح الذي ورد وكتاب ذيل
مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد
اليونيني. (ت: ٧٢٦ هـ) وهي تصل إلى
(١٠٠) بيت تقريبا

شعر ابن مطروح الذي ورد وكتاب ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني. (ت: ٧٢٦ هـ) وهي تصل إلى (١٠٠) بيت تقريبا

لله در أنامل شرفت وسمت
وكتابة لو انها نزلت على
لم أقرأ سطرا من بلاغتها
فاعجب لنجم في فضائله
فأهدت أنجما زهرا
الملكين ما ادعيا إذا سحرا
إلا رأيت الآية الكبرى
أنسى الأنام الشمس والبدرا

انظر ذيل مرآة الزمان ٩٤:١

ومن شعره :

يامن (عليه) اتكالي في العسر والإملاق
سؤال غيرك عندي شرك على الإطلاق
لا تسأل الرزق إلا من قاسم الأرزاق

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠١:١ .

وردت في البيت الأول كلمة (عليه) بلفظ إليه .

وله رحمه الله تعالى :

يا ملاذ المستجير به
واعف عني عفو مقتدر
لا تؤاخذني بما سلفا
أنا عبد مننّب وكفى

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠١:١

وقال :

قد أثقلت ظهري أوزاري
كم ليلة أسرعت فيها الخطا
وكم تجرأت على فاحش
كيف يكون العذر في موقف
وتشخص الأبصار في حيث
يارب عفوا عن نوبتي فما
لي الويل إن ناقشني الباري
إلى الخطايا حلفاً اصراري
ولا أجير الأسد الضاري
يذلّ فيه كل جبار
لا دار سوى الجنة والنار
سألت إلا عفوَ غفّار

انظر نيل مرآة الزمان ٢٠١:١

وقال عند قبر ابراهيم الخليل صلوات الله عليه :

خليل الله قد جئناك نرجو
أنلنا دعوة واشفع تشفع
وقل يا رب أضيافاً ووفد
أتوا يستغفرونك من ذنوب
ولكن لا يضيق العفو عنهم
وقد سألوا رضاك على لساني
فيا مولاهم عطفاً عليهم
شفاعتك التي ليست ترد
إلى من لا يخيب لديه قصد
لهم بمحمد صلة وعهد
عظام لا تعدّ ولا تحدّ
وكيف يضيق وهو لهم معدّ
إلهي ما أجيب وما أردّ
فهم جمع أتوك وأنت فرد

انظر نيل مرآة الزمان ٢٠٢:١ ، وانظر نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب ١:٦٦.

وقال :

يا مالك الملك يا من لا شبيه له
أحسنّت مدة أيام الحياة له
عطفاً على عبد سوء قد أسا الأدبا
فما قضى لك يوماً بعض ما وجبا

انظر نيل مرآة الزمان ٢٠٢:١

وقوله :

حلفتُ لنا أن لا تخونوا فختتم
فإن كان هذا الغدر فيكم سجية
عفا الله عنكم ما أقل وفاكم
فيا ساكني قلبي المعنى (بحبكم)
بحقكم إلا جنحتم إلى الرضا
أحبكم في حالة السخط والرضا
ولي عادل في حبكم ليس ينثني
انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠٤:١

وقال أيضا :

ولما جفاني من أحب وخانني
ولو شئت قابلت الصدود بمثله
وقد كان ما قد كان بيني وبينه
سعى بيننا الواشي ففرق بيننا
حفظت له الودّ الذي كان ضيعا
ولكنني أبقيت للصلح موضعا
أكيدا ولكني رعيت وما رعى
لك الذنب يامن خانني لا لمن سعى

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠٥:١

وله أيضا رحمه الله :

يا قلب جاءك من تحبه
فاغفر له ما قد جنا
(حب الحبيب إذا متفضلا
مستسلما بيساره
ارضى وزاد على الرضا
وحنى ورق عليك قلبه
ه وإن تعاضم منه تنبه
يا قلب حسبه
كفن وفي يمناه عضبه
فحسب من أغراه ربه

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠٥:١ ، والبيت الثالث أتى مختل الوزن وأظنه هكذا :

حسب الحبيب إذا أتى
متفضلاً يا قلب حسبه

* * *

وكتب إلى بهاء الدين زهير رحمه الله من آمد وهو محصور بها يقول :

سظرتها والسهرية شرع
وعلى مكافحة العدو ففي الحشا
ومن الصبا وهلم جرا شيمتي
من حولنا والمشرقية تلمع
شوق إليك تضيق عنه الأضلع
هذا الوفاء فكيف عنه ارجع

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠٥:١

الآبيات التالية زيادة على القصيدة التي مطلعها ((من لي بغصن باللحاظ ممنطق)) ،
وهي زيادة لم ترد في نسخ الديوان جميعا ، يقول :

وكيف وكفى يسيراً من حسامك أن يرى
من معشر نسقوا سطوراً في العلى
وإذا الحديد حمى عليهم ابردوا
لولا تكذبنى قوائم بيضهم
لم تقطع يد سارق من مالهم
قدم الفوارس وهو جد مخلق
وغدا سواهم مثل دف ملحق
بالمسح في بحر الحديد الازرق
أقسمت أن أكفهم لم تطبق
إذ كان بيت المال ليس بمغلق

انظر ذيل مرآة الزمان ٢٠٨:١

البيت التالي لابن مطروح إضافة إلى القصيدة التي مطلعها ((بأبي وبى طيف
طرق)) ، يقول :

يثنى عليه عدو ه فيقول حاسده صدق

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١١:١

وقال أيضا في كتاب ورد عليه من أبيات

كتابا حوى بعض ما قد حوى
ولاماته الصدغ لما التوى
تغازلنا عند ذكر الهوى
(زرود) وذكر الحمى واللوى

ولم تر عيناى من قبله
كان المباسم ميماته
وأعينه كعيون الحسان
كتاب نسينا بألفاظه

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١١:١

وقال وقد أمر بالسفر من دمشق :

وذلك أمر ما عليّ به باس
فما جلق الدنيا ولا أنتم الناس

يقولون سافر من دمشق ولا تقم
فقلت على عيني وسمعا وطاعة

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١١:١

وقال من جملة أبيات :

ومفزع محزون وملجأ لاهث
زيد بن منظور بن زيد بن وارث

فنعم فتى الأحيا ومستتبط الندى
عياذ بن عمرو بن الحليس بن صالح بن

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١٢:١

٤٤٥٤٤٧

هذا البيت زيادة لم ترد في نسخ الديوان على القصيدة التي مطلعها ((خذوا

قودي من أسير الكلل)) يقول :

بإيجاد مثلك فليستدل

على قدرة الله سبحانه

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١٣:١

وقال أيضا :

لطيب ذكر عنكم قد جرى
بوصفها من قبل أن تبصرا

أحبيبتكم من قبل رؤياكم
كذلك الجنة محبوبة

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١٣:١

وله أيضا :

| | | |
|-------------------|-------|--------------------|
| مازلت نحو لقا | | ئنه متشوقفا |
| أذكى العيون عليه | | حتى زارني متخوفا |
| فظفرت منه بزورة | | يوما وقد برح الخفا |
| وشكوت ما ألقى إلى | | يه فرق لي وتعطفأ |
| وعتبه حتى استقال | | وقال مثلك من عفا |
| وغدا يلاطفني ولم | | أر مثله متلطفأ |
| يومي إلي بخده | | فاذا هممت تصلفأ |
| ويهز نحوي عطفه | | فاذا عزمت تأفأ |
| أني لعف في هوا | | ه وأعشق المتعفأ |

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١٤:١

وقال وأظنها في (رثاء) الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح :

دائما يبكي على قمره
ولت الدنيا على أثره
ما بين بانيه ومحتضره
واستؤوا غدرا على سُرُره
في الشباب الغض من عمره

يا بعيد الليل من سحره
خلّ ذا واندب معي ملكا
كانت الدنيا تطيب لنا
سلبته الملك أسرتَه
حسدوه حين فاتهم

انظر ذيل مرآة الزمان ٢١٥:١

وله أيضا :

سيف بجفنيك إذا ما انتضى
قتلاه من أكبر عشاقه
من عجب الدنيا وما تنتهي
توفر الرغبة في زاهد
فغايّر الورد على خذّه
فامتزج الأحمر بالأبيض
فلّ شبا الأسمر والأبيض
والحب من أعجب شيء قُضى
عجائب الدنيا ولا تنقضى
وشدة الميل إلى معرض
فامتزج الأحمر بالأبيض

انظر نيل مرآة الزمان ٢١٥:١

وله في بدر الدين صاحب الموصل وقد ركب في شبارة :

لله شبارة حوت ملكا
فأعجب لها ان جرت به
كأنما الأرض في يديه كسره
وبها أنمله وهي أبحر عشره

وقال أيضا :

انتبه من نوم سكرك
فإذا ما شئت فانبذ
واسقني من خمر ثغرك
ني ولكن خلف ظهرك

انظر نيل مرآة الزمان ٢١٦:١

وقوله :

ما كنت أحسب أني بين أظهركم
وكان عهدي بسيف الدين يذكرني
فماله اليوم والأيام تخدمه
أضاع حقي على ما فيه من كرم
أنا وأهلي مع مالي من الخدم
والسيف يقطر حداه عبيط دمي

انظر نيل مرآة الزمان ٢١٨:١

وقال يرثي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عند استشهاده في معركة دمياط سنة
(٦٤٧هـ) قال :

أبا المظفر يوسف بن محمد أودى مصابك بالندى والسؤدد
آليت لا أنساك ما هبّ الصبا حتى أوسد في صفيح الملحد

ومنها :

فتكوا يوم الثلاثاء فتكة فجع الخميس بها وكل موحد
وخلأ النداء من المكارم والعلا بخلوه من مثل ذاك السيد
قل ما بدا لك يا حسود فطالما فقأت معاليه عيون الحسدي
فعليك مني ما حبيت تحية كالمسك طيبة تروح وتغتدي

وقال لما بلغه نعي الأمير فخر الدين :

فضّ فمّ نعي لنا يوم الخميس يوسف
وا أسفا من بعده على العلا وا أسفا

ذيل مرآة الزمان ٢: ٢١٨

* * *